

كل أحزاني الضئيلة
ميريام تيفز

- ♦ المؤلف: ميريّام تيفز
- ♦ العنوان : كل أحزاني الضئيلة
- ♦ ترجمة : إيناس التركي
- ♦ الطبعة الأولى 2023
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٢ / ١٤٣٧٥

الترقيم الدولي : ISBN :

978 - 977-765 - 342 - 8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ميريام تيفز
كل أحزاني الضئيلة
رواية

ترجمة

إيناس التركي

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

تيفيز، ميريام.

ميريام تيفيز: كل أحزاني الضئيلة

ترجمة: إيناس التركي

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2023

448 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 14375 / 2022

الترقيم الدولي 8 - 342 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - تيفيز، ميريام

هذه ترجمة كتاب:

All My Puny Sorrows

By: Miriam Toews

ALL MY PUNY SORROWS

Miriam Toews

Enas El-Torky

Copyright © 2014, Miriam Toews

All rights reserved.

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2023

حُمل منزلنا على ظهر شاحنة في عصر أحد الأيام، في وقتٍ متأخرٍ من صيف عام ١٩٧٩. وقفنا أنا ووالداي وشقيقتي الكبرى في منتصف الطريق، وراقبناه وهو يختفي: كوخ منخفض مبني من الخشب والطوب والجبس، يشق طريقه ببطء عبر شارع فيرست، مرورًا بمطعم A&W، وصالة ديلوكس للبولينج، حتى خرج إلى الطريق السريع رقم ١٢، حيث غاب عن أنظارنا في نهاية المطاف. ظلَّت شقيقتي ألفريدا تعيد مرارًا وتكرارًا:

- لا يزال بوسعي رؤيته.

حتى لم يعد بمقدورها ذلك في النهاية.
قالت:

- لا يزال بوسعي رؤيته. لا يزال بوسعي رؤيته. لا يزال بوسعي...
حسنًا، لا، لقد اختفى.

كان والدي قد بناه بنفسه عندما تزوج بعروس جديدة، كلاهما بالكاد يبلغ من العمر عشرين عامًا، ولديهما حلم. قالت والدتي لي ولألفريدا إنها هي ووالدي كانا صغيرين في السن للغاية، ومتفجرين جدًّا بالطاقة، لدرجة أنهما في الأمسيات الحارة، بمجرد انتهاء والدي من التدريس

في المدرسة لذلك اليوم، وانتهاء والدتي من الخبز وكل شيء آخر، كانا
يندفعان راكضين عبر الرشاشات في الفناء الأمامي لمنزلهما الجديد،
وهما يصيحان ويتقافزان، غافلين تمامًا عن النظرات المحدقة إليهما
والقلق البادي من جيرانهما الأكبر سنًا، الذين كانوا يعتقدون أنه من غير
اللائق لزوجين حديثين ينتميان إلى الطائفة المينوناتية أن يتواثبا وقد تخففا
من ملابسهما على مرأى من البلدة بأكملها. بعدها بسنوات، ستصف
ألفريدا ذلك المشهد باعتباره اللحظة التي تمتع والدتي فيها بحلاوة الحياة،
وستصف رشاش المياه باعتباره نافورة ترفي.

سألت والدي:

- إلى أين سيذهب؟

وقفنا في منتصف الطريق، حتى اختفى المنزل. رفع والدي يده
ليحجب وهج الشمس.

قال:

- لا أدري.

لم يكن يريد أن يعرف. ركبنا أنا وألفريدا ووالدتي سيارتنا، وانتظرنا
والدي كي ينضم إلينا. وقف ناظرًا إلى الفراغ لما بدا لي كأنه دهرٌ بأكمله.
تدمرت ألفريدا قائلة إن غطاء المقعد البلاستيكي الساخن يلسع ظهر
ساقها. في النهاية، مدّت والدتي يدها وأطلقت بوق السيارة على نحوٍ
طفيفٍ فحسب، بدرجة لا تكفي لجعل والدي يجفل، بل ليستدير وينظر
نحونا فحسب.

كان صيفاً بالغ الحرارة، وتوفرت لنا بضعة أيام نمضيها قبل أن نتمكن من الانتقال إلى منزلنا الجديد، الذي يشبه منزلنا القديم، لكنه لم يكن ذلك الذي بناه والدي بنفسه مع الاهتمام بكل التفاصيل بمحبة، مثل الشرفة الطويلة المغطاة التي تمكنا من الجلوس ومراقبة العواصف الكهربائية، بينما تظل جافة. لذا قرر والداي أن نذهب إلى التخيم في الأراضي الوعرة بساوٲ داكوتا.

بدا كأننا نقضي الوقت كله ونحن نبنى كل شيء، ثم نهدمه بعد ذلك بالكامل. قالت شقيقتي، ألفريدا، إن تلك لم تكن حياة في الواقع، بل بدا الأمر أشبه بالوجود داخل مستشفى أمراض عقلية، حيث يتجول الجميع بغرض واحد فحسب وهو البقاء على قيد الحياة والحفاظ على طاقتهم، أو إنه مثل الوجود في معسكرٍ للاجئين، أو مصحة للمرضى النفسيين الذين في طريقهم إلى التعافي. بدا أشبه بهذا الأمر أو ذاك، ولم تكن هي تحب التخيم، فقالت والدتنا:

— حسنًا يا عزيزتي، الهدف هو أن نغير تصوراتنا تجاه الأشياء.

قالت ألف:

— ستفي باريٲ بذلك الغرض أيضًا، أو عقار إل إس دي.

فأجابت والدتنا:

— دعك من هذا، المهم هو أننا جميعًا معًا. فلنطه النقانق.

تسرَّب الزيت من موقد البروبان، وانفجرت منه ألسنة لهبٍ بلغ ارتفاعها أربعة أقدام، وتفحَّمت طاولة النزاهات. لكن خلال ذلك، رقصت ألفريدا حول النار وهي تغني أغنية تيري جاكس «مواسم في الشمس»،

التي تدور حول خروف أسود يودّع الجميع لأنه يحتضر، وأطلق والدنا سباً لأول مرة في التاريخ (ماذا بحق الجحيم!)، ووقف بالقرب من النيران على أهبة الاستعداد لفعل شيء ما، لكنه كان حائراً بشأن ما يتعيّن عليه فعله. كما وقفت والدتنا ترتجف ضاحكة، عاجزة عن النطق. صرختُ في عائلتي كي يتبعدوا عن النار، لكن لم يتحرك أحدٌ ولو بوصة واحدة، كأن مخرجاً سينمائياً أوقفهم في مواقعهم تلك، والحريق مزيفٌ فحسب، وسيتلف المشهد إذا تحركوا. بعدها انتزعتُ دلو الأيس كريم الكائن على طاولة النزّهات، والذي كان نصفه فارغاً، وركضتُ عبر الحقل نحو صنبور مياه عام، وملأتُ الدلو بالماء، ثم ركضتُ عائدة وألقيتُ بالماء على ألسنة اللهب التي قفزت حينها إلى مسافة أعلى، مختلطة بروائح الفانيليا والشوكولاتة والفراولة، نحو أغصان شجرة حور متدلّية. اشتعل أحد الأفرع، لكن لفترة وجيزة فقط، لأن السماء كانت قد أظلمت حينها، وفجأة بدأ المطر والبرد هجوماً سريعاً، وصرنا في أمان أخيراً، على الأقل من النار.

ذلك المساء، بعد انقضاء العاصفة والتخلّص من موقد البروبان التالف في صندوق قمامة ضخمة مقاوم لهجمات الكوجر، قرّر والدي وشقيقتي حضور محاضرة تدور حول ابن مقرض أسود الأقدام، الذي كان يُعتقد سابقاً أنه تعرّض للانقراض. كانت ستقام بالمدراج الموجود داخل المخيم، وقالاً إنهما ربما يمكن أن للمحاضرة الثانية أيضاً، التي سيلقيها خبيرٌ في الفيزياء الفلكية، حول طبيعة المادة المظلمة. سألتُ شقيقتي:

– ما هذا؟

وأجابت أنها لا تعرف، لكنها تعتقد أنها تشكّل جزءًا كبيرًا من الكون،
قالت:

- لا يمكنكِ رؤيتها، لكنّ بوسعك الشعور بآثارها، أو ما يشبه ذلك.
سألتها:

- هل هي خبيثة؟

ضحكت، وأتذكر تمامًا، أو ربما من الأفضل أن أقول إن لديّ ذكرى
مثالية تامة، عن شكلها وهي واقفة هناك مرتدية سروالها المثير وقميصها
المخطط عديم الأكمام، ووراءها الأراضي الوعرة المعتمة المتآكلة، ملقاة
برأسها للخلف تمامًا، وعنقها طويلٌ ونحيلٌ وهي ترتدي قلادة جلدية
بيضاء بها خرزة زرقاء في المنتصف، وقد انفجرت ضحكاتهما مثل وابلٍ
من الطلقات التحذيرية، متحدية العالم أن يأتي وينال منها إذا واتته الجرأة
لذلك. اتجهت هي ووالدي نحو المدرج، وصاحت والدتي قائلة لهما:

- فلتصدرا أصواتًا كالقبلاط لإبعاد الأفاعي الجرسية!

وبينما هما غائبان، يتعلمان عن القوى غير المرئية والانقراض، بقيتُ
أنا ووالدتي بجوار الخيمة، ولعبنا «كم الساعة الآن، يا سيد ذئب؟»، مع
آخر بقع متبقية من الشمس الغاربة.

التزمنا الصمت في طريق العودة إلى المنزل من المخيم. سافرنا
بالسيارة لمدة يومين ونصف في اتجاه غريبٍ أخذنا بعيدًا عن إيست
فيليدج، حتى قال والدي في النهاية:

- حسنًا، هذا يكفي، أعتقد أنه يتعيّن علينا العودة إلى المنزل الآن.

كما لو كان يحاول التوصل لحلّ مسألة ما، ثم استسلم ببساطة. جلسنا

في السيارة ننظر بجدية عبر النوافذ المفتوحة إلى البروزات الصخرية الحادة
المظلمة لهضبة لورينشيان، وقال والذي بصوتٍ غير مسموعٍ تقريباً:

- بلا رحمة.

وعندما سألته والدتي عمّا قاله، أشار نحو الصخور، فأومأت، «آه»،
لكن من دون قناعة، كأنّما كانت تأمل أنه يقصد شيئاً آخر، شيئاً يمكنهما
أن يتحدياهن معاً. همستُ لألف:

- بم تفكرين؟

جعلت الريح شعرنا يتطاير بجنونٍ. شعرها هي أسود، وشعري أشقر.
كنّا في المقعد الخلفي ممددتين بالطول وقد تشابكت سيقاننا، وظهرانا
مستندان إلى الأبواب. كانت ألف تقرأ كتاب «الحب الصعب» لإيتالو
كالفينو، كررتُ السؤال قائلة:

- لو لم تكوني منشغلة بالقراءة الآن، فما الذي كنتِ ستشغلين
بالتفكير به؟

قالت:

- الثورة.

سألتها عمّا تقصده، فقالت إنني سأرى يوماً ما، وإنها لا تستطيع
إخباري الآن، سألتُها:

- ثورة سرية؟

ثم قالت بصوتٍ مرتفعٍ حتى نسمعها جميعاً:

- دعونا لا نعود.

لم يُجب أحدٌ. هبَّت الريح، ولم يتغير شيء.

أراد والذي التوقف لرؤية الصور التي رسمها السكان الأصليون بأصباغ المغرة على الجروف الصخرية التي تحتضن بحيرة سوبيريور. كانت قد صمدت على نحو غامض في مواجهة عوامل الطبيعة القاسية المتمثلة في الشمس والماء، والزمن. أوقف والذي السيارة، وسرنا في طريق صخري ضيق باتجاه البحيرة. كانت هناك لافتة مكتوب عليها كلمة «خطر!»، وتوضح بأحرف صغيرة أن هناك أناساً سبق وأن جرفتهم الأمواج الضخمة الشاردة عن هذه الصخور، وأنها مسؤولون عن سلامتنا الشخصية. مررنا بعيداً من هذه اللافتات في طريقنا إلى البحيرة، ومع كل تحذير مخيف أخذ الأخدود المرتسم على جبين والذي، والذي كان عميقاً بالفعل، يتزايد عمقاً أكثر وأكثر، حتى قالت له والدتي:

- عليك أن تسترخي يا جيك، ستصيب نفسك بسكتة دماغية.

عندما وصلنا إلى الشاطئ الصخري، أدركنا أنه إذا كان المرء سيتمكن من رؤية الرسوم، فسوف يتعين عليه السير ببطء عبر الجرانيت الزلق الرطب الذي يغوص لعدة أمتار في المياه التي يعلوها الزبد، وبعد ذلك عليه التشبُّث بحبل سميك مثبت بمسامير مدقوقة في الصخر، ثم الميل إلى الخلف تماماً فوق البحيرة، حتى يكاد يصير في وضع أفقي وشعره يلامس الماء. قال والذي:

- حسناً، لن نفعل هذا، أليس كذلك؟

قرأ اللافتة الكائنة بجانب الطريق، آملاً أن يفي محتواها بالغرض. قال:

- آه، إن الباحث المتخصص في دراسة الصخور الذي اكتشف هذه اللوحات، أطلق عليها اسم «الأحلام المنسية».

نظر والذي إلى والدتي حينها، وقال:

- أسمعُ ذلك، يا لوتي؟ الأحلام المنسية.

تناول مفكرة صغيرة من جيبه، ودَوَّنَ هذه الملحوظة. لكن ألف كانت مفتونة تمامًا بفكرة تعليق جسدها بحبلٍ فوق المياه المتلاطمة، واختفت قبل أن يتمكن أحدٌ من إيقافها. طالبها والداي بالعودة، وتوخي الحذر، والتفكير بعقلانية، والتزام حسن السلوك، والرجوع على الفور، بينما وقفتُ أنا في صمتٍ وقد اتسعت عيناى على آخرهما، وأنا أشاهد في رعبٍ ما ظننتُ أنه سيكون نهاية شقيقتي الجريئة وهي تغرق في الماء. تشبَّثتُ بالحبل وحدّقت إلى اللوحات. لم نتمكن من مشاهدتها من مكاننا حيث كنّا نقف، فوصفتُ لنا ما تراه، والذي كان معظمه صورًا لمخلوقاتٍ غريبة لها أشواكٌ، ورموز أخرى غامضة لشعب مبدع أبيّ.

عندما عدنا أخيرًا، نحن الأربعة، ونحن لا نزال على قيد الحياة، إلى بلدتنا الصغيرة الواقعة أقصى الجانب الغربي من الدرع الكندي، وسط الحقول الزرقاء والصفراء، لم نشعر بالارتياح. صرنا في منزلنا الجديد الآن. أصبح بوسع والدي الجلوس في مقعده بالحديقة الأمامية، والنظر من خلال الأشجار عبر الطريق السريع، حتى شارع فيرست، ليرى البقعة الخالية حيث كان منزلنا القديم. لم يرغب في خسارة منزله، ولم تكن فكرته، لكن صاحب معرض السيارات المجاور لنا طمع في العقار لتوسيع ساحة الانتظار الخاصة به، وأطلق جميع أشكال التهديدات الصاخبة، ومارس الضغط بلا هوادة، حتى لم يعد والدي يستطيع تحمُّل الأمر في نهاية المطاف، فاستسلم ذات يومٍ وباع المنزل لصاحب معرض السيارات «برخص التراب»، على حد تعبير والدتي. قال تاجر السيارات لوالدي يوم الأحد التالي في الكنيسة:

- إنه مجرد عملٍ، يا جيك، لا تأخذ الأمر على محملٍ شخصي.

كانت إيست فيليديج قد نشأت كملاذٍ ديني، بعيداً عن رذائل العالم، لكن بطريقة ما صار هذان الاثنان، الدين والتجارة، مرتبطين بشكلٍ لا ينقسم. وكلما ازداد سكان إيست فيليديج ثراء، ازدادوا تقوى، كأنهم يؤمنون بأن التقوى الدينية تُكافأ بازدهار الأعمال التجارية وتكُدُّس الأموال، كما يؤمنون بأن الرب يبارك تكدس المال. لذلك عندما اعترض والدي على بيع منزله لتاجر السيارات، عقب الجو برائحة الاتهام بأن والدي من خلال امتناعه ذاك ربما لا يكون مسيحياً صالحاً. شجَّعته والدتي على المقاومة، وعلى أن يطالب تاجر السيارات بأن يدعنا وشأننا. ونظراً لأن ألفريدا كانت تكبرني في السن، وتفوقني دراية بما يجري، فقد حاولت نشر عريضة بين سكان القرية لمنع الأعمال التجارية من التوسع إلى منازل الناس، لكن لم يكن هناك ما يمكن عمله للتخفيف من إحساس والدي المستمر بالذنب، وشعوره بأنه سيقترف خطيئة لو أنه قاتل من أجل ما هو ملكه في الأساس.

علاوة على ذلك، كان والدي يُعد حالة شاذة في إيست فيليديج: كان رجلاً غريب الأطوار، هادئاً، يميل إلى الاكتئاب، ومجتهداً في الدراسة، يذهب للتمشية في الريف لمسافة تبلغ عشرة أميال، ويؤمن بأن القراءة والكتابة والمنطق هم الطريق إلى الجنة. تولَّت والدتي القتال نيابة عنه (على الرغم من أن ذلك كان إلى حدٍّ معين فحسب، لأنها كانت في نهاية المطاف زوجة مينوناتية مخلصه، ولا ترغب في الإخلال بالتنظيم الهرمي للأسرة)، لكنها كانت مجرد امرأة، لذا كان من السهل جداً التغاضي عنها.

في منزلنا الجديد، صارت والدتي عصبية وشاردة، بينما والدي يخبط الأشياء بعنفٍ في المرآب، وأمضيتُ أنا أيامي في بناء البراكين في الحديقة

الخلفية، أو التجول في ضواحي بلدتنا، أذرع محيطها كقرْدٍ حبيسٍ داخل قفصٍ، في حين شرعتْ ألف تعمل على «زيادة ظهورها». استلهمتْ ذلك من اللوحات المرسومة على الصخر بأصباغ المغرة، ومن ثباتها، والرسائل المختلطة التي تبثها ما بين الأمل والمهابة والتحدي والوحدة الأبدية. قررتُ أن تترك هي أيضًا بصمتها على هذا العالم. ابتكرتُ تصميمًا يتضمن الأحرف الأولى من اسمها: أ. ف. ر (ألفريدا فون ريزين)، وتحت هذه الأحرف الأولى ك. أ. ض. وكثعبان ملتوٍ، امتدَّ حرف الضاد ليغطي باقي الأحرف ويمر أسفلها ويتقاطع معها. أظهرت لي شكله، على مفكرة صفراء. قلتُ:

- هممم، لا أفهم.

قالت لي:

- حسنًا، من الواضح أن الأحرف الأولى من اسمي ترمز إلى اسمي، أما ك. أ. ض. فترمز إلى كل أحزاني الضئيلة، التي يمتد حرف الضاد بها ليحيط بكل الأحرف الأخرى.

كوّرتُ قبضتها اليمنى، ولكمت راحة يدها اليسرى المفتوحة. اعتادت في تلك الفترة تأكيد كل أفكارها اللامعة بتوجيه اللكمات إلى نفسها. سألتها:

- هممم، حسنًا، هذا... كيف توصّلتِ إلى هذه الفكرة؟

أخبرتني أنها استلهمتها من قصيدة لصامويل كولريدج، الذي كان سيصبح صديقها بكل تأكيد لو أنها وُلدت في الزمن الذي كان من المفترض أن تولد فيه. أضفتُ قائلة:

- أو لو أنه هو وُلد في الزمن الذي كان من المفترض أن يُولد فيه.
أخبرتني أنها سوف ترسم رمزها هذا على المعالم الطبيعية المختلفة
في أرجاء بلدتنا.

سألْتُها:

- أي معالم طبيعية؟

قالت:

- مثل برج المياه، والأسوار.

سألْتُها:

- هل لي أن أقدم اقتراحًا؟

نظرت إليَّ بارتياحٍ. كان كلانا يعلم أنه ليس لديَّ ما يمكنني تقديمه
إليها فيما يتعلَّق بترك بصمة المرء على العالم، إذ سيبدو الأمر كما لو أن
أحد تلاميذ المسيح قال له: «مرحى، هل تمكَّنت من إطعام خمسة آلاف
شخص بسمكة واحدة ورغيفين من الخبز فحسب؟ حسنًا، عليك أن تتفقَد
هذا...». لكنها كانت تشعر برحابة الصدر حينها، وبالإثارة لما أنجزته،
فأومأت بحماس. قلت:

- لا تستخدمِي الأحرف الأولى من اسمك، لأن الجميع في المدينة
سيعرفون لمن تكون، وستمطر علينا نيران الجحيم بعدها.

كانت بلدتنا المينوناتية الصغيرة تعارض شعارات الأمل الصريح
وعلامات التميُّز الفردي. اتهم كاهن كنيستنا ألف ذات مرة بالاستمتاع
ببلوى مشاعرها الشهوانية، مما دفعها إلى الاستجابة له بالانحناء مع حركة
واسعة من ذراعها، وهي تقول باللاتينية:

- هذا خطئي، يا سيدي.

دومًا ما كانت أَلَف تشن الحملات في ذلك الوقت. دَقَّت الأبواب لتجري استبيانًا من أجل معرفة عدد الأشخاص الذين قد يهتمون بتغيير اسم البلدة من إيسْت فيليدج، ليصبح شانجريل، وتمكَّنت من الحصول على أكثر من مائة توقيع، بعد أن أخبرت الناس بأن الاسم مأخوذ من الكتاب المقدس، ويعني مكانًا خاليًا من الكبر.

قالت:

- هممم، ربما. قد أكتفي بكتابة ك. أ. ض. فقط، مع حرف ضاد ضخم للغاية، سيكون الأمر أكثر غموضًا، ويحيطه جاذبية يصعب تحديدها.

- ممم، تمامًا.

- لكن ألا يعجبك؟

قلتُ:

- إنه يعجبني بالفعل، كما سيسعد صديقك صامويل كولريدج بذلك أيضًا.

قامت بحركة كاراتهيه مفاجئة بيدها، شَقَّت بها الهواء، ثم حملت إلى الفراغ كأنها سمعت للتو صخب طلقات نيران الأعداء من مسافة بعيدة.

قالت:

- أجل، مثل الحزن الموضوعي، الذي هو أمرٌ مختلفٌ.

سألتها:

- أمرٌ مختلف عن ماذا؟

قالت:

- مختلف عن الحزن الشخصي بكل تأكيد، يا يولي.

قلت:

- أوه، أجل. أعني أن هذا واضحٌ بكل تأكيد.

لا تزال هناك في إيست فيليدج حتى اليوم علاماتٌ تحمل أحرف ك.
أ. ض. مرشوشة بطلاء أحمر، على الرغم من أن لونها أخذ يبهت. إنها
تتلاشى بصورة أسرع من المصدر الذي أوحى بها، والمتمثل في الصور
العذبة التي رسمها السكان الأصليون بأصباغ المغرة.

أصببت ألفريدا بجرحٍ جديدٍ أعلى حاجبها الأيسر، هناك سبع غرز
تثبت أطراف جبهتها ببعضها. تبدو الغرز سوداء قاسية، وتبرز أطرافها من
رأسها مثل قرون استشعار صغيرة. سألتها عن كيفية إصابتها بذلك الجرح،
فأخبرتني بأنها سقطت في الحمام. من عساه يدري إن كان ذلك صحيحًا أم
لا. صرنا نساء في الأربعينيات من العمر الآن، وقد وقعت أحداثٌ كثيرة،
كما أن هناك كثيرًا من الأشياء التي لم تقع. قالت ألف إنها سوف تحتاج
إلى مقص كي تتمكن من فتح عبوة الأقراص التي أعطتها لها الممرضات.
يا لها من كذبة. أخبرتها بأنني أعلم أنها لا تكثر بتناول الأقراص على
أي حال، ما لم تكن بالكمية التي يمكن لمجموع تأثيرها معًا أن يوقف
قلبها عن النبض، فلم إذن ستحتاج إلى مقص كي تفتح العبوة؟ علاوة على
ذلك، فيمكنها فتحها بيدها فحسب. إلا أنها لن تخاطر بإصابة يديها.

تعمل ألفريدا كعازفة بيانو محترفة. عندما كنا صغارًا، كانت تدعني
أقلب لها الصفحات أحيانًا، في المقطوعات السريعة التي لم تحفظها

عن ظهر قلب. إن تقلب الصفحات فنٌ من نوعٍ خاص. كان عليّ ضبط حركتي لأسبقها وهي تعزف، وأتحرك كالثعبان وأنا أقلب الصفحات حتى لا يكون هناك أي تغضن أو التصاق في الصفحات، ولا أي صوت لحركة الورق. كانت تلك هي الكلمات التي استخدمتها. جعلتني أندرب مرارًا وتكرارًا، وأذنها على بُعد بوصتين من الصفحة، وهي تصيخ السمع. كانت تقول: «سمعتُ صوتًا!»، وأضطر إلى تكرار الأمر حتى تقتنع بأنني لم أصدر أي صوت على الإطلاق. أعجبتني فكرة أن أسبقها في شيء ما. شعرتُ بفخرٍ حقيقي، وأنا أمهد لها طريقًا متصلًا من صفحة إلى أخرى. هناك لحظة مثالية لقلب الصفحة، ولو حدث وأن تسرّعتُ أو تأخرتُ في قلبها، كانت ألفريدا تتوقف عن العزف وهي تصرخ قائلة:

-المازورة الأخيرة! عند المازورة الأخيرة فحسب!

بعدها كان ذراعها تصطدمان بلوحة المفاتيح، بينما تثبت قدمها على دواسة الاستمرار كي يتردد صدى معاناتها في أرجاء المنزل على نحو مخيف.

بعد فترة وجيزة من حادثة التخيم هذه، وبعد أن تجوّلت ألف في أرجاء البلدة بطلائها الأحمر تاركة بصمتها، جاء الأسقف (كبير الطائفة المينوناتية) إلى منزلنا، للقيام بما كان يحب أن يطلق عليه مُسمّى الزيارة. كان يشير إلى نفسه في بعض الأحيان بوصفه راعي بقر، ويعد هذه اللقاءات بمثابة «إصلاح للأسوار»، لكنها في الواقع كانت أشبه بالغارة. أتى في يوم السبت، في موكبٍ برفقة مجموعته المعتادة من كبار الطائفة، وكلّ منهم في سيارته السوداء ذات السقف الصلب (وهم لا يتشاركون في

ركوب السيارات على الإطلاق، لأن الأمر ليس له نفس درجة الفعالية في إثارة الرعب حينما يتعثر ثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلًا يرتدون ملابس متشابهة، خارجين من سيارة واحدة). راقبتهم أنا والدي من النافذة، وهم يوقفون سياراتهم أمام منزلنا، ثم ترجّلوا منها وساروا نحونا ببطء، الواحد وراء الآخر، مثل خطأ من راقصي الكونجا المصابين بالإنهاك. كانت والدتي في المطبخ، تغسل الأطباق. كانت تعلم بقدومهم، لكنها تعمّدت تجاهلهم، واعتبرت «زيارتهم» مجرد مصدر إزعاج بسيط، لن تتعارض كثيرًا مع نظام يومها. (كان هو نفس الأسقف الذي وُبح والدتي لارتدائها فستان زفاف نصفه السفلي متسّع ومتفخّ بصورة زائدة عن الحد. سألتها: «كيف لي أن أفسر هذا الإسراف؟»). كانت شقيقتي في مكانٍ ما بالمنزل، منشغلة بمظهرها على الأرجح، وهي تحاول التشبّه بالفهود السود، أو تعيد ثقب أذنيها مستعينة بثمره من البطاطس والكحول، أو تواجه شياطينها.

توجّه والدي إلى الباب، وأدخل الرجال إلى منزلنا. جلس الجميع في غرفة المعيشة، ونظروا إلى الأرض، أو إلى بعضهم بين حين وآخر. وقف والدي بمفرده في منتصف الحجرة بأعين مذعورة، مُحاصرًا كأنه الناجي الوحيد المتبقي من مباراة غريبة من مباريات الدودج بول. كان من المفترض أن تخرج والدتي من المطبخ على الفور، بكل حماسٍ ودفعٍ، لتعرض على الرجال القهوة أو الشاي، ونوعًا ما من أنواع المخبوزات المعدة بعناية في المنزل، والمنتقاة من كتاب مجموعة وصفات طهي الطائفة المينوناتية، لكنها بقيت حيث كانت، وظلّت تخبط الصحون ببعضها وتصفّر بلا مبالاة مصطنعة، تاركة والدي يقاتل بمفرده. كانا قد تجادلا بخصوص هذا الموضوع من قبل، قالت له:

- عندما يأتون هنا يا جيك، أخبرهم بأن الوقت غير ملائم. ليس لديهم أي حق في اقتحام منزلنا على هذا النحو العشوائي.

قال إنه لا يستطيع ذلك. لا يستطيع فحسب. عرضت والدتي أن تتولّى هي الأمر، فتوسّل إليها ألا تفعل، إلى أن وافقت، لكنها قالت إنها لن تجهد نفسها بالوقوف على قدم وساق لخدمتهم، بينما هم يضعون الخطط لصلب عائلتها. كانت هذه الزيارة بالتحديد متعلقة بخطط ألف للذهاب إلى الجامعة ودراسة الموسيقى. كانت في الخامسة عشرة من عمرها فحسب، لكن السلطات سمعت من خلال واشٍ محلي أن ألف «أعربت عن اشتياقها الطائش للرحيل بعيدًا عن الجماعة»، وكانوا يتشككون بشدة في التعليم العالي، خاصة للفتيات. كان العدو الأول بالنسبة إلى أولئك الرجال هو أي فتاة تحمل كتابًا.

قال أحدهم لوالدي في غرفة المعيشة:

- سيمتلئ عقلها بالأفكار.

فلم يكن لدى والدي أي ردّ، سوى الإيماء بالموافقة والنظر بتلهف نحو المطبخ، حيث كانت والدتي تضرب الذباب بفوطة المطبخ، وتدق لحم العجل لإعداد الشنيتزل. جلستُ بجوار والدي في صمتٍ على الأريكة المثيرة للحكة، أتشرب «شذا ازدرائهم» على حد تعبير والدتي. سمعتُ والدتي تناديني، توجهتُ إلى المطبخ، فوجدتها جالسة على المنضدة، تؤرجح ساقها وتجرع عصير التفاح من الإبريق البلاستيكي مباشرة. سألتني:

- أين ألف؟

هزرتُ كتفي. من أين لي معرفة ذلك؟ قفزتُ جالسة على المنضدة بجوارها، فناولتني إبريق عصير التفاح. سمعنا همهمات من غرفة المعيشة، عبارة عن مزيج من اللغة الإنجليزية والبلاوتديتش، تلك اللغة غير المكتوبة التي تعود إلى القرون الوسطى وتبدو كاللغة الهولندية إلى حدٍّ ما، ويتحدّث بها جميع كبار السن في إيست فيليدج. (أدعى بلغة البلاوتديتش «يولاندي المنتمية إلى جيكونب فون ريزين»، وعندما تقدم والدتي نفسها بلغة البلاوتديتش تقول: «أنا أنتمي إلى جيكونب فون ريزين»). بعد انقضاء دقيقة أو دقيقتين، سمعنا النغمات الافتتاحية لمقدمة رحمانينوف في سلم صول الصغير، مصنف ٢٣. كانت ألفت في غرفة النوم الاحتياطية، بجوار الباب الأمامي، حيث يوجد البيانو، وحيث كانت تقضي معظم حياتها في تلك الأيام. توقف الرجال عن الحديث، وازداد صوت الموسيقى ارتفاعاً. كانت تلك هي مقطوعة ألفت المفضلة، وربما كانت الموسيقى التصويرية المصاحبة لثورتها السرية. ظلّت تتدرب عليها طوال عامين من دون توقف، مع مدرس من المعهد الموسيقي في وينيبج، كان يأتي إلى منزلنا مرتين أسبوعياً ليعطيها الدروس. كنتُ أنا والدادي على دراية بكل الفروق الدقيقة بين نغماتها، وبغذابها، ونشوتها، واحترامها التام لأهمية التشتت الفوضوي للمونولوج الداخلي. كانت ألفت قد وصفت لنا ذلك. لم يكن البيانو مسموحاً حتى بالفعل في بلدتنا، إذ كان يذكر المرء بدرجة كبيرة بالحنانات ومتاجر المشروبات الكحولية غير القانونية والفرحة الجامحة. إلا أن والدادي جلباه إلى المنزل خلسة على أي حال، بعد أن اقترح طبيبٌ في المدينة توفير «منفذ إبداعى» لطاقت ألفت، بدلاً من أن تصبح «جامحة»، وكان لتلك الكلمة دلالات مشؤومة. كان الجموح هو أسوأ شيء يمكن

أن يصبح عليه المرء، وسط مجتمع مهياً للامثال. بعد بضع سنوات من امتلاك بيانو سري، يُغطى على عجلٍ بالملاءات والأجولة عندما يأتي كبار الطائفة للزيارة، أصبح والداي يحبّان عزف ألف، حتى إنهما صارا يطلبان منها عزف بعض الأغنيات بين حين وآخر، مثل «نهر القمر»، و«عندما تبسم الأعين الأيرلندية». في النهاية، اكتشف كبار الطائفة أننا نخفي بيانو في المنزل، ودار نقاشٌ طويلٌ حول هذا الموضوع بالطبع، ودارت بعض الأحاديث عن الحرمان الكنسي لوالدي لثلاثة أو ستة أشهر، وعرض هو تحمّل الأمر بشجاعة، لكنهم قرّروا التخلي عن ذلك عندما بدا عليه الرضوخ إلى هذا الحد عن طيب خاطر (إن فرض العقوبة ليس أمراً ممتعاً عندما تطالب به الضحية)، بشرط إشراف والديّ على استخدام ألف للبيانو كأداة لخدمة الرب فحسب.

بدأت والدي تدندن مع العزف، وأخذ جسدها يتمايل. ظلّ الرجال في غرفة المعيشة صامتين، كأنهم يتعرّضون للتوبيخ. تعالى عزف ألف، ثم هدأ، قبل أن يتعالى مرة أخرى. توقفت الطيور عن الغناء، كما توقف الذباب في المطبخ عن الارتطام بالنوافذ. بدا الهواء ساكناً، بينما كانت هي في مركز العالم الذي يدور. هذه هي اللحظة التي أمسكت فيها ألف بزمام حياتها، كان أول ظهور لها كامراً بالغة، وعلى الرغم من أننا لم نكن نعلم ذلك حينها، فإنه كان أيضاً أول ظهور لها كعازفة بيانو من طراز عالمي. أحب أن أعتقد أنه في تلك اللحظة، صار من الواضح بالنسبة إلى الرجال الجالسين في غرفة المعيشة أنها لن تتمكن من البقاء، بعد تعبيرها عن كل هذا القدر من الشغف والاضطراب، وعلاوة على ذلك، كانوا سيضطرون إلى إحراقها أو دفنها حيّة إذا أرادوا إبقائها حبيسة هناك. كانت تلك هي

اللحظة التي غادرتنا فيها ألف، كما كانت هي اللحظة التي فقد فيها والدي كل شيء دفعة واحدة: استحسان كبار الطائفة، وسلطته كرباً للأسرة، وابنته التي باتت حرة الآن، وبالتالي مصدرًا للخطر.

انتهت المقطوعة، وسمعنا غطاء البيانو وهو يُغلق بعنفٍ فوق لوحة المفاتيح، بينما كرسي البيانو يحتك بالأرضية المكسوة بالمشمع في غرفة النوم الاحتياطية. دخلت ألف المطبخ، فناولتها إبريق عصير التفاح، وشربته هي كله ثم ألقت العلبه الفارغة في سلة المهملات. لكمت راحتها بقبضة يدها، وقالت إنها تمكّنت أخيرًا من إجادة عزف المقطوعة. وقفنا نحن الثلاثة في المطبخ، بينما خرج أولئك الرجال ذوو البدلات من منزلنا في صفٍّ واحدٍ بنفس ترتيب دخولهم، وسمعنا الباب الأمامي يُغلق بهدوءٍ، ومحركات سيارات الرجال وهي تدور قبل أن تبتعد السيارات عن الرصيف وتختفي. انتظرنا انضمام والدي إلينا في المطبخ، لكنه توجه إلى غرفة مكتبه. ما زلتُ غير متأكدة ما إذا كانت ألف تعرف بوجود الرجال في غرفة المعيشة أم لا، أو ما إذا كانت تعرف حتى أن الأسقف وكبار الطائفة قاموا بزيارتنا من الأساس، أم أن الأمر كان مجرد مصادفة، عندما اختارت تلك اللحظة بالتحديد لعزف مقطوعة رحمانينوف بشراسة تصل إلى حد الكمال.

لكن بعد وقتٍ قصيرٍ من زيارة الأسقف ورجاله، صنعت ألف لوحة، ووضعتها في إطارٍ قديمٍ وجدته في القبو. علّقتها في منتصف جدار غرفة معيشتنا، أعلى الأريكة التي تسبّب في الشعور بالحكة مباشرة. كان اقتباسًا، ينص على ما يلي:

«أعرف يقينًا، أن الرجل المتكبر، المتعجرف، الجشع، الأناني، غير العفيف، الفاسق، المجادل، الحسود، العاصي، المتعصب، المخادع، الكاذب، الخائن، السارق، الطعان، المغتاب، المتعطش للدماء، عديم الرحمة، الذي يسعى إلى الانتقام، أيًا من كان، ليس مسيحيًا، حتى لو تم تعميده مائة مرة، وتناول القربان المقدس يوميًا».

مينو سيمونز

قالت والدتي:

- حسنًا، لكن يا أَلْفِي...

قالت أَلْفِي:

- لا، ستبقى في مكانها هنا. إنها كلمات مينو سيمونز! أليس من المفترض أننا نتبع هذه الكلمات؟

ظلّ هذا العمل الفني الجديد لأَلْفِي معلقًا في غرفة معيشتنا قرابة أسبوع، إلى أن سألتها والدي:

- حسنًا يا فتاة، هل أوضحت وجهة نظرك؟ أود حقًا إعادة لوحة السفينة التي طرزتها والدتك إلى ذلك المكان.

كان سخطها المُبرَّر أخلاقيًا قد انقضى حينها، مثل العديد من عواصفها الشخصية الجامحة.



لا توافق ألفريدا على إجراء المقابلات. سمحت لي ذات مرة بإجراء مقابلة معها لجريدتي المدرسية المبتدلة، لكن كانت هذه هي المرة الوحيدة. كنتُ في الحادية عشرة من العمر، وكانت هي ستغادر المنزل ثانية، إلى الأبد هذه المرة. كانت في طريقها إلى النرويج لحضور حفل موسيقي، وللدراسة على يد رجلٍ عجوزٍ، أشارت إليه باسم ساحر أو سلو. كانت في السابعة عشرة من العمر، وقد أنهت دراستها الثانوية مبكرًا، بحلول موعد عيد الميلاد. حصلتُ على مرتبة الشرف في كل المواد، وستُمنح دراسية لدراسة العزف على البيانو، وجائزة من الحاكم العام لكندا لحصولها على أعلى الدرجات، مما أصاب كبار الطائفة بنوباتٍ من الغضب والخوف. ذات يوم على العشاء، قبل أسابيع قليلة من موعد رحيلها، ذكرت ألف عرضًا أنها ربما تستغل تواجدنا في أوروبا للذهاب إلى روسيا واستكشاف جذورها، فكاد والدي يحبس أنفاسه، قال:

- لن تفعلني!

أجابته ألف:

- أجل، ربما أفعل، لمَ لا؟

أتى أجدادي في الأصل من قرية مينوناتية صغيرة في سيبيريا، سنة ١٩١٧، عام الثورة البلشفية. حدثت لهم أشياء مريعة هناك، في أرض الدماء تلك. بمجرد التلميح إلى المكان، أو أدنى ذكر لأي شيء يمت بصلة إلى روسيا، كانت ثور ثائرة والديّ.

كانت البلاوتديتش هي لغة الخزي. تعلّم أفراد الطائفة المينوناتية أن يبقوا صامتين، ويتحمّلوا آلامهم. قُتل والدا جدي في حقلي بجانب حظيرتهما، لكن والد أبي نجا بعد أن دفن نفسه وسط كومة من الروث. بعد ذلك ببضعة أيام، أركبوه عربة نقل مواشي، ونقلوه مع الآلاف من الآخرين المنتمين إلى الطائفة المينوناتية إلى موسكو، ومن هناك أرسل إلى كندا. عندما وُلدت ألف، قال لوالديّ:

- لا تُعلّم أطفالكما لغة البلاوتديتش، إذا كنتما تريدان لهم النجاة. وعندما ذهب والدتي إلى الجامعة كي تصبح معالجة، تعلمت أنه على الرغم من أن المعاناة قد تكون حدثت منذ فترة طويلة، فإنها تنتقل من جيل إلى التالي، مثلما تنتقل المرونة، أو الجمال، أو عسر القراءة. كان لجدي عينان خضراوان واسعتان، تدور فيهما طوال الوقت مشاهد خافتة من المذابح، والدماء المنسالة على الثلوج، حتى حينما كان يبتسم. قالت والدتي:

- سخافات وأكاذيب، يا يولي. أسوأ ما يمكنك القيام به في هذه الحياة، هو أن تكوني متنمرة.

أجريتُ مقابلاتي مع ألف في السيارة، في الطريق إلى المطار في وينيبج. كان والداي في المقعدين الأماميين كالعادة، ووالدي يتولّى القيادة، بينما كنتُ أنا وألف في المقعد الخلفي، همستُ قائلة لها:

- لن تعودى مرة أخرى أبداً، أليس كذلك؟
أخبرتني بأن هذا هو أغبى شيء سمعته على الإطلاق. تأملنا الحقول
والثلج. كانت ترتدي قلاباتها الجلدية البيضاء التي بها خرزة زرقاء، وسترة
عسكرية. كنّا نقود فوق جليد أسود.

سألتني:

- هل هذا هو سؤالك من أجل المقابلة؟

قلتُ:

- أجل.

قالت:

- يولي، كان عليك أن تعدي أسئلة أخرى.

أجبتها:

- حسناً، ما هو الأمر المثير في العزف على البيانو؟

أخبرتني بأن أهم شيء هو العزف برقة على الفور منذ البداية، أو على
الأقل بالقرب من بداية المقطوعة، مجرد لمحة من الرقة، أو همسة، لكن
همسة عميقة، لأن التوتر سوف يتصاعد، وستنشأ الإثارة والدراما - كنتُ
أدوّن ذلك بأقصى سرعة لديّ - ومع تصاعد الحركة، قد يتذكر الجمهور
لحظة الرقة الأولى تلك، وستجعلهم الذكرى يتوقون إلى العودة إلى
الطفولة، والأمان، والحب الصافي، وحينها يمكنك الابتعاد عن كل ذلك،
وإضفاء عذاب الحياة ومعاناتها في كل نغمة، وتبين على ذلك، وتواصلين
البناء، حتى تحين لحظة اتخاذ قرار مهم: إما العودة إلى الرقة، ولو لفترة
وجيزة، على نحوٍ خاطفٍ، وإما مواصلة الحقيقة، والعنف، والألم،
والمأساة حتى النهاية.

قلتُ:

- حسنًا، هذا يكفي. شكرًا لإجابتك عن سُؤالي نوعًا ما، يا غريبة الأطوار!

قالت:

- إنَّ كلا الخيارين صالحان. يعتمد الأمر على الحالة التي تريدين أن تتركي عليها جمهورك، سواء سعداء وقانعون وأبرياء مرة أخرى كالأطفال، أو جامحون وقلقون، وهم يتوقون إلى شيء يعرفونه بالكاد، كلاهما جيد.

قلتُ:

- فهمتُ، شكرًا. من سيقبلك الصفحات الآن؟ شخص نرويحي؟
أخرجتُ كتابًا من حقيبتها العسكرية - كانت تحب كل ما يصدره الجيش، مثل باتي هيرست وتشبي جيفارا- وألقت به في حجري. قالت:
- عندما تنتهين من قراءة سلسلة الكتب تلك التي تدور حول الخيول، ستبدأ حياتك الحقيقية من هنا.

نقرت الكتاب بإصبعها. كانت تشير إلى هوسي بسلسلة كتب الحصان الأسود. علاوة على ذلك، كنتُ قد بدأتُ مؤخرًا في تلقي دروس ركوب الخيل مع صديقتي جولي، وصرتُ في طريقي لأن أصبح ثالث أفضل متسابقة في السباق الإقليمي للفئة العمرية تحت ثلاث عشرة سنة، والتي كانت تضم ثلاثة أعضاء فحسب.

قلتُ:

- بطريقة ما، أشعر بالارتياح لأنك ذاهبة إلى أوصلو.

قالت:

- كان عليّ اختيار إما هذا، وإما السفر حافية القدمين إلى الساحل الغربي، عن طريق إيقاف السيارات العابرة.
قال والدي:

- لقد اكتستُ الطرقات بالجليد. أرايت تلك السيارة الواقعة في المصرف؟

أراد تغيير موضوع الحديث. كانت خطة ألف للسفر من خلال التنقل مع السيارات العابرة فكرة مجنونة، قضى هو عليها في مهدها. ضحكت والدتي، وقالت إن السفر حافية القدمين إلى الساحل الغربي مع السيارات العابرة قد تكون فكرة معقولة، لكن ليس في شهر يناير. إذ إنها لم تكن تؤمن بالقضاء على أي شيء.

طالعتُ الكتاب الذي أعطتني إياه ألف، وقلتُ:

- ما هذا؟

أجابتني قائلة:

- يا إلهي، يا يولاندي، عندما ترين كلمة «قصائد مجمعة» على غلاف كتاب، فماذا تعتقدين سيوجد داخله؟
سألتُ والدي:

- هل يمكنك القيادة بسرعة أكبر؟ لا نريدها أن تفوت طائرتها.
كنت أحاول الظهور بمظهر صارم، لكنني حقًا اعتقدت أنني قد أموت من شدة الحسرة بعد رحيل شقيقتي، لدرجة دفعتني إلى كتابة وصية سرية، تركتُ فيها لوح التزلج الخاص بي لجولي، وجسدي الذي فارقه الحياة

لألف، آملة أن يجعلها ذلك تشعر بالذنب الشديد لكونها رحلت وتركتني
أموت وحيدة. لم يكن لديّ أي شيء آخر أورّثه للناس سوى لوح التزلج
وجسدي، لكنني أرفقت رسالة امتنان لوالديّ، ورسمًا لدراجة نارية تحمل
شعار ولاية نيوها ميباير: عش حرًا، أو مت.

قلتُ:

- بالمناسبة، لم أعد أقرأ تلك الكتب.

سألتني شقيقتي:

- ما الذي تقرأينه إذن؟

قلتُ:

- أدورنو.

ضحكتُ، وسألتني:

- أوه، لأنك شاهدتني وأنا أقرأه؟

قلت:

- لا تقولي «أقرأه». أنت تعتقدين أنك فائقة الأهمية.

قالت ألف:

- يولي، لا تقولي «أنت تعتقدين أنك فائقة الأهمية». هذا ما يقوله

الجميع هنا، عندما يزعم أي شخص معرفة شيء ما. قد أقول إن غدًا هو

يوم الخميس، وستقولين أنت: «أوّه، إنك تعتقدين أنك فائقة الأهمية». لا

تكرري قول ذلك، فهو ينم عن الانحطاط.

قالت والدتنا:

- هيا يا ألف، كفاكِ نصائح حول كيفية العيش كشخصٍ هاوٍ للفنون.

سترحلين قريبًا، ومن الأجدر بنا استغلال هذا الوقت الثمين للاستمتاع!

غاصت ألف إلى الوراء في مقعدها، وأوضحت أنها كانت تحاول مساعدتي فحسب، كي أتمكّن من النجاة في العالم خارج بلدنا الصغيرة. ثم أضافت قائلة:

- كما أن «هاويًا للفنون» هي الكلمة الخاطئة تمامًا للاستخدام في هذا الموقف.

قالت والدتي:

- حسنًا يا ألف، لكن فلتتحدث الإنجليزية فحسب، أو نغني، أو ما شابه.

كان لديها خمسة عشر أختًا وأختًا، لذا كانت تعرف كيفية الحفاظ على السلام. اقترح والدي أن نلعب لعبة التخمين، «أرى بعيني». همست ألف في أذني قائلة:

- يا إلهي، هل نحن في السادسة من العمر؟ لا تخبرهم أبدًا بأنني مارست الجنس بثلاثة أشكال مختلفة بالفعل، اتفقنا؟
- ما الذي تعنيه بثلاثة أشكال؟

أخبرتني ألف بأنه بعد أن غرق الشاعر شيلي، أُحرق جسده على الشاطئ مباشرة، لكن قلبه لم يحترق، لذلك احتفظت به زوجته ماري على مكتبها داخل كيسٍ صغيرٍ من الحرير. سألتها عمّا إذا كان قد تعفّن، وشرعت رائحته تفوح، لكنها قالت لا، إذ إنه تكلس كالجمجمة، وإنه في الواقع لم يكن سوى ما تبقى من قلبه. أخبرتها بأنني سأفعل ذلك من أجلها هي أيضًا، وأحتفظ بقلبها معي في مكتبي، أو في حقيبتني الرياضية، أو مقلمتي، في مكانٍ آمن جدًا، فعانقتني وضحكت قائلة إنني لطيفة، لكن هذا في الواقع شيء رومانسي يفعله العشاق.

قبل أن تختفي خلف الأبواب الزجاجية المصقولة لأمن المطار، لعبنا أنا وألف للمرة الأخيرة لعبة من ألعاب التركيز بأوراق اللعب، وفي خضم كل ذلك التصنيف والضربات على السيقان، قالت:

- فلتكتبي لي الرسائل، أيتها الدوارة.

(كانت تلك هي الكنية التي تلقَّني بها، لأنني كثيرًا ما كنت أستدير متلفتة حولي بحثًا عن أدلة واضحة على ما يجري، ولا أعثر عليها أبدًا).
قلتُ:

- أجل، سأفعل، لكنها ستكون مملة، فلا شيء يحدث في حياتي.
قالت:

- ليس من الضروري حدوث شيء، كي تصبح حياة.
قلت:

- حسنًا، سأحاول.

قالت ألف وهي تجذب ذراعي:

- لا، يا يولي. عليك القيام بما هو أفضل من هذا، أرجوك. يجب عليك ذلك، فأنا أعتمد عليك.

تعالى النداء على رحلتها، فأرخت قبضتها وابتعدت عني. وقف والدانا وقد غمرهما التأثر الشديد، لكنهما حاولا التظاهر بالشجاعة، وهما يتسلمان ابتسامات عريضة ويمسحان أعينهما بالمناديل الورقية، لذا قلت:

- سأفعل، اتفقنا؟ هدئي أعصابك!

قالت ألف:

- حسنًا، ها أنا راحلة. أيضًا، لا تقولي «هدئي أعصابك»! وداعًا،
أراكم لاحقًا!

كنتُ أعرف أنها تبكي، لكنها أدارت رأسها بعيدًا في اللحظة الأخيرة كي لا ألاحظ، واعتقدتُ أن عليّ ذكر ذلك في خطاب موجّه إليها تحت عنوان «ملاحظات حول الأشياء التي من المفترض أن تكون خفية». في طريق العودة من المطار، تولّت والدتي القيادة، بينما استلقى والدي في المقعد الخلفي وعيناه مغمضتان. جلستُ في الأمام بجوار والدتي. تساقطت الثلوج، ولم نتمكن من رؤية شيء سوى ندفات الثلج في ضوء مصابيح السيارة الأمامية، وجزء صغير من الطريق أمامنا. ظننتُ أن ندفات الثلج تبدو كعلامات موسيقية ومقاييس إيقاع، تتساقط وتدور حول الجزء الصغير الذي نراه أمامنا من الطريق، كما زورة موسيقية واحدة. أخبرني والدتي بأنها ستضغط على الفرامل برفق، لترى ما إذا كان الطريق لا يزال مكسوفًا بالجليد، وقبل أن أتمكن من إيقافها، خرجت السيارة عن السيطرة، وانقلبت في المصرف رأسًا على عقب.

أتت جانيس إلى غرفة المستشفى للحديث معنا. كنّا نعرف جانيس من المرات السابقة. تعمل ممرضة في قسم الأمراض النفسية، وتحب رقص التانجو في فترات إجازتها، لأن التانجو، على حد قولها، يتمحور حول العناق. ترتدي بدلة رياضية بلونٍ وردي فاتح، ولديها حيوانٌ صغيرٌ محشو مصنوع من الفرو معلق في حلقة حزامها. من المفترض أن يكون ذلك شيئًا يدفع المرضى إلى الشعور بالراحة والابتسام. دخلتُ الغرفة وعانقتُ

ألف، وأخبرتها بأنها سعيدة لرؤيتها، لكنها ليست مسرورة لرؤيتها هنا، مرة أخرى.

قالت ألف:

- أعرف، أعرف. أنا آسفة.

مررت أصابعها بين شعرها وتنهدت.

أصدر هاتفي المحمول أزيزاً، فمددت يدي داخل حقيبتني كي أغلقه.

قالت جانيس:

- الأمر ليس متعلقاً بإبداء الأسف، أليس كذلك؟ نحن لا نتأسف. فلم

تفعلي شيئاً سيئاً أو خاطئاً، بل تصرفت بناءً على شعورٍ لديك. صحيح؟

أردت وضع حدٍّ لمعاناتك. هذا مفهومٌ، ونحن نريد مساعدتكِ على وضع

حدٍّ لمعاناتك، لكن بطرقٍ مختلفة. طرق صحية. أليس كذلك، يا ألفريدا؟

طرق بناءة. سنبدأ من جديد.

جلستُ على أحد المقاعد البرتقالية اللون.

قالت ألف:

- حسناً، حسناً.

جفلتُ لشعورها بالحماقة بسبب تلك الكلمات، ونبرة جانيس.

لكن جانيس تُعد مثل الأم تيريزا، مقارنةً بباقي ممرضات قسم الأمراض

النفسية، ومن حسن حظ ألف أنهم لم يلقوا بها عارية في الغرفة الخرسانية

الخالية التي بها بالوعة في منتصف أرضيتها.

قالت جانيس:

- كيف حالكِ، يا يولاندي؟

عانقتني أنا أيضاً.

قلت:

- أنا بخير، على ما يرام. شكرًا لك. أشعر بالقلق إلى حدٍّ ما.

قالت جانيس وهي تنظر مباشرة نحو ألف، التي أدارت وجهها بعيداً:

- بالطبع تشعرين بالقلق.

واصلت جانيس الحديث قائلة:

- ألفريدا؟

كانت حقاً ترغب في أن تنظر إليها ألف. تنحنحت، وتنهدت ألف وأدارت رأسها ببطء كي تبادل جانيس النظر. تشعر ألف بالحنق الشديد، خاصة حيال نفسها لكونها فشلت في الأمر، لكنها تحاول جاهدة أن تكون مهذبة، لأن شعارها هو «حسن السلوك». كان شعارها في السابق هو «الحب»، لكن كلما رددت ذلك أكثر، بدا كأنه شيء مصيره الهلاك، كتمثالٍ من الشمع، وجعلها ذلك تصاب بالهلع وتنخرط في البكاء. كنت أقول لها:

- إذن فلتتوقفي عن ترديد ذلك!

كانت تقول:

- أعرف، يا يولي. أعرف. لكن مع ذلك...

فكنتُ أسألها:

- مع ذلك ماذا؟

أوضحت لي ألف أنها كانت تماماً مثل ذلك الرجل الذي قرأت عنه في الصحيفة. كان كفيفاً منذ ولادته، ثم أجرى عملية جراحية في القرنية

وهو في قرابة الأربعين من عمره، وبات بوسعه أن يرى فجأة. وعلى الرغم من أنه قيل له إن الحياة ستصبح رائعة بالنسبة إليه حينها، فإنها صارت مريعة بعد العملية، أصابه العالم بالاكْتئاب بسبب كل عيوبه، وازدواجيته، وعفنه، وقذارته، وأحزانه، وقد صار كل شيء بشع واضحًا الآن، وكل شيء رتيبًا ومتهالكًا. غرق في الاكتئاب، وسرعان ما فارق الحياة. قالت ألف: «هذا أنا!». ذكّرتها أنها مبصرة، وبوسعها أن ترى، ولطالما كانت قادرة على الرؤية، لكنها أخبرتني بأنها لم تتكيف مع الضوء على الإطلاق، ولم تنشأ لديها القدرة على تحمّل العالم، إذ لم ينجح اللقاح الذي تلقّته. كان الواقع كمصيدة صدئة. قلتُ:

- انظري، فلتتوقفي فحسب إذن عن ترديد كلمة «حب» مرارًا وتكرارًا. اتفقنا؟ لا تفعلي ذلك فحسب.

قالت:

- لكن يا يولي، أنت لا تفهمين. لا يمكنك أن تفهمي الأمر. لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا. أفهم أن المرء إذا ردّد كلمة معينة مرارًا وتكرارًا حتى يشعر بالسوء جراء ذلك، فعليه التوقّف عن ترديد تلك الكلمة اللعينة. كنتُ أسألها:

- لماذا نستمر في إجراء هذه المحادثات المثيرة للسخط؟

فتقول هي:

- إنها ليست محادثات! إننا نعمل على حل الأمور. نعمل على حل الأمور.

قالت جانيس:

- ألفريدا، لقد شاهدك شقيقي وأنت تعزفين في لوس أنجلوس، وقال إنه استمرَّ في البكاء طوال ساعتين بعدها.

لم تنبس ألف بكلمة. كان من المتوقع منها إبداء الامتنان أو شيء من هذا القبيل، لكنها لم تتزحزح عن موقفها. جلس ثلاثتنا في صمتٍ بالغرفة. تفحصت ألف حافة بطانيتهما، وشرعت تفرد تجاعيدها. تخيلتُ ساعتين من البكاء المتواصل. أخيرًا، تنحنحت جانيس بصوتٍ مرتفع، مما جعلنا نجفل، أنا وألف.

سألتُ جانيس:

- هل لديك أي حفلات قادمة؟

أجابت ألف:

- أجل، على ما يبدو.

كانت تتحدث بهمسٍ، حتى خشيتُ أن تتوقف عن الكلام تمامًا. قلت:

- لديها جولة تشمل خمس مدن، في الواقع. تبدأ... متى يا ألف؟

هزّت ألف كتفها. واصلتُ الحديث قائلة:

- قريبًا، في غضون أسابيع قليلة. ستعزف موسيقى موزارت. ألف،

هل هو موزارت؟

في بعض الأحيان، تنقطع شقيقتي عن الحديث، قام والدنا أيضًا بذلك، لمدة عام كامل. بعد ذلك، بعد مشاهدة عرض مسرحي هزلي في مدينة موسجاو، بساسكاتشوان، عاد إلى الحديث مرة أخرى، كما لو أنه لم يتوقف قط. كان الأمر يخيفني في البداية عندما تفعل ألف ذلك،

حتى أدركتُ أن حالتها المزاجية لم تتغير في الواقع، بل التزمت الصمت فحسب. كانت تتواصل معنا من خلال كتابة الملاحظات.

لكن عندما تعزف ألف في حفل موسيقي، كانت تتحدث كثيرًا بعدها، عن الأشياء العادية، والأمور المملة، وعن كل شيء بسيط، وتستمر في الثرثرة وهي تتكلم لساعات وساعات، كما لو أنها تحاول النزول إلى أرض الواقع، والثبات، والعودة من المكان الذي أخذتها إليه الموسيقى، أيًا كان.

بدأت موازين البيانو هي الموسيقى التصويرية لحياتي في فترة الصبا. كان بوسعي فعل أي شيء لألف وهي تتدرب على الموازين، من دون أن تلاحظ هي ذلك. كان بإمكانني وضع الزبيب على المفاتيح، فتنفضه هي من دون انزعاج، بينما أصابعها تتسارع جيئةً وذهابًا بعرض البيانو بأكمله. كنت أستلقي أعلى البيانو في وضع إغراء، وأغني «أنا مشيرة»، مثل المطربة شير، من دون أن تفوت هي ولو نغمة واحدة. لم ترفع عينها عن المفاتيح على الإطلاق، إلا عندما كانت تغلقهما بنشوة وحماس ثانية أو ثانيتين، ثم تتغير وتيرة الموسيقى، فتفتح ألف عينها على آخرهما، وتلقي بنفسها على البيانو كنمرٍ يلقي بنفسه على ثعبان، في هجوم وحشي، كما لو أن البيانو عشيقها وألد أعدائها في آنٍ واحدٍ.

عادت من النرويج في نهاية المطاف، ومن العديد من الأماكن الأخرى. عادت لتعيش في المنزل مع والديّ، وكانت تبقى في الفراش وتبكي لساعاتٍ طويلة، أو تحديق إلى الجدار. أحاطت بعينها هالاتٌ

سوداء، وغلبت عليها الكآبة والخمول، ثم كانت تمتلئ بالحيوية على نحوٍ غريبٍ، قبل أن تستغرق في اليأس مرة أخرى. كنتُ قد رحلت عن إيست فيليدج حينها، وانتقلت إلى وينيبج، حيث أنجبتُ طفلين من رجلين مختلفين، كنوعٍ من التجارب الاجتماعية. أنا أمزح فحسب، إذ كان ذلك نوعًا من الفشل الاجتماعي. وجدتُ صعوبة في محاولاتي لكسب المال، والدراسة، وإتقان (والفشل في إتقان) فن الحياة كالبالغين.

كنت أزور والديَّ وألف، برفقة أطفال الصغار. كان ويل في الرابعة من العمر، ونورا لا تزال رضيعة، وكنت أستلقي في الفراش بجوار ألف، ونبادل النظر أنا وهي ونحن نبتسم، ونتعانق بينما يزحف الأطفال فوقنا. كانت تكتب لي الرسائل حينها. خطابات طويلة مضحكة، عن الموت، والقوة، وعن فيرجينيا وولف وسيلفيا بلاث، وعن مدى تعقيد اليأس، على قرطاسية وردية اللون، بأقلام تحديد ملونة. بعد ذلك، استردتُ صحتها تدريجيًا بعد بضعة أشهر. بدأت في العزف على البيانو مرة أخرى، وإقامة بعض الحفلات الموسيقية، ثم التقت بشاب يدعى نيك، هام بها، وصارا يعيشان معًا الآن في وينيبج، التي يعني اسمها «المياه الموحلة»، والتي تحتل المركز الأول في قائمة المدن الغريبة. كانت أبرد مدينة في العالم، ومع ذلك فهي أكثرهم إثارة، كما كانت أبعد مدينة عن الشمس، لكنها أكثرهم تألقًا، يلتقي بها نهران شرسان جامحان، وتتحد قواهما لقهر الإنسان. تلقى نيك دروسًا في العزف على البيانو على يد ألف لبضعة أشهر. كانت هذه هي الطريقة التي التقيا من خلالها، لكن نيك اعترف لاحقًا أن السبب الوحيد الذي دفعه إلى تلقي دروس البيانو على يدها هو كي يتمكن من الجلوس إلى جانبها على المقعد الصغير، وكي تضع

أصابه برفقٍ على المفاتيح. حتى إنه اشترى لها مقعدًا جديدًا للبيانو، على الرغم من أنها ما إن رآته حتى أمرته بنزع الحشوة الناعمة التي تبطنه - فما الهدف من وجودها هناك بحق الجحيم؟ - كأن عزف الموسيقى يتعلق بالشعور بالراحة.

يحب نيك طلبات ألف الغريبة، ويعد كل منها بمثابة عيد بالنسبة إليه. وهو رجلٌ دقيقٌ للغاية، يؤمن بالمراجع والكتب، ووصفات الطهي، وقياسات القبعات والياقات، ولا يتحمل الخلل وانعدام الدقة في القياس بالحجم «الصغير»، و«المتوسط»، و«الكبير». عندما اقترحت ألف أن يتعلم الارتجال في العزف بصورة عشوائية، كاد يفقد عقله من فرط السعادة، وقد بدا الأمر كله جنونياً. وهو لا ينتمي إلى الطائفة المينوناتية، مما يعد شيئاً مهماً في الرجل بالنسبة إلى ألف. أهدر رجال الطائفة المينوناتية الكثير من وقتها بالفعل، وهم يحاولون حصد روحها وتقييدها بالخزي. يعمل نيك عالماً في مجال الطب. أعتقد أنه يحاول تخليص العالم من طفيليات المعدة، لكنني لست متأكدة تمامًا. تخبر والدتي صديقاتها بأنه يعمل على علاج للإسهال، بينما تشكك هي في العلاجات. تقول له:

- يمكنني رؤية الأموات بالفعل، يا نيك، كما أبادل الحديث معهم. إنهم على قيد الحياة بالنسبة إليّ، كالأحياء تمامًا، وربما أكثر منهم حتى. كيف تفسر «علومك» ذلك؟

دومًا ما يتحدث نيك وألف عن الانتقال للعيش في باريس، نظرًا إلى وجود معمل ما هناك يمكنه العمل فيه، ولأن كليهما يحبّان الحديث بالفرنسية، ومناقشة السياسة، وارتداء الأوشحة طوال العام، ومواساة

أنفسهما بجمال العالم القديم، لكنهما ما زالا حتى الآن في مدينة «المياه الموحلة»، باريس الممر الشمالي الغربي.

تتمتع ألف بيدين جميلتين، لم يؤثر عليهما الزمن ولا الشمس، لأنها لا تخرج كثيراً. لكن العاملين في المستشفى أخذوا خواتمها، ولا أعلم السبب. أعتقد أن المرء قد يخنق بفعل خاتم، إذا ما قرّر ابتلاعه، أو ربما يضرب به رأسه لعدة أسابيع من دون توقف، حتى يحدث بعض الضرر، كما يمكن الإلقاء به في نهر سريع الجريان، والغوص وراءه.

قالت جانيس:

- كيف تشعرين الآن؟

لو ضيقت عياني وأنا أنظر إلى ألف عبر الغرفة، يمكنني تغيير عينيها لتصير غابات مظلمة، وتصبح رموشها أغصاناً متشابكة. عيناها الخضراوان نسخة طبق الأصل من عيني والدي، مرعبة وجميلة، وغير محمية من الدموية العنيفة في هذا العالم.

ابتسمت ابتسامة واهنة، وقالت:

- أنا بخير. أشعر بالفساخة.

قالت جانيس:

- معذرة؟

أجبتها قائلة:

- إنها تقتبس حديث والدتنا، فهي تقول أشياء من هذا القبيل. لبّا تك يا تشارلي. أتفهمين؟ إنها تعني سخافة.

قالت جانيس:

- ألفريدا، أنت لا تعرضين للسخرية، اتفقنا؟ أليس كذلك؟ يولي،

هل تسخرين من ألف؟

قلت:

- لا، على الإطلاق.

ردّت جانيس:

- ولا أنا، حسناً؟

أجاب صوت رفيقتها في الغرفة من وراء الستارة، على غير توقع:

- ولا أنا، أيضاً.

ابتسمت جانيس بصبرٍ، ونادت قائلة:

- شكرًا، يا ميلاني.

قالت ميلاني:

- لا شكر على واجب.

- يمكننا إذن أن نقول بثقة إنك لست سخيفة، يا ألفريدا.

همست ألفريدا بصوتٍ خافتٍ، بحيث لا تسمعها جانيس:

- حسناً، يُطلق على هذا مسمى السخرية من الذات.

سألت جانيس:

- هل سررتِ برؤية نيك ووالدتك؟

أومأت ألف على نحوٍ مطيعٍ، وواصلتْ جانيس قائلة:

- أليس من الرائع رؤية يولاندي؟ لا بُدَّ وأنت تفتقدينها الآن، بعد أن

لم تعد مقيمة في وينيبيج.

استدارت جانيس لتنظر إليّ بطريقة ما، لا أستطيع تحديدها، فشعرتُ بالحاجة إلى الاعتذار. فلا يرّحل أحدٌ عن وينيبيج، خاصة إلى تورونتو، ويفلت من الإدانة. بدا ذلك على النقيض من الترحيب، كما لو أن المرء ينتقل من إحدى عصابات الشوارع إلى العصابة الأخرى المنافسة لها. أدارت ألف عينيها في محجريهما، ولمست الغرز الجراحية في جبهتها بأصابعها، الواحد تلو الآخر. كانت تعدُّهم. انبعثت بعض أصوات القعقة من الردهة، وتعالى أنين رجل ما، قالت جانيس:

– أريدك أن تعرفي أنك في أمان هنا، يا ألفريدا.

أومأت ألف برأسها، ونظرت بشوقٍ إلى لوح الزجاج الأكريليك بالنافذة المجاورة لفراشها.

قالت جانيس:

– ماذا لو منحتكما بعض الوقت لتقضياه معاً؟

رحلت، ووجهت ابتسامة إلى ألف، فقالت:

– تعالي هنا، أيتها الدوارة.

نهضتُ ومشيتُ خطوتين إلى فراشها، وجلستُ على حافته، ثم ألقيت بنفسي فوقها، فمسدتُ شعري وتنهدتُ تحت ثقل رأسي. عدت للجلوس على كرسي الزوار البلاستيكي البرتقالي اللون، وتمخطتُ بينما أنا أحرق إليها.

قالت:

– يولاندي، لا أستطيع القيام بذلك.

قلت:

- أعرِف، لقد أوضحتِ هذه النقطة.

- لا أستطيع القيام بتلك الجولة، من المستحيل أن أتمكن من القيام
بالجولة.

قلت:

- أعرِف، هذا لا يهم. لا تقلقي. لا شيء من ذلك يهم.

قالت:

- لا يمكنني حقًا القيام بالجولة.

طمأنتها مرة أخرى قائلة:

- ليس عليك القيام بأي شيء. سيتفهم كلوديو الأمر.

قالت أَلَف:

- لا، بل سينزعج.

- فقط لأنك لست... لأنك هنا. سوف يريدك أن تشعرني بالتحسن

فحسب. إنه يعرف كل هذه الأمور. وهو صديق في المرتبة الأولى، ثم
وكيل أعمال في المرتبة الثانية. هذا هو ما يقوله دومًا، أليس كذلك؟ لقد
نجا من عواصفك في السابق، يا أَلَفِي، وسيفعل مرة ثانية.

قالت أَلَف:

- كما سيغضب موريِس أيضًا، وسيجن جنونه؛ لقد أمضى سنواتٍ

وهو يخطط لهذا الأمر.

- من هو موريِس؟

- وهل تذكرين أندراس، ذلك الرجل الذي قابلته في ستوكهولم...

عندما شاهدتني وأنا أعزف؟

- أجل، ما به؟

قالت ألف:

- لا أستطيع القيام بهذه الجولة، يا يولاندي. سيقطع المسافة بأكملها،
قادمًا من القدس.

- من الذي سيفعل؟

- إسحق، ومجموعة من الأشخاص الآخرين.

قلت:

- وماذا في ذلك؟ سوف يتفهم كل هؤلاء الأشخاص، وإن لم يفعلوا
فلا أهمية للأمر. إنه ليس خطأك. أتذكرين ما كانت تقوله والدتنا؟ «اقضِ
على الشعور بالذنب». أتذكرين؟

سألتني عمّا يكون ذلك الصوت المريع، فأخبرتها أنني أعتقد أن هناك
أطباءً تتساقط على الأرضية الخرسانية في الممر، لكنها سألتني عمّا إذا
كان هناك شخصٌ ما مقيّد في الردهة، فقلت «لا، بالطبع لا». شرعت
تخبرني بأن ذلك يحدث، وقد رأته بنفسها، وأنها مرعوبة، وسألتني عمّا إذا
كنت سمعت عن مستشفى بيدلام للأمراض النفسية، وقالت إنها لا تريد أن
تخذل أحدًا. أعربت عن أسفها الشديد، فأخبرتها أن لا أحد غاضبٌ، وأنا
نريدها أن تكون على ما يرام، وأن تكون على قيد الحياة. سألتني عن حال
ويل ونورا، ولديّ، فأخبرتها بأنهما بخير، بينما غطت هي وجهها بكفيها.
قلت لها إننا يمكننا أن نسخر من الحياة معًا، فما هي سوى مزحة على أي
حال، اتفقنا، حسنًا؟ اتفقنا! لكن لا يتعيّن علينا أن نموت. سنكون جنديين
معًا. سنكون كتوأمين ملتصقين. طوال الوقت، حتى عندما نكون في مدن
مختلفة. شعرتُ بالعجز عن الحديث.

ولج قسّ الغرفة، وسأل ألفريدا عمّا إذا كانت هي ألفريدا فون ريزين، فأجابته ألف بالنفي. حذق إليها القس متعجبًا، ثم أخبرني بأنه كاد يجزم بأن ألف هي ألفريدا فون ريزين، عازفة البيانو.
قلتُ:

– لا، لقد أخطأت الشخص المطلوب.

فاعتذر القس عن إزعاجنا، ورحل.

سألتُ:

– من عساه يفعل ذلك؟

قالت ألف:

– يفعل ماذا؟

– يسأل شخصًا آخر في المستشفى عمّا إذا كانت هي بالفعل الشخص

الذي يظنه. أليس من المفترض أن يكون القساوسة أكثر حصافة؟

قالت ألف:

– لا أدري. هذا شيء عادي.

قلت:

– لا أظن أنه كذلك. بل أعتقد أنه ينم عن انعدام المهنية بصورة مطلقة.

– دومًا ما تعدين الأشياء سيئة إذا كانت تفتقر إلى المهنية. دومًا ما

تقولين «أوه، هذا يفتقر إلى المهنية بدرجة كبيرة»، كما لو أن هناك تعريفًا محددًا للمهنية، يعد الالتزام به أيضًا واجبًا أخلاقيًا.

قلت:

- أنت تعرفين ما الذي أعنيه.

قالت ألف:

- فلتتوقفي فحسب عن الكذب عليّ بشأن ماهية الحياة.

- حسنًا يا ألف، سأتوقف عن الكذب عليكِ إذا توقفتِ أنتِ عن محاولة قتل نفسك.

أخبرتني ألف حينها أن لديها بيانو زجاجيًا داخلها، وأنها مرعوبة من أن ينكسر. لا يمكنها أن تدعه ينكسر. قالت لي إنه مضغوطٌ على الجانب السفلي الأيمن من بطنها، وإنها تستطيع أحيانًا استشعار حوافه القاسية وهي تضغط على جلدها، وأنها تخشى أن يندفع خارجًا منها، فتزف هي حتى الموت. سألتها عن نوع البيانو، فأخبرتني بأنه بيانو هاينتزمان رأسي قديم، كان فيما مضى بيانو آليًا، إلا أن آلية العزف الأوتوماتيكي أُزيلت منه، وتحولَ بأكمله إلى زجاج، حتى المفاتيح، وكل شيء. عندما تسمع صوت الزجاجات وهي تُلقى في مؤخرة شاحنة جمع القمامة، أو صوت أجراس الريح، أو حتى تغريد نوع محدد من أنواع الطيور، تعتقد على الفور أن البيانو ينكسر.

قالت:

- أطلقت طفلة ضحكة هذا الصباح، فتاة صغيرة كانت تزور والدها هنا. لكنني لم أعرف أنها ضحكة، بل اعتقدتُ أنه صوت تهشُم زجاج، وقبضتُ على بطني وأنا أفكر: «أوه، لا، ها هي النهاية».

أومأت برأسي وابتسمتُ، وأخبرتها بأنني سأشعر بالرعب من الانكسار أنا أيضًا، لو كان لديّ بيانو زجاجي داخلي.

سألته:

- إذن فأنت تتفهمين الأمر؟

قلت:

- أفهم ذلك. حقًا وصدقًا أفهمه. أعني، ما الذي سيحدث إذا

انكسر؟

- شكرًا لك، يا يولي.

سألته:

- هل أنت جائعة؟ هل هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلك؟

ابتسمت قائلة:

- لا، لا شيء.



ألفريدا بالغة النحول، ووجهها شاحبٌ للغاية، لدرجة أنها عندما تفتح عينيها، يبدو الأمر كأنه هجومٌ مفاجئ، مثل إحدى تلك الغارات الجوية التي تحيل الليل نهاراً. سألتها عمّا إذا كانت تتذكر تلك المرة التي غنينا فيها أنا وهي نسخة بطيئة ومؤلمة حقاً من أغنية «الخيول البرية»، لمجموعة من المسنين المنتمين إلى الطائفة المينوناتية والمقيمين في دار رعاية. كانت والدتنا قد طلبت منّا المشاركة في الاحتفال بالذكرى الخامسة والسبعين لزفاف أكبر زوجين في المدينة، وظننّا أن الأغنية رائعة جداً، وملائمة تماماً لهذه المناسبة. عزفتها ألف على البيانو، وجلستُ إلى جوارها، وغنينا معاً من قلبينا أمام الجمهور الحائر الذي جلس أفراده على كراسٍ متحركة، أو وقفوا متكئين بشدة على العصي والمشايات.

ظننتُ أن الذكرى ستدفعها إلى الضحك، لكنها دفعتها إلى أن تطلب مني الرحيل. أدركتُ قبل أن أتمكن أنا حتى من ذلك، أنني أروي هذه الحكاية لأنها تمثل شيئاً آخر، أكثر من مجموع أجزائها. قالت:

- يولي، أعرف ما تحاولين القيام به.

وعدتها بعدم الحديث عن الماضي إذا كان ذلك يسبّب لها الشعور بالألم. لن أتحدث عن أي شيء، إذا لم تكن تريد هي ذلك، طالما يمكنني البقاء.

قالت:

- أرجوك، ارحلي الآن.

أخبرتها أنني أستطيع القراءة لها، كما كانت تقرأ هي لي عندما أكون مريضة. كانت تقرأ شيلي وبليك، عشيقها الشاعرين كما كانت تطلق عليهما، وتحاكي صوتيهما، متحدثة كذكر بريطاني، وتتنحج قائلة: «مقاطع مكتوبة بكآبة، بالقرب من نابولي». الشمس دافئة، والسماء صافية، والأمواج تتراقص، سريعة وبراقة. ماذا لو غنيت؟ أو ربما يمكنني الرقص، مثل موجة. أستطيع الصغير، ويمكنني تقليد الشخصيات. بوسعي الوقوف على رأسي. يمكنني أن أقرأ لها كتاب هيدجر، الكينونة والزمان، باللغة الألمانية. أي شيء! ما ذلك الشيء مرة أخرى، تلك الكلمة؟

همستُ ألف بنصف ابتسامة:

- Dasein. الوجود.

قلتُ:

- أجل، هذه هي! أرجوك!

جلستُ، ثم وقفتُ ثانية وأنا أقول:

- هيا، أنت تحبين الكتب التي تحوي كلمة «الوجود» في عنوانها،

أليس كذلك؟ أرجوك.

جلستُ بجانبها مرة أخرى، ووضعتُ رأسي على بطنها. سألتها:

- ماذا كان ذلك الاقتباس المعلق على جدارك؟

قالت:

- أي اقتباس؟

- على جدار غرفة نومك، عندما كنّا أطفالاً.

- «أنتَ الذي وضعت الـ «سم» في كلمة «مسالم»؟

- لا، لا... ذلك الاقتباس الآخر، الذي يدور حول الزمن. شيء ما عن أفق الوجود.

قالت:

- احترسي.

- البيانو؟

- أجل.

وضعتُ يديها على رأسي برفقٍ، وأبقتهما هناك كأنما تريحهما على بطن حامل. شعرتُ بحرارتها، وسمعتُ قرقرة معدتها. شممتُ رائحة مسحوق الغسيل في قميصها الذي ترتديه بالمقلوب. دلَّكتُ صدغي، ثم دفعته بعيداً عنها. قالت إنها لا تتذكر ذلك الاقتباس، وأخبرتني أن الزمن قوة، يتعيَّن علينا السماح لها بأداء عملها، وعلينا احترام تلك القوة. فكرتُ في جدالها قائلة إنها هي نفسها لا تحترم هذه القوة، من خلال محاولاتها للتهرب منها، لكنني أدركتُ بعد ذلك أنها ربما تكون قد لاحظت هذا بالفعل، وتوجَّه الحديث إلى نفسها بقدر ما توجهه إليَّ أيضاً. لا يوجد ما يمكن إضافته. سمعتها تهمس باعتذارٍ آخر، وشرعتُ أذندن أغنية لفريق البيتلز عن الحب والاحتياج. قلتُ:

- هل تذكرين كايتلين توماس؟

لم تنبس ألف بكلمة. واصلتُ قائلة:

- وهل تذكرين كيف اقتحمتُ غرفة ديلان في مستشفى سانت

فينسنت بمدينة نيويورك وهي مخمورة، حيث كان هو يحتضر بسبب التسمم الكحولي، وألقت بنفسها فوق جسده المنهك، وهي تتوسَّل إليه

أن يبقى، وتحته على القتال، وعلى أن يكون رجلًا، وأن يحبها، ويتحدث،
ويقف، وأن يتوقف عن الاحتضار بحق السماء؟

قالت شقيقتي إنها تقدّر مقارنتها بديلان توماس، لكنها اعتذرت
وطلبت مني الرحيل مرة أخرى، لأنها تحتاج إلى التفكير. قلتُ لها:
- حسنًا، لكنني سأعود غدًا.

قالت:

- أليس من المضحك كيف يمكن تحديد وتسمية كل ثانية، وكل
دقيقة، وكل يوم، وشهر، وسنة، في حين أن الزمن، أو الحياة، يصعب
التحكّم فيها بدرجة كبيرة، علاوة على كونها غير ملموسة، ويصعب التنبؤ
بها بدرجة كبيرة؟

جعلها هذا تشعر بالشفقة حيال الناس الذين اخترعوا مفهوم «تحديد
الوقت». واصلت حديثها قائلة:

- يا له من تفاؤل، وكم هو أمر جميل، من دون جدوى. وكم هو من
شيم البشر تمامًا.

قلتُ:

- لكن يا ألف، إن مجرد عدم احتياجك إلى الأنظمة التي تعيننا على
قياس حياتنا، لا يعني أن حياتنا لا تحتاج إلى القياس.

قالت:

- ربما، لكن ليس وفقًا لبعض المفاهيم البرجوازية عن تقسيم
الوقت. إن هذا ترتيبٌ فاشٍ لشيء - وهو الزمن - له أهمية ويقع بطبيعة
الحال خارج نطاق التصنيف، أو حتى التعريف.

قلتُ:

- في الواقع، لم يعد لديّ مانعٌ من الرحيل الآن. آسفة لكوني مضطرة إلى مغادرة الدرس مبكرًا، أيتها الأستاذة الحمقاء، لكن الوقت ينفد مني على عداد انتظار السيارة. لقد دفعتُ ثمن ساعتين، وأعتقد أنهما قد انقضيا. هذا بمناسبة الحديث عن الوقت.

قالت:

- كنت أعلم أنني أستطيع دفعك إلى الرحيل.
تعانقنا، وشرعتُ أخبرها أنني أحبها، قبل أن يصبح الحديث مستحيلًا، وتنفسنا معًا فحسب ونحن متعانقتان لقراءة الدقيقة، قبل أن أنصرف. قبل أن أضطر إلى أن أكون موجودة في مكانٍ آخر.

تفقدتُ رسائلني بينما أهبط سلم المستشفى، نازلة درجتين معًا في المرة الواحدة، في طريقي إلى الخروج. وجدتُ رسالة نصية من نورا، ابنتي البالغة من العمر أربعة عشر عامًا: «كيف حال ألف؟ لقد حطّم ويل الباب الأمامي». كما كانت هناك رسالة أخرى من ويل، ابني البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا، وهو طالب في عامه الأول بجامعة نيويورك، لكنني أمرته بالبقاء مع نورا في تورونتو لعدة أيام، خلال وجودي أنا في مدينة المياه الموحلة. «أخبرتني نورا بأن الموعد المحدد لها للعودة إلى المنزل هو الرابعة صباحًا، صحيح؟ عانقي ألف نيابة عني! إن بالوعة حوض الاستحمام مسدودة من شعر ن.» وكانت هناك رسالة نصية من جولي، أقدم صديقاتي، التي تتوقع رؤيتي في وقتٍ لاحقٍ من هذا المساء: «نبئًا أحمر، أم أبيض؟ أبلغني ألف تحياتي. قبلاتي وأحضانني».

في المرة الأخيرة التي حاولتُ فيها شقيقتي قتل نفسها، كان ذلك من خلال التلاشي ببطء في الفضاء. كانت محاولة ماهرة للاختفاء عن طريق تجويع نفسها حتى الموت. اتصلت بي والدتي في تورونتو، وأخبرتني أن ألف لا تتناول الطعام، وأنها تتوسَّل إليها هي ونيك كي لا يتصلا بالطبيب. كانا في حالة من اليأس. هل يمكنني الحضور؟ توجَّهتُ من المطار إلى غرفة نوم ألف مباشرة، وركعتُ بجانبها. سألتني عمَّا أفعله هناك، فأخبرتها أنني أتيتُ للاتصال بطبيبٍ. ربما تكون والدتنا قد قطعت لها وعدًا بعدم الاتصال بطبيبٍ، لكنني لم أفعل. بقيتُ والدتنا في غرفة الطعام، مولية ظهرها لنا. لم تتمكَّن من دعم فكرة إحدى ابنتيها ضد الأخرى، مثل أي أم صالحة، لذا أبعدت نفسها عمَّا يدور. قلتُ:

- سوف أقوم بالاتصال، أنا آسفة.

ناشدتني ألف ألا أفعل، وترجتني. ضمَّت كفيها معًا في تضرع، وتوسَّلت إليَّ. وعدتني بأن تتناول الطعام. بقيت والدتنا جالسة إلى المائدة في غرفة الطعام. أخبرتُ ألف أن سيارة الإسعاف قادمة في الطريق. كان الباب مفتوحًا، وبوسعنا شم رائحة زهور الليلك. قالت ألف:

- لن أذهب.

قلتُ:

- يتعيَّن عليك ذلك.

نادت والدتنا قائلة:

- أرجوك، أخبريها أنني لن أذهب.

لم تتفوَّه والدتنا بكلمة، ولم تستدر نحونا. قالت ألف:

- أرجوك، أرجوك!

استغلَّت القدر الضئيل المتبقي لديها من القوة كي تشير إليَّ بإصبعها إشارة بذئنة، بينما المسعفون يضعونها في الجزء الخلفي من سيارة الإسعاف.

كانت تلك هي المرة الأولى التي قابلتُ فيها جانيس. كنتُ أقف بجانب نقالة ألف في غرفة الطوارئ. تدلَّت حقبة ظهرها الممزقة من على حامل المحاليل بجوارها. أخذتُ أحرك يدي جيئةً وذهاباً على الحاجز الحديدي الذي يحيط بها، بينما أبكي. تناولت ألف يدي بوهنٍ، مثل شخص عجز يحتضر، وتمعنَّت النظر بعمقٍ في عيني. قالت:

- أكرهكِ، يا يولي.

انحنيتُ لأقبلها، وهمست لها أنني أعرف ذلك، وعلى دراية به. قلتُ:
- وأنا أيضاً أكرهكِ.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أوضحنا فيها نوعاً ما مشكلتنا الرئيسية. كانت تريد الموت، بينما أردتُها أن تعيش، وكنا عدوتين تحب إحدانا الأخرى. تعانقنا برقة، وبارتباكٍ، لأنها كانت في فراشٍ، موصلة بأجهزة.

نقرت جانيس على كتفي -حتى حينها، كان بحوزتها ذلك الكائن المصنوع من الفراء، متدلٍّ من حلقة حزامها- وسألتنني عما إذا كان بوسعها التحدث معي للحظة. أخبرتُ ألف أنني سوف أعود سريعاً، وسرنا أنا وجانيس إلى غرفة صغيرة مخصَّصة لأسر المرضى، مطلية باللون البيج، حيث ناولتنني علبة مناديل ورقية، وأخبرتني أنني فعلتُ الصواب لاتصالي بالإسعاف، وأن ألف لا تكرهني بالفعل. قالت:

- يمكن تحليل هذا الشعور، أليس كذلك؟ دعينا نتأمل مكوناته. إنها تكره كونك أنقذت حياتها.
قلتُ:

- أعرف ذلك، لكن شكرًا لك.
عانقتني جانيس. إنَّ عناقًا قويًا وثيقًا من شخصٍ غريب، لهو أمرٌ فعَّالٍ للغاية. تركتني بمفردي في الغرفة ذات اللون البيج، وقضمتُ أظفري وجلد أصابعي حتى نزفت.
عندما عدتُ إلى ألف، كانت لا تزال في الطوارئ. أخبرتني أنها سمعت للتو عبارة رائعة، رائعة للغاية. سألتها:

- ما هي؟
رددت العبارة قائلة:
- «نشعر بالدهشة الشديدة لضالة القدر الذي تتمتع به السيدة فون ريزين من الذكاء».

سألتها:
- من قال ذلك؟
أشارت إلى طبيبٍ يدوّن شيئًا ما على المكتب الدائري، وسط كل أولئك الأشخاص المحتضرين. كان يرتدي ثيابًا أشبه بطفل في العاشرة من العمر، إذ كان يلبس سروالَ تزلج قصيرًا، وقميصًا فضفاضًا، كما لو أنه قد جاء للتو من تجربة أداء لمسلسل تلفزيوني عن طلبة إحدى المدارس. سألتها:

- لمن وجّه حديثه ذاك، بحق الجحيم؟

قالت ألف:

- إلى تلك الممرضة الأخرى. يعتقد أنني لا بُدَّ وأن أكون غبية، نظرًا إلى أنني لا أشعر بالامتنان لإنقاذ حياتي.
قلتُ:

- يا له من أحق. هل تحدّث معكِ؟

أجابت ألف:

- أجل، نوعًا ما. كان الأمر أشبه بالاستجواب. هيا يا يولاندي، أنت تعرفين طبيعتهم.

- يساوون بين الذكاء والرغبة في الحياة؟

قالت:

- أجل، أو بينه وبين الكياسة.

لم تكن الطريقة التي لجأت إليها هذه المرة هي الموت جوعًا، بل أقرص الدواء. كانت ألف قد تركت رسالة، نزعت صفحتها من دفترٍ من نفس نوع الدفاتر الصفراء المسطرة التي استخدمتها منذ سنواتٍ لتصميم توقيعها المميز، ك.أ.ض. أعربت في الرسالة عن أملها بأن يستقبلها الرب، وذكرت أنه لم يعد هناك وقتٌ متبقٍّ كي يترك المرء بصمته على العالم، وتركت قائمة بأسماء جميع الأشخاص الذين أحبّتهم. قرأت لي والدتي الأسماء عبر الهاتف. أخبرني بأن ألف كتبتهم بقلم تحديد أخضر. كنّا جميعًا هناك على القائمة. كما كتبت أيضًا: «أرجو أن تفهّموا. أرجو أن تدعوني أذهب. أحبكم جميعًا». قالت لي والدتي إن هناك أيضًا اقتباسًا ما على الصفحة، لكنّها لم تتمكّن من قراءة الخط. قالت:

- شخص ما اسمه ديفيد هيوم؟

لكنها نطق الاسم كما لو كان «هوم»، مما لم يشكّل فارقاً، على أي حال. فكرتُ لنفسي قائلة: «مهلاً، هل تؤمن ألف بالرب إذن؟».

سألتُ والدتي:

- من أين حصلتُ على كل تلك الأقراص؟

أجابت والدتي:

- لا أحد يعلم، ربما اتصلت لتطلبها عبر الهاتف. من عساه يدري.

عثرت عليها والدتي فاقدة الوعي في فراشها بالمنزل، وحينما استعادت ألف الوعي في المستشفى، كنتُ أنا قد جئتُ بالطائرة من تورونتو بالفعل، وكنتُ أفق بجانبها عندما فتحتُ عينيها. ابتسمتُ ببطء ابتسامة واسعة، مثل طفلة تدرك بنية النكتة لأول مرة في حياتها. قالت:

- أنتِ هنا. علينا التوقف عن اللقاء على هذا النحو.

عرفتني بطريقة رسمية، كما لو كنّا في عشاء بإحدى القنصليات، على الممرضات في قسم الطوارئ، وعلى المرأة المكلفة بالجلوس على مقعدٍ بجوار فراشها، ومراقبة كل تحركاتها.

أشارت نحوي بذقنها، نظراً إلى أن يديها كانتا مقيدتين بأشرطة قطنية،

وقالت:

- هذه هي شقيقتي الصغرى، يويو.

قلتُ وأنا أصافح يد المرأة:

- اسمي يولاندي.

أخبرتني أنني أبدو كما لو كنتُ أنا الكبرى. كان ذلك يحدث طوال الوقت، لأن ألف نجت على نحو غريب من الآثار الجانبية المدمرة للحياة.

ثم أخبرني ألف بأنها هي والمرأة المكلفة بمراقبتها كانتا تتناقشان حول
توما الأكوييني. قالت شقيقتي وهي تبسم للمرأة:

- أليس كذلك؟

فابتسمت لي المرأة، وهزّت كتفيها. لم تكن وظيفتها هي الشرقة
عن القديسين مع مرضى حالات الانتحار. جلستُ على المقعد المجاور
للمرأة، وقلتُ:

- لماذا توما الأكوييني؟

حاولت ألف جاهدة أن تجعل عينيها تلتقي بعيني الحارسة الجالسة
في مقعدها. قالت المرأة إنه لا تزال هناك الكثير من آثار الدواء باقية في
جسدها.

قالت ألف:

- لكن ليس بما فيه الكفاية.

بدأتُ في الاحتجاج، فواصلتُ ألف الحديث قائلة:

- أنا أمزح، أيتها الدوارة. يا إلهي!

عندما خلدتُ ألف إلى النوم، خرجتُ إلى غرفة الانتظار للبحث عن
والدتي. كانت تجلس بجوار رجلٍ لديه عين متورمة يقرأ إحدى روايات
الجريمة. أخبرتها أن ألف كانت تتحدث عن توما الأكوييني.

قالت والدتي:

- أجل، لقد تحدثت عنه معي أنا أيضًا. سألتني في أثناء هزيانها عمّا
إذا كنتُ «ساعاملها مثل توما الأكوييني». فكرتُ في الأمر لاحقًا، وقررتُ
أنه لا بُدَّ وأنها كانت تعني ما إذا كان يمكنني أن أسامحها.

سألتها:

- وهل ستفعلين؟

قالت والدتي:

- ليست هذه هي القضية، فهي ليست بحاجة إلى السماح، إذ إنها لم تقترب ذنبًا.

قلتُ:

- لكن هناك خمسين مليار شخص سيختلفون معك في هذا الشأن.

أجابت والدتي:

- دعيهم إذن.

كان ذلك قبل ثلاثة أيام مضت. بعد ذلك الحين، سافرت والدتي إلى البحر الكاريبي، لأنني أجبرتها على ذلك، أنا ونيك. كان كل ما حملته معها في حقيبتها الصغيرة هو أقراص الدواء الخاصة بعلاج القلب، وروايات الجريمة. وهي تواظب على الاتصال هاتفياً من السفينة للاطمئنان على ألف. أخبرتني بالأمس أن نادلاً على السفينة قد صُلّي من أجل أسرتنا باللغة الإسبانية قائلاً: «فليحفظكم الرب». طلبت مني إبلاغ ألف أنها اشترت لها اسطوانة سي دي لعازف بيانو كولومبي، من رجل في الشارع. قلت لها إنها قد تكون مزورة. أخبرتني أنها تحدثت مع قبطان السفينة عن الدفن في البحر. وقالت إنها سقطت من فراشها في ليلة عاصفة، لكن ذلك لم يوقظها. إلى هذا الحد كانت مُتعبة. استيقظت في الصباح لتكتشف أنها سقطت وتدرجت حتى شرفة قمرتها الصغيرة. سألتها عمّا إذا كان من الممكن أن تتدرج من الشرفة لتسقط في البحر، فقالت لا، وحتى إذا

أرادت ذلك، سيمنعها حاجز الشرفة. ولو لم يمنعها حاجز الشرفة، كانت ستسقط في أحد قوارب النجاة المعلقة على جانب السفينة فحسب. كانت والدتي على ثقة كبيرة بأنه سيتم إنقاذها في هذه الحياة، بطريقة أو بأخرى. في طريقي إلى الخروج من المستشفى، توقفتُ عند مكتب الاستقبال، وسألتُ جانيس عما إذا كان صحيحًا أن ألف سقطت في الحمام ذلك الصباح، فردتُ جانيس بالإيجاب. كان ذلك بعد أن تم نقلها من قسم الطوارئ إلى قسم الأمراض النفسية. عثروا عليها ممددة على الأرض، تنزف من رأسها، ممسكة فرشاة أسنانها بقبضتها بنفس الطريقة التي يمسك بها المرء سكين التقشير وهو على وشك إغمارها في حلق شخص ما. في تلك اللحظة، اضطرتُ جانيس إلى أن تهرع لتقييد مريض كان يستخدم عصا البلياردو لتحطيم جهاز التلفزيون في غرفة الأنشطة. ألقت ممرضة أخرى نظرة على ملف ألف، وقالت الممرضة إن ألف بحاجة إلى البدء في تناول الطعام، وحينها ستمتع بالقوة الكافية حتى لا تسقط، كما قالت إنها بحاجة إلى أن تكون أكثر وعيًا بمحيطها إلى حدٍّ ما.

أردتُ العودة إلى غرفة ألف، لأخبرها بتلك العبارة الأخيرة التي قالتها الممرضة، في محاولة لحملها على مشاركتي بإدارة عينيها في محجريهما، ولتشكيل رابطٍ بسيطٍ من الازدراء المشترك على الأقل. كما أردتُ أيضًا إخبارها أن هناك رجلًا في القسم يكره التلفزيون بنفس قدر كراهيتها هي له، وربما يمكنهما أن يصيرا صديقين. لكنها كانت قد طلبت مني الرحيل، وأردتها أن تعرف أن بعض مطالبها معقولة ويمكن تحقيقها، وأني أحترم رغباتها (نوعًا ما)، وعلى الرغم من كونها مريضة في قسم الأمراض النفسية، واسمها مكتوبٌ على نحو خاطئ بخطٍ سيئٍ على السبورة البيضاء

خلف مكتب الممرضات، إلا أنها كانت لا تزال شقيقتي الكبرى الحكيمة (وإن كانت تثير قلقنا)، وسوف أطيعها. سرْتُ مبتعدة، واصطدمتُ بعربة من الفولاذ المقاوم للصدأ، مليئةً بصواني الطعام البلاستيكية. اعتذرتُ لشخصين يرتديان أروابًا، مرًّا بجواري وهما يجرجران أقدامهما. قال أحدهما:

- هذا مقرفٌ ولا يصلح للأكل على أي حال، يا رجل. كنتُ سأركل الصينية لأقلبها أنا أيضًا، لو أنني أتمتع بالتناسق الحركي بدرجة أكبر. قال الآخر:

- أجل! أجل!

كرّر الأول قائلاً:

- قلت إنه لا يصلح للأكل!

- أعرف يا رجل، لقد سمعتك في المرة الأولى.

- أعلى من باقي الأصوات الأخرى؟

- ها! أجل، يا لك من مضحك.

- هل هذا هو ما جاء بك إلى مستشفى الأمراض العقلية؟

- لا، بل كان ذلك بسبب أنني طعنتُ الرجل الذي اقتحم سقيفتي.

- لكن ذلك لم يكن بسبب حادث الطعن نفسه، بل بسبب الأصوات

التي أمرتكَ بالإقدام على هذا، أليس كذلك؟

- أجل، لقد فهمت الأمر. لكن مع ذلك، كان السكين نفسه حقيقياً.

- أجل، هذا سيئ للغاية. هذا هو الجزء المؤسف من الحكاية.

أحببتُ هذين الرجلين اللذين يجرجران أقدامهما. وأعجبتني بالفعل

عبارة «الجزء المؤسف من الحكاية». أردتُ أن أعرّف ألف إلى هذين الرجلين. شرعتُ ألتقط الصواني، لكن الممرضة قالت إنه لا يتعيّن عليّ فعل ذلك. ستطلب من شخص ما، أو تمرجي، القيام بهذا. مازحتُ الممرضة قائلة:

- ربما يكون انعدام وعي شقيقتي بمحيطها أمراً وراثياً أشاركها إياه. هاها.

لكنني لم أتلّق منها أي ضحكة أو ابتسامة، وتذكرتُ الوصف الذي قرأته ذات مرة عن فم امرأة غاضبة يشبه قلم رصاصٍ له طرفان حادّان، فرحلتُ. بينما أنا أهبط الدرج (اثنين، أربع، ست، ثماني درجات، لمن نرسل التحيات)، اعتذرتُ لألف اعتذاراً صامتاً لتركها هناك بمفردها، وأعددت في ذهني قائمة بالأشياء التي سوف أحضرها في اليوم التالي: الشوكولاتة الداكنة، وشطيرة سلاطة بيض، وكتاب هيدجر «الكينونة والزمان» (لا نقول إن الزمن له وجودٌ، والكينونة لها وجود، بل نقول إن هناك زمناً، وهناك كينونة)، وقصافة أظافر، وملابس داخلية نظيفة، ولن أحضر مقصات أو سكاكين، إلى جانب الحكايات المسلية.

قدتُ سيارة والدتي الشيفروليه المتهالكة، مسرعة عبر طريق بيمينا السريع، الذي كان شريطاً كثيفاً من الأسفلت والمراكز التجارية المهجورة، لا يؤدي إلى أي شيء في الواقع، سوى «فوضى حياتي»، على حد تعبير ألف باللغة الفرنسية. كانت تحب استخدام الكلمات الفرنسية ذات الوقع الأنيق لوصف الدمار، ربما كوسيلة لموازنة الأمور، ولتلميع الألم حتى يبرق كالنجم القطبي، ضوءها المرشد، وربما سكنها الحقيقي.

رأيتُ متجرَ مفروشات بواجهته الزجاجية لافتة مضاءة تعلن عن التخفيضات، فتوقفتُ في ساحة الانتظار. وقفتُ لمدة عشر دقائق أحرق إلى الوسائد: الوسائد المحشوة بالريش، والوسائد المحشوة بالحشو الصناعي، وأنواع أخرى من الوسائد. تناولتُ بعضها من على الأرفف وضغطتُ عليها، وأسندتها إلى الحائط وحاولت أن أريح رأسي عليها، وأستشعر ملمسها. أخبرني البائعة بإمكانية اختبارهم على سرير الاختبار. فرشتُ قطعة قماش واقية على الوسادة، واستلقيتُ أنا وأرحتُ رأسي لمدة دقيقة. أخبرني البائعة أنها ستعود بعد أن يتاح لي الوقت الكافي لاختبار باقي الوسائد بدقة. شكرتها وأغمضتُ عيني. غفوتُ لفترة وجيزة، وعندما استيقظتُ، كانت البائعة تقف بجواري مبتسمة، ولوهلة تذكرتُ الطفولة، وشعوراً معيناً بالسلام صاحبها.

اشتريتُ لألف وسادة أرجوانية لامعة بحجم كيس نوم ملفوف، تزينها حشرات يعسوب فضية مطرزة على الساتان. ركبْتُ سيارة والدتي مرة أخرى، وتوجهتُ إلى متجر البيرة في نُزل جرانت بارك، والذي يمكن شراء الطلبات منه من السيارة، واشتريت صندوقاً من البيرة يحوي أربعاً وعشرين زجاجة، ثم توقفت عند متجر البقالة، وابتعت علبة من سجائر بلايرز اكسترا لايت. لو كان هناك أي شيء إضافي بوسعي شراؤه، لاشتريته. ابتعتُ أيضاً لوحاً ضخماً من الحلوى، وتوجهتُ إلى البرج الشاهق الذي تسكن به والدتي والمطل على نهر اسينيبوين، حيث مكثتُ مع جميع الإمدادات التي بحوزتي، على استعدادٍ للانتظار. كان وقت انصهار الثلوج في الربيع، حين يبدأ الجليد في النهر في الذوبان والتشقق،

فتحتك الألواح الكبيرة المتجمدة بعضها ببعض وتنسحق مصدرة ضوضاء صارخة بشعة، بينما يجرفها التيار في اتجاه مجرى النهر. لا يأتي الربيع بسهولة إلى هذه المدينة.

وقفتُ في شرفة والدتي ممسكة بالوسادة الأرجوانية المزينة بحشرات اليعسوب الفضية، وأنا أرتجف وأدخن السجائر، وأخطط، وأفكر، محاولة فك شفرة ألف السرية، ومعنى الحياة، وحياتها، والكون، والزمن، والكينونة، بينما أشرب البيرة. تجوّلتُ في الشقة وأنا أتاَمِّل الأشياء المملوكة لوالدتي. تفحصتُ صورة لوالدي، التقطت قبل شهرين من وفاته. كان يشاهد ويل وهو يلعب البيسبول في إحدى الحداثق، في دوري الصغار. كان يرتدي نظاراته الضخمة، وبدا عليه الارتياح، وهو يعقد ذراعيه مبتسمًا. كانت هناك صورة لوالدتي مع نورا وهي رضية حديثة الولادة، وهما يتبادلان النظر إلى أعينهما بعمقٍ، كما لو أنهما يتبادلان أسرارًا مهمة من خلال توارد الخواطر. تأملتُ صورة معلقة على الثلاجة، لألف وهي تعزف في إحدى الحفلات في ميلان. كانت ترتدي فستانًا أسود طويلًا، ثبَّتْ حاشيته بالدباسة، وقد برزت عظام كتفيها عبر النسيج. بدا شعرها لامعًا للغاية، وتهدل حول وجهها وهي محنية على لوحة المفاتيح. عندما تعزف ألف في بعض الأحيان، ترتفع مؤخرتها عن المقعد لمسافة بوصة أو اثنتين فحسب. اتصلت بي من أحد الفنادق بعد ذلك الحفل، وهي تشج وتخبرني كم تشعر بالبرودة وبالوحدة. قلتُ لها:

- لكنكِ في إيطاليا، أكثر مكانٍ مفضل لديك في العالم.

فأجابتنني بأن وحدتها مترسخة في أعماقها، كجوالٍ من الحجارة تحمله من غرفة إلى أخرى، ومن مدينة إلى الثانية.

اتصلتُ بهاتف والدتي المحمول لأرى ما إذا كانت تتمتع بخدمات الجوال على سفيتها؛ لم تكن هناك أي شبكة.

كانت هناك رسالة على طاولة غرفة الطعام، تطلب مني والدتي فيها إعادة أقراص الدي في دي خاصتها، رجاءً، عندما تسنح لي الفرصة. كنت أعرف أنها منهكة تمامًا، من محاولة إبقاء ألف على قيد الحياة. في اليوم السابق لسفرها إلى فورت لودرديل كي تستقل تلك السفينة، عضَّها كلبٌ من فصيلة روتوايلر يملكه ذلك الجار المجنون الساكن عبر الردهة، ولم تلحظ ذلك حتى، إلى أن بدأ الدم يتسرب عبر معطفها الشتوي، واضطرت إلى خياطة الجرح والحصول على تطعيم ضد التيتانوس. كان كل ما يمكنها القيام به ليلاً هو الانهيار أمام تلفزيونها، ومشاهدة كل حلقة من كل موسم من المسلسل التلفزيوني «ذا واير»، بصورة ممنهجة، كمن وقع في غيبوبة، الواحدة تلو الأخرى، تلو الأخرى، وقد رفعتُ الصوت لكونها شبه صماء، حتى تخلد إلى النوم بينما يحدثها طفلٌ مشوشٌ من بالتي مور عبر التلفزيون، ويطمئنُّها بطريقته، وهو يخبرها ما تعرفه بالفعل: أن الصبي عليه شق طريقه الخاص في هذا العالم اللعين.

صباح اليوم الذي توجهتُ فيه إلى المطار، أسقطت والدتي بطريق الخطأ قضيب ستارة الحمام، والستارة بأكملها. تحممتُ على أي حال، وكانت مبتسمة عندما خرجت، بادية الإصرار، ومشركة، ومتعشة، وعلى استعداد للمغامرة. سألتها:

- كيف سار الأمر من دون ستارة؟ ألم...

فأجابت:

- لا، لا، لقد سار على ما يرام، من دون أي مشكلة على الإطلاق.
عندما ولجت الحمام، كانت المياه بارتفاع بوصة على الأرض، وقد أغرقت كل شيء: ورق التواليت، ومستلزمات التجميل والماكياج على الطاولة، وكل المناشف النظيفة، والأعمال الفنية التي رسمها ولدائي، كانت كلها غارقة بالمياه. أدركتُ أن فكرة «يسير على ما يرام» هي فكرة نسبية بالنسبة إلينا، وأنه في سياق حياتنا الحالية، كانت والدتي على حق، وكان كل شيء على ما يرام تمامًا، من دون مشكلة. في الواقع صارت ألف في أمان الآن، نوعًا ما، أو في أمان أكبر على أي حال بينما هي في المستشفى، أكثر مما كانت عليه في المنزل، حيث تبقى بمفردها معظم الأيام بينما نيك متغيّب في عمله. لذلك كان هذا الوقت ملائمًا كي تخففي والدتي لأسبوعين، وتنال قسطًا من الراحة.

وقفتُ في شرفة والدتي، واستمعتُ إلى الجليد وهو يتحطم. بدا كصوت إطلاق النار، كأنه مشهدٌ من مشاهد العصابات، يُعرض على خلفية من زئير الحيوانات. كان القمر مكتملاً، ويتدلّى منخفضًا مثل بطن القطعة الجبلى. بوسعي رؤية الأضواء في المنازل الواقعة عبر النهر، وشاهدتُ أشخاصًا يرقصون. بإمكانني أن أجعلهم يخفون، بطرف إصبعي وبعينٍ مغلقة. اتصلتُ بالمستشفى، وطلبتُ التحدث إلى ألف. ذرعتُ جيئةً وذهابًا بالخارج في الشرفة، بينما كنت أنتظر من مركز خطوط الهاتف الرئيسي بالمستشفى توصيلي بقسم الأمراض النفسية. جعلتُ الزوجين الراقصين يظهران، ثم يختفيان، ثم يظهران مرة أخرى.

- مرحبًا؟

- مرحبًا.

- هل يمكنني التحدث إلى ألفريدا؟
- هل أنت شقيقتها؟
- أجل.
- إنها تقدّر اتصالك.
- أوه، رائع. لكن هل يمكنني التحدث إليها؟
- إنها تفضّل ألا تفعل.
- تفضّل ألا تفعل؟
- أجل.
- هل يمكنك توصيل الهاتف إليها؟
- نفضّل ألا نفعل ذلك.
- حسنًا، لكن...
- لمّ لا تحاولين مرة أخرى في وقتٍ لاحقٍ؟
- هل يمكنني التحدث إلى جانيس من فضلك؟
- جانيس ليست موجودة في الوقت الحالي.
- أوه. هل لديك أي فكرة متى ستكون موجودة؟
- ليست لديّ هذه المعلومات.
- ما الذي تعنيه؟
- لا أستطيع الوصول إلى تلك المعلومات.
- أنا أسألكِ فحسب عن الوقت المناسب للاتصال كي أتمكّن من التحدّث إلى جانيس.
- وأنا أخبركِ فحسب أن هذه المعلومات غير متوفرة لديّ.
- إنها ليست معلوماتٍ، بل مجرد جوابٍ.

- معذرة، لكنني لستُ مخولة بالإجابة عن ذلك السؤال.
- عن موعد وجود جانيس؟ ما الذي تعنيه بكونك غير مخولة؟
- عليكِ معاودة الاتصال لاحقًا، معذرة.
- لكن أليس لديكم نظامٌ أو وسيلة ما للعثور على جانيس؟
- أخشى أنه لا يوجد ما يمكنني أن أفعله.
- هل يمكنكِ استدعاؤها عبر جهاز النداء الآلي؟
- طاب يومك.
- انتظري، انتظري.
- أخشى أنه لا يمكنني فعل أي شيء.
- يمكنكِ عمل استثناء.
- معذرة؟ (لم تتمكّن من سماعي بسبب صوت الجليد).
- أريد سماع صوت شقيقتي فحسب.
- ظننتُ أنكِ تريدين التحدث إلى جانيس.
- أعرف، لكنك قلتِ إن...
- أوصيكِ حقًا بإعادة المحاولة لاحقًا.
- لماذا لا تريد شقيقتي التحدث إليّ؟
- لم أقل إنها لا تريد التحدث إليك. بل قلتُ إنها تفضّل عدم الحضور إلى الغرفة المشتركة للرد على المكالمات. لو تعيّن عليّ توصيل الهاتف إلى المرضى في كل مرة يتلقون فيها مكالمات، فلن يتوفّر لديّ الوقت للقيام بأي شيء آخر. كما أننا نفضّل أن يبذل المرضى جهدًا للتواصل مع أسرهم، بدلًا من العكس.

- أوه.

- أوصي حقًا بإعادة المحاولة في وقتٍ لاحقٍ.
وافقتُها قائلة:

- بالتأكيد، لمَ لا؟

أنهيتُ الاتصال، وألقيتُ بالهاتف في النهر. لم ألقِ الهاتف في النهر. منعتُ نفسي في آخر لحظة، وكتمتُ شيئًا ما يشبه صرخة مكتومة بالفعل. قررتُ أنني أفضل إشعال النار في المستشفى. وأفضل ألا تنسحق روحي. فضلُ بارتليبي النساخ ألا يفعل شيئًا، حتى فضلُ ألا يعمل، وألا يأكل، وألا يقوم بأي شيء، إلى أن مات أسفل شجرة. كما مات روبرت والسر أيضًا تحت شجرة. تُوفي جيمس جويس وكارل يونج في زيورخ، ومات والدنا بجوار الأشجار، على قضبان حديدية. أعطت الشرطة والدتي حقيبة تحوي متعلقاته لاحقًا: الأشياء التي كانت بحوزته عند موته. لم تنكسر نظاراته بطريقة ما، إذ ربما طارت من على وجهه، وسقطت وسط الحشائش الناعمة، أو ربما خلعها بعناية ووضعها على الأرض. لكنّها تفتّتت في يدها عندما أخرجتها من الكيس البلاستيكي، وكذلك ساعته أيضًا. الزمن. فلت هشمه. كان خاتم زفافه مكسورًا، كما تكسرت جميع عظامه تقريبًا، البالغ عددها مائتين وستة.

كان بحوزته سبعة وسبعون دولارًا حينها، واستخدمنا المال لشراء وجبة طعام تايلندي، لأنه تبعًا لقول صديقتي جولي عن مثل هذه الأوقات: «لا يزال يتعيّن على المرء تناول الطعام».



كان نيك يزور ألف في المساء، بعد انتهائه من العمل وعودته إلى المنزل، وبعد ذلك نلتقي أنا وهو لتناول البيرة. كنّا نحدّق إلى بعضنا، ونحن محاصرين بالمشكلات وتلفُّنا الحيرة، ونتحدّث عن خطوتنا التالية. أخذنا نحاول جمع فريق من مقدمي الرعاية ليعملوا مع ألف بعد خروجها من المستشفى.

اقترح نيك على ألف بلطفٍ شديدٍ أن عنصر التعاون عاملٌ رئيسي في رحلتها نحو التعافي. بدا من الواضح أنها لم تكن مهتمة بالفكرة. قالت إن الشيء الوحيد الذي تراه عندما تسمع كلمة «فريق»، هو فريق من أربعة خيول هاربة. إن أحرف كلمة «أنا» لا تشكّل جزءاً من كلمة «فريق»، أليس كذلك، يا يولي؟ كانت تقتبس كلام مدرب كرة السلة في مدرستنا الثانوية، وقالت إن ذلك التعبير دوماً ما كان يثير خوفها. سألتُ عمّا سيفعله هذا الفريق معها؟ وما الذي ستفعله ألف مع الفريق؟ هل ستعدّ القوائم؟ تحدد الأهداف؟ تحتفي بالحياة؟ تبدأ في تدوين يومياتها؟ تُحوّل عبوسها إلى ابتسامة؟ ظلّت تكشف مشاكل أساسية ضخمة فيما يتعلّق بذلك المفهوم بأكمله. قالت:

- يا إلهي، يا نيكولاس، رحلة؟ تعافي؟ فلتستمع إلى نفسك.
كنتُ أستمع إلى نيك أنا أيضًا، وظننتُ أن ما يقوله يبدو جيدًا للغاية،
لكن أُلّف كانت متحفزة، وتجزُّ على أسنانها غيظًا من خداع أفكار المساعدة
الذاتية المتملقة التي كانت موجودة لبيع الكتب فحسب، ولتخدير الفئات
الأضعف، والسماح لِمَا يُسمَّى بالمهن «المساعدة» بالاستمتاع بتهنئة
أنفسهم لقيامهم بما في وسعهم. سيعُدُّون القوائم! وسيحددون الأهداف!
كما سيشجعون مرضاهم على القيام بشيء واحد «ممتع» كل يوم! (أوه،
كان عليك سماع نبرة السخرية في صوت أُلّف، عندما نظقت بكلمة
«ممتع»)، كما لو أنها تبصق من فمها اسم أيخمان أو منجيله).

واجه الخبراء الذين تولوا حالتها صعوبة في فهم السبب وراء عداء
أسرتنا الشديد لمنظومة الرعاية الصحية بأكملها. كما واجهنا نحن أنفسنا
صعوبة في فهم السبب وراء عداء أسرتنا الشديد لمنظومة الرعاية الصحية
بأكملها. عندما تعرَّضت والدتي لحادثة جراحة العشب، وكانت مستلقية
على العشب وبجوارها اثنان من أصابع قدميها، وحينما قفز المسعفون من
سيارة الإسعاف وأتوا راكضين نحوها، نظرتُ إليهم وقالت:

- ما الذي تفعلونه هنا يا رفاق، بحق السماء؟
وعندما أخبر الطبيب والدتي أنني سوف أحتاج إلى استئصال
اللوزتين، قالت له:

- أجل، ربما يمكننا القيام بذلك بأنفسنا في المنزل، لكن شكرًا لك.
في الغالب، لم نكن نرغب في ترك أُلّف بمفردها. سيتعيَّن على نيك
العودة إلى عمله للقضاء على الإسهال، وسأضطر أنا إلى العودة إلى

المنزل في تورونتو في النهاية لإعفاء ويل من مهامه في مجالسة الأطفال، كي يتمكن من العودة إلى دروسه المتعلقة بالإطاحة بفئة الواحد بالمائة. في لغة الموهوك، يتم تهجئة «تورونتو» كالاتي: «تكارونتو»، وتعني الأشجار الواقفة في الماء. (أقدر أن مدننا الكندية أُطلق عليها أسماء أشياء مثل الطين والأشجار والمياه، خاصة وأن كبار الشخصيات الآن يمنحونها ألقابًا من نوعية «المركز المالي»، أو «المركز التكنولوجي»، أو «عاصمة النشر»، أو «أكثر مدينة كوزموبوليتانية في العالم»). لكن في الوقت الحالي، كنت سأشارك جولي زجاجة من النبيذ هذا المساء، على الشرفة الأمامية لمنزلها المتهالك في ولزلي، وهو حي يقع في قلب المدينة، حيث تخلق أشجار الدردار الضخمة سقفًا كسقف الكاتدرائية، له ظلٌ مرقطٌ، بينما يشاهد طفلها فيديو بالداخل.

نشأنا أنا وجولي معًا في إيست فيليدج، إذ إننا بنات عمومة من الدرجة الثانية، كما أن والدتي أيضًا صديقتان مقربتان. (فيما يتعلق بهذا الأمر، يمكن اعتباري أنا وألف أيضًا بنات عمومة، إلى جانب كوننا شقيقتين، لكن لفهم هذا، عليك أن تعرف أن ثمانية عشر فردًا فقط ممن يتمتعون بروح المبادرة من الطائفة المينوناتية أتوا إلى كندا من روسيا للفرار من الجيش الأناركي، لذا... أنت تعلم). استحممنا معًا أنا وجولي عندما كنّا أطفالًا، واخترنا لعبة اسمها «اخفي الصابونة»، كما جربنا أن يتلامس لسانانا، حتى اتضح لنا مع الوقت بشكلٍ مرعبٍ أن هذا سيكون شيئًا يتعين علينا القيام به كثيرًا في المستقبل، إذا أردنا أن نعيش حياة طبيعية مع الأولاد والرجال.

تعمل جولي في حمل الرسائل، وهي عاملة بريد مخصصة، تسير لمسافة خمسة عشر ميلاً يومياً، ومعها حقيبتان من البريد على كتفيها، تزن كلُّ منهما عشرين رطلاً. عندما يهطل المطر، تفتح واحداً من صناديق البريد الخضراء تلك التي تراها على النواصي، بمفتاحٍ معلقٍ في حلقة معدنية ضخمة، وتجلس داخله وهي تدخن وتستمتع إلى برامج البي بي سي الإخبارية من خلال سماعتها. تعرّضت للتوبيخ من مشرفها عدة مرات بسبب ذلك، وبسبب أفعال متمرّدة أخرى لا حصر لها، مثل تسمير خصر التنورة التي منحتها إياها هيئة البريد الكندي، لجعلها مثيرة بدرجة أكبر. كان يتم إيقافها عن العمل أحياناً ليوم، أو يومين، أو ثلاثة أيام، تبعاً لفداحة جرمها، وكان ذلك ملائماً لها، لأنها تتمكّن حينها من قضاء بعض الوقت مع طفلها قبل ذهابهما إلى المدرسة، بدلاً من الاضطرار إلى إيقافهما في الظلام، ونقلهما إلى منزل جارتها بملابس النوم. كانت قد انفصلت عن زوجها مؤخراً، وهو نحاسٌ فارع الطول، ورسام يرسم بألوان الزيت، لذا شرعت تستغل تأمينها الصحي التابع للبريد الكندي كي تزور معالجاً نفسياً. لا يوجد شيءٌ مروعٌ في حياتها، وهي سعيدة للغاية، لكنها تحب فقط أن تكون لديها رفاهية الحديث عن نفسها، وعن مشاعرها، وأهدافها، وآمالها، وخيالاتها. ومن عساه لا يحب ذلك؟ أخبرها معالجها، الذي يتبع مدرسة علم النفس التحليلي، أنها الشخص الأكثر تفاؤلاً الذي التقاه طوال السنوات التي قضاها في ممارسة العلاج، وأن نوم جولي الخالي من الأحلام كان يمثل تحدياً دائماً بالنسبة إليه.

جلسنا على شرفتها وشربنا نبيذاً أحمر رخيصاً، وتناولنا الجبن والبسكويت، وتحدثنا عن كل شيء بخلاف موضوع ألف، الذي كان

موضوعًا أشبه بالوقت من ناحية كوني لا أستطيع القبض عليه، في حين يحكم هو قبضته عليّ. كان طفلاً جولي - صبي وفتاة - في الثامنة والتاسعة من العمر، وكانا لا يزالان يحبان معانقة الناس والجلوس على حجرهم. جلسا بالداخل يشاهدان فيلم «شريك»، وظلاً يخرجان إلى الشرفة كل خمس أو عشر دقائق، (وعند حدوث ذلك كل مرة، كانت جولي تلقي بسيجارتها المشتعلة على العشب كي لا يشاهداها وهي تدخن، ثم تستعيدها لاحقاً). كانا يقولان:

- يا إلهي، حسناً، يا رفاق، يجب أن تشاهدا هذا. يبدو مثل... يبدو مثل... مثل...

ثم يتجادلان معاً لدقيقة أو دقيقتين بخصوص طبيعة الأمر، وكنا نومي أنا وجولي بدهشة تامة، بينما تلقي جولي بنظراتٍ خاطفة بين حين وآخر نحو سيجارتها المتضائلة الملقاة في الحديقة الأمامية. ثم كانا يختفيان فجأة، من دون سابق إنذار، مثل طائر قبرة المروج، ويندفعان داخل المنزل ليعودا إلى موقعيهما على الأريكة.

استعادت جولي سيجارتها المشتعلة، قائلة:

- إنهما يعتقدان أن التدخين يسبب مرض الإيدز.

تحدثنا عن كيف أنه لا يهم كونهم كباراً أو صغاراً في السن، إذ إننا نظل مهووسين برفاههم، ونعاني بشدة وبحدة، ونلوم أنفسنا على كل جزء من الثانية أحسّوا فيه بالنعاسة. فنحن نفضّل إضرار النار في أنفسنا، على أن نرى الدموع تملأ أعينهم ببطء مرة أخرى أبداً. تحدثنا عن أزواجنا السابقين، وأصدقائنا القدامى، ومن خوفنا من ألا يرغب أحدٌ على

الإطلاق في إقامة علاقة حميمة معنا مرة ثانية، ومن الموت وحدنا غير محبوبين وسط فضلاتنا، وقد غطّت أجسادنا قرح فراش عميقة لدرجة أنها تكشف عن عظامنا النخرة. وتساءلنا عمّا إذا كنّا قد فعلنا أي شيء على نحو صحيح في حياتنا.

وصلنا إلى قناعة بأننا على الأرجح قد نكون فعلنا، إذ إننا حافظنا على صداقتنا، وسنظل دومًا نساند بعضنا. وذات يوم عندما يكبر جميع أطفالنا ويتركوننا لنغرق في الندم والكآبة والعجز، وعندما يُتوفى آباؤنا من الأحران المتراكمة وإرهاق الحياة، وحينما يفرّ أزواجنا أو عشاقنا، أو نطردهم نحن خارج عتباتنا، سنشتري منزلًا معًا في منطقة ريفية جميلة في مكان ما، ونقطع الخشب، ونضخ المياه، ونصيد السمك، ونعزف البيانو، ونغني معًا أغاني من الموسيقى التصويرية لـ«يسوع المسيح سوبر ستار»، و«البؤساء»، ونعيد تخيّل ماضينا، وننتظر نهاية العالم.

اتفقنا؟

اتفقنا.

ضربنا كفينا معًا، ولففنا سيجارة ماريجوانا. بدأنا نشعر بالبرد على الشرفة في الخارج. جلسنا نستمع إلى الجليد وهو يشقق ويتكسر في النهر، على مبعدة مربع سكني، وتساءلّت عمّا إذا كانت تلك الألواح الجليدية تستطيع الطيران، وما إذا كان بوسعها التحرر أبدًا، والارتفاع بعيدًا عن كل هذا الضغط الهائج، وكيف سيبدو الأمر عند رؤية لوح جليدي ضخم يطير في طريقه فوق شارع بورتيدج، عائدًا إلى موطنه في الشمال. حدقنا إلى الليل، الذي كان نقيًا وصافيًا، من دون نجوم في شهر أبريل. شاهدنا الأضواء تنطفئ بامتداد الشارع،

وألقينا نظرة خاطفة على طفلي جولي عبر النافذة. كانا نائمين على الأريكة بملابس النوم القطنية، ممسكين بأجهزة التحكم عن بُعد لآلاف الأجهزة الحديثة.

سألتني جولي:

- لماذا لا يتولَّى دان العناية بنورا، إذن؟ إن هذه حالة طارئة. ألم يخبركِ أنه بوسعكِ الاعتماد عليه دائماً في حالات الطوارئ؟ هل أخبرته عن ألف؟

(دان هو والد نورا، وهو صاحبٌ وعاطفي الطباع. ونحن في خضم إجراءات الطلاق).

قلتُ:

- إنه في بورنيو، أو شيء من هذا القبيل، برفقة لاعبة أكروبات.
- لا بُدَّ أن ذلك أمرٌ لطيفٌ، لكنني ظننتُ أنه يعيش في تورونتو.
- أجل، هذا صحيح... كي يكون أقرب إلى نورا، على حد قوله، لكنه في بورنيو في الوقت الحالي.

سألتني جولي:

- إلى الأبد؟

- لا، ليس إلى الأبد. لا أدري، لكن نورا أخبرته بالفعل عن ألف.

عادت جولي لتسأل:

- وهل يتكفَّل باري بمصاريف ويل الجامعية في نيويورك؟

(باري هو والد ويل. وهو ثري لأنه يقضي وقته في إعداد نماذج تقلبات محلية عشوائية لأحد البنوك. تتصف سلوكياته بالغموض، ولا نكاد نتبادل الحديث).

- أجل... حتى الآن.

- هل تستمتع نورا بالرقص؟

(كان الرقص هو السبب الرئيسي وراء انتقالنا إلى تورونتو، كي تتمكّن نورا من الذهاب إلى مدرسة باليه معينة، بفضل منحتها الدراسية، لأنني لم أكن لأتمكّن من دفع تكاليفها لولا ذلك).

- إنها تحبه، لكنها تعتقد أنها بدينة للغاية.

قالت جولي:

- يا إلهي، متى سينتهي كل ذلك الهراء.

- لقد ضبطتها متلبسة بالتدخين.

- هل تدخن كي لا تتناول الطعام؟

قلت:

- أعتقد ذلك. جميع الراقصين يفعلون هذا. لقد تحدثتُ معها بخصوص الأمر، لكن...

سألتنِي:

- وهل يحب ويل نيويورك؟

قلت:

- إنه يحبها حقاً، وهو ماركسي الآن، على ما أعتقد، فهو ينطق اسم كتاب ماركس «رأس المال» باللغة الألمانية، ويقول «كايتال» فقط، من دون أن يستخدم حتى كلمة «داس».

- رائع.

- أجل.

في النهاية، ساعدتُ جولي على نقل طفلها إلى الفراش فسارا البعض المسافة، وحملناهما لمسافة أخرى، ثم ألقيتُ عليهم تحية المساء. لسوء

الحظ لم تكن قد تلقَّت أيَّ نوعٍ من أنواع الإيقاف عن العمل بسبب عصيانها، لذا كان عليها الاستيقاظ مبكرًا للعمل في صباح اليوم التالي.

أخرجتُ حذاءها الذي منحته لها هيئة البريد الكندي، وهو حذاء ذو رقبة مرتفعة له نعلٌ مسننٌ، ثم أعددتُ غداء الطفلين. كان الحذاء المسنن مفيدًا للمشي على الجليد. وجدتُ نفسي ذات مرة في الشتاء خلال عاصفة جليدية، عالقة على الضفة المنحدرة الزلقة لنهر اسينيوين. كنتُ قد سرتُ عبر النهر المتجمد، وانتويتُ تسلُّق الضفة إلى الرصيف المجاور لجسر شارع أوزبورن. كان ذلك بمثابة طريق مختصر إلى وسط المدينة، لكن بدلًا من ذلك، علقتُ على الضفة الجليدية بحذاء ذي نعل أملس، وعجزتُ تمامًا عن العثور على ما يمكنني إحكام قبضتي عليه والتسلق لصعود الضفة شديدة الانحدار. حاولتُ الإمساك بأغصان الأشجار الرفيعة المتدلية فوق الضفة، لكنها كانت تنكسر في نهاية المطاف، فأنزلتُ إلى الأسفل، وأعود من حيث بدأت. استلقيت على ظهري فوق الجليد، أتساءل عمَّا أفعل، بينما أتناول لوحًا من الجرانولا عثرتُ عليه في حقيبتِي، ثم تذكرتُ حذاء جولي الخاص ذا النعل المسنن. اتصلتُ بها من هاتفِي المحمول، وأخبرتني أنها كانت قريبة مني في الواقع، في طريقها لتوزيع البريد، وستأتي لإنقاذي. أتت بعد بضع دقائق، وخلعتُ حذاءها المسنن وألقته نحوي كي أرتيديه وأتمكَّن أخيرًا من تسلُّق الضفة. وقفتُ فوق كيس البريد حتى لا تبتل قدماهما، ودخنتُ سيجارة، بينما تسلقتُ أنا الضفة النهر بحذاءها المسنن، مثل السير إدموند هيلاري. بعد ذلك، ذهبنا لتناول القهوة والدونات. أحيانًا تكون مهام الإنقاذ بسيطة للغاية.

ودَّعْتُ جولي، وتجولتُ بالسيارة في المدينة بعض الوقت، وأنا مشتتة بين الرغبة في المرور بالمنزل القديم في شارع وارسو، وعدم الرغبة في ذلك، وبين محاولة تذكر تلك السنوات من السعادة الزوجية، ومحاولة عدم تذكرها.

كان دان، زوجي السابق الثاني، ووالد نورا، قد ربَّى ويل كما لو أنه ابنه، في حين كان والد ويل البيولوجي، زوجي السابق الأول، في الولايات المتحدة منشغلاً بنماذج التقلبات. شعر كلانا بأننا نجحنا في تصحيح الأمور هذه المرة، بعد زيجاتنا الأولى السيئة للغاية، وأنا انتهينا أخيراً من آلام تطلعاتنا الرومانسية التي لم تتحقق، وانتهينا من اتخاذ القرارات السيئة. وقد بتنا الآن مشتبكين في حرب استنزاف، لكنها في الغالب كانت تتم عبر الرسائل النصية ورسائل البريد الإلكتروني، مثل العشاق المعاصرين. نمُرُ أحياناً بلحظاتٍ وجيزةٍ للغاية أشبه بالهدنة، حينما نكون منهكين جداً بدرجة نعجز معها عن الشجار، أو حينما يغمرنا الحنين وتملؤنا المودة في نفس الوقت بطريقة ما. في بعض الأحيان، يرسل إليَّ روابط لأغانٍ يعتقد أنني سأحبها، أو مقالاتٍ عن الأمواج وما شابهها، أو الكون، أو اعتذارات عن ملايين الأشياء، وفي أحيانٍ أخرى يسكر ويكتب خطاباتٍ طويلة لاذعة، بها سردٌ مطوّلٌ لإخفاقاتي -وهي كثيرة.

دارت في عقلي كلمات إحدى أغاني لودون واينرايت، «لم يحدث شيء بعد»، حينما مررتُ بالسيارة بجوار المنزل الكائن في شارع وارسو. كان هذا هو المنزل الذي بدأتُ فيه كتابة رواياتي الموجهة إلى المراهقين، التي تدور عن الروديو. وقد نجحت الروايات لفترة من الوقت، بدرجة تكفي للمساهمة في سداد أقساط الرهن العقاري وشراء البقالة. هناك تسع

روايات حتى الآن: سلسلة روديو روندا. لكن تبعاً لما يقوله ناشري، فقد حان الوقت كي يتغيّر عالم روندا. بات عددٌ أكبر من المراهقين يعيشون في المدن الآن، ولا يمكنهم الشعور بالارتباط بسباقات الخيل ومروزي الجياد البرية. كما تلتزم محررتي الصبر الشديد معي هذه الأيام، بينما أنا منشغلة بالعمل على «كتابي الأدبي»، وتقول إنه يسعدها انتظار الجزء العاشر من سلسلة روديو روندا، بينما أعمل على «توسيع نطاق عملي». كان المالك الجديد للمنزل بصدد طلائه بطبقة سميكة من اللون الأبيض الرصين، ليغطي طلاءه الأصلي باللونين الأحمر والأصفر، الذي دهنته به أنا ودان في نزوة حمقاء منذ سنوات، عندما كنّا مفلسين، لكننا كنّا سعيدين، ولا نعرف الخوف، ولدينا ثقة تامة بحبنا ومستقبلنا، وفي مملكة أسرتنا الجديدة، وثبات أقدامنا في هذا العالم. لم يكن السياج قد أُعيد طلاؤه بعد، فتوهج باللون الأصفر المبهج في ضوء الغسق، وكان لا يزال بإمكانني رؤية الملصقات التي وزعتها نورا عليه في كل مكان: صور جميلة لضفادع، وسيارات، وأنصاف أقمار، وشموس متوهجة بوجوه سعيدة. كانت هناك لافتة معدنية صغيرة اشتريناها في رحلة عائلية ما، لا تزال مثبتة على البوابة. كُتب عليها: «احترس، يعيش هنا كلبٌ غريب الأطوار». يقول الناس أحياناً في هذه المرحلة: «لا أدري ماذا حدث، لا أعرف ما الذي أخطأنا بشأنه».

توجهتُ إلى منزل نيك وألف، وأوقفتُ السيارة في ممرّهما. حلّ الظلام أخيراً، وراقبتُ نيك لدقيقة عبر النافذة بينما كان جالساً في الظلام أيضاً، محققاً إلى جهاز الكمبيوتر الذي توهج بالكاد. حان الوقت لتبادل الحديث بشأن ألفريدا، في اجتماعنا الليلي كل يوم الذي لا يقربنا إلى

حلّ، لكنه على الأقل يعزز من تضامننا في قضية إبقائها على قيد الحياة. جلسنا في غرفة المعيشة بين أكوام كتب الموسيقى والروايات الصينية، التي كانت أحدث ما استهوى نيك، ونحن نحسّي شاي الأعشاب في آخر أكواب نظيفة لديهم، وتبادل أفكارًا مثل:

- بدت اليوم أكثر تفاؤلاً بعض الشيء، وأكثر استعدادًا لتبادل الحديث، ألا تعتقد ذلك؟

- حسنًا، أجل، ربما... لكن ماذا عن ذلك الجرح الجديد؟

- بعد أن سقطت؟

- هل تعرفين ما إذا كانت تتناول أدويتها؟

- تقول إنها تفعل، لكن...

- أخبرني الممرضة اليوم أنه ليس من المفترض أن نجلب لها طعامًا من الخارج، وأنه يتعين عليها النهوض من الفراش إذا أحسّت بالجوع، والتوجه إلى منطقة تناول الطعام المشتركة في أوقات الوجبات العادية.

- أجل، لكنها لن تفعل. سوف تتضور جوعًا فحسب.

- حسنًا، لن يسمحوا لها بذلك.

- لا، هل أنت متأكد؟ هممم...

لم نتلق أي ردّ بعد من «فريق» العاملين في مجال الرعاية النفسية المنزلية، وبدأنا نتساءل عمّا إذا كان لهم وجودٌ بالفعل. أردنا معرفة عدد المرات التي سيتمكن فيها الفريق من الزيارة، وكم سيتكلف ذلك. اتفقنا على أن التكلفة لا تهّم، وقال نيك إنه سوف يتصل بالشخص المسؤول مرة أخرى في صباح اليوم التالي من مقر عمله، وعرضتُ أن أحاول مرة

أخرى مقابلة طيب ألف النفسي، الذي كان أشبه بمحاولة مقابلة زعيم إحدى أسر المافيا. لم أكن متأكدة حتى ما إذا كان له وجودٌ بالفعل. قلت إنني قد أحاول على الأقل الحديث مع واحدة من كبار الممرضات التي كانت على دراية بالتاريخ المرضي لحالة ألف، وأتوسل إلى أي شخص يقبل الاستماع إليّ كي لا يسمحوا لها بالعودة إلى المنزل، إلى أن تتمكن من وضع هذه الخطة الأخرى قيد التنفيذ، أو إلى أن تكون قد تجاوزت حقاً منعطف الخطر، على حد تعبيرهم.

قلتُ:

- وماذا عن الجولة؟

قال نيك:

- فلتذهب الجولة إلى الجحيم.

قلت:

- أجل، أتفق معك في هذا، لكن علينا التعامل مع الأمر. إنها تشعر بالقلق من خذلان الجميع.

- أعرف ذلك.

وقف نيك، وأمسك بقطعة من الورق فوق البيانو. واصل الحديث قائلاً:

- إنها رسائل لألفريدا، من جان لويس، وفيليكس، وثيودور، وهانز، وأندريا، لا أعرف نصف هؤلاء الأشخاص.

- هل أبلغت كلوديو؟

- لا، لا، على الرغم من أنه ترك رسائل. ترغب جريدة «ذا فري بريس» في كتابة لمحة مختصرة عنها من أجل مجموعة مختارات موسيقية، كما

ترغب مجلة «بي بي سي ميوزيك» أيضاً في كتابة شيء عنها. ها!
عاد نيك إلى الطاولة، وأسند ذقنه إلى كفيه المطبقين. بدت عيناه
محتقتن بالدماء، بل إن وجهه كله بدا محتقناً بالدماء نوعاً ما. ابتسم، لأنه
كان يتصف بالشجاعة.

سألته:

- أتشعر بالتعب؟

قال:

- بدرجة ملحمة.

قام ليشغل أسطوانة، إذ صارت أسطوانات الفينيل هي ما يستهويه
الآن. كان يحب القيام بالعملية، خطوة بخطوة. أمسك الأسطوانة بالطريقة
التي يمسك بها الناس الأسطوانات، ليس بأصابعه، بل براحتيه، ثم نفخ
عليها. بدت الموسيقى همسة ناعمة، لجيتار صوتي واحد، من دون
أصوات مصاحبة. عندما عاد إلى الطاولة، طلب مني النظر إلى عينيه.

قال:

- إنها تنز، كما لو كنت مصاباً بعدوى، أو شيء من هذا القبيل.

سألته:

- هل هو التهاب الملتحمة؟

قال:

- لا أدري. يبدو أنها تنز على الدوام، مجرد سائل صافٍ فحسب،
وليس صديداً، أستلقي في الفراش، ويقطر كل هذا السائل من الجانبين.
ربما يتعين عليّ زيارة طبيب، أو اختصاصي بصر، أو شيء من هذا القبيل.

- نيك، أنت تبكي.

- لا...

- أجل، هذا هو ما يُطلق عليه اسم البكاء.

سألني:

- لكن في جميع الأوقات؟ لا أكون واعيًا للأمر حتى في تلك الأثناء.

قلت:

- إنه نوعٌ جديدٌ من البكاء، لعصرٍ جديدٍ.

انحنيتُ ووضعتُ يدي على كتفيه، ثم على جانبي وجهه بنفس الطريقة التي أمسك بها أسطوانته.

جلسنا في هدوءٍ بعض الوقت، ثم أخبرني نيك بأنه من المفترض أن تقوم ألف بتدريباتٍ على الحفل في غضون ثلاثة أسابيع، قبل يومين من الافتتاح. قلت إنه من المستحيل أن تكون مستعدة، ووافقتي الرأي، لأن كل ما تتحدث عنه هو عدم قدرتها على القيام بالجولة، وكلما أسرعنا في إبلاغ الأطراف المعنية، كان ذلك أفضل. ثم أخبرته أن يتصل بكلوديو فحسب، وسيتعامل هو مع الأمر، كما كان يفعل دومًا.

قلت:

- سأتولّى الاتصال بكلوديو، إذا شئتَ.

- حسنًا، ربما ينبغي لنا الانتظار قليلًا.

- أعتقد أنه بحاجة لأن يعرف بالأمر الآن.

قال نيك:

- اسمعي، أعرف ما سيقوله كلوديو. سيقول: «دعنا ننتظر ونرى». سيعتقد أنها ستتمكن من التغلب على الأمر، كما فعلت في المرة السابقة. سيقول إن العزف أنقذ حياتها، وسيفعل مرة أخرى.
- ربما.

- وربما يكون على حق، ويجب دفعها بعض الشيء، وستكون بخير.
قلت:
- أجل...
قال نيك:

- لكن من البديهي أنها ليست مضطرة إلى القيام بالجولة، إذا كانت لا ترغب في ذلك. لا يبدو الأمر مهمًا عند النظر إلى الصورة الكبيرة، لكنني أقول فقط إنها قد تقرر فجأة أنها تريد القيام بذلك حقًا، وحينها...
قلت:

- أجل، لذا لا يجب علينا الإلغاء الآن.
سقطت رأس نيك على الطاولة ببطء، كندفة من الثلج. كانت ذراعه ممدودة تحتها، وكفه الفارغ على شكل فنجانٍ صغيرٍ.
قلت:

- نيك، عليك الذهاب إلى الفراش، يا نيك.
ثم فعلنا ما كنّا نفعله دومًا عند نهاية محادثتنا: تنهدنا، وفر كنا وجهينا، وتجهمنا، وابتسمنا، وهزنا أكتافنا، ثم تحدثنا عن بعض الأشياء الأخرى، مثل الزورق الذي يبنيه نيك من الصفر في قبو منزله، وخطته للانتهاه منه قريبًا، ليحمله على رأسه في فصل الربيع، متوجهًا إلى النهر الذي يقع على مبعدة مربع سكني واحدٍ فحسب، والتجديف في اتجاه المنبع إلى مكانٍ

ما، (سيكون ذلك هو الجزء الشاق)، ثم الانجراف مع التيار في طريق العودة إلى المنزل مرة أخرى.

تركته جالسًا أمام جهاز الكمبيوتر، ووجهه مضاءً مثل بوريس كارلوف، في قمع الضوء الشاحب الصادر عن الشاشة. تساءلت عمّا كان يطالعه. ما هو نوع الأشياء التي تبحث عنها على جوجل، حينما يكون أحب الناس إليك في العالم بأكمله، عازمًا على مغادرة هذا العالم؟ ركبت سيارة والدتي، وتفقدت هاتفي. وجدت رسالة نصية من نورا: «كيف حال ألف؟ أحتاج إلى إذنك لثقب سرتي. أرجوك؟ أحبك!». كما وجدت رسالة أخرى من راديك، يدعوني فيها إلى القدوم. كان عازف كمان تشيكيًا له عينان حزيتان، قابلته عندما كنت أمشي برفقة جولي في مسارها لتسليم البريد، خلال زيارتي الأخيرة إلى وينيبج. (في الواقع، كان هو السبب وراء مرافقتي لها في طريقها، إذ كانت قد ذكرت أنها سلمت بريدًا لرجل أوروبي وسيم حقًا، بدا أيضًا وحيدًا، ويائسًا. قالت: «مثلك، يا يولي»). جاء إلى وينيبج لكتابة نصٍّ أوبرالي، لكن من عساه لم يفعل؟ إنه ركنٌ مظلمٌ وخصبٌ من العالم، ملتقى المياه الموحلة هذا، ويطرح سؤالًا: «كيف نضع الكلمات الملائمة للحن الحياة المأساوي؟». لا نتحدث أنا وراديك نفس اللغة في الواقع، لكنه يستمع إليّ بصبرٍ، ويعتقد... حسنًا، لا أعرف حقًا ما الذي يعتقده، هل يظن أنه إذا بقي جالسًا لساعة أو ساعتين، وهو يستمع إليّ أثرثر عن خيالاتي بلغة لا يفهمها بالفعل، فسوف ينجح في مجامعتي في نهاية المطاف؟

يساورني القلق الآن من أن كلمة «المجامعة» لم تعد مصطلحًا مستخدمًا، لكنني أشعر بالخجل بدرجة تمنعني من سؤال نورا عمّا هو

عصري. أنا في مرحلة عمرية تجعلني عالقة بين جيلين، أحدهما يستخدم مصطلح «المجامعة»، والآخر يستخدم مصطلح «المضاجعة»، فما هو المفترض تسميته؟ جلست في المطبخ الصغير بالشقة العلوية التي يستأجرها راديك في شارع أكاديمي، وتحدثت معه عن ألف، وعن ياسها، وشعورها بالخدر، وعن «ساعاتها التي بثقل الرصاص»، على حد تعبير إميلي ديكنسون، وعن خطتي الهشة لجعلها ترغب في الحياة، وعن اللا جدوى والغضب، وعن البحرين الكائنين على سطح القمر اللذين يعني اسميهما الصفاء، والبراعة، وعن أيهما يفضل العيش بجواره (اختار الصفاء). كما سألتها عما إذا كان يعرف أن هناك جبلاً جليدياً في مكانٍ ما في كندا، اسمه يعني «خيبة الأمل»، وأنه يغذي نهراً اسمه يعني «خيبة الأمل»، وأن نهر خيبة الأمل يصب في حوض خيبة الأمل أيضاً، لكن لا توجد سداة في ذلك الحوض؟ أو ما راديك برأسه، وصب لي النبيذ، وأعد لي طعاماً. وعندما مرَّ بجانبي في طريقه إلى المطبخ لتقليب المكرونة أو الأرز، قبلني على مؤخرة عنقي. إنه بالغ الشحوب، ويغطي جسده بأكمله شعرٌ أسود خشن. يمزح بلغة إنجليزية ركيكة قائلاً إنه لم يتطور تماماً، وأخبره أنني معجبة به لأنه لم يحرقه أو يزلّه بالكامل مثل الأمريكيين الشماليين الذين يخشون الشعر والفراء بصفة عامة.

- إن شعر الجسد هو آخر حدود الكفاح من أجل تحرير المرأة، يا راديك. أنا منهكة للغاية.

أو ما برأسه.

- آه، نعم؟

قال عندما وضع المكرونة على الطاولة برفق:

- لقد شاهدتُ شقيقتك وهي تعزف.

قلت:

- ماذا؟ هل فعلت؟ لم تخبرني بذلك من قبل.

قال:

- في برج. وأنا لست مندهشًا.

سألته:

- مندهشًا من ماذا؟

قال:

- من معاناتها. عندما استمعتُ إليها وهي تعزف، شعرتُ أنه لا ينبغي لي أن أكون موجودًا معها في نفس الغرفة. كان هناك المئات من الناس، لكن لم يغادر أحدًا. كان ألمًا خاصًا، وأقصد بالخصوصية أنه غير معروف. كانت الموسيقى وحدها تعرفه، وقد احتفظتُ بالأسرار، حتى بات عزفها لغزًا، وهمسًا. وقف الناس بعد ذلك في البار، وتناولوا الشراب من دون النطق بكلمة، لأنهم كانوا متواطئين. لم تكن هناك كلمات.

فكرتُ في كلماته بعض الوقت، وفي سحره الأوروبي العتيق، وطريقة حديثه. ربما يمكننا الوقوع في الحب، والانتقال معًا إلى برج بصحبة ويل ونورا، وستصير حياتي أقل شبهًا بحياتي، وأكثر شبهًا بحياة فرانز كافكا. سيستطيع ويل ونورا دراسة التنس والجمباز، وستمكن أنا وراديك من الذهاب إلى الأوبرا والباليه من دون انقطاع، وسنصبح انفعاليين وشاعريين وثوريين.

قال:

- سأضعها في نفس الفئة مع إيفو بوجوريليتش، أو ربما حتى يفجيني كيسين. إنها تدرك أن البيانو بمثابة مرتبة الكمال للصوت البشري.

قلت:

- لديها بيانو زجاجي داخلها، تخشى أن ينكسر.

قال:

- أجل، ربما يكون قد انكسر بالفعل، وهي تمسك بالقطع في مكانها بالكاد، قبل أن يتحطم. أعتقد أنني وقعت في حبها فجأة، ذلك المساء، وأردت حمايتها.

- أوه، رائع، هل تشعر بالانجذاب إلى شقيقتي؟

ضحك قائلاً:

- لا، بالطبع لا.

لكنني أدركت أنه يكذب. ها هي خيالاتي عن براج قد انتهت. فكرت قائلة لنفسني: حسنًا، من الواضح أن براج لم تكن مصدرًا للمتعة بالنسبة إلى فرانز كافكا على أي حال، لذا فلا تهتمي للأمر، لا تهتمي!

سألني:

- هل تريد من مزيدًا من النبيذ؟ كيف كانت في طفولتها؟

قلت:

- كل ما كانت تفعله هو العزف على البيانو، وتقديم العرائض.

قال راديك:

- آه، حسنًا، إذا كان المرء سيفعل شيئًا واحدًا فقط في حياته، فمن

الأجدر أن يكون عزف البيانو، لكن لا بُدَّ وأن لديك ذكريات أخرى، أليس كذلك؟

قلت:

- لقد تعلمت اللغة الفرنسية عندما كانت صغيرة للغاية، وأحياناً كانت تتحدث الفرنسية فقط، بينما كانت تتوقف عن الحديث تمامًا لفترات طويلة، مثل والدنا، في أحيان أخرى. كانت تطلق عليَّ ألقاباً مختلفة: الدوارة، والفوضوية. حاولتُ التظاهر بأن بلدتنا المينوناتية قرية إيطالية في توسكاني، أو شيئاً من هذا القبيل، وأعادت تسمية كل شيء وكل شخص، جميع الشوارع، وكل شيء. أصبحت مهووسة بإيطاليا. عندما كان أقرابنا من كبار السن من الطائفة المينوناتية يأتون لزيارتنا، كانت تخاطبهم بلقب سنور وسنورة، وتقدّم إليهم قهوة الإسبريسو وشراب الجرابا. سخر الناس منها، وكان الأمر محرّجاً بعض الشيء بالنسبة إليَّ أيضاً.

قال راديك:

- آه، لكنها كانت تخلق جوّاً من الإثارة فحسب، أليس كذلك؟ من خلال كونها مضحكة، ذات ثقافة رفيعة.

- أجل، بوسعي تفهّم ذلك الآن، لكن حينها... كما تعلم. إن بلدة مثل بلدتنا ليست أفضل مكان تعمل فيه على تطوير فقرتك الكوميديّة، لقد أطلق أحدهم النار على منزلنا ذات مرة.

قال راديك:

- ماذا؟ هل كان ذلك بسبب ألفريدا؟

قلت:

- لا أدري. لم نكتشف السبب قطّ. سخر كثيرٌ من الناس أيضاً من

والدنا، لركوبه دراجته طوال الوقت، وارتداء بدلة كل يوم، وقراءة الكتب. دفع ذلك ألف إلى البكاء، كانت تشتاط غضبًا، وتتشاجر مع الناس، بالكلمات فقط في الغالب، محاولة الدفاع عنه. عندما ذهبتُ إلى أوصلو لدراسة الموسيقى، أرسلتُ إليَّ أشرطة مسجلة تتحدث فيها عن حياتها في المدينة، ثم ذهبتُ للدراسة على يد رجل ما في أمستردام، وبعد ذلك مع امرأة في هلسنكي. أعدتُ الاستماع إلى الأشرطة مرارًا وتكرارًا في الظلام، وتظاهرتُ بأنها موجودة معي. كنت قد حفظتُ عن ظهر قلب كلَّ تغييرٍ في نبرة صوتها، وكلَّ نفس، وكررتُ الحديث معها، متحدثثة في أثناء حديثها، وحتى ضحكاتها القصيرة. كنت قد حفظتُ كل شيء عن ظهر قلب.

صبَّ راديك كأسًا آخر من النبيذ لكل منَّا، وقال إنه يفكر في شيء ما، قاله نورثروب فراي عن الطاقة التي يتطلبها الأمر للخروج من حالة ما، وكيف يتعيَّن على المرء بعدها المضي قدمًا مستغلًا ذلك الزخم، لمواصلة الإبداع والاستمرار في إعادة الابتكار. سألني عمَّا إذا كنتُ أتفق في الرأي. قلتُ:

- أجل، أتفق. هل الاختلاف في الرأي مع نورثروب فراي شيء قانوني أساسًا؟

قال راديك:

- بالطبع، ربما تكوني...

- أعرف، أعرف، كنت أمزح فحسب. لكنني أتفق بالفعل.

قال راديك باقتضاب:

- كنت تفتقدين شقيقتك.

- أجل، لكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك، لم أكن حقًا أريدها أن

تعود. لا أعرف ما إذا كنت واعية لذلك حينها، لكنني كنت أعلم، بطريقة ما، إنه يتعين عليها أن تبقى بعيدًا. ومع ذلك، شعرتُ في نفس الوقت أنني بحاجة إلى وجودها، كي أتمكن من البقاء على قيد الحياة في ذلك المكان، لذا أصبحت قلقة للغاية، وانشغلتُ بمحاولة اكتشاف كيف أكون شجاعة خلال غيابها. لعبتُ معي التنس كثيرًا عندما عادت للزيارة. كنّا نلعب في الظلام تنس للمكفوفين. بدا الأمر ممتعًا، لكننا فقدنا الكثير من الكرات. أخبرتني أن عليّ أن أسمع السمع بعناية عندما نلعب تنس المكفوفين، كان هذا هو أهم ما في الأمر. ضحكنا بصخبٍ في الظلام، وصرخنا عندما كانت تصينا الكرة. كان بوسعي التعرف على حالتها المزاجية حينما تعزف البيانو. فازت بأفضل المنح الدراسية في المدرسة، حتى إنها ظهرت في أحد برامج المسابقات التلفزيونية، لكن كان هناك الكثير مما يثير غضبها. كان الافتقار إلى اللياقة يثير ثائرتها. عندما أتى القس إلى منزلنا بصحبة الرجال المسنين التابعين له من الكنيسة، ليخبروا والدينا بأنه لا ينبغي لهما السماح لألف بالسفر للدراسة، لأن ذلك سيملأ عقلها بأفكار كبيرة، أضرمتُ النار في خيمة اجتماعاته تلك الليلة، وأتت الشرطة إلى منزلنا...

قال راديك:

- يا إلهي.

- لكن قبل ذلك، حينما كان رجال الكنيسة في منزلنا، عزفتُ رحمانينوف من الغرفة الأخرى. كنّا أنا ووالدتي مختبئتين في المطبخ. وبدأ الأمر كأنهم كلما زادوا من ضغطهم على والدي، زادت هي من حدة صراخها، أعني، صراخها بالعزف على البيانو. طردتهم بعيدًا ببراعتها وغضبها، مثل يسوع مع

الصرافين، أو داستين هوفمان في فيلم «كلاب القش».

قال راديك:

- مثل ضوء الشمس مع مصاصي الدماء.

- كانوا رجالاً جهلة متوحشين، بدا الأمر أشبه بالعزف لجمهورٍ من

حيوانات المستودون... لم تفعل...

سألني راديك:

- أي مقطوعة كانت؟

- مصنف ٢٣، في سلم صول الصغير.

- ماذا حدث عندما جاءت الشرطة إلى منزلكم؟

لم يسمح لهم والدائي بوضعها في سجن الأحداث، أو إرسالها بعيداً في الغابة إلى المعسكر المسيحي لإعادة البرمجة. أعتقد أن ذلك كان مجرد تهديد على أي حال، لكننا ذهبنا جميعاً في رحلة طويلة إلى فريزنو، في كاليفورنيا، للابتعاد عن الشرطة. وعند عودتنا، كانوا قد نسوا الأمر. أقنعت ألف فتى في فريزنو بأن يصبح صديقها في أثناء وجودنا هناك، وحاول الاختباء في صندوق سيارتنا في يوم رحيلنا. إلا أن والدنا أحسّ بالوزن الزائد عندما انطلقنا بالسيارة، وتوقف كي يتخلص منه. أخذت ألف وهذا الفتى يتبادلان القبلات على نحو محموم، بعد أن أخرجه والذي من صندوق السيارة. ولم يتمكن والذي من التعامل مع الأمر، لذا اضطرت والدتي إلى الخروج من السيارة وإخبار ألف أنه يتعين علينا الرحيل. أتذكرها وهي تجذب ذراع ألف، بينما كانت لا تزال تتبادل القبلات مع الفتى. ثم ركب ألف السيارة أخيراً وهي منخرطة في البكاء، بينما ركض الفتى خلفنا بأقصى ما يستطيع، مثل كلاب المزارع حول إيست فيليدج.

ضحك راديك، وسألني:

- هل لديك صورة لها؟

أخرجتُ صورة من محفظتي، وعرضتها عليه. كانت لها عيناان خضراوان واسعتان، وشعرٌ أسود لامع.

- تبدو مثل الكائنات الفضائية، أليس كذلك؟

قال:

- تبدو جميلة.

في المرة الأولى التي تناولتُ فيها الطعام على مائدة راديك، أخبرته أنني كنتُ مخلصمة لزوجي، وربيت الأطفال معه. ابتسم راديك بعدوبة وأوماً برأسه، كما لو كان معجباً بتلك المرأة، بل ويفضّلها حتى، لكن ها نحن ذا الآن، كما تعلم. يغلبني الإرهاق بشدة هذه الأيام، لدرجة أنني كثيراً ما أضع رأسي على طاولته وأستغرق في النوم، بينما يغسل هو الصحون، ثم يحملني ويضعني في فراشه ويخلع ملابسي بعناية، ويضع بنطالي الجينز على كرسیه بحيث لا يسقط مرطب شفاهي من الجيب ويتدحرج أسفل فراشه بين الغبار، ويضع قميصي فوق مصباحه لخلق هالة جذابة من الضوء، ثم يمارس معي الحب برقة بالغة، كسيدٍ نبيلٍ رقيقٍ. كانت هذه هي الكلمات التي استخدمتها جدتي لوصف جدي، عندما سألتها عن طبيعته كزوج. رقيق. وهي كل ما أستطيع التفكير فيه لوصف راديك أيضاً. عندما يصل إلى ذروة النشوة، يقول شيئاً ما برقة، باللغة التشيكية. كلمة واحدة فقط. أحب العبث بأطراف أنامله، وأتحسس النتوءات والأخاديد الصلبة التي تكونت من الضغط على أوتار كمانه لمدة خمس أو ست ساعات يومياً.

أخبرني بأنني نبحتُ مثل الكلب في أثناء نومي ذات مرة. تذكرتُ على نحو ملتبس للغاية أنني فعلتُ ذلك، كما تذكرتُ حلمًا رأيته، خرجتُ فيه أخيرًا جميع مشاعري، وكل ما أردتُ قوله عن جميع مشاعري، في صورة نباح واحد رديء غير مكتملٍ. أعتقد في بعض الأحيان أنني أقترب بعض الشيء، على الأقل في أحلامي، من فهم فترات صمت ألف. عندما كنت أعيش بمفردي في مونتريال، كسيرة القلب بسبب حبٍّ ضائع، أرسلتُ إليّ اقتباسًا من بول فاليري. لكنها كانت ترسل كلمة واحدة فحسب في كل رسالة، لذا استغرق مني الأمر عدة أشهر كي أفهمها: «الأنفاس، والأحلام، والصمت، والسكون المنيع ... ستتصرين».

أشرق الصباح الآن، وأنا أعاني من صداعٍ من آثار الشراب. بدت عينايا محاطتين بهالاتٍ أرجوانية، وماسكارا سوداء ملطخة، وهناك خطٌّ رفيعٌ جاف من النبيذ الأحمر على شفتي. أخذت يدي ترتعش. تناولت القهوة التي اشتريتها من تيم هورتنز، جرعة مضاعفة عدة أضعاف. والدتي على متن سفينة، بينما نيك غارقٌ في المعادلات المتعلقة بالديدان الشريطية. أحضرتُ لألف الأشياء التي طلبتها: الشوكولاتة الداكنة، وشطيرة سلاطة البيض، والسراويل الداخلية النظيفة، وقصافة الأظافر. كانت نائمة عند وصولي، أدركتُ أنها على قيد الحياة، لأن نظارتها كانت فوق صدرها، ترتفع وتنخفض مثل قارب نجاة صغيرٍ تقطعت به السبل. وضعتُ الوسادة الأرجوانية المزينة بحشرات اليعسوب بجوار رأسها، وجلستُ في المقعد البلاستيكي البرتقالي اللون بجوار النافذة، وانتظرتها حتى تستيقظ. كان بإمكانني رؤية سيارة والدتي الشيفروليه المتهالكة في ساحة انتظار السيارات بالأسفل، فضغطتُ الزر الأخضر على مفتاح التشغيل التلقائي، كي أرى إلى أي مدى يمكنني أن أكون بعيدة عن شيء ما، لجعله ينبض بالحياة. لم يحدث شيء، ولم تشتعل أيُّ أنوار.

تفقدتُ البلاك بيري، فوجدتُ رسالتين من دان. احتوت الأولى على ملخص لأوجه قصوري كزوجة وأم، واحتوت الثانية على اعتذار عن الأولى. الكحوليات، والحزن، والاندفاع، والسلوك المؤسف، كانت تلك

هي أسبابه، العناصر الأساسية للخلاف. تفهمتُ الأمر. في بعض الأحيان، كان يرسل إليَّ رسائل بريد إلكتروني رسمية للغاية، لدرجة تبدو معها كأن كتيبة من المحامين صاغتها، بينما كان في أحيان أخرى يرسل إليَّ رسائل بريد إلكتروني تعد نوعًا من الاستمرار لمحادثاتنا على مرَّ السنين، نوعًا من المزاح الحميمي الذي لا يدور حول شيء محدد، كما لو كان هذا الطلاق برمته مجرد لعبة. كل الاتهامات، والاعتذارات، ومحاولات الفهم، والهجمات... كنت أنا أيضًا مذنبه لقيامي بتلك الأشياء. أرادني دان أن أبقى، وأردتُ أنا أن تبقى أَلْف. كان الجميع في العالم يتشاجرون مع شخصٍ ما كي يبقى. لا يمكن أن يكون ريتشارد باخ قد وجَّه نصيحته إلى البشر، عندما كتب: «إذا كنت تحب شخصًا ما، أطلق سراحه».

دخلتُ الحمام الذي تشترك فيه أَلْف مع رفيقتها بالغرفة، حينما تكون موجودة (كانت ميلاني قد عادت إلى منزلها لزيارة أسرتها)، وفتشتُ المكان بحثًا عن علاماتٍ تدل على التدمير الذاتي. لم أعر على شيء. هذا جيد. حتى غطاء أنبوبة معجون الأسنان أُعيد إلى مكانه، ومن عساه يهتم بذلك، ناهيك عن شخصٍ يرغب في الموت؟ فركتُ خط النبذ كي أزيله عن شفتي، ونظفتُ أسناني بإصبعي. حاولتُ غسل الماسكارا الملطخة، فزدتُ الأمر سوءًا، وبدوتُ شنيعة.

أمرتُ يدي بالتوقف عن الارتجاف، ونفشتُ شعري بعض الشيء، ثم صليتُ لربٍّ أو من به بالكاد. لماذا يقال لنا دومًا إن الرب سوف يستجيب لصلواتنا إذا كنَّا نؤمن به؟ لماذا لا يأخذ هو الخطوة الأولى أبدًا؟ صليتُ طلبًا للحكمة. قلت: «فلتمنحني الحكمة، يا رب»، كما كان والدي يقول امنحني وهو يصلي بدلًا من أعطني، لأنها أقل تطلبًا. كان ذلك ينم عن

الحلم. تساءلتُ عمّا إذا كان والدي قد ورث الأرض، لأنه وفقًا للكتاب المقدس، فمن المفترض أن يتولى إدارة كل شيء هنا الآن.

فتحتُ ألف عينيها، وابتسمتُ ابتسامة مرهقة، وقد بدا عليها الاستسلام لكونها استيقظتُ مرة أخرى، لكن من الواضح أنها أحسّت بخيبة الأمل. سمعتها تفكر قائلة لنفسها: «أي جحيم جديد هذا؟»، وهو اقتباسنا المفضّل من دوروثي باركر، الذي يجعلنا نضحك في كل مرة نقوله فيها، ما عدا هذه المرة. في الحقيقة، كان قد أثار ضحكنا مرة واحدة فقط، وهي المرة الأولى التي سمعناه فيها.

أغمضتُ عينيها مرة أخرى، وقلت:

- لا! لا، لا، لا، لا، أرجوكِ ابقيهما مفتوحتين.

سألتها عمّا إذا كانت تذكر ستوكهولم.

- السفارة، يا ألف؟ هل تذكرين؟

كانت قد دعّنتي لقضاء بعض الوقت معها في السويد لمدة أسبوع، عندما كنتُ حبلَى بويل، وخضنا تجربة تراجيكوميديّة في السفارة الكنديّة، حيث دُعيتُ على الغداء في يوم افتتاح حفلها في قاعة ستوكهولم للحفلات الموسيقيّة. ذهبتُ معها، وأنا أرتدي فستان حمل واسعًا لامعًا، اشتريته من كايمارت أو شيء من هذا القبيل، وقضيتُ معظم الوقت خلال الوجبة وأنا أحاول تفادي إحراج عائلة فون ريزين. جلسنا إلى طاولة بيضاء طويلة، في غرفة بيضاء، مع السفير وكبار الشخصيات، الذين كانوا أيضًا من البيض، ولهم أسماء مثل دالبرج، وجيلينبورج، ولاجير كفيست. بدت ألف رائعة الجمال، وساحرة في ثوب أوروبي بسيط، وكانت خبيرة تمامًا بمثل هذه

الحفلات الفاخرة. بدا كل شيء فيها أنيقًا، وهشًا، وواضحًا للغاية. بدوتُ مقارنة بها كأنني واحدة من تلك الحبارات الضخمة المكتشفة حديثًا، وأنا أتنقل بحركات بطيئة، وأسقط الطعام على نفسي. تبادلتُ ألف الحديث باللغة الألمانية مع زوجين أنيقين فائقي الجمال، حول عزف البيانو على الأرجح، بينما سألني مساعد السفير عمّا أفعله في كندا، قلت:

- أحاول تأليف كتبٍ عن الروديو.

وأشرتُ إلى بطني وأنا أوأصل قائلة:

- وكما تعلم، سأنجب طفلًا.

غلبتني انفعالاتي بدرجة زائدة في معظم الوقت، وتقيأتُ الرنجة في شوارع ستوكهولم المثالية وأنا أنصبّب عرقًا في ثوبي المصنوع من البولستر، كما كنتُ متوترة وأفعل أشياء حمقاء مثل قلب نبض السفير ببطني الضخمة وأنا أمد يدي لتناول الخبز، كما لففتُ نفسي بعلم مانيتوبا كي تلتقط ألفي صورتني، ثم قلبتُ سارية العلم بعدها. لم أعرف كيف أجيب عن الأسئلة التي طُرحت عليّ، مثل: هل تنعمين أنت أيضًا بالجين الموسيقي؟ وكيف هو الحال، كونكِ شقيقة لإحدى العابرة؟

قلت لألف:

- هل تتذكرين البيضة؟

لم تفتح عينيها. كانوا قد قدّموا إلينا نوعًا ما من البيض، ليس بيض دجاج، بل شيئًا آخر. شيئًا صغيرًا، أبيض، لزجًا، مثل مقلة العين. جنينًا يتمايل في محلول ملحي أخضر اللون. ما إن رأيته، حتى اندفعتُ نحو الحمام، وعندما عدتُ إلى الطاولة، أدركتُ ألف أنني كنتُ أبكي ثانية،

وشرعتُ تحاول التخفيف عني على الفور، كما كانت تفعل دومًا، منذ ذلك الوقت الذي كانت تقرأ عليّ فيه اقتباساتٍ من عشاقها الشعراء، كما لو كانت تلك هي مهمتها. حوّلني إلى بطة. بدأتُ تقص عني حكايات حينما كنت طفلة، وكيف أنني كنت الشجاعة المغامرة، وقالت إنه يجب عليهم رؤيتي على ظهر حصان، وسألتهم عمّا إذا سمعوا عن سباق البراميل. قالت أنني أقوى فتاة في البلدة، وأنه لا يوجد من يضحكها بدرجة أشد، وأن جميع حفلاتها لعزف البيانو في الواقع مستوحاة من حياتي، ومن إيقاعها الحر الجامح، إلى جانب رقتها وروح التحدي بها (وكنت أعرف أن ذلك يعني باختصار أن حياتي فوضوية، لكنها لم تستطع الاعتراف بذلك)، أو شيء من هذا القبيل. قالت إنها تحاول عزف البيانو بالطريقة التي أعيش بها حياتي: بحرية، وبهجة، وصدق (اختصارًا لكوني حمقاء مريحة، من دون مهارات اجتماعية). أخبرتُ كل هؤلاء الناس أن الطفل المختبئ داخل أحشائي سيكون أسعد الأطفال حظًا في الكون بأكمله لأنني والدته، كما أخبرتهم أنني أولف كتبًا جميلة عن الروديو، وأنني أقرب صديقاتها. كانت كلها أكاذيب، ربما باستثناء الجزء الأخير تمامًا.

– ألفريدا! هل تذكرين ذلك اليوم؟

فتحتُ عينيها أخيرًا، وأومأت برأسها. أخبرتها أنها لطالما تولّت العناية بي في مثل تلك المواقف، فابتسمت ابتسامة عريضة. أشرتُ إلى الوسادة المزينة بحشرات العسوب بجوار رأسها، وأخبرتها أنني جلبتُ لها هدية. بدت سعيدة بها بصورة مفرطة.

– من أجلي؟ شكرًا لك، إنها جميلة!

ضمّتها إليها، وشكرتني مرة أخرى، أكثر مما ينبغي لها، قلت:
- أنها مجرد وسادة.

سألتني عمّا أحمله داخل حقيبة سوبر ماركت سيفوي البلاستيكية
التي كنت أحملها معي في جميع أنحاء المدينة، فأخبرتها أنها الرواية التي
أكتبها، مجموعة من الصفحات التي شوهتها كثرة التعديلات، مربوطة
بشريط مطاطي.

- كتاب روديو جديد؟

- لا، بل الكتاب. الكتاب الحقيقي.

- هل كتبه أخيراً؟ هذا رائع!

سألتني عمّا إذا كان من الممكن أن أقرأ لها منه، فأجبتُ بالرفض.

- مجرد فقرة؟

- لا.

- جملة؟

- لا.

- نصف جملة! كلمة واحدة؟

- لا.

- حرفاً واحداً؟

قلت:

- حسناً، سأقرأ الحرف الأول من الرواية.

ابتسمت وأغمضت عينيها، وغاصت في فراشها نوعاً ما، كما لو أنها
تعد نفسها لمفاجأة ممتعة. سألتها عمّا إذا كانت مستعدة، فأومأت برأسها

وهي لا تزال مبتسمة، وعيناها مغمضتان. وقفتُ وتنحنحتُ، وصمتُ للحظة، ثم بدأتُ أقرأ.

- ل.

تنهَّدتُ ورفعتُ ذقنها نحو السقف، ثم فتحت عينيها وأخبرتني أنها جميلة. جميلة، وصادقة، وأفضل شيء كتبه حتى الآن. شكرتها، ودفعتُ الصفحة داخل حقيبة سوبر ماركت سيفوي البلاستيكية مرة أخرى.

سألتني قائلة:

- حسنًا، هل يمكنك على الأقل أن تخبريني عمَّا تدور حوله، في كلمة واحدة؟

قلت لها:

- أجل، عن الشقيقات.

ثم حدثتُ إليها بغضبٍ، وأخذتُ أبكي من دون عزاء، لمدة عشرين دقيقة، وأنا مكومة على ذلك المقعد البلاستيكي المكسور بجوار النافذة. مدَّت يدها ولمست قدمي، وربلة ساقي، ومسدت ساقي في ذلك الجزء الذي طالته من الفراش، وأخبرتني أنها آسفة للغاية. سألتها عن سبب آسفها، لكنها لم تقل شيئًا. كررتُ سؤالِي مرة أخرى، وبدأ صوتي قاسيًا وحادًا.

- لماذا تشعرين بالأسف؟

ضربتُ بيدي النافذة المقواة، التي بها أربعة ألواحٍ من الزجاج، لمنع من يرغبون في القفز من اختراقها، وفوجئتُ من الضربة. لكنها أجابتني بالصمت مرة أخرى، وبذلك العينين الخضراوين الواسعتين، اللتين

تحدهما أهداب فائقة الطول. كانتا معتمتين ومسكونتين، مثل عيني والدي، ويبدو البؤبؤ كالسفينة الغارقة وسط كل ذلك الخضار.

لم أمنحها الفرصة للشعور بالارتياح عند سماعي وأنا أخبرها بأنني أنفهم الأمر، وأن كل شيء على ما يرام، وأنني أسامحها، وأنها ليست بحاجة إلى أن تغفر لها، وأنني سأحبها دومًا، وسأحتفظ بقلبيها في مقلمتي. أشحتُ بعيدًا بنظري، وأخرجتُ البلاك بيرى لتفقد رسائل أكثر أهمية من ذلك. كان ويل قد أرسل إليَّ رسالة نصية: «إن نورا غير منطقية على الإطلاق. متى ستعودين؟ كيف حال ألف؟ هل تعرفين مكان إبرة منفاخ هواء كرة السلة؟». أجبته برسالة نصية: «أجل. لست متأكدة. على قيد الحياة. جرّب البحث في درج الخردة. أحبك». بحثتُ في جوجل عن «جين الانتحار»، لكنني ألغيتُ البحث في اللحظة الأخيرة؛ لم أكن أريد أن أعرف، علاوة على ذلك، فقد كنت أعرف بالفعل.

يتساءل الناس: لكن كيف يحدث هذا؟ على الرغم من كل الإجراءات الأمنية التي نتخذها هذه الأيام لإبعاد كل شيء - الأسوار، وأجهزة الكشف عن الحركة، والكاميرات، وكريمات الوقاية من الشمس، والفيتامينات، والأقفال والسلاسل، وخوذات ركوب الدراجات، وحصص التمرينات الرياضية، والحرس، والبوابات - هل يمكن أن يكون لدينا قتلة سريون، يتربصون داخلنا؟ إن الطريقة التي نهاجم بها أرواحنا التي تنعم بالسعادة، كما تهاجم الأورام الأعضاء القوية الصحية، وكما تلقي الأمهات «الطبيعيات» بأطفالهن فجأة من الشرفات... من عساه يريد التفكير في هذا الهراء؟

عند ولادة شقيقتي، زرع والدي شجيرة زيتون روسية في الحديقة الخلفية. وعند ولادتي أنا، زرع شجرة سمن. عندما كنّا أطفالاً، أوضحت لي ألف أن شجيرة الزيتون الروسي قوية، ولها أشواكٌ بطول أربع بوصات، ويمكنها الازدهار في أماكن يموت فيها كلُّ شيء آخر. كما أخبرتني أن شجرة السمن يُطلق عليها في أوروبا اسم الروان، وأنها تستخدم لدرء الساحرات. قالت:

- لذا فنحن محميتان من كل شيء.

قلت:

- حسناً، أنت تقصدين الساحرات، نحن محميتان من الساحرات فقط.

غادرتُ الغرفة، وتجولتُ في الممرات، أوامتُ برأسي إلى الممرضات عند مكتب التمريض، ثم دخلتُ خزانة الأغذية والفوط بطريق الخطأ، معتقدة أنها حمام. خرجتُ مرة أخرى واصطدمتُ بالمماسح والمنظفات وأنا أغمغم بالاعتذارات، حتى عدتُ إلى غرفة ألف وعلى شفتي ابتسامة جديدة بعد أن مسحتُ دموعي، وقد صار وجهي فوضى صارخة من الأوساخ والألوان. حاولتُ أن أواسي نفسي، فبدأتُ في الغناء، لكنه لم يكن غناءً حقيقياً. اخترتُ الزعيم، بروس سبرينجستين (لأنه مرجعية تبعث على الثقة). «طريق الرعد»... ذلك اللحن الشعبي الذي أشعل النار في قلوبنا كفتياتٍ يفتقرن إلى الجمال في الثمانينيات، ونحن نغني لصورنا المنعكسة في المرآة ونمسك بفرش الشعر كأنها ميكروفون، أو نغنيها بقوة

في وجه الريح من على ظهور الشاحنات أو قمم بالات القش الشاهقة.
وها أنا أستدعيه كي يمنحني الأمل مرة أخرى.

عدتُ للارتقاء على المقعد البرتقالي، وطلبتُ من ألف أن تحكي لي شيئاً ما. أرادت أن تعرف عن ماذا، فقلت:

- أي شيء، أخبريني شيئاً ما فحسب. أخبريني عن عشاقك السريين.
قالت لي إن السبب وراء كون العشاق سريين هو أننا لا نتحدث عنهم،
فأومأت برأسي موافقة. - هذا صحيح، ومن الصعب دحضه، ويمكنني أن
أحذو حذوك، لكن فلتخبريني على أي حال. خبريني عن ذلك الرجل،
ماذا كان اسمه؟ ذي البثور الضخمة.

تجهّمت ألف وتنهدت، قائلة إن هيو بويل لم يكن عشيقاً، بل صديقاً،
لذا قلت:

- احكي لي عنه إذن، كيف كان في الفراش؟
قالت ألف:

- لم نتشارك في الفراش.
قلتُ:

- حسناً، لا توجد مشكلة. أين فعلتماها إذن؟ على الأرض؟ على
سلم النجاة من الحريق؟
هزّت رأسها، واصلتُ قائلة:

- حسناً، ماذا عن ذلك الرجل الآخر، الذي تشبه أنفاسه رائحة
القضيب؟

آه، ها هي قد ابتسمت الآن. قالت:

- دينيس بريخت. كان رائعًا، لكن ذلك تاريخٌ قديمٌ. أنا امرأةٌ متزوجة الآن.

سألتُها:

- هل أنت متزوجة حقًا؟ متى تزوجت؟

قالت:

- حسنًا، أنتِ تعرفين ما الذي أعنيه.

قلت:

- أنا في الواقع امرأةٌ متزوجة، لكن ليس لديَّ زوجٌ، بينما أنتِ لستِ امرأةٌ متزوجة، لكنَّ لديكِ زوجًا.

قالت:

- أيًا ما كان، يا يولي.

تشاءبت، وواصلتُ الحديث قائلة:

- كان لطيفًا منك أن تعودني، لكنني أنا من يتعيَّن عليَّ تقديم الاعتذار.

قلت:

- لا، لا، دعكِ من ذلك. لا بُدَّ وأنتِ تلتقين الكثير من الرجال ذوي اللباقة ممن لديهم لكناتٌ مثيرة، ومعرفة موسوعية بالحضارة الأوروبية.

تساءلتُ قائلة:

- هل تتحدثين بسخرية؟

سألتني عن ذلك المحامي المثير في تورونتو، فhezزتُ رأسي. قالت:

- ما اسمه، مرة أخرى؟

- فينبار.

- ماذا؟ يا إلهي، هذا صحيح. فينبار! أولاً، وقبل كل شيء، يصعب عليّ تصديق كونك على علاقة بمحام، وعلاوة على ذلك أيضاً اسمه فينبار!

سألتها:

- ما هو الخطأ في إقامة علاقة مع محام؟

قالت:

- حسناً، لا شيء في ذلك، نظرياً، لكن مجرد كونك على علاقة به، أو كنت على علاقة به، أمرٌ مثيرٌ للضحك.

سألتني عمّا إذا كنت ما زلت أقابله، فأخبرتها أنني لا أدري، ثم رويْتُ لها كلّ تفاصيل وجودي الفوضوي، وأن فينبار ليس هو الرجل الوحيد. قالت:

- يولاندي! كم عددهم؟

قلت:

- إنهما اثنان فحسب، لكنني متعبة، ومرهقة للغاية، وخجلة، لدرجة أنني لا أتذكر بصرحة ما إذا كان هذا صحيحاً أم لا. كما أن أحدهما واقعٌ في حبك أنتِ في الواقع، ويعاشرني بالوكالة فحسب.

سألتني عمّا إذا كان فينبار يعرف بأمر الرجل الآخر، ومن يكون، فبهزئتُ رأسي مرة أخرى.

- لا. أجل، لا أعتقد أنني أخبرته، علاوة على ذلك، فهو لن يكثرث. حسناً، أعرف أن هذه ليست أكثر لحظاتي مدعاة للفخر. إنه رد فعلٍ حيواني غريب، بعد ستة عشر عاماً من الزواج الأحادي مع دان. حسناً، لقد أصبحتُ ساقطة رخيصة، أو أيّاً ما كان الأمر، فلتحرقوني حتى الموت.

أشارت إلى نفسها، ثم رفعت ذراعيها مشيرة إلى جناح الأمراض النفسية الممتد حولها، لتشير إلى المكان الذي هي فيه. قدمت لي التعاطف، ممزوجة مع المزاح. شقيقتي الكبرى، التي أحبها. ضحكنا بعض الشيء، بدرجة بسيطة. لم يكن ضحكًا على الإطلاق، في الواقع. قالت إنها تأمل أن أحرص على استخدام وسائل الحماية، ووجدت الأمر مثيرًا للضحك، حينما تفوهت هي به.

تذكرت حديثها معي عن الجنس، حينما كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر. سألتني عمًا إذا كنت أعرف معنى الانتصاب، فأجبتها بالإيجاب، وقالت: «رائع!». كان ذلك هو كل ما في الأمر: دليلي الملاحى المقتضب لأكبر حقل ألغام يواجه البشرية. تذكرتنا نحن الأربعة، أسرنا، عندما كنّا جميعًا لا نزال صغارًا في السن، وبكامل قوانا العقلية، وعلى قيد الحياة، عندما لم تكن لدينا غرزٌ جراحية في رؤوسنا، ولم تكن أيدينا ترتجف، ونحن نتجول بالسيارة في وينيبج، في إحدى الليالي المهمة بالمدينة. ربما كنّا نتفقد أضواء زينة عيد الميلاد أو شيئًا ما، وكنت قد بدأت تعلم القراءة للتو، وشرعتُ أقرأ كل لافتة بصوت مرتفع للتدريب، عندما رأيت لافتة شارع «كوكبيرن»، الذي يعني «التهاب القضيب». قلت: «شارع كوكبيرن»، ثم سألت «ما هذا؟». لا بُدَّ أن أُلْفَ كانت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر، وقالت إن هذا بسبب الجنس المفرط، فأمرتنا والدتي بالصمت من مكانها في المقعد الأمامي، ولم نجرؤ على النظر إلى والدي الذي قبض على عجلة القيادة وحدث من النافذة الأمامية مثل قنّاص يتعقب هدفه. كان هناك شيئان لم يرغب في التحدث عنهما أبدًا، وهما الجنس، وروسيا.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها أحدهم ينطق بكلمة «الجنس»، ولم تكن لديّ سوى فكرة مبهمة للغاية عن معناها، ويكون الموضوع له علاقة بالمستشفيات. لكن الأهم من ذلك، تذكرت النظرة التي علت وجه ألف في السيارة. بدت فخورة بنفسها، وابتسمت وشرعت تدندن، وحدثت من النافذة إلى العالم الذي كانت تأمل الانتصار عليه ذات يوم. كانت قد زعزت الاستقرار في عالم طائفنا المينوناتية الصغير المنعزل، وأثارت الاستياء بعض الشيء، كما أمرتها والدتنا بالصمت، وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل، على الإطلاق. في ذلك اليوم، أدركت بوضوح قواها الجديدة، وأردت أن أصبح مثلها. منذ ذلك الحين، صرّيت أمسك بدراجتها وأسير بجديّة ذهابًا وإيابًا على الرصيف، من أحد طرفي شارع فيرست حتى الطرف الآخر. كان بوسعي الوصول إلى المقود بالكاد، ولم أكن حتى أعرف كيفية ركوب الدراجة. كما حملت كتبها المدرسية أيضًا ذهابًا وإيابًا في شارع فيرست، وأنا أنقلها بضجرٍ من ذراعٍ إلى آخر، إذ كنت أحمل عبئًا أكاديميًا كبيرًا للغاية. لطختُ بنطالي الجينز المصنوع منزليًا الذي لا يواكب الموضة ببقع الطلاء، ليشبه بنطالها الحقيقي. كما تدربتُ على أن أبدو كأني مفعمة بالعاطفة، وذلك بأن سحبتُ غرة شعري أمام عيني، وتركتُ شفتي ترتخيان. وقفتُ أمام مرآة الحمام، وتدربتُ على إطلاق النار على نفسي بمسدسٍ وهمي، كما كانت تفعل ألف كلما أرادت التعبير بسخرية عن أنها لم تعد تستطيع تحمّل الأمر. ظننتُ ذلك شيئًا فائق البراعة: التوقيت، واللحظة السريعة بين الضغط على الزناد ووقع الضربة، يلي ذلك ارتجاج رأسي جانبيًا. بعد كثيرٍ من التدريب، أظهرتُ لها أخيرًا أنني أتقنتُ حركتها المميزة، فضحكتُ وشفقتُ، وقالت:

- أحسنت، لكن تلك الحركة انتهت الآن، ها هي الحركة الجديدة.
عرضتُ عليّ تمثيلية صامتة متقنة، تتضمن مشنقة خيالية، وعنقاً
مكسوراً، ورأساً متدلياً. لكنني كنت قد فقدت الاهتمام بالفكرة نفسها
حينها، وتركتها تحتفظ بتلك الحركة.

أخبرتُها بأنني أحرص بالفعل على استخدام وسائل الحماية، فقالت
لي إنني لا يزال بإمكانني الحمل إذا لم أحترس، وإنني لستُ كبيرة في السن.
وافقتُها القول، وأخبرتُها أنها قد تصبح خالة مرة أخرى.

كانت تجالس ويل ونورا كثيراً حينما كانا صغيرين، وتقرأ لهما، وترسم
معهما، وتركب معهما الحافلات، وتحولهما إلى بطلين، وتساعدهما على
خلق عوالم رائعة وممتعة، أي شيء فيها ممكن، بينما أُنقل أنا ما بين وظيفة
بدوام جزئي والدروس الجامعية، محاولة «وضع الأهداف السامية نصب
عيني»، و«خفض سقف توقعاتي»، في الوقت نفسه. ما زالت تواظب على
كتابة الرسائل والبطاقات لهما، أو كانت تفعل حتى وقت قريبٍ للغاية،
بألوانٍ مختلفة من الحبر الوردي والأخضر والبرتقالي، وبخط يدها المميز
الذي يذكرني بالخيول التي تتسابق للوصول إلى خط النهاية، وتحثُّهما
على أن يكونا شجاعين، وأن يستمتعا بالحياة، وأن يعرفا كم هي فخورة
بهما، وكم تحبهما.

سألتها عمّا إذا كانت ستسعد إذا أصبحتُ حبلى، وهو سؤالٌ سخيفٌ
يوحي بأنني سأفعل ذلك على الفور، في التو واللحظة، أحبل وأنجب
طفلاً، إذا كان ذلك سيجعلها ترغب في الحياة، فأجابتنني بابتسامة حزينة،
وبتلك النظرة، التي تدل على استحالة الأمر برمته.

سألتهما عمّا إذا كانت قد استمتعت بزيارة نيك في الليلة الماضية، وإذا أكلت، وإذا استحممت، وإذا انضمت إلى الآخرين في الغرفة المشتركة، وإذا استجابت لنداء تناول وجبة الإفطار، أو إذا تعاملت مع أي فرد آخر في جناح المستشفى في ذلك اليوم. توسلت إليّ ألا أستجوبها، فاعتذرتُ، وذكرتي بأننا ستتخلى عن تقديم الاعتذارات لبعض الوقت. قلت:

- أجل، لكن الاعتذار هو ما يبقينا متحضرين.

فقلت:

- لا ، على الإطلاق. الاعتذارات تسمح بجميع أنواع الوحشية. فكري في المفهوم الكاثوليكي للاعتراف، وكيف يسمح بمسح سجلات بأكملها مليئة بالطيش، و...

قلت:

- حسنًا.

سألته:

- هل تعرفين ما قالته نيللي مكلونج؟

- أخشى أنني لا أعرف، لكن فلتخبريني ما قالته.

- لا تقدمي أي توضيح أبدًا، ولا تتراجعني أبدًا، ولا تعتذري أبدًا،

أنجزني الأمر فحسب، ودعيهم يعوون.

قلت:

- يعجبني ذلك، لكن ألم تكن تتحدث عن الحصول على حق

التصويت للنساء؟ لا أفهم الإشارة إلى مقولتها في هذا السياق، كنت

أعتذر عن إزعاجك.

قالت:

- يولي، كل ما أقوله فحسب هو أن الاعتذارات ليست هي حجر الأساس للمجتمع المتحضر.

قلت:

- حسنًا! اتفقنا. لكن ما هو حجر الأساس للمجتمع المتحضر؟

قالت ألف:

- المكتبات.

فكرتُ في شراسة تيار الكبرياء الجاري في عروقها، الذي ورثته من والدنا، وهو يضرب أو يدمر، لا أدري أيهما. ثم فكرتُ في آخر ما كتبه بافيزي في مذكراته، وهو يوبِّخ نفسه لعدم امتلاكه ما يكفي من الشجاعة لقتل نفسه. كتب قائلاً إن حتى النساء الضعيفات (أوه، فتلتهو بعيداً عنا، يا بافيزي، كما كانت والدتي تقول) يمكنهن فعل ذلك، أو شيء من هذا القبيل، وخلص في النهاية إلى أن هذا الفعل يتطلب التواضع، وليس الكبر.

قلتُ:

- بمناسبة المكتبات، هل تقرئين شيئاً هذه الأيام؟

- لا، إن التفكير في أي شيء صعبٌ للغاية.

- ومع ذلك فإن كل ما تفعلينه هو الانشغال بالتفكير.

- كنت قد بدأتُ قراءة كتاب عنوانه «هل أنا إنسان فائض عن

الحاجة؟».

قلت:

- أوه، يا ألف، دعك من هذا.

قالت:

- هل تعتقدين أن الإنسان ما هو إلا مجموع ذكرياته فحسب؟

- لا، لا أعتقد ذلك.

- حقًا يا يولي... لقد أجبت بسرعة، كما لو أنك لا تريدني أن أطرح

هذا النوع من الأسئلة، لكن ألا يمكننا التفكير في الأمر على الأقل لدقيقة أو دقيقتين؟

- ما الذي تقصدينه؟ أنا لا أعرف ما الذي تسأليني عنه. إن كينونتي

ليست عبارة عمّا أتذكره، بل أنا ما أحلم به، وأنا ما أتمناه، وأنا ما لا أستطيع

تذكره، وأنا ما يريدني الآخرون أن أكونه، وأنا ما يريدني ولداي أن أكونه،

وأنا ما تريدني والدتي أن أكونه، وأنا ما تريدني أنت أن أكونه، ما الذي

تريديني أن أكونه؟ ألسنا بحاجة إلى البقاء في هذا العالم كي نكتشف ماذا

نكون؟ ما الذي تريدني أن أكونه؟

قالت ألف:

- أوه، لا أدري. حدّثيني عن حياتك في تورونتو.

قلتُ:

- حسنًا، أنا أكتب، وأتسوق لشراء الطعام، وأدفع تذاكر وقوف

السيارات. أراقب نورا وهي ترقص. كما أطرح على نفسي الأسئلة عدة

مرات يوميًا. أذهب للتمشية كثيرًا، وغالبًا ما أحاول بدء محادثاتٍ مع

الناس، لكن ذلك نادرًا ما ينجح. يعتقد الناس أنني مجنونة. صادفتُ رجلًا

يعزف على جيتاره في الحديقة ذات يومٍ، وكان الكثير من الناس، مجرد

أشخاص تصادف وجودهم في الحديقة، يغنون معه بهدوءٍ على نحوٍ جميلٍ للغاية، وفتتُ للاستماع لبعض الوقت.

سألني ألف:

- ماذا كانت الأغنية؟

قلت:

- لا أعرف. السطر الوحيد الذي أتذكره هو قوله إننا جميعاً لدينا ثغراتٌ في قلوبنا، أو ربما قال حياتنا. وقد شاركه الغناء هذه الجوقة المرتجلة من الأشخاص في الحديقة، مكررين عبارة أننا جميعاً لدينا ثغرات في حياتنا... جميعنا لدينا ثغرات في حياتنا...

أمسكتُ بيد ألف، وقبّلتها كما قد يفعل رجلٌ نبيلٌ. واصلتُ قائلة:

- ثم فكرتُ كيف أن الناس يحبون الحديث عن آلامهم ووحدتهم، لكن بطرقٍ مموّهة. أو بطرقٍ منظمة نوعاً ما، لكنها ليست كذلك في الواقع. أدركتُ أنني عندما أحاول بدء محادثات مع أشخاص، مجرد غرباء في الشارع أو في محل البقالة، فهم يعتقدون أنني أعرض ألمي ووحدتي بطريقة خاطئة، ويصابون بالتوتر. لكن بعد ذلك رأيت تلك الجوقة المرتجلة تكرر عبارة مفادها أن الجميع لديهم ثغرات في حياتهم، بشكلٍ جميلٍ للغاية، وبرقة، وبدرجة من القبول، بل والبهجة أيضاً، وهم يعترفون بالأمر فحسب، فأدركتُ أن هناك أساليب أخرى للقيام بذلك، تختلف عن تلك التي كنتُ أجربها.

سألني ألف:

- إذن هل ستتوقفين الآن عن الحديث إلى غرباء عشوائيين؟

قلت:

- أعتقد هذا. لذلك، أنتِ محظوظة للغاية لكونكِ تملكين بيانو.

ضحكتُ ألف، وقالت:

- لا تتوقفي عن الحديث إلى الغرباء. أنتِ تحبين تبادل الحديث مع الغرباء. أنت مثل والدنا تمامًا. هل تذكرين عندما كنَّا نذهب إلى المطاعم أو أي مكانٍ آخر، وكان هو يتأمل الناس، ويتساءل عمَّا هي حكايتهم، ثم يذهب ويبدأ في الحديث معهم؟

قلتُ:

- أجل، حسنًا، لكن بما أنكِ ذكرتِ ذلك الآن، فدومًا ما كنتُ أشعر بالحرَج من الأمر بعض الشيء. أذكر أنني كنت أجذب والدي بعيدًا عن الغرباء في بعض الأحيان، قائلة له: «لا، يا أبي، لا بأس، لا يتعيَّن عليك الحديث معهم». إن ويل ونورا يشعران بالحرَج بسببي الآن، على الأرجح.

قالت ألف:

- ليس على الأرجح، بل هذا من المؤكد، فهما في سن المراهقة. وماذا أيضًا؟ أخبريني المزيد عن تورونتو.

قلت:

- حسنًا، كنتُ أسير ذات يومٍ في زقاقٍ خلفي بالقرب من مسكني، ورأيت زوجين مسنين يحاولان الوصول إلى شيء ما بالقرب من أعلى باب مرآبهما. اقتربتُ، ورأيتُ أنهما يحاولان مسح بعض الكتابات على الجدار، لكنني لم أميزها. ثم لاحظت أن الرجل يقف على مقعدٍ منخفض للغاية، لم يكن ارتفاعه عن الأرض يزيد عن ست أو سبع بوصات فقط،

وكانت المرأة تقف خلفه، كأنها تراقبه، وتمسك بوركيه كي لا يسقط. أردتُ البكاء. كانا مسنين للغاية، وأحدهما مهتم بالآخر، وكل ما يريدانه هو مرآب نظيف فحسب. كانا يتعاونان بهذه الطريقة، وعلى الرغم من أن المقعد كان يعلو عن الأرض بنصف قدم فقط، فإنها ستصبح كارثة إذا سقط.

أغمضت ألف عينيها، وقالت:

- هذا جميل. آمل أن يظل مرآبهما نظيفاً إلى الأبد.

قلتُ:

- لن يحدث هذا؛ سرعان ما ستغويه الكتابات مرة أخرى.

قالت ألف:

- هممم...

- لكن المؤثر للغاية بشأن هذين الزوجين هو أنهما مستمران في محاولة التخلص منها. أعتقد أنهما وازبا على ذلك طوال حياتهما، آملين رغم كل الصعاب أن يبقى نظيفاً ولو لمرة واحدة.

قالت ألف:

- يولي، هل ضمنتِ أي حكمة في هذه الحكاية؟ شيئاً تتمنين أن أستخلصه منها؟

قلت:

- هل تعنين شيئاً بخصوص عدم الاستسلام؟

قالت ألف:

- هذا هو ما أقصده.

قلت:

- لا. في الواقع، بعد أن أمعنت التفكير في الأمر الآن، أعتقد أن الدرس الذي قد يستخلصه المرء من هذه الحكاية تحديداً هو التوقف عن المخاطرة بحياته من أجل الحصول على مرآب نظيف.

تنهدت ألف بقوة، ومدت كفيها مثل أب يرحب بابنه الضال، كما لو أنه لا يتعيّن علينا الحديث عن هذا، وأن الماضي قد ذهب وانقضى. رنّ هاتفي المحمول، ووجدت المتصل هو وكيل ألف، كلوديو. كانت عميلة لديه منذ أن كانت في السابعة عشرة من العمر، وتدرس في أوسلو. حضر إحدى حفلاتها في روما. بعد ذلك، عندما خرجت خلف قاعة الحفلات الموسيقية للتدخين وهي تبكي وترتجف، كما هي عاداتها غالباً بعد حفلاتها، اقترب منها ومدّ إليها يده، وأخبرها أنه شرفٌ كبيرٌ أن يتمكّن أخيراً من لقاءها. كان قد سمع عنها الكثير للغاية، وقال لها إنه يريد أن «يمثلّها»، فقالت له ألف:

- هل تعني أنك ستظاهر بكونك أنا؟

شرح لها كلوديو الترتيبات بصبرٍ، وسأل ألف عمّا إذا كان بوسعه التواصل مع والديها، كما سألها عمّا إذا كانت على ما يرام، وإذا كان بوسعه استدعاء سيارة أجرة لها، وإذا كانت بحاجة إلى تناول الطعام. كانت ترتدي سترتها العسكرية فوق فستان الحفل الأسود، وقد خلعت حذاءها وجلست على الأرض تسحق سيجارتها في الأسفلت، بينما هي تتعافى وتستمتع إلى هذا الرجل الإيطالي الهادئ اللبق وهو يخبرها أن أمامها مستقبلاً باهراً. أحبيتُ سماع ألف وهي تقص الحكاية، سألتها:

- وهل قررتِ على الفور ساعتها أن تجعله وكيك؟

قالت:

- لا، لقد أصرَّ على الذهاب إلى مانيتوبا أولاً، للقاء والدتي ووالدي
لطلب الإذن منهما، منتهى الرقي.

أعتقد أنه كان أول إيطالي حقيقي تطأ قدمه بلدنا. قال بعد ذلك إن
امرأة ما في آخر المربع السكني، السيدة جوسين على الأرجح، توجَّهتُ
إلى منزل والدي كي تحدِّق إليه فحسب. أخبرته أنها لم تغادر البلدة قطُّ،
وحدقت إليه وقالت له إنها لا تصدق كونها تقف في نفس الغرفة مع
شخص إيطالي! خطوة صغيرة لإنسان، وثبة عملاقة للبشرية. لم تكن ألف
تعرف شيئاً عن حياة كلوديو الشخصية، سوى أنه يزور والده المريض في
مالفي مرة واحدة شهرياً، ويحب السباحة لمسافات طويلة. كان يسبح عبر
المضايق والممرات المائية والقنوات، وكثيراً ما كان وجهه يتورم من أثر
لسعات قناديل البحر. لقد أنقذ ألف بملايين الطرق المختلفة.

خرجتُ إلى الرواق. اعتذر عن الاتصال بي، لكنه قال إن ألف ونيك لا
يجيبان على هاتفيهما، ولا على رسائل البريد الإلكتروني، وإنه بحاجة إلى
مراجعة تفاصيل الجولة مع ألف، وكان لا يزال هناك عقدٌ يجب توقيعه.

سألني:

- هل تعلمين مكانها؟

قلت:

- ليس على وجه التحديد، ألسَتَ في أوروبا الآن؟

- بلَى، في باريس. اسمعي، يا يولاندي، هل هذا لأنها تتبع عاداتها في

الانقطاع للتأمل لمدة أربعة أيام، أم هل ذهبت في رحلة تجديد مع نيك؟

- أعتقد ذلك، أجل، ربما...

- التأمل؟

- نعم.

- يولاندي، أرجو أن تخبريني أن كل شيء على ما يرام. أعرف أن

ألف تكون غير مستقرة مع اقتراب موعد حفلها، هل هي بخير؟ هل هي متماسكة؟ أنت تعرفين أن بوسعك مصارحتي.

قلت:

- ممم... ربما. لست متأكدة تمامًا.

قال:

- لست متأكدة؟ حسنًا، هل يعرف نيك كيف حالها؟ يولاندي، لقد

استغرق الإعداد لهذه الجولة شهورًا طويلة، يجب أن تكون مستعدة في غضون أقل من ثلاثة أسابيع.

قلت:

- أجل، نيك يعرف على الأرجح.

اقتربت مني ممرضة، وأخبرتني أن الهواتف المحمولة ممنوعة في

العنبر. أشرتُ نحوها قائلة:

- سأغلق الهاتف خلال بضع ثوانٍ، معذرة، أنا آسفة.

قال كلوديو:

- هل أنتِ في تورونتو؟ ذكرتُ ألف أنك غيّرتِ محل إقامتك.

قلت:

- حسنًا، أجل، لقد فعلت. كان ذلك من أجل نورا، كي تتمكن من دراسة الرقص.

- آه، جميل! هل يعجبك ذلك؟

- الأمور تسير على ما يرام.

- وماذا عن ويل؟ أين أخبرني أنه يدرس؟

- نيويورك.

قال كلوديو:

- رائع! من فضلك أبلغيهما تحياتي.

قلت:

- سأفعل، شكرًا لك. أعتقد أنه يتعين عليّ إنهاء المكالمات الآن، معذرة.

قال كلوديو:

- لا داعي للاعتذار. من المقرر أن تعزف ألف في حفل في تورونتو في الثامن من هذا الشهر، على ما أعتقد. سيكون لديها وقتٌ لتناول العشاء، على الأرجح.

قلت:

- أوه، سيكون ذلك رائعًا للغاية. أجل، سأراها حينها. حدثت إليّ الممرضة بغضبٍ من خلف مكتبها، فأدرتُ لها ظهرِي. قلت:

- اسمع، يا كلوديو، سأكتشف مكان ألف، وسأجعلها تتصل بك. ستعرف والدتي مكانها، على الأرجح.

- أجل، من فضلك افعلي ذلك، يا يولاندي، يجب حقاً أن أتحدث إليها، أعتذر عن كوني أطلب منك أن تطمئيني.

- لا، لا... لا تعتذر.

قال:

- أنتِ تعرفين ما حدث في الماضي، أشعر بالحساسية حيال توتّر أعصاب ألف.

- أجل، نحن نقدر ذلك، شكراً لك.

قال:

- لا داعي للشكر. أوه، ولا تنسي أن هناك تدريبات على الحفل قبل الافتتاح بيومين...

كانت الممرضة تخطو قادمة نحوي الآن. قلت:

- فهمتُ. أين أنتِ، مرة أخرى؟

قال كلوديو:

- في باريس.

قلت:

- باريس.

ووقفتُ للحظة أحلم بالحب.

أنهيتُ المكالمة، وعدتُ إلى غرفة ألف. قالت:

- هل هو اتصالٌ من عشيقك؟

قلت:

- ها، أجل. ألا تشاقين إلى البيانو على الإطلاق؟

توجَّهْتُ ألف بنظرها إلى خارج النافذة.

- يتولَّى نيك التعامل مع ذلك الأمر. لقد سبق وأن أخبرتك بالفعل،
لا أستطيع...

- لديك ثلاثة أسابيع تقريباً. ربما...

- يولاندي، لماذا أنت...

- أنا لا أفعل شيئاً، يا ألفريدا.

دخلتُ الممرضة التي تكره الهواتف المحمولة إلى غرفة ألف،
وقالت:

- حسناً، هناك شيئان: أولاً، ممنوع وجود هواتف محمولة في العنبر،
لقد أخبرتك من قبل. ثانياً، ممنوع جلب طعام من الخارج. لقد لاحظتُ
أنكِ جلبتِ لها شطيرة، نريد أن تتناول ألفريدا الطعام مع المرضى الآخرين
في غرفة الطعام.
حدقنا إليها، أنا وألف.

قالت الممرضة:

- ألفريدا، هل يمكنني أن أجعلكِ تقطعين لي وعداً بأنكِ سوف تأتين
إلى غرفة الطعام لتناول العشاء هذا المساء؟
قالت ألف:

- آه، حسناً... أعني أنه يمكنني... سوف أحاول. لكنني مع ذلك
لست متأكدة ما إذا كان بوسعكِ أن تجعليني أقطع لك وعداً.
ضحكت ألف.

قالت الممرضة:

- فهمتُ، هل هذا تحدُّ؟

قالت ألف:

- ماذا؟ لا، على الإطلاق. كنتُ فقط...

قلتُ:

- كانت تمزح فحسب.

قالت الممرضة:

- حسنًا، هذا رائعٌ، نحن نحب المزاح، المزاح مؤشِّرٌ جيّدٌ على

شعوركِ بالتحسن، أليس كذلك؟

لم ينبس بكلمة، أنا ولا ألف، ولم تتمكن إحدانا من النظر إلى الأخرى.

قالت الممرضة:

- إذا كنتِ في حالة تسمح بالمزاح، إذن أعتقد أنكِ في حالة تسمح

بالانضمام إلى الآخرين لتناول العشاء، أليس كذلك؟ أليست هذه هي

الطريقة التي تسير بها الأمور؟

قالت ألف:

- أنا، آه... ربما؟

قلتُ:

- أعتقد هذا.

قالت ألف:

- لستُ متأكدة. لا أستطيع فهم العلاقة بين...

قلتُ:

- أجل، نعم، العشاء.

ثم ألقى نظرة خاطفة نحو ألف.

قالت الممرضة:

- صحيح. إذن، لا هواتف محمولة؟

نظرت إليّ، وواصلت حديثها قائلة:

- ولا طعام من الخارج؟

قلت:

- اتفقنا.

رفعت لها إبهاميّ، وابتسمت ابتسامة عريضة.

غادرت الممرضة، وأطلقنا وراءها أنا وألف رصاصاً وهمياً، بينادق من طراز إم ١٦، تمامًا كما فعلنا حينما كنّا لا نزال فتيات، عندما أتى عمدة البلدة إلى منزلنا ليخبر والدينا كم نحن ساقطات. توقفنا عن إطلاق النار، وتبادلنا النظر.

قلتُ:

- هل تذكرين عندما أنقذتني في غرفة نومي؟ حينما كنت عارية، ومحشورة بين فراشي وخزانة الملابس؟

أومأت ألف برأسها قائلة:

- كنت تتدربين على الشقلبة.

- هل تذكرين عندما ذهبنا للتزلج في نفق المستشفى، وحسبني هؤلاء الصبية الأوغاد في المشرحة، وكنْتُ في عداد المفقودين لمدة ست ساعات تقريباً، حتى عثرت أنت عليّ، وأنا ملتفة على نفسي فوق ذلك الشيء المصنوع من الفولاذ المقاوم للصدأ، حيث يقومون بتشريح الجثث؟

ابتسمت ألف قائلة:

- أوه، لا. لا تحدثني عن تلك الأيام.

- لماذا؟ أحب أن أذكرها، يا ألف. أحب التفكير فيكِ وأنت تنقذيني.

تأوّهت ألف وقالت:

- يولي، تحدثني عن الوقت الحاضر، استمري في حديثك لي عن تورونتو.

كانت عيناها دامعتين.

قلتُ لها:

- أنا بصدد إزالة الوشم الذي لديّ. كان لدينا نفس الوشم، أنا ودان. رسمهما لنا راكب دراجات بخارية في الطرف الشمالي من وينيبيج، في أيام تعارفنا الأولى. كانت إزالته مؤلمة بدرجة فاقت توقعاتي، لكن في ظل الظروف الحالية، استمتعتُ بالألم، ورحبتُ به؛ بدا كأنه نوعٌ من أنواع التكفير عن الذنب. كان راكب الدراجة البخارية الذي رسم لنا الوشم عضوًا في عصابة مانيتوبا واريورز، ويسكن في منزلٍ له بابٌ من الفولاذ المُقوّى، يُفتح من الداخل فقط.

قالت:

- لكن مهلاً، كيف كان يدخل إذن؟

قلت:

- لا أدري.

أخبرتها أنني دفعتُ له عشرين دولارًا، وكيسًا من الماريجوانا للحصول على الوشم، ويتعيّن عليّ الآن دفع ألف دولار لإزالته.

سيستغرق الأمر سنة ونصفًا على الأقل، لأنهم يزيلون جزءًا صغيرًا فقط في كل جلسة، كي لا يخلف الأمر حفرة كبيرة في الجسد. كما أخبرتها أن الليزر يبدو كأنه شريط مطاطي يلسع ظهري بقوة، نحو مائة مرة. كان عليّ ارتداء نظارات واقية. بعد ذلك دهنوه بكريم مضاد حيوي وغطوه بضمادة، وأعطوني حبة نعناع، وطلبوا مني عدم الاستحمام أو ممارسة الرياضة لمدة يومين، والاستمرار في دهنه بكريم المضاد الحيوي وتغطيته بضمادات نظيفة مرتين يوميًا لمدة أسبوع. لم أكرث بأي من ذلك.

استدرت في مقعدي، ورفعت قميصي كي تتمكن ألف من رؤية آثار وشمي الباهت. كان مهرجًا من الطراز القديم بملابس مرقشة. حسب ما أنذكر، كان يعني علي ما أعتقد، أننا أنا ودان سنقضي معًا على نفاق وازدواجية العالم عن طريق النكات والسحر. ابتسمت مرة أخرى، وأغمضت عينيها، وقالت إن ذلك يحزنها، فقلت إنه يحزنني أنا أيضًا، لكنه يجعلني سعيدة كذلك. واصلت الحديث عن تورونتو، وعن ولدي، وكل حكاية تتشكل في ذهني لتتخذ هيئة خيمة السيرك. تحدثت عن حياتي العاطفية البائسة، وعن رسالة البريد الإلكتروني التي تلقيتها من فينبار، المحامي المثير، التي يخبرني فيها أنه يريد وضع حد لعلاقتنا، إذ كانت حياتي مُجهدة للغاية، ومضطربة جدًا، كما كانت أسرتي مجنونة، وأنا انفعالية بدرجة زائدة عن الحد. سيرحل، أو ينهي العلاقة، أو يطلق سراحي، أو شيء من هذا القبيل، سيلقي بي مرة أخرى، كواحدة من تلك الأسماك التي يتم صيدها بهدف التسلية فقط، وليس من أجل الاحتفاظ بها.

ثم فجأة، ومن دون سابق إنذار، مثل ذلك البركان في بومبي، سألتني ألف عمًا إذا كنت أوافق على اصطحابها إلى سويسرا.

«كان هناك شيء ما، على ما أعتقد، يشبه الشلال الجامح، في طبيعة حياة ماري المتهورة المتصدعة المتدهورة. وقفتُ محدقًا إليها وهي تهدر في شوارع باريس، غير ظاهرة لأحد سواي».

هذا هو ما قاله ريتشارد هولمز عن ماري وولستونكرافت حينما كانت في باريس كي «تغطي» الثورة الفرنسية. ذكر هذا في كتابه «خطي»، الذي يتتبع فيه حياة بعض الفنانين الإشكاليين -على الرغم من مرور فترة طويلة على وفاتهم- ويحاول فهمهم، وبالتالي فهم نفسه. أقرأه حاليًا بيأسٍ، كما لو أنه يحوي في مكانٍ ما بين صفحاته إرشادات تؤدي إلى المخرج الوحيد من الجحيم. كان والدي وشقيقتي هما من توسَّلا باستمرارٍ إليَّ وإلى والدتي كي نقرأ أكثر، لنجد في الكتب عونًا على الحياة، ولتهدئة أوجاعنا وآلامنا بالمزيد والمزيد من الكلمات. عندما كنت أتوجه إلى والدي باكية بشأن أي مظالم بسيطة، كان يقول: «اكتبي كل شيء»، كما كانت شقيقتي تقذفني بمجلدٍ ما، قائلة: «هاك، اقرأي هذا»، حينما كنت أوجه إليها أسئلة مثل: «هل الحياة مجرد مزحة؟».

- حسنًا، يا ألف، لا، لن أصطحبك إلى سويسرا.

- أرجوكِ، يا يولي. كل ما أطلبه منك هو أن تفعلني من أجلي هذا الشيء الأخير، في الواقع، أنا أتوسّل إليك.
- لا، ولا تقولي «شيء أخير»، هذا كئيب للغاية.
- هل تحبيني؟
- أجل! ولهذا أرفض!
- لا، لكن يا يو، إذا كنت تحبيني حقاً...
- هل تسير الأمور على هذا النحو؟ ألا يجب أن تكوني مصابة بمرض عضال؟
- أنا مصابة بمرض عضال بالفعل.
- لست مصابة.
- بل أنا مصابة.
- حسناً، لا، أنت لست مصابة.
- يولاندي.
- ألفريدا! أنت تطلين مني اصطحابك إلى سويسرا لإنهاء حياتك، هل فقدت عقلك تماماً؟
- قالت ألف:
- يولي.
- كانت تهمس. حركت شفيتها كما لو أنها تقول «أرجوكِ»، فأشحت بنظري.

هل تعاني ألف من مرضٍ عضالٍ؟ هل أصيبت بلعنة وراثية منذ يومها الأول، تجعلها ترغب في الموت؟ هل كانت كل لحظة بادية السعادة من ماضيها، وكل ابتسامة، وكل أغنية، وكل عناق حار، وكل ضحكة، وكل علامة نصر جذلة، وكل انتصار، مجرد انعطافٍ مؤقت بعيداً عن رغبتها الغريزية في الانعتاق والنسيان؟

تذكرتُ شيئاً قرأته بعد انتحار والدي، في كتاب آل الفاريز «الإله الوحشي»، كان متعلقاً ببعض الكتّاب والفنانين الذين عاشوا، وأقدموا على الانتحار، تحت حكم النظام الاستبدادي الروسي: «وبينما ننحني إجلالاً لعطاياهم ولذكراهم المشرقة، علينا أن ننحني بإشفاقٍ أمام معاناتهم».

سألتُ ألف عمّا إذا كانت تفكر في جميع الأسباب التي تدعوها إلى البقاء على قيد الحياة، أو ما إذا كانت تحاول اكتشاف مخرج فحسب. لم تجب عن السؤال. سألتها عمّا إذا كانت تلك القوى تتقاتل داخل عقلها باستمرارٍ، فقالت إنه إذا كان الأمر كذلك، فهو قتالٌ غير متوازن، أشبه برودني كينج في مواجهة شرطة لوس أنجلوس. سألتها عمّا إذا كانت لديها أي فكرة كم سأفتقدها، فنظرت إليّ وامتلات عيناها بالدموع. هزئتُ رأسي، ولم تنبس بكلمة. خرجتُ من الغرفة، ثم نادى اسمي، فتوقفتُ قائلة:

– ماذا هناك؟

قالت:

– أنت لستِ ساقطة، لا وجود لمثل ذلك الشيء من الأساس، ألم

تعلمي مني شيئاً على الإطلاق؟

توجَّهْتُ إلى مكتب الممرضات، وطلبتُ التحدث إلى جانيس.
خرجتُ من مكتبٍ صغيرٍ، حاملةً أنابيب طلاء ولفائف ورق. قالت:
- العلاج بالفن، إن الناس يحبونه.

قلت:

- حقاً؟

لوحْتُ بالأنايب قائلة:

- من الأسهل بالنسبة إلى كثيرٍ من مرضانا التعبير عن أنفسهم بهذه
بدلاً من اللغة.

أخذتني إلى غرفة صغيرة بها نقالة، وتقويم، ومقعد غير ممزق. أشارت
إلى المقعد، فجلستُ عليه، ثم اقتربتُ مني ووضعتُ يدها على كتفي.
أخذتُ أنفاساً عميقة. سألتني عن حالي، فهزرتُ رأسي لفترة طويلة.
بقيتُ جالسةً فحسب، ضاغطة بسبابتي على شفتي، مبقية الكلمات حبيسة
بالداخل كما كان يفعل والدي، بينما أحرق إلى تقويم كان لا يزال في
مارس في حين أنه من المفترض أن يكون في أبريل، وأهز رأسي. تساءلتُ
عمماً إذا كانت ستقدم لي أنبوب طلاء وقطعة من الورق. لم ترفع يدها عن
كتفي. أخيراً، سألتُ جانيس عن أقراص الدواء، سألتها عمماً داخلها، وما
هو العنصر الفعال؟ هل تعطيتها الأقراص انطباعاً بأن الحياة لها معنى، أم
هل تهدئها للدرجة لا تعد مهمة بعدها ما إذا كان هناك أي معنى أم لا؟ أو
هل تعزز الأفكار الموجودة في ذهنها بالفعل، وتجعل كل شيء على ما
يرام، بحيث يصير من الممكن أن تقفز ألف من فراشها صباح أحد الأيام
وتصبح بحماس قائلة: «هذا صحيح، لا يوجد معنى للحياة، لكن لا بأس،

والآن بعد أن عرفتُ ذلك حقًا وتأكدتُ منه، يمكنني التوقف عن البحث عن معنى، والاستمرار في الحياة!».

قالت لي جانيس إنها لا تعرف حقًا، وأخبرتني أيضًا أن ذلك لا يشكل فارقًا كبيرًا، لأن ألف كانت ترفض تناول الأقراص على أي حال، قلت: - أجل، فهي إما تتناول كمية كبيرة من الأقراص دفعة واحدة، أو لا تتناول أي أقراص على الإطلاق.

حاولتُ جانيس أن تجعلني أنا أيضًا أشعر بالتحسن، فربت على كتفي، ثم طلبت مني العودة إلى المنزل والخلود إلى النوم. قلت إنه يتعين عليّ توديع ألف أولاً، لكنها قالت لي أن أذهب فحسب، وإنها سوف تبلغ ألف أنني سأعود قريبًا. كنت أصدق إلى التقويم، وتابعتُ جانيس نظرتي، ثم اتجهتُ إليه وقلبتُ الصفحة حتى ظهر الشهر المناسب. قالت:

- حسنًا، ها قد تكفلنا بهذا الأمر.

قلت:

- أجل، شكرًا لك.

سلكْتُ الدرج المؤدي إلى البدروم بطريق الخطأ -درجتين، أربعًا، ستًا، ثماني- وانتهى بي المطاف حبيسة في أحد الأنفاق. مشيتُ لبعض الوقت، ودفعْتُ عدة أبواب، لكن لم يفتح أيٌّ منها. تساءلتُ عن الوقت الذي سيمر قبل أن يُعثر عليّ. تفقدتُ البلاك بيري، لكن لم أتمكن من التقاط أي إشارة. رأيتُ آثار أقدام مرسومة على الأرضية الخرسانية، فتتبعتها. أوصلتني إلى بابٍ آخر مغلق. جلستُ في النفق، وأمسكتُ بحقيبة سيفوي البلاستيكية في حجري. رفعت نظري نحو المواسير الضخمة المتدلّية من

سقف النفق. بعد ذلك، أخرجت مخطوطتي وأمسكتها بين يدي لبعض الوقت، جذبت الشريط المطاطي الذي يربطها عدة مرات، ثم أعدتها إلى داخل الحقيبة. تساءلت عمّا إذا كنت سأموت جوعاً داخل النفق، يا للسخرية. ستشعر ألف بالاستياء، أليس كذلك؟ الغيرة؟ هل ستتذوق من نفس الكأس الذي سقت به غيرها؟

قمتُ من جديدٍ، وسرت في الاتجاه المعاكس لآثار الأقدام، وعثرتُ على باب آخر. كان مغلقاً هو أيضاً. تتبععت آثار الأقدام مرة ثانية عائدة إلى المكان الذي كنت جالسة به، ثم تجاوزته ووصلت إلى مفترق طريق في النفق. انعطفت جهة اليمين، ومشيت بعض الوقت حتى وصلت إلى باب آخر، ودفعته فانفتح. كنتُ في مطبخ ضخم، أو ربما في المشرحة. كان كل شيء مصنوعاً من الفولاذ المقاوم للصدأ، والغرفة بأكملها تلمع، ويصدر منها صوتٌ أزيز خافت. عبرت هذه الغرفة، وخرجت من باب آخر، لأجد نفسي مباشرة في غرفة انتظار قسم الطوارئ. وقف شرطيٌّ يحرس شيئاً ما، لم أكن متأكدة من ماهيته، لكنه طلب مني غسل يدي. أخبرته أنها ليست متسخة، لكنه قال إنه يتعيّن عليه أن يطلب من الجميع غسل أيديهم. أشار نحو منصّة مؤقتة مخصّصة لغسل اليدين. سألته عن إن كان بمقدوره حمل حقيبتني لدقيقة ريثما أغسل يدي، فاوماً برأسه وتناولها مني. غسلتُ يدي جيداً ببطء شديد، وبينما كنت أغسلها رفعت نظري نحو الشرطي وهو يحمل مخطوطتي بين يديه. بدت آمنة هناك. أردت أن أتركها معه، لكنني جفّفتُ يدي ثم تناولتُ منه الحقيبة وشكرته على حملها، وخرجت إلى ساحة انتظار سيارات خاطئة بحثاً عن سيارة والدتي.

بين حين وآخر، أجلس في سيارة والدتي وأحكم قبضتي على عجلة القيادة بأقصى ما لديّ من قوة حتى تتحوّل مفاصل أصابعي إلى اللون الأبيض، وأزفر قائلة: «ألللف». كنتُ سأوجّه لكمة إلى الزجاج الأمامي لأخطمه، لولا اعتقادي بأن يدي ستنكسر، ولو لم يكن ذلك سيتسبب في كابوس كبير مع شركة التأمين، وفي دخول تيار هواء قاسٍ في الشتاء. في طفولتي، كنت أذهب للجلوس على دراجتي وهي لا تزال في مكانها، من دون الذهاب إلى أي وجهة، وأجرب النفوّه بكلمات سباب جديدة. كنت أغمغم بها بهدوء، مرارًا وتكرارًا، حتى تفقد حدّتها وتصير مضحكة، مثل شعار ألف السابق المتعلق بالحب. إن جلوسي بالسيارة شبيه بذلك. يبدو الأمر كأنه تجربة محكومة. مختبري المتحرك المخصص للغضب. إذا تمكنتُ من قول الأشياء مرارًا وتكرارًا، فسوف تفقد معناها في النهاية، وسيختفي غضبي. ألف، ما الذي تفعلينه بحق الجحيم؟ أشعر بالأمان داخل السيارة، وأنا وحيدة ومحمية. أرى الناس يتجولون في أرجاء ساحة الانتظار، لكنهم لا يستطيعون رؤيتي. حسنًا، يمكنهم رؤيتي، لكنهم يعتقدون أنني مجنونة، ويشيحون بنظرهم بعيدًا عني، وهو ما يعادل كوني غير مرئية.

قابلتُ نيك في طريقه إلى المنزل عائداً من العمل، كي نتناول البيرة معاً. أخبرني أنه لم يحالفه الحظ في التوصل إلى أي من أعضاء فريق الرعاية، باستثناء عاملة اجتماعية واحدة أخبرته أنها غير متأكدة ما إذا كان لا يزال هناك تمويل لمثل هذه الأشياء. أخبرها نيك أنه سيدفع التكاليف بنفسه لهذا الفريق من الحرس الشخصيين. لم تكن العاملة الاجتماعية

متأكدة ما إذا كانت الأمور تسير على هذا النحو، فسألها نيك كيف تسير إذن؟ تحدث معي عن زورقه، والتقدم الذي أحرزه في بناءه. كان بحاجة إلى أن تُرسل إليه بعض البراغي من مينيابوليس، وشعر بالثقة التامة بأنه سينزله في النهر بحلول شهر مايو. قلت له:

- لكن ربما كان ذلك بلا جدوى، وضعها تحت المراقبة في كل ثانية من اليوم.

وافقني الرأي، لكن ما الذي بيدنا لنفعله سوى ذلك؟ تناولنا البيرة. أخبرني أن هناك كتابًا وصل إلى ألف من خلال البريد، كان عنوانه «الخروج النهائي»، ويدور حول كيفية الانتحار بالأكياس البلاستيكية وما إلى ذلك. قلت:

- يا إلهي، تخلص منه!

لكنه قال إنه لا يستطيع فعل ذلك، لأنه سيكون بمثابة انتهاك لخصوصيتها، واعتداء على حقوقها وحرياتها الشخصية. لا يمكنك التخلص من بريد شخص آخر فحسب. تجادلتُ معه بعض الوقت، وقال إنه ربما يستطيع إخفاءه بعيدًا في خزانة حتى تزول عنها الأفكار الانتحارية. قلت:

- وماذا بعد؟ هل ستخرجه وتمنحها إياه كهدية عيد ميلاد؟ فلتلق بذلك الكتاب اللعين في القمامة وحسب.

قال:

- لا يمكنني إلقاء كتاب - أي كتاب - في القمامة.

قلت:

- أعدده بالبريد إلى أمازون، أو أيّ ما كان المكان الذي أرسله.
قال:

- لكنه ليس ملكي.
قلت:

- حسنًا، دعني أنا أتخلص منه.
قال إنه لا يستطيع السماح لي بذلك، وأنه لا يزال خطأ.

يا إلهي، أخذنا نتشاجر، أنا ونيك. لم نكن نريد الشجار. أو ربما كنّا نرغب في ذلك، إذا كان سيجعلنا نشعر كأننا نفعل شيئًا ما، أو نحرز تقدمًا، ونحل المشكلات. نتعامل أنا ونيك مع مهمة رعاية ألف بمنظورين مختلفين تمامًا: أحدهما من داخل معمل معقم، والآخر من الجانب المظلم للقمَر. إنه عملي، وعلمي، ويؤمن بالوصفات الطبية وأوامر الأطباء وقدراتهم المطلقة.

كانت أحدث أفكارٍ لإنقاذ حياة ألف تتطلّب إرسالها إلى مكانٍ غريبٍ وقاسٍ مثل مقديشو أو كوريا الشمالية، حيث ستضطر إلى العيش بمفردها بطريقٍ لم يسبق وأن جرّبتهما من قبل. كانت خطة محفوفة بالمخاطر. يمكنها أن تلقي بنفسها تحت رحمة جندي من الأطفال، وتعرض لإطلاق النار، وتكون هذه هي النهاية. أو قد تصل إلى مفهوم جديد تمامًا عن معنى الحياة، وعما يتطلّب البقاء على قيد الحياة. ستنشط غدتها الكظرية في العمل، وستتحفز هي وتنشط وهي مُطاردة، وبحاجة إلى خداع مهاجمها والبقاء على قيد الحياة. ستكون وحيدة تمامًا في ذلك الوضع العنيف، على الرغم من أنني كنت سأقوم بتوصيل كاميرا ويب في جانب رأسها للبت

المباشر، أو ما شابه ذلك، كي أتمكن من تتبع ومراقبة تقدمها. وعندما أقتنع بأنها قد وضعت معايير جديدة للعيش، ووجدت استراتيجية حياة جديدة، على حد تعبير والدي قبل يومين من إنهائه لحياته تمامًا، وبأنها باتت تزدهر في مواجهة التحديات وفي لعبة الحياة، وعندما تصل إلى نقطة تدرك عندها أنها مثل أي شخص عادي لا ترغب حقًا في الموت، حينها فقط سأخرجها من هناك بطائرة هليكوبتر، ويمكننا المضي قدمًا كما كنّا من قبل، نضحك، ونتمشى، ونتنفس، ونذهب للعناية بأقدامنا، ونضع الخطط للأسبوع القادم، ولعيد الميلاد، ولربيع، ولشيخوختنا. لكن نيك يفضل فكرة الأدوية وممارسة التمارين الرياضية بانتظام، وهو المسؤول الرئيسي عنها، وزوجها، وأقرب أقاربها المباشرين. لذا لن تقفز ألف من طائرة في أي وقتٍ قريبٍ، لتهبط في وسط مدينة مقديشو من دون شيء سوى ملابسها التي ترتديها وكاميرا مثبتة على رأسها.

حدقنا أنا ونيك إلى مقصورات المطعم حمراء اللون، واحتسنا البيرة ونحن نتساءل ونفكر. توقفنا عن الشجار. أخبرتُ نيك أن كلوديو اتصل بي في المستشفى، وأنه يشتبه في أن شيئًا ما ليس على ما يرام، كما قلت له إنه بكل تأكيد يتعين على أحدنا معاودة الاتصال به. تنهد نيك وقال:

- نعم، أعرف هذا، لكن ماذا لو غيّرت رأيها؟

ذكرته بملايين المرات التي قالت فيها ألف إنها لا تستطيع القيام بالجولة، فقال نيك:

- أجل، دومًا ما تقول ذلك، ثم تمضي في الأمر وتصبح في قمة السعادة.

قلت:

- هذا لأنها خرجت من الأمر سالمة فحسب. لكنها لا تلبث أن تدرك قبل مضي الكثير من الوقت أنها لم تكن ترغب في النجاة من الأساس. أعتقد أنها تشعر أن حياتها سوف تنتهي حينما تصير عاجزة عن العزف.

قال نيك:

- أجل. حسنًا، إنه يحاول الاتصال بي أيضًا، ولا أجيبه، لكنني أشعر بالذنب حيال ذلك.

هذا المطعم هادئ للغاية. سألتُ نيك عمّا إذا كان هو الآخر يشعر بدوران الأرض حول محورها، فذكرني بأننا في مطعم دوار أعلى بناية فورت جاري بليس، في وينيبيج، بمانيتوبا في كندا، وأن اليوم هو كذا وكذا. شكرته، واعتذرت للتغيب عليه بشأن المكالمات الهاتفية والكتاب، فلوّح بيده قائلاً: «لا، لا». شعرت بالرغبة في عناقته. أردتُ أن أشكره على حبهٍ لشقيقتي، وحقوقها وحرّياتها. سألته عمّا إذا كان النادل سيوقف هذا الشيء، هذه البناية، كي يسمح لنا بالنزول، فقال:

- أجل، لا بُدَّ وأن هناك مفتاح إيقاف تشغيل في مكان ما.

قلت:

- أو يمكننا أن نلوح بأذرعنا في الهواء، صارخين: «أسرع»! تجاذبنا فاتورة الحساب لبعض الوقت. «سأدفع أنا. لا بل سأتولى أنا دفع الحساب». خرجنا ومشينا وسط ما بدا أشبه بالإعصار - كانت ريحًا شديدة - وأخبرني نيك أنه في الأيام والأسابيع التالية عقب رحيلي إلى تورونتو، تبنت ألف شعارًا جديدًا.

سألته:

- ماذا كان الشعار؟

قال:

- يولاندي.

- أنا؟ أنقصد اسمي؟

- مزحتُ قائلة إنها ربما تنجح في إعادتك إلى الوجود.

قلت:

- كنت في تورونتو فحسب، ولم أمت. علاوة على ذلك، فقد أخبرتني أن شعاراتها لا تلبث أن تتلاشى لتصير بلا معنى، ثم تبدأ في بث الرعب داخلها.

عدتُ إلى مقاومة الدموع مرة أخرى، والاعتذار لنيك عن شيء ما. أخبرني نيك أن ألف يتتابها الشعور ذاته حيال الأيام التي تعيد نفسها باستمرارٍ، مرارًا وتكرارًا. تشرق الشمس، وتبدأ الطيور في الغناء، ثم تأتي لحظة مليئة بالاحتمالات، وبالأمل المؤلم، وبعدها تنتهي، ويحل الظلام، ويتضح أن اليوم ما هو إلا مثل المرأة التي تهيج الرغبات فحسب من دون تلبيتها، ولا يوجد خلاصٌ من عذاب الأيام. سألته:

- هل تكرر الأشياء هو ما يقتلها؟

تنهد نيك. لم يكن يعرف الجواب. تعثرتُ فوق الرصيف غير المستوي، وأطلقتُ سبَابًا، فأمسك بمرفقي. مرَّ بجوارنا صبيّان يحملان زورقًا على رأسيهما. اعتقدنا أنهما صبيّان، لكن كل ما رأيناه منهما ربلات سيقانهما المشعرة، وأحذيتهما الرياضية المهترئة، وسروالين واسعين،

وظهريهما العاريين. لم تظهر أي رؤوس أو أذرع. تبعًا لكمية الشعر والعضلات الظاهرة على ربلات سيقانهما وخصريهما النحيلين، يمكنني القول بأنهما في نحو الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر. ناداهما نيك قائلاً:

- لا أنصح بإنزال ذلك القارب في النهر الآن؛ إنه خطرٌ للغاية. توقف الصبيان، واستدارا بصعوبة وهما لا يزالان يحملان القارب، كي يستمعا إليه. قال أحدهما:

- لن ننزله إلى النهر. أربعة سيقان بنية، وعلى رأسيهما قاربٌ يشبه أحد الأسطح: إنهما طاولة من تصميم مهندس ديكور، ذات مظهر غريب وجميل. قال نيك: - حقًا، إن النهر هائج الآن، ويتحرك بسرعة ٣٨٠ مترًا مكعبًا في الثانية، ولا يزال به بعض الجليد.

لم ينبس الصبيان بكلمة، لكن الزورق تحرك بعض الشيء، وسمعناهما يتهامسان أسفل الزورق. قال نيك:

- لا تقدما على الأمر. ربما في غضون أسبوع، أو نحو ذلك. فجأة، بحركة واحدة سلسلة جميلة، رفع الصبيان الزورق عن رأسيهما، وقلباه مثل الفطيرة، ثم وضعاه على الطريق المعشب بجوار الرصيف. قال نيك: - أوه، مرحبًا.

لَوَحْتُ مَرَحَبَةً بِهِمَا، وَابْتَسَمْتُ. بَدَا الصَّبِيَّانِ مُتَجَهِّمِينَ، وَمَتَعِبِينَ،
وَصَغِيرِينَ فِي السَّنِ.

قَالَ أَحَدُهُمَا:

- مَاذَا عَنِ اتِّجَاهِ مَصَبِ النَّهْرِ؟

هَزَّ نِيكَ رَأْسُهُ بِشِدَّةٍ قَائِلًا:

- لَا، لَا. وَلَا أَيَّ اتِّجَاهٍ. ابْتَعَدَا عَنِ النَّهْرِ فَحَسِبَ فِي الْوَقْتِ الْحَالِي. مَا
هُوَ وَجْهُ الْاسْتَعْجَالِ؟

أَخْبَرَنَا الصَّبِيَّانِ أَنَّهُمَا يَحَاوِلَانِ الْوَصُولَ إِلَى مَحْمِيَةِ نَهْرِ رُوسُو.
قَالَ نِيكَ:

- إِنَّهَا تَقَعُ عَلَى مَبْعَدَةِ أُمِّيَالٍ. هَذَا بِالْقَرَبِ مِنْ حُدُودِ الْوَلَايَاتِ
الْمُتَّحِدَةِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟
قَالَ أَحَدُ الصَّبِيِّينَ:

- نَعْرِفُ هَذَا؛ نَحْنُ مِنْ هُنَاكَ.

أَخْبَرَنَا الصَّبِيَّانِ أَنَّهُمَا يَرِيدَانِ الْعُودَةَ إِلَى الْمَنْزِلِ، إِلَى وَالِدَتِهِمَا
الْحَقِيقِيَّةِ. كَانَا فِي أُسْرَةٍ بَدِيلَةٍ فِي الْمَدِينَةِ، وَقَدْ كَرِهَا ذَلِكَ. كَانَ وَالِدَاهُمَا
الْبَدِيلَانِ يَضْرِبَانَهُمَا وَيَجُوعَانَهُمَا، كَمَا أَخَذَتْ عَصَابَةُ الْوَارِيُورِزِ تَحَاوُلَ
تَجْنِيدِهِمَا لِلْعَمَلِيَّاتِ، لَذَا كَانَا فِي طَرِيقِهِمَا لِلْعُودَةِ إِلَى الْمَنْزِلِ، وَهَذَا هُوَ
كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ.

بَاتَ لَدَيْنَا «مَوْقِفٌ»، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ رِجَالِ الشَّرْطَةِ. لَمْ أَعْرِفْ لَا أَنَا وَلَا
نِيكَ مَاذَا نَقُولُ أَوْ نَفْعَلُ. هَزَّ الصَّبِيَّانِ كَتْفَيْهِمَا، وَتَبَادَلَا مَزِيدًا مِنَ الِهِمْمَاتِ،
ثُمَّ انْحَنِيَا لِالْتِقَاطِ الزُّورِ، وَرَفَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا.

قلت لهما:

- ليس لديكما سترات نجاة.

تجاهلني الصبيان.

قال نيك:

- أجل، اسمعا. انتظرا.

كان الصبيان قد شرعا في الابتعاد بالفعل، لكنهما توقفوا عن السير مرة ثانية، من دون أن يضعوا الزورق أرضاً مرة أخرى. تقدمنا أنا ونيك من الصبيين، ووقفنا بجوارهما، بينما ظل الزورق حائزاً بيننا مثل مقصورة الاعتراف.

خاطب نيك مقدمة القارب قائلاً:

- لا يمكنكما القيام بذلك، يا شباب.

بدا صوته خافتاً وحازماً، بينما هو يواجههما مباشرة. لم يحدث شيء. تنفّس الصبيان في صمتٍ، واهتزَّ القارب أعلاهما برفقٍ بعض الشيء. سأل نيك الصبيين عما إذا كان هناك أحدٌ بانتظارهما في محمية نهر روسو.

قال أحدهما:

- أجل، الجميع.

أعتقد أنه صوت أصغرهما. تابع قائلاً:

- نحن نعيش هناك.

قال نيك:

- حسناً، ما رأيكما بهذا: سأمنحكما نقوداً لتذكرتي حافلة إلى محمية

نهر روسو، بينما تتركان الزورق معي. سأحمله على سيارتي، وأحفظه

لكما في محل سكني، ويمكنكما استلامه متى شئتما عند عودتكما إلى المدينة، أو في أي وقت آخر. سأكتب لكما عنواني. كم ثمن تذاكر الحافلة المتوجهة إلى نهر روسو؟

لم يصدر أي جواب من أسفل الزورق.

واصل نيك الحديث قائلاً:

- سأذهب كي أجلب سيارتي. لذا، انتظرا هنا. يولي، هل يمكنك

كتابة عنواني لهذين الشابين؟

قال أحد الصبيين:

- ربما في حدود عشرين دولار، عشرين دولارًا لكلٍ منّا.

ذهب نيك لإحضار سيارته، وألقى الصبيان الزورق على العشب مرة

ثانية، ثم جلسا فوقه ينتظران.

قلت:

- إذن، كيف تبدو محمية نهر روسو؟

هز الصبيان أكتافهما، وحدقا إلى اتجاه النهر. شرعتُ أكتب عنوان

نيك على قصاصة ورق، حينما اقترب هو وأوقف السيارة. ناول الصبيان

بعض النقود: ما يكفي من المال لشراء تذاكرتي حافلة إلى محمية نهر

روسو.

سألهما:

- ماذا لو أوصلتكما إلى محطة الحافلات؟

أبدى أصغرهما الموافقة، لكن أكبرهما قال:

- لا، سنذهب إلى هناك بأنفسنا.

مال ليتناول النقود من نيك، ثم شرع الاثنان في السير نحو تقاطع
شارعي بورتاج وماين، مبتعدين عن النهر.
ناديتهما قائلة:

- مرحى، انتظرا، سوف تحتاجان إلى عنوانه.

ركضت خلفهما، وناولت أحد الصبيين قصاصة الورق. تأملها لبضع
ثوان، ثم وضعها في جيبه، وقال للآخر: «هيا»، قبل أن ينطلقا في طريقهما
إلى مكان يتذكرانه بوصفه أفضل من المكان الذي هما به الآن.
سألت نيك:

- هل تعتقد أنهما سوف يشتريان تذكرتي الحافلة؟

كنّا نسير في طريق العودة إلى منزله، والزورق على سطح السيارة.
قال نيك:

- من يدري؟ لكن كان من المستحيل أن يضعنا هذا الشيء في النهر.

- هل تظن أنهما سوف يعودان لاستعادة الزورق؟

قال نيك:

- في الغالب لا، لكنني آمل هذا. ربما يكون زورقاً مستعاراً، إذا فهمتِ
ما أعنيه.

قلت:

- لقد أنقذت حياتهما.

فلوح نيك بيده مهوئاً من أهمية الأمر، كما فعل مع فاتورة المطعم في
وقت سابق، وكما يفعل مع كل التصريحات الضخمة الزائفة التي لا يمكن

إثباتها داخل مختبر. أصدر هاتفي رنينًا، فقرأتُ رسالة نصية من نورا: «لقد تعرضتُ للحظر من متاجر وينرز مدى الحياة تقريبًا، لعبتي مع مرسيدس بالعينات المجانية. مزق ويل سلك الباب وهو يحاول اقتحامه. لا يوجد مفتاح. قبلاتي وأحضاني».

تبادلتُ الحديث مع ضابط شرطة، أوقفني في شارع شيربروك لقيامي بإرسال رسالة نصية في أثناء القيادة. كنت في طريقي إلى جولي لتناول فنجان قهوة سريع، قبل الذهاب إلى المطار لاصطحاب والدتي. قال الشرطي:

- أهو شخص يستحق المجازفة من أجله بحياتك ومحفظتك، على ما أعتقد؟

كررتُ قائلة:

- محفظتي؟

ثم تابعتُ الحديث:

- حسنًا، أجل، إنها ابنتي. كان عليّ إرسال رسالة سريعة لها فحسب. لكن حسنًا، معذرة، هناك قانون وخلافه، كم سأتكلف؟

قال الشرطي:

- حسنًا، إن أحد الأشياء الرئيسية التي نأمل أن يتعلمها السائق من هذا الدرس تحديدًا هو مدى فداحة الجريمة، التكلفة الإدارية ضئيلة، لكن المخالفة نفسها صارخة.

قلت:

- هذا صحيح. ممم... كم سيكلفني الأمر؟
طلب رؤية ترخيص السيارة، وعندما أريته إياه - كانت سيارة والدتي -
ضرب سقف السيارة قائلاً:
- مستحيل! أنا أَلعب سكرابل مع لوتي في نادي ويفرلي، هل أنتِ
ابنتها؟
ابتسمتُ أنا أيضاً، وقلت:
- أجل، أنا إحدى ابنتيها.
محصلة ذلك كله، هو أن الشرطي قضى عشر دقائق يخبرني كم هو
مولع بلوتي.
- إنها تهزمني هزيمة منكرة، في كل مرة! هل أنت على دراية بحصيلة
مفرداتها؟
ثم أخرج دفتره كي يكتب لي مخالفة. قال:
- أنا أؤدي مهمتي فحسب.
قلت:
- أتدري، يا صديقي، أنت أحمق، وهذه كلمة من أربعة أحرف،
بالمناسبة، أح م ق. مناسبة للعبة البينجو.
مال الشرطي نحو السيارة قائلاً:
- لا يجب حقاً أن تنعتي رجال الشرطة بالحماقة.
بدا في صوته نبرة اعتذار. اتفقنا أخيراً على أن يمنحني تحذيراً فقط،
ووعده بإيقاف السيارة أولاً في المرة القادمة التي أرغب فيها في إرسال
رسالة نصية إلى شخص ما، كما لن أخبر والدتي أنه تصرف بحماقة إلى
حدّ ما.

قال:

- أشعر أنها تحتقرني بعض الشيء بالفعل لكوني شرطياً، هل لاحظت أنها تكره السلطات حقاً؟

سأصطحب والدتي من المطار في وقتٍ لاحقٍ ذلك المساء. ستكون قد استقلت قارباً، وقطاراً، وطائرة، وسيارة أجرة، ثم طائرة أخرى وسيارة كي تصل إلى المنزل. تخيلتُ كل ذلك في ذهني، كل مراحل رحلتها المختلفة، وشعرتُ بالارتياح لهذا الجهد الذي بذلته من أجل العودة إلينا.

جلسنا أنا وجولي على الدرج الخلفي لمنزلها، واستمتعنا في هدوءٍ بالسلوكيات اللطيفة لشادو، كلب الأسرة الذي تشارك في حضائته، كما تشارك في حضانة الطفلين. أعدتُ لنا عصيراً باستخدام النعناع من حديقته، وتناولنا المعجنات والسلطة التي تمكنتُ من تحضيرها بطريقة سحرية في مطبخها الفوضوي الذي يزدحم بالدراجات والجيتارات. كانت تعزف الجيتار مع فريق اسمه «أبناء وعشاق». وقد اشترت هذا المنزل حديثاً، وكانت لا تزال بصدد تجديده. أرتني قضيباً اصطناعياً عثرتُ عليه محشوراً خلف خزانة في الحمام.

قالت:

- سوف أدخن سيجاراً، لا تخبري جادسون.

كان جادسون هو الرجل الذي تقابله بشكلٍ متقطعٍ منذ انفصالها عن زوجها. واصلتُ قائلة:

- يقول إن شرط استمرار علاقتنا هو ألا أدخن.

ضحكنا، لكننا كنّا متعبتين بدرجة أكبر من أن نقوى على مواجهة الظروف. كان الكلب شادو كبيرًا في السن، ومصابًا بالتهاب المفاصل بدرجة تعوقه عن الجري، لكنه كان لا يزال متحمسًا لفكرة الركض. لذا تلعب جولي لعبة أطلقت عليها «اركض لشادو»، وتتطلب منها اللعبة النطق بكلمة مثل «السقيفة»، أو «السياج»، ثم تركض نحوها بنفسها، بينما يجلس شادو ساكنًا في الحديقة، وهو ينبج بحماس. عندما استنفدت جولي قواها في لعب «اركض لشادو»، انهارت إلى جوارى على الدرج الخلفي للمنزل، وانتهت من تدخين سيجارها.

سألتها:

- هل تعتقدين أنك لا تزالين تعانين بسبب تعرض أجدادك للذبح في روسيا؟

سألتني:

- هل أعاني؟ كانت جدتي فحسب. لم تتمكّن من الجري؛ لأنها كانت حبلى في شهرها التاسع، بينما نجح جدي في الهرب مع باقي الأطفال.

- هل تعتقدين أن كل هذه الأشياء يمكنها التأثير علينا حتى الآن؟
هزّت كتفيها، وأخذت نفسًا عميقًا من سيجارها المحظور.



تبادلنا عناقًا طويلًا في المطار، إذ إننا افتقدنا بعضنا. إحدانا لها بشرة مسمرة بعض الشيء، وتفوح منها رائحة جوز الهند، وترتدي قميصًا مرسومًا عليه بلاطة من لعبة سكرابيل، كُتب عليها حرف «P». لم نكن نعرف شيئًا عن الغد، وشممتُ رائحة الخوف، ثم أدركتُ أنها تفوح مني. شعرتُ كما لو أنه ليس لديّ ما يكفي من البشرة، وأن هناك أجزاءً مكشوفة مني يجب أن تكون مغطاة. تشبثتُ إحدانا بالأخرى لفترة أطول من المعتاد. توقفتنا لزيارة نيك في طريق عودتنا إلى المنزل. كان الوقت قد تأخر للذهاب إلى المستشفى لزيارة ألف. أخبرتنا والدتي عن مغامراتها الأخيرة في البحر، وضحكنا كثيرًا، لكن ليس بدرجة زائدة عن الحد. في أثناء حديثنا، جلس نيك على مقعد ألف المخصص للبيانو، وأخذ يستدير بين حين وآخر ليضغط على المفاتيح من دون تناغم. بعد ذلك توجهنا إلى المنزل، وخلد الجميع إلى الفراش. لكن ثمة أشياء غريبة تحدث في أثناء الليل. حلمتُ بألف، وقد خرجتُ من المستشفى، لكن لم يستطع أحدُ العثور عليها. لم تكن في المنزل، ولم نتمكن من الوصول إليها. ثم حلمتُ أن العشب أخذ ينمو في كل مكان داخل منزلي. كان عشبًا طويلًا ناعمًا كالحرير، وبدأ ينمو من بين درجات السلم. لم أعرف كيفية التخلص منه، وانتابني شعورٌ بالقلق. ثم أتاني

الحل في الحلم: ألا أفعل شيئاً على الإطلاق. وفي لحظة، زال قلقي، وشعرتُ بالارتياح. كما حلمتُ أيضاً أن لديّ ملاكاً حجرياً، مثل الذي في رواية مارجريت لورانس، ويشبهه تمامًا، ويجب عليّ أن أعني به وأبقيه آمنًا ودافئًا. في الحلم، رقد الملاك الحجري بجواري في فراشي، والبطانية مرفوعة حتى ذقنه، وعيناه تحدقان في السقف أبد الدهر.

استيقظتُ واتصلتُ بمكتب التمريض في المستشفى كي أسأل عمّا إذا كانت ألف لا تزال موجودة هناك، فأخبروني أنها موجودة. استلقيتُ في الفراش لفترة، أصبح السمع للجليد وهو يتحطم، ثم سمعتُ حركة والدتي في غرفة المعيشة. نهضتُ لأرى ما إذا كانت بخير. عندما رأنتي، أخبرتني أنها تعاني من الإرهاق بعض الشيء بعد السفر، ولا تستطيع الخلود إلى النوم. جلستُ إلى الطاولة في غرفة الطعام، وهي تلعب سكرابل على الإنترنت مع شخصٍ غريبٍ في اسكتلندا. أخبرتها أنني التقيتُ صديقها الشرطي، فتجهمتُ، وقالت إنه طموحٌ. إن الطموح في رأيها هو أدنى المستويات التي يمكن أن يتدنى إليها إنسان. سمعتُ صوت بوق يعلن بداية دور جديد من اللعبة. كان الكتاب المقدس، نسخة الملك جيمز، على الطاولة بجوار الكمبيوتر. سألتها عمّا إذا كانت تقرأ الكتاب المقدس، فقالت:

- أجل، حسنًا، أنت تعرفين، مع كل هذه...

لوحثَ بيدها بلا مبالاة. أعتقد أنها تعني «هذه الحياة». أخبرتني أنها قررت قراءة المزمور الأول من سفر المزامير، لكنه لم يعجبها. لا تحب الطريقة التي يتحدث بها عن الأشرار بوصفهم ضائعين، وقشرًا

تذروه الريح، لذا قرأت الإصحاح الأول من سفر الأمثال بدلاً منه، لكنه لم يعجبها كثيراً هو الآخر. لا تحب الطريقة التي يأمرنا بها بالسعي وراء المعرفة والحكمة لأن... بدا السبب واضحاً!

أخبرتني أن السبب الوحيد الذي دفعها إلى قراءة الكتاب المقدس الآن هو أنها كانت تتواصل مع شقيقتها الراحلة ماري، التي أشارت لها من القبر بطريقة ما، إلى أنها يجب أن تقرأ الكتاب المقدس بانتظام أكثر. أو مأتُ برأسي، وقلت لوالدتي أن تبلغ خالتي ماري سلامي في المرة القادمة التي تتبادلان فيها الحديث. تساءلتُ عمّا إذا كان هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلها تقرأ الكتاب المقدس، أم أنها كانت بحاجة إلى الأمل والسلوى في هذا المساء، فتطلعتُ إليهما لدى أقدم أصدقائها، وهو إيمانها.

سألتها عمّا إذا كانت ترغب في لعب بضع جولات من «داتش بليتز»، وهي لعبة الورق الوحيدة المصرح بها لأفراد الطائفة المينوناتية، لأنه بدلاً من الأشياء ذات الإيحاءات الآثمة على البطاقات مثل الهراوات والقلوب والماس والبستوني، كانت بطاقات هذه اللعبة تصور المحاريث والدلاء والعربات ومضخات المياه، ولأنها لعبة تعتمد على السرعة والتركيز، وليس على المخادعة. أنارت الغرفة الصغيرة حينما ابتسمت والدتي.

جلست والدتي على الكرسي البرتقالي الممزق، بينما جلستُ أنا على حافة فراش أelf. رقدت أelf في الفراش مبتسمة، وقد زالت الغرز الجراحية، وغسلت وجهها ومشطت شعرها. كان هناك تغييرٌ قد حدث، وفقاً لجانيس. أخبرتنا أنها أجرت محادثة طويلة مع أelf صباح ذلك

اليوم، وأنها تُظهر علامات التحسن. سألتها والدتي عما يعنيه التحسن، فقالت جانيس أن ألف تناولت وجبة الإفطار، وأخذت أقراص الدواء. كانت والدتي ستفرح بهذه الانتصارات الصغيرة في الماضي، لكنها اليوم أومأت برأسها قائلة:

- هممم... إنها تفعل ما يُطلب منها إذن.

أعلم أن هذا لا يرضي والدتي، فهي تؤمن بالقتال، وتطير الشرر، وتبادل اللكمات، وليس الخنوع الوديع. من ناحية أخرى، كانت تريد أن تأكل شقيقتي وتتناول أدويتها، لكنها تريد أن ترغب ألف في ذلك بنفسها.

قالت لنا ألف:

- لا أعرف بالضبط ما حدث، لكنني استيقظت وأنا أشعر أنني شخصٌ مختلفٌ. أعتقد أنني مستعدة للقيام بالجولة. سوف أتصل بكلوديو، كما أريد لعب التنس مرة أخرى، وربما ننتقل أنا ونيك للإقامة في باريس. كان هذا هو أطول رد فعلٍ متأخر عبر العصور، بامتداد مساحة شاسعة مقفرة مثل الأراضي الوعرة. منطقة محرمة، وأكوان بأكملها فصلت بين كلماتها ورد فعلنا أنا ووالدتي. تبادلت والدتي وشقيقتي الابتسام كما لو كانا في مسابقة، بينما تجمدت أنا. كان ذلك لحماية تقدمنا، على ما أعتقد. حملتُ من النافذة، وفكرتُ في التشابه بين الكتابة وإنقاذ حياة شخص ما، وبين الفشل الحتمي لخيال المرء وأهداف وطموحات المرء في خلق شخصية أو حياة تستحق الإنقاذ. كان هذا هو الحال في الحياة، كما في الكتابة، كما هو الحال في أي نوعٍ من أنواع الإبداع يسعى لأن

يكون ناجحًا ومعروفًا وملهمًا.

قلتُ:

- حقًا؟ باريكس؟ هذا رائع جدًا، يا ألفي، لا أستطيع أن أصدق ذلك.

قالت ميلاني، شريكها في الغرفة، من وراء الستارة:

- ولا أنا أصدق.

استدارت ألف نحو الستارة قائلة:

- هل يمكنني أن أطلب منك رجاء الاهتمام بشؤونك الخاصة؟

فأجابتها ميلاني بأنها ليست موجودة هنا للاهتمام بشؤونها.

تركتهما وخرجتُ إلى الردهة، ومشيتُ متثاقلة أخرج رجلي قدمي كما لو كنتُ مكبَّلة بالسلاسل، حتى وصلتُ إلى تلك الكوة الصغيرة التي سرعان ما أصبحت ركني المفضل الذي يمكنني الجلوس فيه بمفردي وتأمل ساحة انتظار السيارات والحقول الواقعة خلفها. فكرتُ أن لدينا خيارًا. يمكننا أن نأخذ كلامها على علته، كما يُقال، ونتمسك بالأمل. أو يمكننا البدء في تشكيل ذلك الفريق المراوح الآن، وأعني على الفور، لأنها ستعود إلى المنزل. أعرف هذا، سوف تخرج من المستشفى. أعلم أنها إذا اتبعت القواعد، وأخبرت الممرضات والأطباء أنها تشعر بكونها على ما يرام، وبأنها إيجابية ولا تراودها رغبات انتحارية - حقًا؟ وهل ستتخلَّى طوعية عن روعة هذا المكان؟ - فسوف تكون في المنزل في الوقت المناسب لتناول العشاء اليوم.

اتصلتُ بنيك، ولم يرد. ذهبتُ إلى مكتب التمريض، فأخبروني أن جانيس في استراحة. سألتُ عمًا إذا كانت ألف ستخرج من المستشفى

اليوم، فسألتني الممرضة عمن تكون ألف. قلتُ «ألفريدا فون ريزين»، فقالت الممرضة إنها لا تدري، ولم تسمع شيئاً عن الموضوع.

عدتُ إلى غرفة ألف، حيث وجدتُ والدتي تغني لها أغنية بلغة البلاوتديتش، اسمها «دو»، وهي كلمة تعني «أنت». أمسكتُ ألف بيد والدتي. تدور الأغنية حول الحب الأبدي، حتى مع الألم الناجم عن المحبة الشديدة، وكانت تغنيها لنا عندما كنّا في طفولتنا.

بعد ذلك، تسارعت الأمور. عادت جانيس إلى غرفة ألف مبتسمة، ورحبتُ بالجميع، وأخبرتُنا أن ألف سوف تعود إلى المنزل اليوم على الأرجح، ما أن يراها الطبيب ويعطيها الضوء الأخضر. تخيلتُ الطبيب بوصفه بين كينوبي وهو يمنح ألف سيفاً. قلنا أنا ووالدتي في وقتٍ واحدٍ: - رائع، عظيم، هذا مذهش.

وجّهتُ ألف ابتسامة إلى جانيس، وبدأ عليها الامتنان.

جلستُ جانيس بجوارها على الفراش، وسألتها عمّا إذا كانت تشعر بالتحسُّن بالفعل بقدرٍ يسمح لها بالعودة إلى المنزل. كنّا جميعاً نعرف ما يعنيه ذلك. أجابتها ألف قائلةً أجل، بالتأكيد، وبأنها ترغب في العودة إلى نيك وإلى حياتها الفعلية. شرعتُ تمشط شعرها بأصابعها. كما قالت إنها على استعدادٍ لتناول الدواء، وستحجز مواعيد للمتابعة مع طبيبها النفسي. كانت مستعدة، وتقدر كل ما فعلوه من أجلها خلال فترة إقامتها كمريضة هنا. بدت كما لو أنها تلقي خطاباً تدربتُ عليه في حفلٍ للأوسكار. قبلتها على وجنتها قائلة:

- يا سلام! هذا رائع جدّاً. رائع للغاية.

جلستُ والدتي في صمتٍ، ويدها على قلبها، وعيناها متسعتان.

شعرتُ بالذعر والارتباك. قالت جانيس إنها ستركنا بمفردنا لبعض الوقت، ريثما تجمع ألف أغراضها، فتبعثها إلى الرواق. سألتها عمّا إذا كانت عودة ألف إلى المنزل فكرة جيدة بالفعل، فقالت إنها تعتقد ذلك، وإنه ليس لديها خيارٌ. لقد دخلتُ المستشفى طواعية، وليس ضد إرادتها، لذا يمكنها الرحيل حينما ترغب في ذلك. سألتها عمّا إذا كان خروجها سابقاً لأوانه، فقالت جانيس إنه من المهم للغاية أن يشعر المريض بالقوة من خلال السماح له باتخاذ قرارات مهمة.

قلت:

- حسناً، إن القرار المهم جداً سيكون قرارها بقتل نفسها، ولا أحد يريد السماح لها باتخاذها، أليس كذلك؟

وافقتني جانيس الرأي، وفهمتُ مقصدي، لكنها قالت إن يديها مقيدتان حيال الأمر، كما أنهم حقاً بحاجة إلى الفراش، وأن الشك يُفسر في صالح المتهم. قالت:

- دعينا نرى ما يحدث فحسب.

ثم أضافت قائلة إن لديها شعوراً طيباً حيال ذلك، وأخبرتني أن ألف تريد لعب التنس معي ما أن يصير الجو أدفاً بعض الشيء، فلم أعرف كيف أرد على ذلك.

حاولتُ الاتصال بنيك هاتفياً، فأجاب هذه المرة. قلت له إن ألف سوف تعود إلى المنزل اليوم، فأحسّ بالدهشة، كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها بذلك. قلت:

- ما الذي سنفعله إذن؟

قال إنه سيتصل على الفور بتلك العاملة الاجتماعية، بخصوص الفريق. وأخبرني أنه سيغادر العمل مبكرًا، ويشترى البقالة، ويقابلنا جميعًا في المنزل في وقتٍ لاحقٍ بعد الظهر.

عدتُ إلى غرفة ألف، فوجدتها قد نهضتُ من الفراش، وأخذتُ تبحث عن ملابسها. ساعدتها في وضع بعض أغراضها في حقيبة بلاستيكية، ثم أدركتُ أنني لا أعرف أين وضعتُ حقيتي البلاستيكية التي تحوي المخطوط، لكنني أحسستُ بالهدوء على نحو غريب، وفكرتُ: حسنًا، لا بأس، كل شيء على ما يرام.

لكن والدتي قالت حينها:

- هل هذا لك، يا يولي؟

كانت تجلس فوقها. اختلستُ النظر داخلها، وقالت:

- أوه، هل هذا هو الكتاب الجديد؟

قلتُ أجل، فسألني عن عدد الكلمات التي كتبتها. لسببٍ ما، دفعني هذا السؤال إلى الضحك، وهزرتُ رأسي. قالت لها ألف إن الحرف الأول الذي كتبه مذهلٌ. ظَلَّت والدتي تنتظر جوابًا وهي مبتسمة، لكن لم يكن لديَّ جوابٌ. قادني إلى الردهة بالخارج، وقد وضعتُ يدها أسفل ظهري. كانت قصيرة للغاية، وتفوح منها رائحة طيبة جدًا، مثل حليب جوز الهند. عانقتني في الردهة، وأخبرتني أن كل شيء سيكون على ما يرام. أحب كونها تقول لي ذلك مرارًا وتكرارًا، لكنني أتساءل أحيانًا عمَّا إذا كانت تعتقد أنني حمقاء. بغض النظر عن ذلك، فهي والدتي، وهذا ما تقوله الأمهات. بوب مارلي أيضًا يقول ذلك، لكنه يقول إن كلَّ شيء صغير

سيكون على ما يرام، ويبدو لي ذلك كأنه نعتٌ ملائم، حتى لو كان كل ما يفعله هو إضافة عدد المقاطع الكافي كي يتناسب مع الموسيقى فحسب. أذكر أنني كنت أدندن ذلك السطر مرارًا وتكرارًا، وأغني كلمات تلك الأغنية لنفسى حتى أخلد إلى النوم، في الأيام التي سبقت ركوع والدي أمام قطارٍ سريع الحركة.

في ذلك المساء، احتفلنا بعودة ألف إلى المنزل بالطعام الهندي الحار والنبذ الجيد، ومخزون نيك الخاص من البراندي الذي أهده والدتي إياه في عيد الميلاد قبل عامين. بدت ألف مبتسمة، وخجولة بعض الشيء، وجميلة وهادئة، كما لو أنها تملك وحدها الجواب على لغز أبي الهول. أخذت يدها ترتعش بدرجة بسيطة فحسب، وهي ترتدي وشاحًا ورديًا شاحبًا حول رقبتها. وضعت قليلًا من الماكياج على الندبة التي تعلق عينها. بات سروالها واسعًا عليها الآن، لكن نيك صمم لها حزامًا مبتكرًا من الحبال كي ترتديه. شعر نيك بسعادة بالغة لعودتها إلى المنزل. أخذ يناديها «يا حبيبتي»، وينادي والدتي «يا عزيزتي»، بينما نادتها والدتي «يا حفنة العسل». أردتُ أن أعطي ألف رسالة الآن، تقول إننا تعاهدنا، لكن لم يكن لديّ قلم تحديد سميك بما يكفي للتأكيد على ما أقصده. شرع نيك يتحدث عن الأدب الصيني وتعلم اللغة الصينية، بينما ألف تقلب صفحات رواية جلبها لها من المكتبة كي تقرأها. لم يأت أحدٌ على ذكر باريس أو التنس.

أردتُ أن أصرخ فيها: اسمعي! إذا كان أي شخص سيقتل نفسه، فيجب أن يكون أنا. أنا أم بشعة لأنني تركتُ والدي ولديّ، كليهما، وأنا زوجة فظيعة لأنني أضاجع رجلًا آخر. بل رجالًا آخرين. كما أنني أتعثر

في مسارٍ مهني فاشل محتضر. انظري إلى منزلك الجميل هذا، وإلى هذا الرجل المحب الذي يهيم بك في هذا المنزل! كما أن كل مدن العالم الكبرى تلقي نحوك بآلاف الدولارات عن طيب خاطر، كي تزورها لعزف البيانو، وكل رجل يلتقيك يقع في حبك بشدة، ويظل مهووسًا بك مدى الحياة. ربما لأن حياتك صارت مثالية، بتّ على استعدادٍ لأن تخلفها وراءك الآن، فما الذي تبقى لك كي تفعله؟

لكنني وجدت صعوبة في التواصل البصري مع ألفريدا. لم تكن تنظر نحوي، وبالكاد رفعت رأسها عن الرواية التي أعطاهَا نيك إياها.

كانت والدتي تشعر بالتعب من رحلتها، ومن كل شيء في الواقع منذ ميلاد المسيح، لكنها بدت منتعشة وسعيدة هي الأخرى لمجرد رؤية ألف في المنزل. كانت قد علقت في عرض البحر مرة أخرى، على ما يبدو. يحدث لها ذلك في كل مرة تذهب فيها إلى المحيط. إنها تطفو على ظهرها فحسب، مستمتعة بالشمس والأمواج المتماوجة، ثم تنجرف بعيدًا حتى لا تستطيع العودة، ويتعين إنقاذها. لا يتأهبها الذعر على الإطلاق، بل تنجرف ببطء بعيدًا عن الشاطئ، وتنتظر حتى يلحظها أو يفتقدّها أحد. كان أهم شيء بالنسبة إليها هو تجاوز منطقة الأمواج المضطربة، إلى حيث تصير هادئة ويمكنها أن تطفو بعيدًا في البحر تحت ضوء القمر. كانت هذه أكبر متعة لديها. بدت أسرتنا كأنها تحاول الهروب من كل شيء دفعة واحدة، حتى الجاذبية الأرضية، وخط الشاطئ. ولا نعرف حتى ما الذي نهرب منه. ربما نكون أشخاصًا قلقين فحسب، أو ربما نكون مغامرين، أو ربما نشعر بالرعب، أو ربما نكون مجانين. أو قد لا يكون كوكب الأرض هو موطننا الحقيقي. في جامايكا، اضطر ثلاثة صيادين بصدور عارية إلى سحب والدتي إلى الشاطئ وهي تضحك بشدة، بعد أن قفزت من قارب

مطاطي، ولم تتمكّن من الصعود إليه مرة أخرى.
توجه نيك إلى المطبخ لجلب مزيد من المشروبات، فتبعته وهمستُ
له:

- ماذا عن الفريق؟ ما الذي يحدث؟
نزلنا أنا وهو إلى الطابق السفلي، متظاهرين بجلب مزيد من البيرة من
الثلاجة الموجودة في البدروم، فأخبرني أن هذا الفريق يكاد يبدو أسطوريًا،
أكثر من أي شيء آخر.
- على ما يبدو، مع كل التخفيضات في الميزانية والتغيرات في
السياسة...

كان يتحدث، لكن عقلي سرح وأنا أحرق إلى كعب كتاب «صعود
وسقوط الإمبراطورية الرومانية»، وهو ملقى بمفرده بشكلٍ عشوائي على
أرض البدروم الخرسانية، كما لو أن شخصًا ما ألقاه على عجلٍ.
- ... ليس هذا خيارًا بالفعل، لكنني سأواصل السعي وراء الاحتمالات
الأخرى.

توجهتُ نحو الكتاب والتقطته، وناولته لنيك. سألته:
- لكن ما هي هذه الاحتمالات؟ ما الذي نتحدث عنه؟
تناول الكتاب قائلاً:
- أنا أعرف، حقًا.

ثم أخرج زفيرًا عميقًا. في الوقت الحالي، اتفق مع مارجريت،
صديقتهما، على البقاء مع ألف لبضع ساعات كل يوم، كما ستزورها
والدتي يوميًا بالطبع. قلتُ:

- أعرف، لكن من المفترض أن تقوم ألف بجولة تشمل خمس مدن في غضون أسبوعين. انظر إليها، هل تعتقد حقًا أنها قادرة على القيام بالجولة؟ هل تحدثت إلى كلوديو؟

قال:

- يا إلهي!

لم يتحدث إلى كلوديو، ولا يعرف شيئًا، كل ما يعرفه هو أن القيام بالجولات يثير فيها الرعب قبل الذهاب، ثم يملؤها بالبهجة حينما تذهب بالفعل. قلت له:

- يتعين عليّ العودة إلى تورونتو سريعًا. يجب أن يعود ويل إلى نيويورك من أجل امتحاناته، بينما لا يزال دان في بورنيو، ولا يمكنني ترك نورا بمفردها من دون إشراف لمدة تزيد عن يوم أو يومين. ما أن ينتهي العام الدراسي، سأعود إلى هنا بصحبتهما، ويمكننا قضاء الصيف. سأرى ألف كل يوم إذا لم تكن في جولة.

تفهم الأمر، وقال:

- كل شيء تحت السيطرة، كما أن هناك طائرات، وهواتف، أليس كذلك؟

عدنا إلى الطابق العلوي، حيث كانت والدتي تخبر ألف عن تقييمها في لعبة سكرابل. كان متوسط رصيد نقاطها قرابة ألف وثلاثمائة نقطة، وأخذت ألف تومئ برأسها بإعجاب، متظاهرة بأنها لم تسمع ذلك من قبل. أخبرت والدتي ألف أنها كتبت كلمة «فرج» في النادي منذ عدة أيام. قالت:

- إنها كلمة صحيحة!

سألتها ألف:

- وهل عارضك أحدهم؟

قالت والدتي:

- لا، لقد أحسَّ الشاب الذي كنت أَلعب معه بالحرَج، لدرجة أنه لم يستطع حتى النظر إليَّ. لقد كتبت هذه البجدة العجوز كلمة بذيئة.

ابتسمتُ ألف، لكنها مع ذلك لم تقل الكثير. لكن ما الذي يمكن قوله؟ ما هو شعورها؟ هل هذا التجمع المرتجل مجرد عرضٍ بشعٍ ومزيفٍ في رأيها؟ هل تتساءل ما الذي نحتفل به تحديدًا؟ فشلها في تنفيذ خطتها للموت على نحو صحيح؟ أم أنها حقًا سعيدة وتشعر بالارتياح لوجودها هنا؟

فكرتُ قائلة: «هيا، يا ألف، أوقفي يديك عن الارتجاف، وقولي شيئًا ما، وجَّهني خطابًا إلى الأمة، وأخبرينا بأن هناك ما يدعو إلى الإيمان بالمستقبل». أجل، هناك طائرات وهواتف. أردتُ أن أسأل ألف عمَّا إذا كانت تشعر بالخوف. أحسستُ بضيقٍ في التنفس مرة أخرى. ابتسمتُ، وحاولتُ إخفاء شعوري بالذعر، وشهقتُ بعمقٍ من دون أن يلحظ أحدٌ، كي أملأ رثتي بالأكسجين. أود اصطحاب ألف معي إلى تورونتو. أتمنى أن نعيش جميعًا، أنا، ووالدتي وشقيقتي، وولداي، ونيك، وجولي، وطفلاها - وحتى دان وفينبار وراديك - في مجتمعٍ صغيرٍ منعزل في منطقة نائية من العالم، حيث لا نرى سوى بعضنا، وحيث لا يفصل بيننا سوى بضعة أمتار. سيكون الأمر أشبه بمجتمع قديم للطائفة المينوناتية في سيبيريا، لكن تسوده السعادة.

في النهاية، رحلنا جميعًا. جلستُ ألف إلى البيانو وهي تحرك يديها عبر المفاتيح من دون صوت. عندما نهضتُ من مقعدها لتودّع والدتي، كان وجهها ملطخًا بالدموع. تقطن والدتي على مبعدة بضع مربعات سكنية فحسب، لذا قررتُ المشي، وقالت إنها بحاجة إلى التمرين. راقبناها أنا وألف وهي تعبر الشارع بأمان، كما لو كانت طفلة، ثم لوّحنا جميعًا.

أخبرتُ ألف أنني أحبها، وسوف أفتقدها، لكنني سأعود إلى وينيبج قريبًا. سألتها عمّا إذا كان يمكنني رؤيتها حينما تكون موجودة في تورونتو للعزف هناك، فقالت ربما، لكنها ستبقى هناك لمدة ست عشرة ساعة فقط. ستتدرب، وتنام، وتأكل، وتؤدي الحفل، ثم تعود إلى الفندق وتنام، كي تستيقظ مبكرًا للسفر. ستسافر معها هذه المرة روزاموند، مساعدة كلوديو. أخبرتني أنها تحبني أيضًا، وأنها تريد معرفة المزيد عن تورونتو، وعن حياتي هناك، كما طلبت مني أن أراسلها. ليس رسائل بريد إلكتروني، بل رسائل من الطراز القديم التي تصلها عبر البريد في مظارييف عليها طوابع بريدية. أخبرتها أنني سأفعل، بكل تأكيد، وسألتها عمّا إذا كانت ستراسلني هي الأخرى، فقالت إنها ستفعل بالقطع، من دون شك.

أمسكتُ بمعصمها، وطوقت أصابعي عظامها النحيلة، وضغطتُ بقوة حتى تأوّهتُ، فاعتذرتُ وتركتها. لم نتحدث عن معنى الحياة، أو الندوب، أو الغرز الجراحية، أو عدد الكلمات التي لدينا، أو الوعود التي قطعناها في الماضي البعيد.

بعد ذلك، قدت سيارتي حول محيط المدينة، مثل كلب يحدد منطقة نفوذه، أعلى الكباري وأسفلها، بالطريقة التي كنت أجوب بها أطراف بلدتي

الصغيرة. هذه منطقتي، لن يحدث شيء سيئ هنا، إذا قمتُ بدورياتٍ في الشوارع كحارسٍ مجنونٍ. مرحبًا بكم في وينيبيج. لن يتغير تعداد سكانها. ذهبتُ لزيارة جولي، وأخبرتها أنني سوف أرحل في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم التالي، ووافقتُ على الاتصال بها ما أن أعود إلى تورونتو. كما ذهبتُ إلى راديك كي أودّعه، وأشكره على الطعام، وعلى المأوى الذي منحه لي في وجه العاصفة، وعندما حكَّ رأسه وقال «أجل، لكن...»، هزئتُ كتفي وابتسمتُ وأنا أترجع إلى الوراء، وأنا أواصل شكره على عذوبته، ولطفه، ووقته.

قدتُ سيارة والدتي كما لو كانت دبابة، والشوارع هي عدوي، وشعرتُ أنني شريرة وحمقاء ولئيمة. فكرتُ في تحديد موعد مع معالج نفسي عندما أعود إلى تورونتو، لكنني قلت لنفسي إنني لا أستطيع تحمُّل تكاليف ذلك. سأعمل بجهدٍ أكبر، هذا هو كل ما في الأمر. علاوة على ذلك، فما الذي يمكنني الحديث مع المعالج بشأنه؟ عندما انتحر والدي، ذهبتُ لزيارة أحدهم، فاقترح عليّ كتابة رسالة إلى والدي. لم يكن واضحًا ما يفترض عليّ كتابته في الرسالة. شكرتُ المعالج، ورحلتُ وأنا أفكر: لكن والدي مات الآن. لن يتلقَى هذه الرسالة. ما الهدف؟ هل يمكنني استعادة المائة وخمسين دولارًا التي دفعتها فحسب، كي أشتري بعض النبيذ، وكيسًا من الماريجوانا؟

عندما عدتُ إلى شقة والدتي، كانت قد خلدتُ إلى النوم، وعلا صوت غطيظها بشدة، بينما ارتفع صوت أحد مواسم مسلسل «ذا واير» من شاشة تلفزيونها، إلى جانب الصوت المرتفع الصادر من مدفأة كهربائية صغيرة، والجليد الذي ما زال يتكسر في النهر الجاري بالأسفل. وقفتُ

بحوار فراشها وتأمّلتها لفترة، متساءلة عمّا إذا كان نومها هادئًا، وعمّا إذا كانت هذه هي الراحة الوحيدة التي تعرفها. توجهتُ إلى غرفة النوم الإضافية، واستلقيتُ فوق الأغطية بملابسي. بدا من غير المجدي أن أخلع ملابسي الآن، وآوي جديًّا إلى الفراش، لأن عليَّ أن أقوم قريبًا كي أتوجه إلى المطار. ذهبتُ في النوم، ثم استيقظتُ على جلبة في غرفة المعيشة. كانت والدتي قد استيقظت، وتبادل الحديث مع رجل.

كانت الحكاية هي أن والدتي استيقظت، وخرجتُ إلى الشرفة كي تتأمّل السماء ليلاً، وبينما هي تفعل ذلك، تصادف وأن رأّت هذا الرجل، شيلبي، وهو يوقف شاحنته في ساحة انتظار السيارات. فجأة، فكرتُ في خطة. نادت شيلبي لترى ما إذا كان مهتمًّا بنقل الأورج الكهربائي القديم الذي يمتلكه إلى منزل جولي، كي يتدرب عليه طفلها. كانت بحاجة إلى شخص يمتلك شاحنة، وستدفع له المال، فأبدى موافقته. تبادلنا الحديث في منتصف الليل، بينما وقفتُ هي في الشرفة بملابس النوم، مثل خادمة جوليت. وها هو شيلبي في الشقة الآن، يقيس الأورج، ويتساءل كيف سيحمله وينزل به إلى شاحنته.

قالت والدتي:

- أوه، جيد، لقد استيقظتِ يا يويو.

لذا حملنا أنا وشيلبي الأورج إلى شاحنته، بينما أمسكتُ والدتي باب البناية لتبقيه مفتوحًا، وقميص نومها يتطاير بجنونٍ في مهب الريح. بدأ الجو يمطر، وسرعان ما انهزم المطر بغزارة. هرعت والدتي إلى الأعلى

لتجلب كيس قمامة كي تغطي الأورج وهو في الشاحنة، في طريقه إلى منزل جولي في منتصف الليل. سألتُ والدتي عمّا إذا كانت جولي تتوقع وصول هذه الشحنة في مثل هذا الوقت، فقالت لا، لكننا سنتعامل مع الأمر حينما نصل إلى هناك.

انحسرنّا أنا ووالدتي وشيلبي في مقدمة شاحنته، ووصلنا الأورج إلى منزل جولي. كانت هي وطفلاها غارقين في النوم، ولم يردوا على الباب، لذا حملنا الأورج إلى سقيفة في حديقته، ووضعنا لافتة على بابها نخبرها فيها أننا أحضرنا أورجًا إلى منزلها، وأنه في السقيفة. عدنا إلى البناية السكنية التي تقطن بها والدتي، ثم أعطت شيلبي خمسين دولارًا نظير مساعدته. ودّعنا شيلبي، ووقفنا في شقتها والماء يقطر منّا على أرضية المطبخ. كان الماء يغرق أرضية الحمام أيضًا، وكان من المتوقع أن يفيض النهر، بينما استمرّ البرق في شق السماء.

قالت والدتي:

- حسنًا، ها قد انتهينا من ذلك على الأقل.

تفهمتُ حاجتها إلى إنجاز شيء ما، مهما بدا غريبًا. شيء به حركة تتصاعد بوضوح، مع نهاية ناجحة. قالت إنها ستحاول الحصول على قسطٍ من النوم قبل رحيلي، لكنها طلبت مني إيقاظها أولاً. كنت مستيقظة تمامًا، لذا نزلتُ وتوجهتُ إلى غرفة التمرينات الرياضية بالبناية السكنية، ووقفتُ على جهاز المشي، ضغطتُ زر التشغيل، وشرعتُ أركض. كنت أرتدي حذاء غليظًا له رقبة مرتفعة، وسروالًا ضيقًا من الجينز، وتناثر الماء من شعري على جهاز المشي، وعلى الأرض. رأيت حمام السباحة الفارغ

خارج باب الفناء الزجاجي، وقائمة قواعد حمام السباحة مكتوبة بأحرف متصلة، وقد لاح خطُّ أحمر رفيع في الأفق. ركضت حتى غمرني العرق، وأخذت ألهث، فضغطُ زراً مكتوباً عليه «اهدأ»، وسرت ببطء على الجهاز وأنا أمسك المقبض بقوة.



عزيزتي ألف،

ها هي رسالة مكتوبة بخط اليد، كما طلبتِ، وكما وعدتُ. نعاني من غزو النمل، وقد حدث هذا حينما كنتُ في وينيبج. يعتقد مالك العقار أن الأمر له علاقة بدرجة القذارة في شقتنا، لكنني أظن أن الأمر متعلق بصورة أكبر بدرجة الخراب الطبيعي في الكون، كما أننا لسنا على هذه الدرجة من القذارة على أي حالٍ، بل نحن فوضويون فحسب. وضعتُ صواني بلاستيكية بيضاء صغيرة مملوءة بالسم في جميع أنحاء الشقة. عاد ويل إلى نيويورك، وهو متشوق لرؤيتك أنت ونيك هذا الصيف. لقد نجح في إبقاء نورا على قيد الحياة، لكن المكان في حالة شديدة من الفوضى. على ما يبدو، لا يلحظ أيُّ منهما هذه الفوضى، كما يبدو أيضًا أن نورا لديها صديق الآن، وهو شاب زميل لها في الدراسة، أتى من سويسرا ولديه منحة دراسية. عندما وصلتُ إلى المنزل، وجدتُ فتى يسوي عجة البيض في المطبخ، وقد تناثرت الأكياس من متجر «هول فودز» في أرجاء المكان. إن «هول فودز» متجر للبقالة الصحية لا أتسوق منه أبدًا، بل أذهب إلى مكان اسمه «نو فريلز». لم يكن هذا الغريب الواقف في مطبخي يستطيع التحدث بالإنجليزية، لذا لم تكن لديَّ أدنى فكرة عمَّا يفعله هناك،

واضطرت إلى الانتظار حتى وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء عندما عادت نورا، كي أفهم الأمر. حتى ذلك الوقت، خرجتُ عدة مرات للتمشية لمسافاتٍ طويلة، وكنت أبتسم له فيما بينهما، وأشير إلى بعض الأشياء وأومئ، وما إلى ذلك.

لديَّ غرفة صغيرة بالقرب من غرفة نومي، كنت قد خططتُ للجلوس والعمل بها، لكنني لا أدخلها أبدًا، لكونها باردة للغاية، لذا أكتب على طاولة غرفة الطعام، أو في الفراش. أحب الاستماع إلى أصوات اليمام عندما أستيقظ مبكرًا، فهي تجعلني أشعر بالحزن، والسعادة، والحنين إلى طفولتي على ما أعتقد، طفولتنا، والبراري، وذلك الشعور عند الاستيقاظ مع عدم وجود شيء يتعين علينا القيام به سوى اللعب.

هل تعرفين أنني كنت أستيقظ هناك وأغني لبعض الوقت، حينما كنتُ في التاسعة أو العاشرة تقريبًا من العمر؟ عندما كنتُ أنتِ في غرفة النوم تلك ذات الجدران الخشبية، التي كان معلقًا بها ملصق ميخائيل باريشنيكوف، الذي كان بعنوان «حينما يجد الجد». تُرى أين ذهب ذلك الرجل الآن، على أي حال؟ وهل كنتِ تحبين رقصه للغاية، أم أنكِ أحببتِ جسده، أم حقيقة أنه ترك كل شيء وراءه في روسيا، من دون أمل في العودة أبدًا، من أجل فَنِّه فحسب؟ على أي حالٍ، يبدو أن هناك من يطلقون النار على اليمام ويأكلونه في هذه الأيام، هل يمكنكِ تصديق ذلك؟ عندما سمعتُ بذلك، انتابني نفس الشعور الذي أحسستُ به عندما سمعتُ بموت جو سترومر. موسيقى شبابي. حينما تكونين في الخامسة عشرة من العمر، وتستيقظين في الصباح على غناء اليمام وفريق «ذا كلاش»، تشعرين كما لو أنكِ في الجنة. على أي حالٍ، لقد مات جو سترومر، وشرع الناس يأكلون اليمام. ما

الذي يقوله ذلك عن طفولة المرء؟ من تبقى ليقودنا كي نخرج من البرية؟ لا أعرف كثيرًا من الناس هنا، والمكالمة الهاتفية الوحيدة التي أتلّقها هي من صوت مسجل يقول: «مرحبًا! هل خرجت ديونك عن حدود السيطرة؟». في المرة الأخيرة التي حدث فيها ذلك همستُ قائلة: «أجل، أجل لقد خرجت بالفعل»، ثم أنهيتُ المكالمة بسرعة، كرهينة ترسل رسالة مشفرة إلى رجال الإنقاذ المحتملين. لقد صرفتُ أموال التقاعد التي منحنا إياها والدنا منذ زمنٍ بعيدٍ، كما أنفقتُ بالفعل نصيبي من ثمن بيع المنزل لدفع الإيجار في هذه المدينة، وأخبرني صاحب العقار بالأمس أنه سيرتفع ليصل إلى رقمٍ لم أسمع به حتى من قبل.

عاد فينبار، المحامي، إلى إرسال رسائل نصية إليّ مرة أخرى. يقول إنه عالج بعض الأمور، ويعتقد أنه لا بأس من عودتنا إلى بعضنا مرة أخرى، على الرغم من نمط حياتي غير المستقر. إنه معجبٌ بعضلات فخذي الخلفية. صار لديّ إصبع سادس في قدمي الآن. حسنًا، تورم في إبهام القدم. أحيانًا، عندما أسير لمسافات طويلة، ينبض كقضيبةٍ صغيرٍ في جانب قدمي. كما أن لديّ أيضًا شيئًا غريبًا بحجم كرة الجولف ينمو على مؤخرة كعبي، أعتقد أنه يُسمّى تشوه هاجلوندا. أصيبت كلبتنا بها ذات مرة، أتذكرين؟ أعطاهما العم راي مهدنًا من المهدئات المخصصة لخياله، ثم قطعه بسكين. أذكر أنك ظللتِ تحملينها بعدها طوال أسبوعين، لأنها لم تتمكّن من المشي بعد ذلك، أو كنتِ تضعينها في تلك العربة الصغيرة، وتسحبينها في كل مكان. هل ستفعلين ذلك من أجلي، إذا خرج التشوه الذي أعاني منه عن حدود السيطرة؟ كما أنني تعرّضتُ لحادثٍ بسيطٍ منذ عدة أيام، هل أخبرتك عنه؟ مجرد حادث سيارة بسيط، لكن نظرًا لكون

التأمين هنا في أونتاريو باهظًا للغاية وما إلى ذلك، ولأنني لا أزال أحتفظ بتأمين مانيتوبا (يا ويلي!)، فلست متأكدًا ما إذا كان التأمين سيغطيني، وقد أضطر إلى دفع مليون دولار للمرأة التي لم تتأثر سيارتها البي إم دبليو الرياضية متعددة الأغراض على الإطلاق. في الواقع، لقد نزلت من سيارتها والتقطت صورة لمصد سيارتها السليم تمامًا بهاتفها المحمول، بينما وقفت أنا بسروالي القصير وسترتي الخضراء، أحمل عبوة تحوي ست علب من البيرة، قائلة: «هيا، لا يمكن أن تكوني جادة بالفعل».

نحاول أنا ونورا إجراء تجربة صغيرة: نحاول إجراء تواصل بصري مع سكان تورونتو. إنه أمرٌ مثيرٌ للإحباط. يجفل الناس عندما ننظر إليهم، وسرعان ما يشيحون بنظرهم، أو يتحكمون في أنفسهم بطريقة ما، فلا ينظرون نحونا من الأساس. لقد لاحظنا أن بعض الأشخاص يديرون رؤوسهم بشكلٍ ملحوظٍ، وحتى أكتافهم أيضًا، حتى لا يغيرهم النظر. ذهبنا أنا ونورا اليوم لتمشية سريعة في حيِّنا (ليتل مالتا)، ومن بين ثمانية وستين شخصًا مررنا بهم على الرصيف، تبادل سبعة منهم فقط النظرات معنا، ومن بين هؤلاء السبعة ابتسم واحدٌ فقط، وربما لم تكن ابتسامة حقيقية، بل تكشيرة نظرًا إلى كونه يعاني من الغازات. تظاهرنّا أنا ونورا بعدم المبالاة، لكن الأمر مؤلِّمٌ! تساءلنا عمّا إذا كان ذلك بسبب شكل ملابسنا، أو إذا كان لنا طابعٌ ما يجعل الناس لا يرغبون في التواصل معنا بأي شكلٍ على الإطلاق، أو إذا كنّا نبدو يائستين أو خطيرتين أو غريبتين. حسنًا، عليّ أن أسرع لاصطحاب نورا من التدريب، وتوصيلها إلى موعدها مع طبيب الأسنان في الوقت المناسب، وفي هذه الأثناء، سأفكر فيك وأفتقدك... أطفو على أجنحة العدم.

خادمتك المتواضعة والمطبعة، ي. (أرأيت؟ لقد قرأتُ رسائل عشاقك من الشعراء).

امتنعت ألف عن الرد على الهاتف. اتصلتُ بوالدتي فقالت:
- أجل، هذا صحيحٌ، إنها لا ترد. حسنًا، أحيانًا ترد. في الواقع لا،
أعتقد أنها لا ترد. حسنًا، أحيانًا ترد في بعض الأوقات، لكنها في الغالب
لا ترد. في الواقع، فهي لا ترد على الإطلاق. ربما في مرات نادرة، لكن في
الغالب لا، فهي لا ترد.

لا أتحمّل مراوغة والدتي في الحديث على هذا النحو، مترددة ما بين
الأمل واليأس. أخبرتني أنها تشجع ألف على الرد، عندما يرن الهاتف في
أثناء وجودها في منزل ألف، لكن حتى مع وجود والدتي يصبح الأمر
صراعًا، وفي الغالب تنتصر ألف، ولا ترد على الهاتف.
سمعتُ صوت البوق ينطلق من جهاز الكمبيوتر المحمول خاصتها،
مشيرًا إلى أن هناك لعبة سكرابل جديدة على وشك البدء.

عزيزتي ألف،

ذهبتُ اليوم في نزهة طويلة، وانتهى بي الأمر بمراقبة البط وهو
يغوص في بحيرة جراندير في هاي بارك. تساءلتُ عن طول المدة التي
يمكنهم فيها حبس أنفاسهم، وعددتُ ثماني وسبعين ثانية قبل صعود
إحداها على السطح طلبًا للهواء. كم تبلغ طول المدة بالنسبة إلى البشر؟
دقيقة؟ سمعتُ اليوم محادثة جيدة للغاية في الترام، صعد رجلٌ إلى الترام
وهو يطلق السباب بشدة، بألفاظٍ بذئنة بالفعل، مثل: «تلك العاهرة اللعينة

يمكنها أن تمص قضيبى إذا كانت تعتقد...». فقال سائق الترام: «مهلاً، انتبه! لا يمكنك إطلاق السباب على هذا النحو في الترام»، فتوقف الرجل ونظر إلى السائق مبدئاً أسفه الشديد وتفهمه، ثم نزل في المحطة التالية وعاود السباب على الفور ما أن نزل من الترام.

أفتقدك. صعدنا أنا ونورا إلى قمة برج سي إن بالأمس. كنّا نحاول فهم مدينتنا الجديدة من منظورٍ شاملٍ. وضعنا عملة معدنية من فئة الدولار في منظارٍ قوي، لكن مع ذلك لم نتمكن من رؤيتك. صعدنا إلى البار الموجود على سطح فندق بارك حياة، وتناولتُ كأس نبيذ ثمنه اثنا عشر دولاراً، وتقاسمنا بعض الزيتون واللوز. كما حددنا إلى اتجاه الغرب ببعض اليأس. نحن نفتقدك. سألتني نورا عما إذا كنتُ ندمتُ على إنجاب الأطفال، الأمر الذي صدمني وجعلني أشعر كأنني أم فظيعة، كما لو أنني أعطيتها انطباعاً أنها تعتمر مني الحياة ببطء. لكنها واصلت الحديث بعد ذلك قائلة إنها تفكر في ألا تحبل أبداً، لأنها لا تتحمّل فكرة أن يأوي جسدها كائنًا غريبًا، ويتضخم في صورة كاريكاتورية بشعة للأنوثة. أتمنى ألا تكون مصابة بأحد اضطرابات الأكل. لقد قرأتُ إن اضطرابات الأكل غالباً ما تكون بسبب الأمهات المستبدات، لكنني طيبة إلى حدٍّ كبير، بدرجة لا يعود معها الأمر مثيراً للضحك. ربما تخيلتُ أمّاً مستبدة لتعوض افتقاري إلى الاستبداد، وهذه الأم الخيالية المتسلطة هي التي تسببت في إصابتها باضطراب في الأكل. إنها لا تعاني بالفعل من اضطراب في الأكل، ولا يجب أن أحاول إلقاء اللوم بسبب شيء لا وجود له حتى في الواقع، على أم خيالية افترضتُ وجودها. أحاول أن أتذكر كم كنتُ نحيفة حينما كنتُ في سنّها، وما زلتُ!

بينما كنّا موجودتين في البار على سطح الفندق، تقدّم منّا رجلٌ عجوزٌ مسمّر البشرة من أثر الشمس، يرتدي خاتم بيسبول وحذاءً جلدًا أبيض من دون شراب، وقال لنورا إنها جميلة، وسألني عمّا إذا كنت شقيقتها. هاها، إنها النكات المكررة التي يطلقها العجائز المبتدلون الطموحون. قال إن نورا يجب أن تكون عارضة أزياء، فقلت إن هذا إطرء، لكنها راقصة، بينما تشع من عيني الفتاكتين كلمات غير منطوقة، مفادها «ابتعد أيها البغيض، نوايك واضحة». سرنا طوال الطريق إلى المنزل ونحن نغني مزيجًا من الأغاني القديمة التي تعرفها كلتانا. إنها لطيفة جدًا عندما تقول أشياء مثل «ماذا! هل تعرفين أغنية «ممزقة بين عاشقين»؟». حتى إنها سمحت لي أن أمسك يدها دقيقة أو دقيقتين. أخبرتني أنني جذابة على نحو مدهش، إذا أخذنا ملامحي بعين الاعتبار، مما جعلني أرغب في الانهيار والبكاء بامتنانٍ. فهي لا توزع المجاملات على نحو عشوائي، كما هو حال أي فتاة في الرابعة عشرة من العمر. لقد دمّر الرقص قدميها، حتى باتت تشبه قدمي الجد ويرنير. أتذكرين عندما كان يقدّم بهما عروضًا للدمى، ويجعلنا نصرخ؟ أدلّك لها قدميها، وتصير يدي بعدها خشنة ومتسلخة من الاحتكاك بقدميها الشائكتين. سألتها عن صديقها السويدي الشاب (وقد أبدت احتجاجها لذلك. اسمه آندرس، وهو مفتول العضلات على ما يبدو)، وعمّا إذا كانا قادرين على التواصل بأي لغة، فأجابتني بهيام قائلة لا، وإن الأمر مثالي على هذا النحو. أردتُ أن أسألها عمّا إذا كانت تمارس الجنس معه، لكن لم تواني الجرأة؛ إنها لم تبلغ الخامسة عشرة بعد. لن أحتمل الجواب. يا إلهي، أنا أم عديمة النفع.

اتصلتُ بويل في نيويورك الليلة الماضية، وأخبرني أن لديه جردانًا

في شقته. سألني عن حالك، فهو أيضًا يفتقدك! بمناسبة الحديث عن الجردان، أظن أن لدينا فئرانًا، علاوة على النمل. أعتقد أن ذلك يبعث على الارتياح، مقارنة بالجردان. يقولون في تورونتو إنه إذا كان لديك فئران، فهذا يعني أنه ليس لديك جردان، والعكس صحيح، لأن الجردان تأكل الفئران. أتساءل عمّا إذا كانت الجردان تأكل اليمام. صار يراودني حلمٌ متكررٌ في الآونة الأخيرة، حيث يعلق جردٌ تحت قميصي، ولا أستطيع إخراجه، فاضطر إلى الضرب على صدري حتى يسقط على الأرض داميًا وميتًا، ويغمرنني الإرهاق. لا نفتأ الكهرباء تنقطع. أفتقدك بجنونٍ.

من دون أدنى شكّ، حتى إذا لم تكوني سعيدة بقدر الإمكان، فأنت محبوبة أكثر من أي شخص عاش على الإطلاق. ي.

(هذا ما كتبه مدام دي ستايل في نهاية رسالة إلى أحد الفرسان، لكنه أضحى الآن ما أكتبه إلى ألفريدتي).

اكتبي لي، يا ك. أ. ض!

ملحوظة: أو ردي عل هاتفك اللعين!

ملحوظة إضافية: كنتُ أتحدث مع والدتنا منذ عدة أيام، فأخبرتني أنك تستمعين إلى السيمفونية الثالثة لجوربكي من دون انقطاع. عمّا تدور هذه المقطوعة؟

أصبح الرد على الهاتف، أو عدم الرد عليه، رمزًا لقدرة ألف على التعامل مع الحياة. أخبرتُ ألف والدتي أن صوت رنين الهاتف، بالنسبة إليها، يشير الرعب مثل أفلام هيتشكوك، فقلنا «آه، أجل، صحيح، هممم...»

عبر الهاتف. تحدثتُ مع والدتي عصر اليوم، وكانت تحمل لي الأخبار. أبلغتني أن شقيقتها تينا في طريقها إلى وينيبج للزيارة، ولقضاء بعض الوقت مع ألف. ستقود شاحنتها قادمة عبر البلاد من فانكوفر، كي تساعد والدتي التي أعرف أنها منهكة، لكنها ترفض الاعتراف بذلك. سألتها:

- لماذا؟ هل الوضع سيئ إلى هذه الدرجة؟

قالت:

- إنه ليس بهذا السوء، لكنه ليس جيدًا أيضًا.

سألتها:

- كيف حال ألف بالتحديد؟

قالت:

- حسنًا، أنت تعلمين، كما هي في الواقع.

قلت:

- في مكان ما بين كونها ليست في أسوأ حال، وكونها ليست في أفضل حال.

قالت:

- هذا هو ملخص الوضع. لن تقوم بالجولة.

- ماذا؟ حقًا؟

- هذا هو ما تقوله اليوم.

سألتها عمّا إذا كانت ألف تتلقّى رسائلني، فقالت إنها لا تعلم، وإنها ستستفسر عن ذلك. اتصلتُ بنيك في العمل، وتركتُ له رسالة كي يعاود الاتصال بي، كما اتصلتُ بويل في بروكلين، وسألته عن أحواله، فهمس قائلاً:

- بخير. بخير، أجل.

كان في المكتبة. دومًا ما يكون في المكتبة، أو يحتل وول ستريت
حينما أتصل به. سألني كيف تسير الأحوال، فقلت له:

- رائع، جيد.

همس قائلاً:

- كيف حال ألف؟

فأجبت هامسة:

- أحوالها جيدة للغاية، إنها على ما يرام، أجل.

ثمة شخصٌ ما يقلم كلَّ أفرع الشجرة الكائنة بالخارج أمام نافذة
غرفة طعامي. أحب الجلوس إلى طاولة غرفة الطعام بميصي وسروالي
الداخلي أول شيء في الصباح، والاستماع إلى اليمام الذي لم يؤكل
بعد، والكتابة. كانت أفرع الشجرة تحجب النافذة بأكملها تقريبًا، وتمنع
الجيران من رؤيتي وأنا جالسة هنا بملابسي الداخلية. لكن الأفرع تتناقص
الآن، واحدًا تلو الآخر، وتكشفني للجيران على مهلٍ، مثل أحجية تشكّل.

عزيزتي ألف،

متى ستجيبين على رسائلي؟ أحد الأشياء التي لاحظتها بخصوص
الرجال، هي أنهم ينزعجون ويغضبون بعض الشيء، عندما تبكين
لبضع ساعات بعد ممارسة الجنس معهم، وترفضين إخبارهم عن سبب
انزعاجك.

أنا وفينبار غير متوافقين على الإطلاق. السبب الوحيد الذي يدفعني
إلى مضاجعته هو أنه يرغب في ذلك، علاوة على كونه يتمتع بالوسامة.

أعرف أنني مشيرة للشفقة، ومنحلة. كما أنني قدوة فظيعة، وأم لابنة تكاد تصبح نشطة جنسياً، أو صارت نشطة جنسياً بالفعل. حقاً، من عساه يرغب في أم تشتري واقياً ذكرياً مُنكَّهاً من آلة البيع في سينما ريفولي؟ (فوجئتُ بالأمر، وكان هذا هو المتوفر لديهم). لكن نورا لا تعرف بشأن فينبار في الواقع، لأنني أعمل على أن تكون جميع لقاءاتنا الحزينة قصيرة، وخفية، ومتباعدة مثل كسوف الشمس. إن إخبارك بمثل هذه الأشياء الآن، في هذه اللحظة، يجعلني أرغب في البكاء بشدة، وأعتقد أنني سأفعل ذلك. أود أن أقع في الحب مرة أخرى. كما أتمنى لو لم نكن أنا ودان نتشاجر إلى هذا الحد. إنه أب جيدٌ لنورا، حينما لا يكون في بورنيو. أنت محظوظة للغاية لأن لديك نيك! وهو محظوظٌ للغاية لوجودك! أبلغيه سلامي. بالمناسبة، كيف حال زورقه؟

أخبرني آندرس للتو (صديق نورا السويدي الشاب) أنه تسبَّب في سد المرحاض، وأنه أفسد الغسالة حينما حاول غسل ملابسه كلها دفعة واحدة. لماذا يغسل ملابسه هنا؟ لذا صارت ملابسه حبيسة داخل الغسالة، بينما يتسرَّب الماء من الغسالة إلى المناشف التي استخدمها لتغطية الأرض. أوضح كل هذا من خلال الحركات التمثيلية والرسم، بسبب حاجز اللغة القائم بيننا.

حلَّ المساء الآن. ذهبت نورا وآندرس إلى حفل عيد ميلاد. قبل رحيلهما، أجبرتهما على أن يرياني بعض حركات الرقص التي كانا يعملان عليها في المدرسة. تردّداً في البداية، لكنهما وافقا أخيراً على أداء رقصة سريعة، ويا إلهي، كم كانت مذهلة. إنهما مجرد طفلين فحسب، لكنهما أصبحا فجأة عاشقين منهكين بهموم الدنيا، وعلى الرغم من رشاقتهما

المذهلة، يُغشى عليهما، ثم يموتان، حتى يجتمع شملهما في النهاية. كانا في غاية الجدية، وكل شيء مدروس بدقة، ومع ذلك بدت جميع حركاتهما في غاية الحرية. يجب أن تأتي لمشاهدتهما وهما يرقصان! عند انتهائهما من الرقص، وقد انثنى جسدهما والتويا في شكلٍ تعبيري من نوع ما، حافظا عليه لفترة طويلة للغاية قبل أن يقفا وينحنيا بلطفٍ، انفجرتُ في التصفيق -وأنا أحاول ألا أبكي- فتحولاً مرة أخرى على الفور، وعادا مراقبين عاديين مرتبكين، يجرجران أقدامهما نحو الباب، ويصطدم أحدهما بالآخر، ويعتذران ويضحكان بتوترٍ، وأحدهما يمسك بيد الآخر في خجلٍ، في حين بدا منذ لحظة أنهما من ابتكر العاطفة المتقدمة والجمال. لقد انقطعت الكهرباء لدينا.

كنتُ أحاول تحرير روايتي الغبية في أثناء انقطاع الأنوار، لكن المفتاح الوحيد الذي يمكنني الضغط عليه في الظلام من دون أن أخطئه هو مفتاح الحذف، ربما تكون هذه إشارة. بالمناسبة، لقد تفقدتُ ويكيبيديا لأرى المذكور بخصوص السيمفونية الثالثة لجوريجي. يُطلق عليها أيضاً سيمفونية الأغاني الحزينة، وهي تدور حول العلاقة بين أم وطفل. هل قابلتِ والدتنا مؤخراً؟ وهل أخبرتكِ أنها عثرت أخيراً على سماعتها المفقودة، في مجفف الملابس؟

يجب أن أذهب الآن كي أقوم بجولاتي هنا، كما اعتاد أبناء آل هيرت على القول (أتذكرينهم، بسيارتهم الستيشن واجون، وأكياس القمامة المليئة بالماريجوانا؟)، حينما كانوا يذهبون لبيع المخدرات. لقد نجحتُ في تسليك المرحاض، لكن لا يزال يتعين عليّ اكتشاف كيفية إصلاح الغسالة، حتى لا تغمر البدروم وتجرفنا جميعاً إلى بحيرة أونتااريو.

لقد انتهيتُ الآن من الحفل الراقص، وسأذهب لتبديل ملابسي استعدادًا لتناول العشاء. (هذا اقتباس من جين أوستن، في رسالة كتبها إلى شقيقتها كاسانديرا).

يولي.

ملحوظة: هناك تُل في تورونتو، وهو أمرٌ مثيرٌ. عليكِ صعوده إذا كنت متوجهة نحو الشمال، وهبوطه إذا كنت متوجهة نحو الجنوب. كان شاطئ بحيرة أونتااريو يصل إلى مسافة أبعد كثيرًا مما هو عليه الآن. كانت البحيرة ستصل إلى نافذتي التي في الطابق الثالث، منذ نحو ثلاثة عشر ألف عام مضت. عُرفت حينها باسم بحيرة إيروكوا، وعندما ذاب السد الجليدي، جفَّ الماء وصارت البحيرة بحجمها الحالي، الذي هو أصغر كثيرًا بالمقارنة، كأنها مجرد خيال لهيئتها السابقة. وهناك طريقٌ في شمال تورونتو اسمه دافينبورت، يتبع مسار السكان الأصليين، الذي كان يمتد على طول الخط الساحلي القديم. أنا متأكدة من أنه كان يُسمَّى شيئًا آخر غير دافينبورت آنذاك. أو ربما كانت كلمة دافينبورت، التي تعني أريكة، من ابتكار السكان الأصليين، الذين سئموا الجلوس على الصخور وفي الزوارق، وتخلوا شيئًا أكثر نعومة، وبه نوابض. هل تعلمين أن الأجزاء المختلفة من الأرض، أي القارات، يقترب بعضها من بعض بنفس السرعة التي تنمو بها الأظافر؟ أم هل تبتعد بعضها عن بعض؟ لم أعد أتذكر الآن، لكن ما يثير اهتمامي على أي حالٍ هو سرعة حركتها، وعلاقة هذه السرعة بالحزن، والذي يمكن القول في هذا السياق إنه يمرُّ سريعًا، أو يستمر إلى الأبد.

ملحوظة إضافية: أحيانًا أغمض عيني وأنا أعمل على كتابي، وأتخيل أنني في وينيبج، أقابلُك في إحدى المقاهي، ربما مقهى «بلاك شيب» في

شارع إليس. أراك مبتسمة الآن، وأنا أسير قادمة عبر الطريق. لقد حجزت لنا طاولة بالقرب من النافذة، وبجوارك كومة كتب صغيرة من المكتبة، باللغة الفرنسية. وقد طلبت لي قهوة فلات وايت، وترتدين تنورة قصيرة مثيرة ومضحكة في ذات الوقت، وعليها مريلة رسامين فضفاضة. تنقرين أسنانك بقلمك الأخضر بينما تبسمين، كما لو أن لديك شيئاً تخبريني به، شيئاً سيثير ضحكي. أعمل اليوم بينما أبقى بابي الأمامي مفتوحاً على مصراعيه، لأن الجو دافئ للغاية. هناك عمارة سكنية بُنيت على الجانب الآخر من الطريق، والضجيج صاخب جداً. كل خمس دقائق يصرخ رجلٌ قائلاً: «انتبهوا»، يلي ذلك ببضع ثوانٍ انهيارٌ هائلٌ وسحابة أخرى من الغبار. اشتقتُ إليك، يا ألف.

مضى ما يقرب من أسبوعين منذ أن ودَّعتُ شقيقتي عند مدخل باب منزلها في وينيبج، ووعدها بكتابة الرسائل. صرنا في شهر مايو الآن، يوم افتتاح حفل ألفريدا مع أوركسترا وينيبج السيمفوني. تقرر أن يُقام الحفل، بعد أن غيرت رأيها مرة أخرى. اتصل بي نيك بالأمس ليقول إن التدريبات على الحفل سارت على نحوٍ جيدٍ للغاية، وإن ألف بدت متحمسة لليلة الافتتاح، على الرغم من أنها بدت منهكة بعض الشيء.

اتصلت بي والدتي اليوم، بينما كنتُ أسير في حديقة موحلة بالقرب من البحيرة. عندما رنَّ هاتفي المحمول، تأملتُ للحظة قبل الرد.

قالت والدتي:

- لقد فعلتها ثانية.

جلستُ القرفصاء وسط الوحل، وقلت:

- أخبريني.

قالت والدتي إنها ذهبت برفقة شقيقتها تينا إلى منزل ألف لالقاء التحية، على الرغم من أن ألف طلبت منهما الابتعاد بكل تهذيب كي تتمكن من تجهيز نفسها للحفل. لم تُحب ألف الباب عندما طرقتا عليه، كان الباب مغلقاً، لكن والدتي كانت تمتلك مفتاحاً، ففتحت الباب ودخلت. عثرت على ألف مستلقية على أرض الحمام، وقد قطعت معصمها، وشربت ماء جافيل. كان الحمام يعبق برائحة ماء جافيل، كما تعبق به بشرتها وأنفاسها. غطت الدماء جسدها، بينما لا تزال واعية وعلى قيد الحياة. مدّت ذراعها إلى والدتي، وتوسّلت إليها أن تأخذها إلى شريط القطار. احتضنتها والدتي، بينما اتصلت تينا برقم ٩١١، فجاءوا لاصطحاب ألف إلى المستشفى. إنها في العناية المركزة الآن، على جهاز التنفس الصناعي، لأن حلقها انغلق من أثر ماء جافيل. سيصبح معصماها بخير.

أنا في المطار، أنتظر الطائرة كي تأخذني إلى المنزل، لدى شقيقتي ووالدتي. اشتريت كريماً من متجر «لاش»، كي أدلك به جسد ألف. تتمتع بجسدٍ جميلٍ على نحوٍ مذهشٍ، بالنسبة إلى امرأة في أواخر الأربعينيات من عمرها. ساقها رشيقتان وقويتان، ولديها عضلات في فخذهما. ابتسامتها حدثٌ يستحق الاحتفاء، كما أنها تضحك بشدة، وتجعلني أضحك بشدة أنا أيضاً. عندما تندهش، تتسع عيناها بصورة هزلية، وهي تبدي عدم التصديق. بشرتها نقية، وناعمة، وشاحبة، ولها شعرٌ فاحم السواد،

وعينان يبدو عمق خضارهما كما لو أنه يقول: «انطلق، انطلق، انطلق!». ولا تعاني من النمش الكريه والشامات وشعر الوجه مثلي، ولا العظام الضخمة البارزة كحديد التسليح الملتوي في مكب النفايات. إنها ضئيلة القامة، وأنثوية، وساحرة، وغامضة، ومثيرة، كنجمة سينمائية فرنسية. وهي تحبني، وتسخر من العاطفة المفرطة. كما تساعدني على الحفاظ على هدوئي. لم يفسد مرور الزمن جمال يديها، ولم يتهدل ثدياها، بل ظلا صغيرين وناضرين كصدر فتاة. عيناها زمردتان رطبتان، وأهدابها فائقة الطول، يثقلها الثلج المتساقط في الشتاء، فتجعلني أقصرها بمقصر والدتنا، كي لا تحجب عنها الرؤية. أسقطتُ على الأرض صينية من قنابل الاستحمام الفوارة بحجم كرات التنس، ذات لون أصفر زاهٍ، ولم أعرف كيف أجمعها. قالت المرأة إنه لا بأس، ولا أتذكر الآن ما إذا كنتُ دفعت ثمن الكريم. أنا في طريقي للعودة إلى المنزل.



عندما سافرت ألف إلى أوروبا، قرّرت والدتي التحرر هي الأخرى، وسجلت للدراسة الجامعية في المدينة، كي تصبح عاملة اجتماعية، ثم معالجة. كان كبار قادة الكنيسة حينها قد نفّضوا أيديهم من نساء فون ريزين. عند تخرجها، حوّلت غرفة النوم الإضافية إلى مكتبٍ، فتدفق إلى منزلنا تيارٌ مستمرٌّ من نساء الطائفة المينوناتية الحزاني الغاضبات، وكان ذلك في السرّ غالبًا، لأنّ العلاج النفسي كان يُنظر إليه بوصفه أدنى حتى من البهيمية، لأنّ البهيمية على الأقل كانت مفهومة إلى حدٍّ ما في المجتمعات الزراعية المنعزلة. في بعض الأحيان، لم تكن والدتي تحصل على المال من عملائها مقابل خدماتها. كانوا في الغالب من المزارعين والميكانيكيين الفقراء، وربّات البيوت اللاتي ليس لديهن مصدر دخل خاص بهن. لذا في بعض الأحيان كنّا أنا وألف نعود إلى المنزل لنجد لحم البقر المجدد في الردهة، أو الدجاج في المرآب، وأكوام البيض على المقعد في المدخل. وفي أحيان أخرى، يكون هناك رجلٌ مستلق تحت سيارتنا في الممر، يصلح ناقل الحركة، أو امرأة غريبة تجزّ العشب وتروي الزهور، بينما يتسكع خلفها مجموعة من الأطفال.

شعرت والدتنا أنه من المستحيل طلب المال من عملائها إذا لم يكن بمقدورهم تحمل التكلفة، لكن العملاء صمموا على السداد بطريقة أو بأخرى. ذات يوم، عُدنا أنا وألف إلى المنزل من مكان ما، ووجدنا رصاصتين كبيرتين على طاولة المطبخ، سألنا والدتنا عن سبب وجودهما هناك، فقالت إن إحدى عميلاتها طلبت منها الاحتفاظ بها من أجلها، كي لا تخضع للإغراء وتطلقهما على رأسها. سألت ألف:

- لكن كيف ستمكّن من إطلاق رصاصتين على رأسها؟

قالت والدتنا:

- كانت الرصاصة الأخرى من أجل ابنتها، كي لا تتركها وحدها. توجّهنا أنا وألف إلى الفناء، وجلسنا على الأرجوحة الصدئة. شرحت لي ألف الموقف، فسألتها:

- لماذا لا تهرب المرأة مع ابنتها فحسب؟

لم تجبني. كررت السؤال:

- لماذا لا تهرب المرأة...

قاطعتني ألف قائلة:

- إن الأمور لا تسير على هذا النحو. عدد الأشخاص الذين يقتلون أنفسهم في السجن، أكبر من عدد الذين يحاولون الهرب. سألتها:

- هل ستقتليني أولاً قبل أن تقتلي نفسك، إذا تعرّضنا لخطرٍ رهيبٍ؟

قالت:

- حسناً، لا أدري. سيتوقف هذا على نوع الخطر، هل ستريديني أن

أفعل ذلك؟

حينما كانت والدتي وشقيقتها تينا طفلتين، قرّرتا أن تتسابقا بالدراجات، وبدلاً من إلغاء السباق، أو إضاعة الوقت في الالتفاف حول الشاحنة الضخمة التي كانت تسد طريقهما، تدرجنا تحتها وخرجنا من الجانب الآخر، سالمين وضاحكتين.

في إحدى الأمسيات الشتوية، عندما كانت ألف في السادسة عشرة من العمر، وأنا في العاشرة، نظمت ألف مناظرة سياسية لمرشحي الأحزاب المختلفة. صنعتُ منصّات من صناديق الكرتون المزينة بشعارات الأحزاب، واستخدمتُ مؤقّت سكرابل الخاص بوالدتنا لإبقاء خطاباتنا تحت السيطرة. كان والدي هو مرشح حزب المحافظين، ووالدتي هي المرشحة الليبرالية، وألف مرشحة الحزب الديمقراطي الجديد، في حين كنت أنا شيوعية. على الرغم من ذلك، لم يكن مسموحاً لي القول بأنني شيوعية، بسبب التدايعات الفظيعة لروسيا في ذاكرة والديّ. أعلنتُ ألف ذات مرة خلال تناول العشاء أنها معجبة بجو زوكين، زعيم الشيوعيين في وينبيج، واضطرت والدتي إلى إنقاذ والدي بمناورة هيمليك، إذ كان قد بدأ يختنق حتى الموت عند سماعه ذلك الخبر. بعد أن أنقذته والدتي، قال إنه يتمنى لو لم تكن فعلتُ، لأنه إذا كانت ألف تخطط للزواج من جو زوكين (كأن الإعجاب قد تطور ليصير زواجاً بالفعل)، فلم يعد والدي يرغب في هذه الحياة التافهة. على أي حال، اضطرتُ إلى القول بأنني مستقلة. ناقشنا إيجابيات وسلبيات حقوق المرأة، والقتل الرحيم. فازت ألف، بكل سهولة. كانت مستعدة، ومتحمسة. كانت لديها إحصائيات لدعم وجهة نظرها، ونبرة مقنعة بلا هوادة، لكنها ظلّت دوماً مدروسة

ومحترمة. كانت بليغة، ومضحكة، وفازت بالمناظرة.

علينا أن نضع في الاعتبار أن الحكام كانوا أصدقاء تعرّف عليهم في معهد الموسيقى في وينيبج، ودفعتم لهم بالبيرة سرّاً مقابل جهودهم. تمكنت من تمييز أنها واقعة في حب أحدهم، كان يرتدي حزاماً من الجبال، وقميصاً تناثرت عليه بقع الطلاء، وترجع حافي القدمين في مقعد والذي المخصص للقراءة. وكانت ألف قد تأكدت أن جزءاً من حمالة صدرها الزرقاء المزينة بالدانتيل، يطل من أسفل فتحة عنق كنزتها التي اتخذت شكل حرف «V». لم يتمكن من إبعاد عينيه عنها. تحرك في مقعده، لكن عينيه لم تتحوّلا عنها قط، حتى تنحج والذي بصوت مرتفع وقال:

- يا سيدي، سيادة الحكم الجالس في المقعد الأخضر، هل سمعت كلمة مما قاله بقيتنا؟

هبطت الطائرة، وكانت والدتي وخالتي تينا في انتظاري. وقفنا أسفل السلم الكهربائي وقد شبكتا ذراعيهما ببعض، وراقبتاني وأنا أنزل في طريقي للقائهما. بدا لي كتوأمين صغيرتين شرستين، بملامح صارمة، تستعدان لحمل صليب آخر. ابتسمتا في وجهي، وغمغمتا بكلماتٍ للتعبير عن المحبة بلغة البلاوتديتش، ثم احتويتاني بين أذرعهما القوية، وتعانقنا في صمت. لم تكن بحوزتي حقيبة، فلم نضطر إلى الانتظار، ومشينا بسرعة نحو السيارة.

قادت والدتي السيارة بسرعة، كما هي عادتها، لكنني لم أطلب منها

أن تبطئ السرعة هذه المرة. جلست خالتي تينا في المقعد الخلفي، تحقق من النافذة. وضعت إحدى يدي على كتف والدتي، بينما تدلّت الأخرى عند المقعد الخلفي، ممسكة بيد تينا، بحيث شكّلنا سلسلة بشرية. هل المينونايت شعبٌ مكتئبٌ، أم أننا نحن فقط المصابون بالاكتئاب؟ فقدت خالتي تينا ابنتها ليني عندما أقدمت على الانتحار منذ سبع سنوات، بعد ثلاث سنوات من انتحار والدي. لقد مررنا بهذا من قبل. كل شيء عبارة عن تكرار، وإعادة أخرى لنفس المشهد.

أتى نيك إلى المستشفى، وكان يتحدث في هاتفه المحمول. لوّحنا له بعض الشيء، وأومأنا. كما أتت جولي أيضًا. عانقتها، وهمست في أذنها بكلمات الشكر، فعانقتني بشدة. دخلنا في مجموعات من فردين، إذ لم يكن مسموحًا بدخول عددٍ أكبر من ذلك. دخلت والدتي وخالتي معًا. تحدثت مع ويل على هاتفني المحمول، فطلب مني أن أخبر ألف شيئًا ما، لكنني لم أفهم ما قاله لأنه كان يهمس. سألته قائلة:

- ويل؟

قال:

- انتظري.

انتظرتُ، فساد الصمت من طرفه.

- ويل؟

سمعته يبكي، حتى تمكّن من الحديث أخيرًا، وقال:

- أخبريها أنني أحبها فحسب.

بعد ذلك أنهى المكالمة. عندما خرجت والدتي وخالتي، بدا الهدوء على والدتي، ولم تبك. هزّت كتفيها، وهزّت رأسها، ثم أحاط نيك كتفيها بذراعه، فمالت نحوه وأسندت رأسها إلى صدره. قادها إلى مقعد، فجلست وحدت إلى الفراغ، وهي تتمتم لنفسها بكلمات، أو بدعاء. رأيتُ على ذراعها العلامات حيث مزّقت أسنان الكلب جلدها: ثقبين، كعضة مصاص للدماء. ذهب خالتي تينا لتجلب لنا القهوة.

شكّلنا أنا وجولي فريقًا، وسحبنا مقعدين لنحيط بشقيقتي، وأمسكنا بيديها من دون أن نقول شيئًا، لأنه ليس لدينا ما نقوله. يوجد أنبوبٌ في حلق ألف، وآلة تتنفس نيابة عنها. نظرنا إليها، فبادلتنا النظر وهزّت كتفيها كما فعلت والدتي. كم عدد الكلمات المتبقية لدينا؟ أغمضت عينيها، ثم فتحتهما مرة أخرى، وسحبت يدها من يدي كي تتمكن من النقر على جبهتها. لم أفهم ما تقصده. أنها مجنونة؟ أنها نسيت شيئًا ما؟ أن رأسها يؤلمها؟ قبلتُ وجنتها. علا صوت إحدى أغنيات نيل يونج عبر نظام الصوت في جناح العناية المركزة، حيث ظل يبحث عن قلب من ذهب. نقرت ألف أنفها، ورسمت دوائر وهمية حول عينيها. قالت جولي:

- إنها تريد نظارتها، هذا ما تقصده، أليس كذلك؟

مالت ذقن ألف نحو الأسفل بعض الشيء، في إيماة. نهضتُ كي أبحث عنها. خرجتُ من الغرفة، وسألتُ الممرضة عمّا إذا كان بحوزتها نظارات ألف. لم تكن بحوزتها. تطوّعت جولي للبحث عنها، ولسؤال نيك أو والدتي عمّا إذا كانت بحوزتهما. قبلتُ ألف على وجنتها، وهمستُ لها بشيء جعل عينيها تمثلتان بالدموع، ربما قالت لها:

- ألف، أنتِ رائعة.

ثم رحلت.

ها نحن ذا. شعرتُ بالارتياح لأن ألف تريد نظارتها، ولأن هناك ما ترغب في رؤيته. أحاطت بمعصمها ضماداتٌ بيضاء ناصعة، تشبه عصابات امتصاص العرق. كل ما ينقصها هو شعار شركة نايكو. كما التصقت الأنابيب بوجهها. استخدمتُ طرف كم قميصي لمسح الدمعة التي تسيل على خدها، وأخبرتُها أنني أحبها. مالت إحدى زاويتي فمها نحو الجانب، لإفساح مجال للأنبوب. أذكر عندما كانت تتلقَّى دروسًا في التنفس، شيئًا ما يُطلق عليه تقنية ألكسندر، وكيف سخرتُ منها حينها.

- هل أنتِ بحاجة إلى تعلُّم طريقة التنفس؟

قالت لي:

- أجل، هناك طريقة صحيحة، وطريقة خاطئة.

عرضتُ أن تعلِّمني كيف أتَنفَّس بشكلٍ صحيحٍ، باستخدام الحجاب الحاجز، والتنفس من أعماقي، لكنني سرعان ما فقدتُ الاهتمام. حاولتُ تعليمي عزف البيانو أيضًا، لكن ذلك الأمر كان كارثيًا. كما حاولتُ تعليمي اللغة الإسبانية. أخبرتني كيف أقول «لديَّ رجلٌ صغيرٌ»، في حين كان ينبغي لي أن أقول «أنا جائعة بعض الشيء».

تركتُ الطوارئ، لأجد والدتي وخالتي تتناولان القهوة السوداء في الكافتيريا. تكبر خالتي تينا والدتي ببضع سنوات، لكن بخلاف ذلك، فهما نفس الشخص تقريبًا. كلاهما لديهما شعرٌ قصيرٌ ناصع البياض، وأعين تومض كالقطط، وملايين التجاعيد في البشرة، علاوة على قبضة قوية

للغاية. كما يبلغ طول كلٍّ منهما بالكاد خمسة أقدام. عندما شاهدتاني، ناديتا اسمي، وأفسحتا لي مكاناً بينهما، وجذبتاني نحو كرسي، وأحاطتاني بذراعيهما، ثم أخبرتني كلٌّ من خالتي ووالدتي أنهما تحبانني، فقلت لهما إنني أحبهما أيضاً. وجدتُ صعوبة في التنفس، وشعرتُ بالغيرة من والدتي لوجود شقيقتها إلى جانبها في مثل هذا الوقت. عندما تُوفي والدي، جاءت تينا حينها أيضاً لتكون مع والدتي، ومعِي أنا وشقيقتي. اشترت لكلٍّ واحدة منّا دسّته من الملابس الداخلية القطنية البيضاء، كي لا نضطر إلى القلق بشأن الأمور العادية مثل غسيل الملابس، بينما كنّا نخطط لجنائزته. عندما أجرت والدتي جراحة في القلب، أتت تينا حينها أيضاً، واصطحبتني إلى متجر كوستكو، ودفعتنا عربة تسوق في أرجاء مستودع هائل حيث اشترينا لوالدتي مخزون عام كاملٍ من الكاتشب وورق التواليت وغسول فازلين للعناية المركزة، الذي غيّرت الشركة اسمه مؤخراً ليصبح غسول فازلين للإنقاذ المركز، ليعكس حالة الطوارئ للحياة على الأرض الآن. خلال فترة نقاهتها، تولّت تينا تحميم شقيقتها بلطفٍ، وهي تضحك ضحكة غير محتشمة، كما ساعدتُ أنا شقيقتي على الاستحمام عندما كانت في غاية الضعف من أثر تجويعها لنفسها، ولا تقوى على القيام بذلك بمفردها. كان لوالدتي جسدٌ ممتلئ كالنساء في لوحات روبنز، وقد غطّته الندوب، وكانت من مريدي الحياة، في حين بدت شقيقتي كالشبح. كيف أنجبت إحداهما الأخرى؟

تبادل نيك الحديث مع أحد الأطباء. كان بوسعي رؤيته من خلال الجدار الزجاجي بجوار غرفة ألف. إنه يرتدي قميصاً أزرق اللون له ياقة، وسروالاً ليس من الجينز، وحذاء رياضياً أسود. وضع إحدى يديه

على جبهته بينما هو يتحدث، وأسند الأخرى إلى الحائط الزجاجي وقد تباعدت أصابعه مثل المروحة. أردتُ سماع ما يقوله الطبيب، فأخبرتُ ألف أنني سأعود سريعاً، لكن عندما وصلتُ إلى حيث يقف نيك والطبيب، كان الطبيب قد ابتعد، ووقف نيك بمفرده مستنداً إلى الزجاج. رفع يده عن جبهته حين شاهدني، وسألني عن حالي. أخبرني أن الطبيب قال إن ألف ستكون على ما يرام في الغالب، وإنهم سيعرفون في غضون ساعات، أو في صباح الغد. قال إنها ألحقت الضرر بحلقها، وقد تصبح غير قادرة على الحديث على الإطلاق، أو غير قادرة على الحديث بوضوح، كما قد يكون هناك بعض التلف في الأعضاء، سيتحدد لاحقاً، لكنها ستعيش.

عندما كنتُ في الرابعة عشرة من عمري، عادت ألف إلى المنزل في عيد الميلاد. كانت في مدرسة جوليارد في منحة دراسية خاصة، وكانت هناك أشياء رائعة تحدث؛ صار لديها وكيلٌ كبيرٌ، ومواعيد حفلات في جميع أنحاء العالم. جلسنا أنا وألف على أرضية الحمام، وشرعتُ هي تبكي بلا هوادة، في حين حاولتُ أن أحثّها على التوقف عن البكاء، وأن تأتي لتناول العشاء. جرى ترتيب المائدة، وجلس إليها بالفعل جميع أقاربنا من جانب والدي. كان لدينا شموعٌ وديك رومي، وغناء احتفالاً بمولد المسيح الذي كنت لا أزال أؤمن به. قالت لي ألف:

- لا أستطيع ذلك. لا أستطيع فحسب.

قلتُ:

- ماذا؟

قالت:

- لا أطيق الأمر: مظهر السعادة، والحماس المفتعل، وكل شيء مجرد تمثيلية. أعني، إذا كان يسوع قد مات مصلوباً بالفعل وقد اخترقت المسامير يديه وقدميه كي يخلصنا، ألا يتعيّن علينا التعبير عن امتناننا بما هو أكثر من مجرد التهام ديك رومي ذات مساء في جوف الشتاء؟

أرادتني أن أضحك، وأساعدها في عملٍ متهورٍ من نوعٍ ما، كأن أفتح نافذة الحمام وأدفعها من خلالها نحو الحرية. قالت:

- دعينا نذهب للاحتفال بعيد الميلاد، أنا وأنتِ، في قاعة البلياردو. ترجّيتها أن تجفف دموعها، وتغسل وجهها، وتنضم إلينا على المائدة، وأخبرتها بأن الجميع في انتظارها. قالت إنها لا تكثر لهذا، ولا تستطيع القيام بذلك، وأن عليّ إبلاغهم بأنها لن تنضم إلينا. قلت لها:

- يجب عليك هذا، إنه عيد الميلاد!

ضحكت، ثم بكت، وقالت لي إنني مضحكة، لكنها لن تنضم إلينا على المائدة.

واصلت التوسّل إليها:

- أرجوك، أرجوك، أرجوك، انهضي واغسلي وجهك، وضعي أحمر شفاهك الجديد، «ريد ألبرت»، وتعالِي إلى المائدة.

جاءت والدتنا إلى الباب وطرقت بهدوءٍ، قائلة:

- يا عزيزتي؟ يا بنات؟ هل أنتما بالداخل؟ نحن جاهزون لتناول الطعام.

ضربتُ ألف رأسها في جدار الحمام، وأخافتني. همستُ قائلة:

- لا تفعلني هذا.

فقامت بذلك مرة أخرى. قالت والدتنا:

- يا بنات؟ ما الذي يحدث بالداخل؟ هل أنتما بخير؟
قلتُ:

- أجل، أجل، نحن بخير. سنأتي حالاً.

طوقتُ رأس ألف بذراعي بشدة، وكانت تحاول التحرر، لكنني لم أسمح لها بذلك. أردتُ أن تتوقف شقيقتي عن ضرب رأسها بالبلاط الخزفي، وأن تأتي إلى مائدة العشاء. أردتُ رؤية عينيها الغريبتين تلتمعان بالسعادة بينما هي تحكي قصصاً مضحكة، وتنطق بين حين وآخر بمفردات فرنسية أو إيطالية عن المدينة، وعن قاعات الحفلات، وعن كل ما هو أنيق. أردتُ أن يحدق إليها أبناء عمومتي الأصغر سنّاً بإعجابٍ وحسدٍ كبيرين، وأن تحيط ألف كتفي بذراعها بعدها. أردتها أن تكون على طبيعتها، كما هي، مثيرة، وحادة الذكاء، وأردتُ الجلوس بجانبها كي أشعر بالحرارة التي تشع منها، وطاقة القائدة التي لا تهاب شيئاً، والفتاة التي تتحرك بسهولة في أرجاء العالم، شقيقتي الكبرى.

انتظرتُ حتى رحلت والدتنا. كنت لا أزال أحيط رأس ألف بذراعي. ركلتُ بساقيها، وأصدرتُ أصواتاً تشبه أصوات الحيوانات. أخبرتها أنني سوف أقتل نفسي إذا لم تأتِ إلى المائدة. توقفتُ عن التذمر ونظرتُ إليَّ مقطبة جبينها، كما لو كنّا ممثلتين، وخرجتُ أنا عن النص وأفسدتُ المشهد.

فكر والدنا ذات مرة في بيع المفارش الورقية لمطاعم مواقف الشاحنات، بعد أن صمّم هذه المفارش بنفسه، وطبع الآلاف منها. كان الهدف من هذه المفارش هو تثقيف رواد المطاعم فيما يتعلق بالتاريخ الكندي، بينما يلتهمون شطائرهم. قُدمت الحقائق في أشكالٍ كارتونية، رسمها والدي، مع فقاعات حديث ونكات وألغاز. كان من المفترض أن تروق للأطفال والكبار على حدٍّ سواء، لكن الأهم من ذلك كله، أنها كانت تهدف إلى تثقيف ما اعتقد والدي أنه جمهورٌ جاهلٌ وغير مبالي. كان يقول:

- ما هو الأكثر إثارة للاهتمام من تاريخنا؟

كان يؤلمه حقاً رؤية مواطنيه من الكنديين وهم يتجاوزون اللوحات التاريخية سريعاً بسياراتهم، ويتجاهلون قوانين المحتوى الكندية، ويرسبون في اختبارات المواطنة، ويخطئون في كلمات النشيد الوطني في أثناء مباريات الهوكي. كان يقول:

- لقد وقعت أحداثٌ مهمة هنا.

في أحد الأعوام، في الفترة الواقعة ما بين عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة، استقلّ والدي القطار إلى أوتاوا، لإجراء بعض الأبحاث في الأرشيفات الحكومية، ولحضور جنازة ليستر بيرسون. كان في السابعة والثلاثين من العمر، ويعمل مدرساً في مدرسة ابتدائية ببلدة صغيرة في البراري. وقف خارج المبنى التشريعي في البرد مع الآلاف من الآخرين، تعبيراً عن الاحترام. وبينما هو واقفٌ هناك، بدأ محادثة مع الرجل الواقف إلى جواره. في النهاية، دعا الرجل والدي إلى منزله لحضور حفلٍ بمناسبة رأس السنة الجديدة، وكانت تلك هي المرة الأولى في حياته التي حضر

فيها والدي حفلاً بمناسبة رأس السنة الجديدة. قال والدي إنه كان منزلاً فخماً للغاية، في حي فاخر جداً يُدعى «ذا جليب». تأثر والدي من لطف ذلك الرجل الغريب، وعندما عاد إلى المنزل لاحقاً وقصّ علينا الحكاية، خيم علينا نوعٌ من الصمت. أذكر أنني خشيتُ أن يشرع في البكاء. ما فهمته من الحكاية هو أن والدي كان قد فقد قائده، وصار بحاجة إلى صديق. دوماً ما كان يعتقد أنه سوف يلتقي في يومٍ ما ببطله، ليستر ب. بيرسون، وأنهما سيتحدثان بشأن كندا. سألته والدتي عمّا إذا كان قد تناول كأساً من الشمبانيا في الحفل، فقال:

- لا، أوه لا، يا لوتي، بالطبع لا.

كنتُ في السابعة أو الثامنة من عمري فقط عندما قصّ علينا تلك الحكاية. جلسنا في رهبة من والدي في تلك الأمسية، أنا ووالدتي وألف، وهو يصف لنا كلَّ ذلك: جنازة رسمية، وحفلاً بمناسبة رأس السنة الجديدة، كلها في ليلة واحدة. لكن ذلك جعلني أشعر بعدم الارتياح على نحو لم أتمكن من وصفه حينها. لم يسبق وأن رأيته يبكي من قبل، كما أنه لم يبكِ بالفعل، بل عرفتُ أنه يرغب في ذلك فحسب، وتلك هي الذكرى التي دوماً ما تعود إليَّ أولاً.

في الصيف، حينما كنت تقريباً في التاسعة من عمري، سألني عمّا إذا كنت أريد مرافقته على الطريق، وهو يتنقل بين محطات وقوف الشاحنات في جميع أنحاء مانيتوبا وأونتاريو، كي يحاول بيع مفارشه الورقية، رحبتُ بذلك، وانطلقنا في طريقنا. أذكر أنه لم يكن لديّ سوى زيٍّ واحدٍ فقط ارتديته طوال هذه الرحلة: قميص برتقالي من قماش الشكير، وسروال

قصير، وحذاء رياضي. وكان بحوزتي كومة من سلسلة كتب «المشاهير الخمسة». لم أنظف أسناني على الإطلاق، وتناولتُ الفطائر وألواح الحلوى في كل وجبة. في أثناء الليل، كنّا نقيم أنا ووالدي في موتيلات رخيصة، وكنتُ أملأ دلو الثلج، وأمضُ قطع الثلج وأشاهد التلفزيون، بينما ينام والدي ويعلو غطيته. وحينما يغلبني التعب، كنت أغلق الباب بالقفل ذي السلسلة، ثم أفتحه وأغلقه بهدوء عدة مرات، للتأكد من ثباته. لم يحقق أيّ مبيعات، وكان يعطيني بعض المفارش كي أرسم عليها عندما يتأبني الملل في السيارة. بدأ يشعر باليأس، فغنيّتُ له أغاني سخيفة للترفيه عنه، مثل أغنية «بوب جوز ذا ويزل»، وأغنية «تسع وتسعون زوجة بيرة على الجدار». لم أعد أرغب في دخول المطاعم معه، لأن الأمر كان محرّجًا للغاية. كان ودودًا وصادقًا جدًّا، وكل ما أراده هو توعية الناس فيما يتعلق بكندا. أصبح على استعدادٍ لقبول مبلغ زهيد للغاية من المال، مقابل صندوق من المفارش، ثم صار على استعداد لتوزيعها مجانًا. وحتى عند ذلك، كان مديرو المطاعم وأصحاب محطات الوقود يحدقون إلى المفارش لدقيقة أو دقيقتين، ثم يهزون رؤوسهم، قائلين إنهم لا يعتقدون أنهم يرغبون فيها.

صارت أسناني متسخة، وقميصي البرتقالي قذرًا. هُزم والدي، وعدنا إلى المنزل. بقينا بعيدًا عن المنزل لمدة أسبوع تقريبًا، وعند عودتنا، كانت والدتي في المطبخ تضحك مع بعض صديقاتها، بينما تتدرب ألف على العزف على البيانو. بدا هذا هو المشهد المعتاد. أخبر والدتي وصديقاتها بما حدث، من خلال عينيه وحركات كتفيه أكثر منه بالكلمات، ثم توجه إلى غرفة نومه.

جلستُ مع والدتي وصديقاتها، ورويتُ لهن حكاية مثيرة عن الوقت الذي قضيناه على الطريق، ودفعتهن إلى الضحك. توقفت ألف عن العزف على البيانو، وأتت إلى المطبخ لمعرفة ما يجري. أخبرتها بما حدث، فلم تضحك على الإطلاق. قالت:

- أوه، لا، هذا مريعٌ، هل هو بخير؟

سألتها:

- من؟

- والدنا!

ذهبتُ إلى غرفتها هي الأخرى، وأبقت الباب مغلقاً لفترة طويلة. أعتقد أن الظلام حلَّ قبل خروجها، لأن صافرات محطة الإطفاء دوت مرتين، مرة كي يدخل الأطفال منازلهم لتناول العشاء في السادسة، ومرة أخرى كي يدخلوا للنوم في التاسعة. لست متأكدة كم من الوقت ظلَّ والدي في غرفته.

أجبر والدي مجلس المدينة على منحه المال اللازم لافتتاح مكتبة. لم يرغبوا في ذلك، إذ اعتقدوا أن ذلك أمرٌ خطيرٌ ومضيقٌ للمال، وأن حديث والدي عن ذلك يعد ضعفاً منه، لكنه حاول إقناعهم. كانت درجة الحرارة أربعين تحت الصفر، وقد حلَّ موعد العشاء، سألتُ والدتي:

- مرحى، أين والدي؟

فأخبرتني أنه ذهب ليطرق أبواب الناس، في محاولة لحملهم على

التوقيع على عريضة من أجل إنشاء مكتبة. ظلّ والذي يسير في شوارع إيست فيليدج طوال أسابيع، ومعه حافظة الأوراق وأقلامه، وهو يطرق الأبواب ويرجو الناس تقديم الدعم. كان يخرج في وقت العشاء، عندما يكون الجميع موجودين في منازلهم، حين يحل الظلام. قصد كل منزل في البلدة، وأحياناً كانت والدتي تساعده. كان البخار يتكثف على نظارته فور دخوله المنزل. حاولت والدتي إقناعه بارتداء سراويل داخلية طويلة، إذ كان أبرد شتاء في التاريخ، لكنه رفض، فاضطرت إلى ضرب ساقيه لتحفيز الدورة الدموية. سألته:

– لماذا تكره السراويل الداخلية الطويلة إلى هذا الحد؟

أخيراً، جمع ما يكفي من التوقيعات، ثم توجه بها إلى مجلس المدينة، فقالوا «حسناً، فلنذهب لإنشاء مكتبك الصغيرة». منحوه غرفة صغيرة يملؤها العفن الفطري في مدرسة مهجورة، وما يكفي من المال لشراء بعض الأرفف المستعملة والكتب اللازمة لملئهم. بدا أسعد رجل في العالم. عيّنت شقيقتي للعمل أمانة للمكتبة، وكانت هي دقيقة للغاية، صنعت بطاقة فهرسة لكل كتاب، وضممتها تفاصيل كثيرة. كانت مراهقة بشعر أسود طويل، ونظارات ضخمة، وأبقت كل شيء منظماً للغاية. ذهب كلاهما إلى العمل معاً، وكانت لديهما مليون خطة.

ألقيت نظرة على ألف عبر الجدار الزجاجي لوحدة العناية المركزة، ولوّحت. أخذت تراقبني أنا ونيك، بينما نحن نتحدث عن أعضائها الداخلية. كانت ترتدي قميصاً لفريق غنائي أهديتها إياه في الصيف منذ سنوات طويلة عندما كنّا نعيش في لندن، أنا في منزلٍ قدرٍ مليء بالرعاع،

وهي في شقة نظيفة في نوتينج هيل مع دبلوماسي من نوع ما، لم يكن إيطاليًا، لكنه كان يحب نطق «فينيسا» و«نابولي» بالطريقة الإيطالية.

قلتُ لنيك:

- سوف تعيش، إذن.

أوماً برأسه وأخذ نفسًا عميقًا، وخلال الفترة التي استغرقها ذلك النفس، طاف بنا السؤال الذي نحتاج إلى طرحه على أنفسنا.

جلستُ على درجات السلم الخرساني خارج المستشفى، أتحدث مع ولديَّ عبر الهاتف عن آخر أخبار أَلَف. كان ويل قد انتهى من محاضراته، فأخبرني بأنه على استعدادٍ للعودة إلى تورونتو للبقاء مرة أخرى مع نورا، التي سيُقام حفل مدرستها الراقص الكبير خلال وجودي في وينيبج، لكنه سيبدأ وظيفة جديدة في كوينز في غضون أسبوعين، للعمل في تنسيق الحداثق مع رجل يعرف والده، لذا لن يستطيع البقاء لمدة طويلة. قال إنه سيفعل، لكنه سألني:

- من فضلك هل يمكنكِ فقط الحديث مع نورا عن عدم العيش مثل الحيوانات؟

عادت جولي إلى العمل، وتركت لي سيجارتين ملفوفتين في ورق القصدير. حينها، تلقيتُ رسالة نصيَّة من دان، في بورنيو: «أحتاج إلى». أجبت رسالته: «ماذا؟ هل أنت بخير، يا دان؟». أرسل إليَّ رسالة نصية أخرى: «آسف. تعجلتُ ضغط زر الإرسال. أحتاج إلى أن توقعي أوراق الطلاق».

مسحتُ الرسالة، وأشعلت إحدى السيجارتين اللتين أعطتني جولي إياهما، وأطلقت الدخان برفقٍ، مع التركيز على أنفاسي وعلى الأشكال الناعمة. أمرتُ نفسي بالتفكير، والتركيز. فكرتُ لوهلة في إرسال رسالة نصية إلى راديك، لكنني لم أعرف ماذا أقول، ولا كيف أقوله. قمتُ وتوجهتُ نحو النهر كي ألقي عليه نظرة، اختفى الجليد الآن، وصار النهر أهدأ. صار من الممكن إنزال قارب به الآن، على الأرجح، إذا كان هذا هو طريقك الوحيد للعودة إلى المنزل.

جلستُ في «غرفة العائلات» مع والدتي وخالتي، في حين ذهب نيك ليجلب بعض الطعام. رشحتُ والدتي كتابًا لخالتي. كنتُ أعرف ذلك الكتاب، الذي وصفته والدتي بأنه ممتعٌ. سألتني عمًا إذا كنت قد سمعت عنه، فقلت:

- أجل، لكنني لا أريد أن أقرأه.

أخبرتني والدتي أنه كتابٌ يبعث على الشعور بالسعادة، وأننا نحتاج إلى تلك النوعية من الكتب في بعض الأحيان، فلم أقل شيئًا. سألتني خالتي:

- ما الذي تقرأينه الآن، يا يولي؟

قلت لها:

- رواية سيلين، «رحلة إلى نهاية الليل». إنه كتابٌ لمؤلفٍ فرنسي راحل، وليس للمطربة التي من كيبيك. سألتني والدتي:

- أين كتابك أنت؟

قلت:

- كتابي الذي يبعث على السعادة؟

فأجابني قائلة:

- لا، بل مخطوطتك، هل ما زالت في حقيبة سيفوي البلاستيكية؟
أومأت برأسي، وأدرت عيني في محجريهما. سألتني خالتي عن عدد
الكلمات التي لديّ، فقلتُ لها إنني لا أعرف، ونسيتُ كيفية التأكد من ذلك
على الكمبيوتر. لا أود الحديث عن الموضوع. قالت والدتي لتينا إنها لا
تحب الكتب التي تظهر بها البطلة وهي حزينة منذ الصفحة الأولى.

- حسناً، إنها حزينة! فهمنا ذلك، ونعرف ماهية الحزن. وبعدها يصبح
الكتاب بأكمله في الأساس عبارة عن وصفٍ للمليون طريقة وطريقة التي
تشعر بها البطلة بالحزن. ارحموا القراء! وامضوا قدماً في الحكاية فحسب!
أومأت تينا برأسها في حكمة، قائلة «أجل»، ثم قالت شيئاً بلغة
البلاوتديتش، غالباً ما كان شيئاً من قبيل:

- بالطبع، فنحن نعرف تماماً ماهية الحزن، إن الحزن هو ما يبقى
عظامنا ثابتة في مكانها.

اهتزّ هاتفي المحمول، فألقيت نظرة على الرسالة النصية. كانت من
نيك، يخبرني أنه في الكافيتيريا، وأنه تحدث إلى كلوديو للتوّ. تولّى كلوديو
التعامل مع كل شيء: أماكن إقامة الحفلات، والتأمين، وكل ما يتعلق
بالغاء الجولة بصفة عامة. شرعت تينا تتحدث عن منظورها الخاص لفكرة
الحزن. أرسلتُ رسالة نصية إلى نيك: «جيدٌ، هل هو غاضبٌ؟». أجابني

نيك برسالة نصية أخرى قائلاً: «لا، بل قلق، ومتعاون، وربما مرهق. سيأتي من بودابست إلى وينيبج لزيارتها».

قالت والدتي إنها تشعر بالحزن عندما تقرأ الحكايات التي أكتبها عن الروديو، لاعتقادها بأنني أمتلئ بالحزن إلى الدرجة التي تدفعني إلى جعل كل هؤلاء البطلات من المراهقات حزينات للغاية، سألتني:

- لماذا لا تتمكن على الإطلاق من الفوز بالمركز الأول؟

قلت لها:

- لا، لا. إن الجميع داخلهم مثل هذا القدر من الحزن، ولست أنا وحدي. كما أن الكتابة تساعد على تنظيم الموضوع، لذا ليست هناك مشكلة في الأمر.

أرسلت إلى نيك رسالة نصية: «متى؟»، فأجابني على الفور: «غداً». سيصدر كلوديو بياناً صحفياً يعلن فيه أن هذا بسبب الإرهاق، وسيطلب احترام الخصوصية. قالت والدتي:

- آه، حسناً. لكن مع ذلك... ما زلت أتساءل عن كل ذلك الحزن

الذي تحمليه داخلك، وعن مصدره...

أخيراً، فهمتُ ما الذي تحتاج إلى سماعه، وأنها لا تتحدث عني فقط، بل عن ألف أيضاً، فأخبرتها أنها ليست مسؤولة عن خلق هذا الحزن الذي داخلي، وأن طفولتي كانت مبهجة، مثل جزيرة في الشمس، وأن أمومتها لا تشوبها شائبة، وأن اللوم لا يقع على عاتقها.

أنا وحدي مع ألفريدا، وقد أخذت الشمس في المغيب. في اليوم

السابق لليوم الذي أقدم فيه والدي على الانتحار، أمسك بيدي وقال:

- يولي، أشعر كما لو أن الأنوار تنطفئ.

كنّا نجلس بجوار نافورة في حديقة وقت الظهيرة.

بقي نيك مع ألف لعدة ساعات، لكنه عاد إلى المنزل الآن. كان غاضباً لأن أحد جيرانهم شاهد ألف وهي توضع بسيارة الإسعاف وقد لطّختها الدماء، وأخبر عدداً من الجيران الآخرين. والآن، اتصل أحد المراسلين بنيك، يسأله عن حالة ألف. كانت والدتي وخالتي أيضاً في المنزل، لنيل قسطٍ من الراحة. أخبرتُ ألف أننا جميعاً سنلتقي في مطعم «كولوسيو» لتناول العشاء، وأنني أتمنى لو يمكنها الوجود معنا. ما زال الأنبوب في حلقها، وما زالت غير قادرة على الإجابة، لكن ما الذي كانت ستقوله لو كان بمقدورها الجواب؟ سألتها عمّا إذا كان بوسعها تخيل أن الحياة سوف تتحسن. وسألتها عمّا إذا كان قلبها كبيراً، وعمّا إذا كانت الحياة تعذبها. قلت لها إنني سأساعدُها إذا كان بمقدوري ذلك، لكنني لا أستطيع. لا أريد الذهاب إلى السجن، ولا أريد قتلها. وضعتُ كفي فوق وجهي، في ضوء غرفتها المعتم. غمرني الخوف، وحينما فكرتُ في خوفي هذا، بدأت ركبتي في الاصطكاك مرة أخرى، لكن صوت جهاز التنفس له إيقاعٌ مريحٌ. عرضتُ عليها الغناء، فتحرك ركن فمها بالكاد. لم أعرف ماذا أغني، فكرتُ لدقيقة، ونظرتُ إليّ ألف كما لو كانت تقول: «حسناً، ماذا ستختارين؟». غنيتُ «لا أعرف كيف أحبه»، من «يسوع المسيح سوبر ستار». شعرتُ أن الخوف يقتلني. اعتدنا أنا وألف غناء هذه الأغنية معاً، وهي قصيدة عاطفية تغنيها مريم المجدلية عن حبيبها الجديد، يسوع. كانت عاهرة، مشبعة الرغبات، ولم تصدق كيف أثر فيها هذا الرجل الملتحي،

حافي القدمين. أحسّت بالرغبة فيه، وحاولت أن تجعل فكرة الرغبة في مواعدة يسوع تبدو طبيعية، من خلال الادعاء بأنه في النهاية مجرد رجلٍ آخر. غيتها بهدوءٍ بينما تلاشى الضوء، واختفت ألف في ظلام غرفتها الزجاجة. أخيرًا، حلّ الظلام التام على الغرفة، وتوقفتُ عن الغناء، حتى صار الصوت الوحيد هو التنفس الصناعي لجهاز التنفس. التقطت ألف الدفتر الملقى على بطنها، وكتبت شيئًا قبل أن تناولني إياه. كتبت: «كيف تواصلين؟». حدثتُ إلى الكلمات دقيقة أو دقيقتين، ورفعتها أمام الضوء الأحمر الصغير الموجود في جهاز التنفس الصناعي، كي أرى على نحوٍ أفضل. ناولتها الورقة، فهزّرت رأسها، وأعدتُ الدفتر على بطنها. أغلقتُ كلَّ منّا عينيها، ومضى الوقت، خمس دقائق؟ نصف ساعة؟

قلت:

- ألف؟ هل أنتِ مستيقظة؟

ظَلَّتْ عيناها مغلقتين. قلتُ:

- ألف؟

لم تستجب. تفقدتُ هاتفِي المحمول، لكن لم تكن هناك أي رسائل. نظرتُ إلى الممرضات عبر الزجاج، كنَّ في منطقتهن المضاءة، تتبادلن الحديث والضحكات، وتدوّن الملاحظات، لكن لم يكن بوسعي سماعهن. قلت:

- ألف، افتحي عينيكَ.

لم تستجب. وضعتُ رأسي برفقٍ على بطنها، حيث يوجد البيانو الزجاجي، وهمستُ قائلة:

- ألف، لا أعرف ما يتعين عليّ القيام به.

بقينا صامتتين.

همستُ مرةً أخرى:

- أَلْف، ما هو شعور نيك، في اعتقادكِ؟ أتعلمين ما الذي تفعلينه؟
إنكِ تقتلين الناس.

تململتُ أَلْف بعض الشيء، ووضعتُ يدها على رأسي. اعتدلتُ
جالسة كي أنظر إليها. كانت عيناها مفتوحتين، وقد بدا عليها الانزعاج
هذه المرة، هزَّت رأسها: لا، لا، لا.
واصلتُ الهمس قائلة:

- هل يسعدكِ التفكير في نيك أو والدتنا عندما يعثران على جثتك؟
لقد أصبحتُ جلادها، وأحسست بالخزي البالغ. شعرتُ بالغضب
والخوف الشديدين. لا أريد أن تسمعي الممرضات. لوت أَلْف يدي بشدة
سببت لي الألم. كانت يداها لا تزالان قويتين من العزف. لويتُ يدها في
المقابل، فندَّ عنها صوتٌ صغيرٌ، أفلت من الأنبوب المحشور في حلقها.
أت ممرضة إلى الغرفة، وقالت:

- أوه، لم أركِ جالسة هنا في الظلام.
كانت جديدة، لذا قدَّمت كلُّ منَّا نفسها إلى الأخرى. أضاءت النور،
فأرت أننا نبكي، أنا وأَلْف، واعتذرت ثم أطفأته مرةً أخرى. غمرني الامتنان
لهذا الفعل البسيط الدال على التعاطف، وعرضتُ هي العودة بعد قليل.
قلت:

- لا، لا. لا بأس الآن.
لم أنظر نحو أَلْف. شعرتُ بها تتوسل إليَّ ألا أغادر، بينما أخذتُ
أجمع كلَّ شيءي، وقلت:

- حسنًا، إذن، سأراكِ لاحقًا، لستُ متأكدة متى سأعود.
لم أنظر نحوها، ولم تكن هي قادرة على الحديث، ولم تستطع
الاحتجاج بسبب الأنبوب، فخرجتُ من الغرفة.

وصلتُ حتى ساحة انتظار السيارات، ثم ركضتُ عائدة إلى غرفة
ألف. هرعْتُ لأعتذر، فرفعتُ هي ذراعيها كي تعانقني. التقتُ أنفاسي
وهي تحتضني. اعتدلتُ جالسة بعد دقيقة أو دقيقتين، فنقرتُ بيدها على
قلبها. قلت:

- هل تحبيني؟

أومأتُ برأسها. لكنها كانت تريد قول المزيد. التقتُ الدفتر الذي
سقط على الأرض، فكتبتُ أنها آسفة هي الأخرى، وأنها لا تريد قتل أي
شخص سواها. أومأتُ برأسي قائلة:

- أعرف هذا.

كتبتُ: «أخشى الموت بمفردي»، فأومأتُ مرة أخرى. ثم كتبتُ
كلمة «سويسرا» على الورقة، وأحاطتها بدائرة، ثم ناولتني إياها. ابتسمتُ،
وطويت الورقة حتى صارت بحجم حبة الدواء، ووضعتها في حقيبتي.
قلت لها:

- دعيني أفكر. امنحيني وقتًا للتفكير.

* * *

كنت أقود سيارتي عبر شارع كورايدون في طريقي إلى المطعم، لمقابلة نيك وتينا ووالدتي على العشاء. نسيْتُ المكان الذي اتفقنا على اللقاء فيه. كنتُ آمل أن تساعدني رؤية لافتة المطعم على التذكر بطريقة ما، لذا قدتُ سيارتي ببطء، مثل العربات التي تسير في مواكب الاحتفالات، وشرعتُ أجدق إلى كل الاحتمالات الممكنة. إلا أنني كنتُ مشغلة بالتفكير في الموت، وما إذا كان بإمكانني الحصول على بعض الباربيتورات، وماذا عن السيكونال؟ هناك مزيجٌ ما يمكن أن يتناوله المرء مع الحليب... أو ربما ليس مع الحليب، لم أستطع تذكر وصفة الموت. منذ سنوات، حينما كنتُ أحاول كسب عيشي كصحفية مستقلة، ذهبتُ إلى بورتلاند، في أوريجون، لكتابة موضوع لإحدى المجلات عن الانتحار بمساعدة الغير. في أثناء وجودي هناك، عُثر على جثة ليني، ابنة خالتي، في نهر فريزر، حيث أُلقت بنفسها وسط الفراغ لتبقى هناك إلى الأبد. كان الأمر يتطلَّب مزيجًا معيَّنًا من الأدوية، ما هو؟ هل حددتُ موعدًا للحجز في السادسة، أم في السابعة مساءً في مطعم «كولوسيو»؟ وهل تذكرتُ السؤال عمَّا إذا كان بإمكاننا الجلوس على الشرفة؟ هل كان العنصر النشط هو سيكونال؟ سأضطر إلى التحقق من ملحوظاتي التي كتبتها في بورتلاند، إذا كانت لا تزال بحوزتي.

حسنًا، كان نيك يعمل في مجال علوم الصحة، لذا ربما يستطيع تصنيع هذه الأدوية الضرورية بطريقة ما، من بقايا أيًا ما كان متوفرًا في مكتبه. «مرحى، يا نيك. هل يمكنك تركيب شيء ما يقضي عليها إلى الأبد؟». أو ربما يمكننا العثور على طبيبٍ لديه استعداد لاقتحام مخزن المستشفى وسرقتها؟ ربما لا يعد الأمر سرقة حتى، إذا أخذها طبيب. إنه نداء الواجب. ربما صيدلي ليس لديه مانع؟ أو ربما عصابة، فهناك ألف رجل من رجال العصابات في وينيبج، بوسعهم الحصول على المخدرات غير القانونية، أو المسدسات.

حسنًا، إذن. إن الدماغ عضو وظيفته حل المشكلات، لذا إذا كانت المشكلة هي الحياة، وأنها لم تعد صالحة للعيش، فإن الدماغ المنطقي الذي يؤدي عمله سيختار وضع حدٍّ لها، أليس كذلك؟ لم أعرف ما الذي يتعيّن عليّ القيام به. شعرتُ كما لو أنّ شخصًا ما يلقي السهام بجانب رأسي، كل خمس ثوان. بدا لي الآن أنه من السذاجة، والأنانية، والخوف، أن أقول: «يجب أن تعيشي، ويجب أن ترغبي في الحياة، ويتعيّن عليك الحياة، هذا هو واجبك الوحيد، وقانون الكون الأوحد». كانت عائلتنا في الماضي واحدة من تلك الأسر التي تعاني من أزماتٍ طبيعية، مثل ولادة طفل (حسنًا، طفلين) خارج إطار الزواج. كانت عائلتنا أيضًا فيما سبق واحدة من تلك الأسر النموذجية التي لا يفكر أفرادها في قتل بعضهم إلا بصورة نظرية فقط. لم أعد أستطيع التفكير أو الكتابة الآن، وباتت أصابعي تكررني. كنت أخشى عندما أخلد إلى النوم، أنني سأستيقظ لأجدهم ملتقيين حول رقبتني.

أوقفتُ سيارة والدتي في شارع جانبي بالقرب من المطعم، واتصلت

بفينبار على هاتفه المحمول، ثم تركت له رسالة: «إذا ساعدتُ شقيقتي على الموت، هل سأتهم بالقتل؟». بعدها أنهيتُ المكالمة. أعدتُ الاتصال، وتركت رسالة أخرى: «أنا لا أخطط لقتل شقيقتي، لا تخطئ فهمي، أنا أتساءل فحسب عن الآثار القانونية، وما إلى ذلك، فهل يمكنكُ مساعدتي؟». أدركتُ حينها أنني لم أكن متأكدة حتى من نوع القانون الذي تخصص في ممارسته، أعتقد أنه ربما كان قانون الإعلام.

أغمضتُ عيني، وحاولتُ التفكير. ما هو الحب؟ وكيف أحبها؟ أحكمتُ قبضتي على عجلة القيادة، مثلما كان يفعل والدي، كما لو أنه يسحب خلفه كوكبًا مكتشفًا حديثًا، يحمل أسرار الكون بأكمله.

كان سيكونال، بكل تأكيد! هذا هو الدواء، ومن الضروري الحصول على مائة قرص كي تصير الجرعة قاتلة. على المرء أن يفرغ المسحوق في شيء طري مثل الزبادي، ثم يتناوله. كان البديل هو النيمبوتال، الأعلى ثمنًا، لكنه أسهل تناولاً نظرًا لكونه في صورة سائلة. كل ما يتعين فعله هو تجرع كأس من النيمبوتال، حتى ينتهي الأمر في غمضة عين، على حد تعبير خالتي تينا. تساءلتُ عمّا إذا كان قلبي سيتوقف من أثر الخوف. لماذا يشعر الأطباء بالانزعاج من العجز إلى هذا الحد؟ ماذا لو أُلقي القبض عليّ، ووُجهت إليّ تهمة القتل؟ ماذا سأفعل في السجن؟ أين ستعيش نورا؟ في بورنيو؟ ماذا لو لم تكن أَلْف تريد الموت بالفعل؟ ما الذي ستقوله والدتي؟ أصدر هاتفني المحمول صوتًا، فشهقتُ من شدة ما فاجأني. كانت رسالة نصية من نورا: «إذا كان ويل قادمًا، أخبريه أنه من المسموح لآندرس قضاء الليلة هنا». أجبتها برسالة نصية: «إنه ليس مسموحًا!». أرسلتُ

نورا رسالة أخرى: «لقد ذكرت أنه لا بأس في ذلك إذا تدربنا حتى وقت متأخر، وتوقف مترو الأنفاق عن العمل». أجبتها: «حسنًا، لكنه سينام على الأريكة». أرسلت نورا قائلة: «أرسلني رسالة نصية إلى ويل، وأخبره ألا يقول لآندرس أن عليه النوم في غرفة الغسيل». أرسلت لها: «هذه ليست فكرة سيئة! ثمة فرشاة قديمة للنوم هناك، وأكوام من الملابس المتسخة لبناء التحصينات». قالت نورا: «أمي!»، فقلت: «نورا، أنت في الرابعة عشرة من العمر فحسب». قالت: «كدت أصبح في الخامسة عشرة تقريبًا، رباه! أتذكرين عيد ميلادي؟ هل أصبحت خرفة الآن؟».

مرَّ العشاء كما لو أنه أحد أفلام بونويل. أبقيت عيني على والدتي، وعلى وجهها ويديها، وأنا أتوقع أن تُفقد العين وتسيل الدماء. كنّا على الشرفة المشمسة لمطعم إيطالي مزدحم، وبدت والدتي مثل تمثال بيتتا. باتت كأنها مريم العذراء التي نحتها مايكل آنجلو، بينما أفكاري أنا تدور حول القتل. شرع نيك يصب مشروب السانجريا في الكؤوس وقد بدا عليه الإنهاك، وكانت خالتي تمسك أيدينا وتضغط عليها، وتحدث بسرعة، ثم سألت عمّا يكون تويتر.

سألت نيك عن رحلة التخيم التي قام بها خلال الشتاء الماضي، وبطريقة ما، قادنا هذا إلى مناقشة قصة جاك لندن، «أن توقد نارًا». كان لدى كلٍّ منّا نظرية مختلفة حول السبب الذي دعا جاك لندن إلى جعل الكلب يهجر الرجل المحتضر في نهاية القصة. وبالنسبة إلى البعض منّا، لم تكن كلمة «يهجر» دقيقة تمامًا. لم تكن والدتي وخالتي قد قرأتا القصة،

لكنهما فكرتا فيها، وخلصتا معًا إلى أن الكلب ذهب لجلب العون. اعتقد نيك أن الكلب يفهم أن الرجل يحتضر الآن، ويتجمد حتى الموت، وهو بحاجة إلى أن يكون بمفرده، كما يفضل كل من الكلب أو القطة أن يكون بمفرده عند موته. لذا رحل الكلب بدافع من الاحترام، كي يمنح الرجل المساحة التي يحتاج إليها. لم أؤمن بأي من تلك النظريات، قلتُ:

- إنه كلب. لقد استشعر أن الرجل يحتضر، أو مات بالفعل، فما الذي يمكنه القيام به؟ لا شيء. لقد انتهى الأمر، لهذا رحل الكلب، عليه العثور على بعض الطعام، والمأوى. فهناك أولويات، وجزئته تحته على البقاء على قيد الحياة. أعني، ألا... هل أقدم جاك لندن على الانتحار؟ وجَّهتُ نحوهم نظرة اعتذار.

ارتسمتُ على وجه نيك ابتسامة غريبة، وأخذ يبكي، وقد غطى عينيه بيده. بدا مقاس ساعته كبيرًا عليه للغاية، إذ أخذ سوار الساعة ينزلق حول ذراعه، حتى كان يضطر أحيانًا إلى إبقاء ذراعه ساكنة بطريقة معينة ليمنع الساعة من السقوط من يده تمامًا.

فعلتُ أشياء كثيرة ذلك المساء، لكنني لم أقترِب من اتخاذ قرار بشأن قتل شقيقتي أم لا. وضعتُ والدتي وخالتي في الفراش مع كتابيهما اللذين هما من تأليف كاثيرا رايكس وريموند تشاندلر. كانتا قد دفنتا أربعة عشر أخًا وأختًا، وكان لديهما فيما سبق أسرة كبيرة بدرجة تكفي لتشكيل فريقين كاملين من فرق البيسبول، لكن لم يتبقَّ الآن سواهما، من بين ستة عشر طفلًا، وقد دفنتا بناتهما وزوجيهما ووالديهما. تشكلت نظرتهما

إلى العالم من خلال الموت، حيث تناثرت الجثث من أدغال بوليفيا إلى أقاصي حدود منغوليا. همست لي خالتي بشيء ما بلغة البلاوتديتش، فشكرتها. «شلوب شاين»، تلك الكلمات التي كانت تكررهما لي أنا وليني قبل أن نغفو، حينما كنّا صغارًا، حديثي الوجود على هذا الكوكب، وقبل فترة طويلة من إقدام ابنة خالتي على طلاء شقتها باللون الأخضر الليموني، ثم الإلقاء بنفسها في نهر فريزر المثلج.

توجَّهْتُ إلى الشرفة واتصلت براديك، وتركت له رسالة على آلة الرد على المكالمات. قلت:

- آسفة لكوني حمقاء إلى هذا الحد. لا تتردد في أن تجعلني الشرير في الأوبرا التي تعمل على كتابتها. أحاول التفكير في تلك الكلمة التشيكية التي تقولها أحيانًا، لكنني لا أتذكرها الآن. لذا... باختصار... أنا حقًا آسفة للغاية.

تنفستُ لفترة من الوقت وأنا أرغب في قول شيء آخر، ثم أنهيت المكالمة.

قدت السيارة إلى منزل نيك، لكنني لم أترجل من السيارة. كانت لديه حبالٌ رفيعة مربوطة بسقف منزله، ومثبتة على الأرض بأكياس من الرمال. بدت مشدودة كأوتار كونتراباص. خَمَنْتُ أنه يستخدمها لزراعة شيء ما، ربما شجرة فاصوليا تطاول السماء، أو نبات الجنجل من أجل البيرة، إذا كان الجنجل من النباتات التي تنمو بصورة رأسية وتلتفُّ حول الخيوط. توجَّهْتُ إلى منزل جولي، والتقيتها في شرفة منزلها، قلت:

- لا أعرف ما الذي عليَّ القيام به.

سألتني جولي:

- لكن هل ستكون بخير؟

- حسنًا، أجل، على ما أظن. هل لديك أي نبيذ؟

شربنا النبيذ، وتبادلنا الحديث حتى وقت متأخر من الليل. استغرق طفلاها في النوم، فسرنا على بعد نصف مربع سكني حتى ضفة النهر، ورأينا أشياء، ربما تكون أسماكًا، تقفز من الماء ثم تعود إليه مرة أخرى، كما لو كان ساخنًا للغاية، وفاجأهم ذلك. أشرتُ بعيدًا نحو مستشفى سانت أوديل، بأبراجها، وأجنحتها المختلفة، وصلبيها العملاق المضاء بالنيون، وقلت:

- انظري. أتساءل أين تقع نافذتها.

سرنا عائدتين إلى منزل جولي، وتفقدنا الطفلين. كانا لا يزالان نائمين في فراشيهما.

قالت جولي عندما عدنا إلى مقعدينا على الشرفة:

- لا يمكنكِ الشروع في ذلك بالفعل.

قلت:

- أعرف هذا، لكن ألا يمكنني تنفيذ الأمر؟

قالت:

- نعم، ليس في الواقع.

- لا، لأنه سيتم القبض عليَّ؟

قالت:

- أجل، لكن ليس هذا هو السبب حتى .
- لأنني سأشعر بالذنب لما تبقى من حياتي؟
- قالت:
- لا أدري، لست متأكدة. هل ستفعلين ذلك بمساعدة من نيك ووالدتك؟
- قلت:
- أجل، أعتقد هذا، لكن...
- أي أنكم جميعًا ستكونون حولها، ثم تتناول هي الدواء وتموت...
- أجل...
- وهذا هو نفس الدواء الذي سمعت عنه في بورتلاند؟
- نعم...
- وكيف ستشرحين الأمر بعد ذلك، للشرطة على سبيل المثال؟
- قلت:
- لا أدري. قالت إنها ستنفذ الأمر بنفسها، وتتناول الدواء.
- قالت جولي:
- أجل، لكنك لن تمنعيها من قتل نفسها.
- أعرف هذا...
- وليس هذا فحسب، بل أنك أمددتها بما يلزم للإقدام على الأمر.
- نعم، أعرف هذا...
- لذا ستصبحون شركاء في الجريمة، أو ما شابه.
- قلت:

- هممم، أجل، أعرف...

صَبَّتْ جولي مزيدًا من النبيذ في كأسينا، وجلسنا في صمتٍ بعض الوقت.

قلت:

- أعرف. يمكن أن يودّعها نيك ووالدتي، ثم يرحلان. بعد ذلك سأعطيها الدواء بنفسِي، كي يبدو أنني المسؤولة وحدي، وسيعدهما ذلك عن الأمر تمامًا. لا أدري...

- لكن شعوري يحدثني بأنه لا يتعين عليك القيام بذلك.

- نعم، لكنها ستقدم على ذلك على أي حال. هذا ما يحدثني به شعوري أنا.

- لكن على الرغم من هذا، ربما لا تفعل. أعني، ربما... قد يحدث تغيير.

- أجل، ربما.

دخلتْ جولي للرد على الهاتف. جلستُ على شرفتها، وانتظرتُ. أبعدتُ عن ذهني صور أشلاء جسد والدي المتناثرة على شريط القطار، بأن أَمَعَنْتُ التحديق إلى تفاصيل شرفة جولي: الباب، والطلاء الأصفر المتقشر، وسلك الباب الممزق، والدراجات، وأحذية التزلج، وجوال التربة النظرة، والفيل الخزفي الصغير. تساءلتُ عن طبيعة العلامة التي قد تدلني على طريقٍ ما. قررتُ أنه إذا لم يسر أحدٌ على الرصيف خلال الثواني العشر القادمة، فربما لا يكون اصطحاب ألف إلى سويسرا فكرة جيدة إذن. لكن الوقت كان متأخرًا جدًّا، والجو بارد، فمن عساه يمر الآن؟ عددتُ

إلى عشرة في صمتٍ. مرّت قطّة، الأمر الذي بدا مثيرًا للارتباك. تفقدتُ هاتفي، فرأيت أن دان أرسل إليّ رسالة بريد إلكتروني، عنوانها «الندم». حام إبهامي فوق عدة أزرار مختلفة في هاتفي، ثم ضغطت زر الحذف، وعددتُ إلى عشرة مرة أخرى. لكن قبل أن أنتهي، خرجتُ جولي ثانية، وصبّت مزيدًا من النبيذ.

كان الوقت متأخرًا، وبدأ الجيران يطفئون أنوارهم. علا صوت تهشُّم الزجاجات في الأزقة الخلفية. قررنا الدخول وعزف أغنية على الأورج الذي أوصلته والدتي إلى منزل جولي في منتصف الليل لسبب غير مفهوم، في تلك الليلة الممطرة منذ عدة أسابيع مضت. أغنية ديفيد بوي، «ذكرى مهرجان مجاني».

غنيًا، وتمننا بالكلمات، وتعثرنا في الأغنية. بدا صوت الأورج متناسبًا مع جو الرثاء بالأغنية. كنّا نحفظ الأغنية عن ظهر قلب، لكننا لم نؤدها جيدًا. كبحنا أنفسنا، وغنيناها بفتورٍ على نحو هزلي. أعتقد أننا كنّا نريد الاندماج في الأغنية، وأداءها بجدية وبجرأة، كما كانت في ذاكرتنا، لكن الوقت تأخر للغاية، وكان الطفلان نائمين، كما كنّا منهكتين، وقد تأخر الوقت للغاية.

كنت في ساحة انتظار السيارات الكائنة تحت الأرض، في مستشفى سانت أوديل، أصرخ في رجلٍ يقف بجوار زوجته التي تحمل طفلًا صغيرًا. كنت قد أنزلتُ والدتي وخالتي عند مدخل جناح الرعاية المركزة،

وأحاول إيقاف السيارة في مكانٍ ضيقٍ للغاية. سمعتُ رجلاً يقول:

- ما خطبك، بحق الجحيم؟

ترجّلتُ من السيارة، وسألته عمّا يقصده، فقال إنني قريبة جداً من سيارته، ولو خدشتُ سيارته، أو لمستها بباب سيارتي، أو بمرآة الرؤية الجانبية لديّ، فسأضع نفسي في مشاكل لا حصر لها.

قلت:

- مشاكل لا حصر لها؟ هل حقاً أخبرتني للتوّ أنني سأضع نفسي في مشاكل لا حصر لها، إذا لمستُ سيارتك اللعينة؟

وقف الرجل بصحبة زوجته وطفله، وأخذوا جميعاً يحدقون إليّ. شرعتُ في الحديث بصوتٍ مرتفعٍ للغاية، لم يكن صراخاً، لكنه بدا في غاية الجنون، قلت له:

- كنتُ على وشك الصعود كي أرى ما إذا كانت شقيقتي حية أم ميتة، كما أن المساحات ضيقة جداً. هل لاحظتَ ذلك؟ وهل لمستُ سيارتك الغبية بالفعل؟ لا، لم أفعل. إن سيارتي بين الخطين تماماً. فلتنظر إليها. انظر! هل سبق وأن أحببتَ شخصاً أكثر مما أحببتَ سيارة، أو هل أحببتَ أي شخص آخر سوى نفسك؟

ثم التفتُ إلى زوجته، وسألتها:

- كيف أمكنك الزواج برجل مثل هذا؟ وكيف تشاركون هذا الوحش الفراش، وتنجبين منه طفلك هذا الذي تحمليه بين ذراعيك؟ إن والدتي في الطابق العلوي، تحاول فهم سبب رغبة ابنتها في الموت، كما أن خالتي أيضاً بالأعلى، تحاول فهم السبب الذي دفع ابنتها إلى الرغبة في الموت. في بعض الأحيان، علينا التساؤل بشأن أشياء في الحياة، بخلاف السيارات.

كنتُ قريبة منهم للغاية، وواصلتُ هذا الخط المجنون من الاستجواب.

- كيف يمكنكِ الزواج بهذا الرجل؟ ألا يمكنكما رؤية أن سيارتي لا تلمس سيارتكما؟

حدقوا إلى وجهي، ثم تراجعَت المرأة مبتعدة عني وهي تحمل طفلها، وقالت شيئاً ما لزوجها، الذي هزَّ رأسه جانباً بعنفٍ في النهاية، كما لو كان يحاول إخراج الماء من أذنه، ثم ابتعد وانضم إلى زوجته وطفله.

راقبتهم وهما يبتعدان، ثم جلستُ القرفصاء بجوار سيارتي، وليس بالقرب من سيارته هو، محاولة التقاط أنفاسي. بعد ذلك، توجهتُ نحو الداخل، وركبتُ المصعد، وضغطتُ الزر الذي سيأخذني إلى ألف والآخرين. كانت زوجة الرجل في المصعد، لكن الرجل والطفل لم يكونا هناك.

قلت لها وأنا ألوح بيدي في اتجاه آخر:

- أعتذر عن كل ذلك، أنا متأكدة من أن لديك مشكلاتك الخاصة، أنا حقاً آسفة، اتفقنا؟

حدقتُ إلى أرقام الطوابق التي تومض على نحو متقطع. أردتُ أن أقول لها إن عليها إخباري أن كل شيء على ما يرام، وإنه يتعين عليها أن تسامحني، هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور. كررتُ لها اعتذاري مرة أخرى، وهمستُ قائلة:

- أنا متوترة للغاية.

ظلت تحديق إلى الأرقام، بينما نحن نصعد إلى الأعلى. خرجتُ

أخيرًا، من دون أن تنبس بكلمة. راقبتها وهي تسير مبتعدة عبر الرواق. نقلت حقيبتها الثقيلة من كتفٍ إلى آخر، ثم انغلقت أبواب المصعد.

وقفت خالتي في الممر الصغير المجاور لوحدة العناية المركزة، وهي ترتدي بدلة رياضية أرجوانية اللون، وحذاءً رياضياً أبيض لامعاً. بدا الحذاء صغيراً للغاية، مثل حذاء طفل. أمسكت بقلم رصاص، وهي تحل لعبة سودوكو. نحت الصحيفة جانباً على كرسي عندما شاهدتني، ثم عانقتني. أخبرتني أن والدتي مع ألفريدا، وأن نيكولاس كان هنا للتو، لكنه اضطر إلى الذهاب إلى العمل ليتعامل مع مشكلة في صمام ما، كما استيقظت ألفريدا، وأزالوا عنها جهاز التنفس. قالت لي إنها ستذهب كي تجلب القهوة، وسألتني عمّا إذا كنت أريد كوباً، ثم سألتني عمّا إذا كنت بخير. أخبرتها بما فعلته، وأنني قلت لامرأة بريئة إنها أنجبت طفلها من وحشٍ، علاوة على أشياء أخرى، فقالت لي إن كل شيء على ما يرام، وإن ذلك مفهوم تماماً.

قلت:

- لكنني أردت فقط أن تخبرني المرأة بذلك أيضاً.

أومأت خالتي، وقالت لي إن المرأة ستخبرني بذلك، لكن ربما ليس قبل فترة من الزمن، قد تطول لسنوات، وستقولها بصمتٍ حينها، في أفكارها، لذا لن أسمعها، لكنني سأكون في طريق ما ذات يوم، وسأشعر بخفة من نوع ما تعتريني، كما لو أن بوسعي المشي لأميال طويلة، وستكون هذه هي اللحظة التي تتفهم فيها فجأة تلك المرأة من ساحة انتظار السيارات

انفجاري الرهيب، وأنه ليس له علاقة بها، ولا بزوجها وبطفلها، وأن كل شيء على ما يرام.

قالت خالتي:

- إنها مغفرة من نوع ما. أفهمت؟

قلت:

- حسنًا، لذا عندما أشعر بالخفة تعتريني في أحد الشوارع... بينما أسير و...

قالت خالتي:

- أجل. كريمة، ومن دون سكر، أليس كذلك؟

هرولت مبتعدة بملابسها الرياضية للبحث عن القهوة، فنظرت نحو والدتي وشقيقتي عبر الجدار الزجاجي. كانت عينا ألف مغمضتين، بينما والدتي تقرأ لها بصوت مرتفع، ولم أتمكن من تحديد ماهية الكتاب. كانت ترتدي سترة جديدة، عليها أوز طائر، لأبدًا وأنها استعارتها من خالتي. بدت شقيقتي نحيلة للغاية، بالدرجة التي تخيلت معها أنني أستطيع رؤية شكل قلبها. عدت إلى منطقة الانتظار، حيث جلست وتناولت لعبة سودوكو خالتي كي أحاول إنهاؤها. حادث نفسي قاتلة:

- ما هي طريقة حل هذا اللعبة اللعينة؟

لكن صوتي كان مرتفعًا، فنظر إليَّ رجل واتسعت فمها أنفه. نمْتُ على الكرسي، وعندما استيقظت كانت والدتي وخالتي قد رحلتا.

ذهبت لرؤية ألف، وكانت وحدها في غرفتها، تحديق إلى السقف. جلست بجانبها، وأمسكت يدها. كانت بشرتها جافة، وذكرت نفسي

بإحضار كريم لليدين في المرة القادمة. بدت رائحة الغرفة أشبه برائحة
الشعر المحترق. حنيتُ رأسي نحو الأسفل بدرجة كبيرة، كما لو أنني
أحاول تفادي الشعور بدوار الحركة، ولم أقل شيئاً. قالت لي ألف إننا نشبه
لوحة.

قلت:

– إنك تستطيعين الحديث!

أخبرتني أن حلقها يتحسن، وسألتنني عما إذا كنت أعرف لوحة إدوارد
مونش، «الطفل المريض». قلت:

– لا. لكن هل نشبه نحن تلك اللوحة؟

قالت:

– أجل، فهي مستوحاة من احتضار شقيقة مونش.

قلت لها:

– لكنك لا تحتضرين، انظري، ها أنت تتحدثين الآن.

سألتنني:

– لم يتعين علينا أن نكون بشرًا؟

حنيتُ رأسي إلى الخلف تمامًا، باتجاه الأرض.

قالت:

– حسنًا، حسنًا، لا تفعلين ذلك، تبدين منهزمة للغاية.

قلت:

– بحق السماء، يا ألفي، كيف تعتقدين أنني يجب أن أبدو؟

قالت:

- أحتاج إلى أن تكوني بخير. أحتاج إلى أن تكوني...

قلت:

- هل تمازحينني، بحق الجحيم؟ تحتاجين إلى أن أكون بخير؟ يا إلهي! رباه! انظري لنفسك!

قالت أelf:

- حسنًا، صه. أرجوك، دعينا لا نتحدث. أنا آسفة.

قلت:

- هل فكرت يومًا فيما قد أحتاج إليه أنا؟ هل خطر لك طوال حياتك أنني فاشلة على نحو ذريع، وأحتاج إلى بعض الدعم الأخوي بين حين وآخر؟ هل سبق وأن ركبت طائرة كل أسبوعين لتهرعي إلى جانبي، حينما أشعر بالباء، وبالرغبة في الموت؟ هل خطر لك يومًا أنني لست بخير، وأن كل شيء في حياتي يبعث على الشعور بالخرج، وأني حملت مرتين من رجلين مختلفين، وتعرضت للطلاق مرتين، وأقمت علاقيتين ليستا كابوسيتين فحسب، بل مبتذلتين أيضًا؟ كما أنني مفلسة وأولف كتابًا صغيرًا غيبًا عن الزوارق، لا يرغب أحدٌ في نشره، وأضاجع رجالًا... يفوح النيكوتين اللعين من مسام أجسادهم كاملة، لدرجة أنهم يخلفون على ملاءات الفراش آثارًا تشبه الجثث...

قالت أelf:

- ماذا؟

- هل خطر ببالك يومًا أنني أيضًا فقدتُ والدي عندما أقدم على الانتحار، وأنني أيضًا أواجه صعوبة في التغلب على ذلك، وأنني أيضًا

أحاول أن أجد معنى لحياتي الغبية المشيرة للشفقة، وأنني كثيرًا ما أفكر أنا الأخرى أن الحياة برمتها ما هي إلا مسرحية هزلية سخيفة، وأن ردَّ الفعل الذكي الوحيد هو الانتحار، لكنني أراجع عن ذلك الاستنتاج، لأنه يخلق عبثًا غير مستساغ؟ تتصرفين كما لو أنك تلك اللعينة فيرجينيا وولف، أو واحدة من أولئك الأشخاص الذين هم أروع كثيرًا من أن يعيشوا، أو أذكى كثيرًا من ذلك، أو متماهين بدرجة كبيرة مع مأساة هذه الحياة بأكملها، أو أيًا ما كان، وتريدين أن تصنعي لنفسك إرثًا لعيثًا، بوصفك عبقرية محكومًا عليها بالهلاك...

قالت ألف:

- يولاندي، أخبرتك أن...

- لديك رجلٌ مذهلٌ يعشقك حدَّ الجنون، ولديك مسارٌّ مهني رائعٌ يحترمه العالم بأكمله، ويمنحك مقابله كثيرًا من المال، وعلاوة على ذلك، يمكنكِ التوقف عن العمل في أي وقتٍ تشائين، وسيُنظر إليك بوصفك غامضة وغريبة الطباع فحسب، ثم يمكنكِ بعدها الذهاب للعيش في حي ماريه في باريس، أو أيًا كان ذلك الحي الغبي اللعين... لا، لا تحاولي الحديث، ولا تصححي لي، بما لديك من معرفة فائقة باللغة الفرنسية. كما تتمتعين بجمالٍ طبيعي رائع لعين، يبدو كما لو أنه لا يذبل أبدًا، ومنزل مذهل ينظف نفسه بنفسه، بطريقة سحرية...

قالت ألف:

- لدي عاملة تنظيف، يا يو. بالمناسبة، مفهومك لليأس متواضعٌ للغاية.

قلت:

- عاملة تنظيف رائعة، حسنًا؟ ولديكِ أم تعتقد أن الشمس تشرق من مؤخرتك.

قالت ألف:

- يولي.

- حسنًا، لقد مات والدنا. بغض النظر! كان يحبكِ! لديك... ما هي مشكلتك الضخمة اللعينة، على أي حال؟

قالت ألف:

- كما أن لديَّ شقيقة رائعة، لكن هل يمكنكِ... صه.

قلت:

- أنا لستُ رائعة! أنا فاشلة تمامًا! ألا تستطيعين فهم ذلك؟ ألا تفهمين أنني بحاجة إلى مساعدتك؟ وربما ثمة سبب لوجودك هنا، وهو أن تكوني شقيقتي اللعينة؟

قالت:

- يولي.

اعتدلت جالسة في فراشها، وأخذت تهمس بشدة وهي غاضبة:

- حسنًا، أنتِ لا تفهمين أي شيء على الإطلاق. لطالما حظيت بمساعدتي اللعينة. كان عليَّ أن أصير مثالية، كي تتمكني أنتِ من الفشل، وقد قبلتِ أنتِ ذلك بكل سعادة. كان على أحدا أن يظهر بعض التعاطف للعين. أتعرفين تلك الكلمة؟ إنها كلمة جيدة، عليك أن تتعلميها. كان يتعين على إحدانا إظهار بعض التعاطف للعين حيال والدنا، وحيال

أحزانه الوجودية الشاسعة. من كان ذلك الشخص؟ هل كان أنت؟ هل كانت والدتنا؟ لا! بل كان أنا. فقط كي تستطيعي أنت أن تدوري...
قلتُ:

- لا أعرف حتى ما الذي تحدثين عنه. هل تقارنين نفسك بيسوع المسيح الآن؟ لم يتعين عليك أن تكوني أي شيء، لقد اخترت الانضمام إلى فريقه.

قالت ألف:

- لأنه لم يكن هناك شخص آخر في فريقه.
قلتُ:

- هذا لا يعني أننا كنّا نفتقر إلى التعاطف، بل يعني أننا اخترنا الحياة، أو بعض مظاهرها. لقد تصادف أنك تشبهينه بدرجة أكبر منّا - وأنت محظوظة لذلك، لملايين الأسباب المختلفة - لكن ذلك لا يعني أننا لم نكن نكثر.

- أوه، إذن فأنت تقولين إنني محكومٌ عليّ بالهلاك.
- أنا لا أقول إنك محكومٌ عليك بالهلاك! بل أقول إنه لم يكن يتعين عليك أن تكوني أي شيء. ومنذ متى صرت تطلقين السباب؟
قالت ألف:

- أجل، كان يتعين عليّ أن أكون شيئاً ما. هل سبق وأن سمعتِ عن ديناميات الأسرة؟ وألا تعتقدين أنني خائفة بشدة؟
- حسناً، ما سبب كل هذا إذن؟ لماذا أنت هنا؟ هل هي ضربة استباقية من نوعٍ ما؟ هل تقدمين على فعل أكثر شيء تخشينه، من أجل التغلب

على خوفك من القيام به في الأساس؟ أخشى قتل نفسي، لذا أعتقد أنني سأقتل نفسي، وبعدها سأتمكن من الاستمرار في العيش من دون خوف... أوه، انتظري! الأمر مختلف بعض الشيء. تبدو الخطة مرتبكة قليلاً...
- يولي، أحاول أن أشرح لك هذا الضغط الهائل الذي أحسستُ به كي...
...

- فلتتوقفي إذن! توقفي عن كونك مثالية! هذا لا يعني أن تموتي، أيتها الغبية. ألا يمكنك أن تصيري مثل بقتينا، عادية، وحزينة، وفاشلة، وحية، ونادمة؟ دعي وزنك يزداد، وابدئي في التدخين، واعزفي البيانو على نحو سيئ، أو أيًا ما كان! أنت تعرفين على الأقل أنك ستحصلين على أكثر شيء تريدينه في هذه الحياة، في نهاية المطاف...
- وما هو أكثر شيء أريده في الحياة؟
- الموت!
- يولي.

- لم لا تنتظرين حدوثه إذن؟ تحلي ببعض الصبر، وسوف تتحقق كل أحلامك. هذا مضمون. أكثر شيء أريده أنا في هذه الحياة بعيد المنال، والجميع يعرفون ذلك.

قالت ألف:

- ما هو؟ تقنين الماريجوانا؟

قلت:

- الحب الحقيقي. ومع ذلك، فأنا أتمسك بالحياة على نحو غير معقول، رغم إدراكي استحالة الأمر، لأن من يدري؟ أريد أن أعرف، لذا أعيش على هذا الأمل.

- حسنًا، يا يولي، إن منطقك أعوج. أنت تناقضين نفسك. أنت متأكدة تمامًا من أن حلمك بالحب الحقيقي، أو أيًا ما كان، لن يتحقق أبدًا، لكن مع هذا فأنت على استعداد للبقاء لاكتشاف الأمر، في حال الاحتمال الضئيل لحدوث ذلك. وأنا أعلم أن حلمي المزعوم بالموت سوف يتحقق، لذا تبعًا لمنطقك هذا، يجب أن أكون حرة في الرحيل. لا يوجد شيء لاكتشافه. لا توجد مفاجآت كبرى في الكواليس، ولا شيء نأمل من أجله.

- هذا ليس ما قلته!

- أعتقد أنه كذلك.

قلت:

- اسمعي، ألا تعتقدين أن والدتنا عانت بما فيه الكفاية مع والدنا، بسبب كل ذلك الهراء؟ وماذا الآن؟ هل تعجبك هذه الفكرة الشاذة بتكرار ذلك الأمر اللعين؟

- يولي، هذه قسوة شديدة. هذا أبعد من...

- أنت تتوقين بشدة إلى تكرار الأمر، أليس كذلك؟

قالت ألف:

- أنا لست مثالية. لم أعن...

قلت:

- أجل، أوافقك الرأي! لو كنت مثالية، لتمسكت بالبقاء، ولشاهدت كيف تسير الحياة، وكيف يبلي الأولاد. هل تفكرين أبدًا في ويل ونورا، وفيما يعنيه كل هذا بالنسبة...

قالت ألف:

- يولي، فلتخرسي الآن. بالطبع أفعل، أفكر فيهما طوال الوقت.

قلت:

- هراء! لو أنك فكرت فيهما على الإطلاق، ولو لمرة واحدة...

- يولاندي، توقفي عن هذا.

قلت:

- أتوقف عن ماذا؟ أتوقف عن الحديث بالمنطق؟ أتوقف عن قول

الحقيقة؟ هل يشير المنطق جنونك؟

قالت ألف:

- فلتخبريني أنتِ.

توقفنا عن الحديث فترة طويلة للغاية، وقتًا طويلًا جدًا. أتت
المرضعات وذهبن وهن يربطن الأشياء ويفصلنها. وُلد مئات الآلاف من
الأطفال بينما انقطعنا نحن عن الحديث. واستمرت القارات في التباعد
بنفس وتيرة نمو الأظافر.

قالت أخيرًا:

- يولي، انظري، هل يمكنك أن تتحدثي إليّ فحسب؟

سألتها:

- عن ماذا؟

قالت:

- عن أي شيء.

قلت:

- بالتأكيد. لكنك تطلبين مني الحديث كما لو أن لديك نصًّا خفيًّا من نوع ما تريدني أن أتبعه، وبعد ذلك، عندما أنحرف عنه -لأنني لا أعرف ماهيته حتى من الأساس- تقولين لا، لا تتحدثي. أنت لا تريدني أن أتحدث عن الماضي، نظرًا لأنه مؤلمٌ للغاية، لأنه كانت هناك أوقاتٌ جيدة، وكانت هناك حياة، وقد يقنعك ذلك بتغيير رأيك. كما أنك لا تريدني أن أتحدث عن المستقبل، لأنك لا ترين أي مستقبل، فماذا إذن... حسنًا، سأحدث عن هذه اللحظة. لقد أخذتُ شهيقًا للتو. توارت الشمس خلف سحابة. أطلقتُ زفيرًا. أنت في الفراش. مرّت ثانية أخرى. ثم أخرى. أوه... وأخرى غيرها! وها أنا آخذ شهيقًا آخر.

رفعتُ يدها، فأمسكتُ بها، كما لو أننا بطلتان في شيء غبي، لكننا فزنا به بشق الأنفس، مثل بطولة صغير، لكن على مستوى بطولة العالم. حينها ظهر كلوديو عند الباب، حاملاً باقة زهور باذخة.

- تشاو!

كان يرتدي وشاحًا أزرق منقوشًا، استوى منبسطًا على معطفه الصوفي، والتمع حذاؤه الجلدي الأسود.

- يولاندي، تبدين جميلة!

(أحبُ كلوديو). قُبِّلني على وجنتي.

- ألفريدا، يا عزيزتي.

قُبِّلها على جبهتها، أعلى ندبتها الجديدة مباشرة.

قالت:

- كلوديو، أنا آسفة للغاية.

تحدث إليها بالإيطالية، قائلاً:

- لكن ماذا حدث لك، يا عزيزتي؟

لكنها هزّت رأسها، بمعنى لا، لا تفعل، كما لو أن لغة قلبها لا مكان لها هنا، أو كما لو كانت تذكّرُها بالجمال، والحب، والضحك، وقد تحوّلت تلك الأشياء الآن إلى رصاصات، وأسنان حادة، وشظايا زجاج، وألعاب بلاستيكية رخيصة يدهسها المرء في ظلام الليل.

- ألفريدا، نحن هنا معاً، وهذا هو كل ما يهم.

وضع الزهور على الطاولة الجانبية، وتناول يدها، قال:

- لقد أنقذتني من بودابست.

قال إنه يحب بودابست لجمالها وأناقتها، وطابعها المتداعي المتفسخ، ولجراتها وحزنها، لكن عند قضائه وقتاً طويلاً بها، كان كل شيء يصيبه بالاكتئاب. قال إن لديه اجتماعات، وحفلات غداء وعشاء، وإنه أخذ يشعر بالانهيار، والتحلل، والحزن. أخبرنا أنه جلس في ينبوع مياه حارة تفجرت من الأرض، كما كان يفعل إبان شبابه، محاطاً بالفن المعماري من طراز الأرت نوفو، وبدا الأمر أشبه بالاستحمام داخل كاتدرائية. كانت السماء وردية، وعبق الجو برائحة الليلك. انشغل رجال العصابات الروس البدينون الذين يرتدون سراويل سباحة صغيرة بلعب الشطرنج، بينما تعلّقت في أعناقهم وأذرعهم زوجاتهم المتجهّمات ذوات الشعر الأشقر المائل إلى البياض، وقد تزيّن بالذهب والفضة، يا لهم من همج!

كان كلوديو يجيد الحديث بالإنجليزية، ولم يظهر سوى أثر بسيطٍ

للكنته الإيطالية. فكرتُ أن هؤلاء الروس من نسل الرجال الذين ذبحوا
أفراد الطائفة المينوناتية، وها هم الآن يرتدون سراويل سباحة صغيرة. ثم
أخبرنا أنه كان واقفًا على أحد الجسور فوق نهر الدانوب، ثم رأى رجلًا
جالسًا على ضفة النهر حينما وجَّه نظره نحو الأسفل.

قلت:

- هل هو أزرق؟

- لا، إنه قذرٌ على ما أخشى، وليس أزرق على الإطلاق.

سألته:

- هل هو جميلٌ؟

- نعم، حسنًا، يمكن وصفه بأنه جميلٌ.

قالت أَلَف:

- هذا صحيح.

- حسنًا، كان هناك متشرد... أم هل تسمونهم متجولين؟

قلت لأَلَف:

- هل تعلمين أن كلمة «متجول» هذه، يعد أصلها اختصارًا لكلمة

أخرى، بمعنى «عائد إلى المنزل»؟

قالت:

- أجل، عرفت هذا من المطرب وودي جاثري. يدهشني كونك

تعلمين ذلك.

قلت:

- كما أعرف أيضًا أن هناك متحفًا للمتجولين في بریت، بولاية

أوهايو. أحب قراءة رسائلهم الإخبارية، ولا سيما مشاركات «نو وير

مان»، و«ماد ماري». عند وفاة شخصٍ ما، يقولون إنه استقل القطار المتجه غربًا.

ابتسمت ألف قائلة:

- هذا غريبٌ.

واصل كلوديو الحديث، وقال:

- هممم، حسنًا، نظرتُ إلى الرجل الذي كان جالسًا هناك فحسب على ضفة النهر، محدقًا إلى المياه، وإلى السماء، وإلى الأشياء من حوله. أمسك في يده بعلبة بيرة، ثم نهض والتقط زجاجة فارغة ملقاة بجواره، ونزل درجًا خرسانيًا يؤدي إلى النهر مباشرة. ابتل طرف سرواله، وتلفَّت حوله كما لو أنه يتأكد من عدم وجود من يراقبه. ظننتُ أنه سيقفز في النهر كي يغرق نفسه، لكنه لم يتعد لأكثر من ذلك. انحنى وملاً الزجاجة ببعض مياه النهر، ثم عاد وجلس حيث كان مرة أخرى. شعرتُ بارتياحٍ بالغ. أخذ قلبي ينبض بشدة، بينما كنتُ أشاهد كلَّ هذا من على الجسر. لكن بعد ذلك فكرت، يا إلهي، سوف يشرب مياه النهر، إلا أنه لم يفعل. جلس هناك ببساطة لبعض الوقت، وبحوزته علبة البيرة وزجاجة مياه النهر، وواصل التحديق. ثم تناول الزجاجة على مهلٍ، وصبَّ القليل منها داخل علبة البيرة. بعد ذلك، شرب من علبة البيرة. كنتُ أراقب هذا وفكرتُ، «كم هذا مروع، لا تشربه». لكنه فعل بالطبع، ولسببٍ ما أزعجني ذلك بشدة، وأردتُ الرحيل عن بودابست.

قالت ألف:

- هل شرب ماء النهر؟

قال كلودييو:

- أجل، لقد أضاف مياه النهر القذرة إلى البيرة، كي يجعلها تدوم لفترة أطول.

قالت ألف:

- وهل ظننت أن ذلك مثيرٌ للشفقة؟

- أجل، إنه يبعث على الحزن بدرجة رهيبة فحسب.

قلت:

- كان يمكنه أن يغرق نفسه بدلاً من ذلك، هل تعتقد أن ذلك سيكون أفضل؟

- بالطبع لا، لكنني لم أرده أن يشرب ماء النهر بالتأكيد.

قالت ألف:

- حسناً، أعتقد أنه اتخذ...

قلت:

- أجل، اتخذ قراراً، أتفهم ذلك. أعتقد أنه لم يكن من المفترض أن يضطر إلى اتخاذ مثل ذلك القرار.

قالت ألف:

- لا أريد أن أشرب ماء النهر.

قلت:

- أفضل شرب ماء النهر، عن الغرق فيه.

قالت ألف:

- أتفهم ذلك.

- إذن فأنتِ تقولين إن لديكِ كرامة، في حين أفترق أنا إليها، وإن الشخص الذي يتمتع بعمق الشخصية والنزاهة وما إلى ذلك، سيلقي بنفسه في النهر بكل تأكيد، قبل أن يلجأ إلى شرب مياهه؟ ماذا عن الشجاعة التي يحتاج إليها المرء لفهم وقبول أنه بحاجة إلى البيرة، وأن عليه أن يجعلها تدوم لفترة أطول؟ ماذا عن الكياسة التي يجب التحلي بها لقبول هبة الحياة؟

اعتذر كلوديو، وقال إنه لم يقصد إزعاجنا، بل كان مجرد شيء شاهده.

قالت ألف:

- لقد خذلتُ الجميع.

فقال كلوديو:

- لا، ليس على الإطلاق. فجميع الموسيقيين لديهم بالفعل... ماذا تسمونها؟ حفلات أخرى، كما أن الجميع يرسلون إليك حبهم... أنتاناس، وأوتو، وإيكو، وبريدجيت، وفريدريك.

- كيف حال فريدريك؟

- أوه، كما هو، لديه مشاكل مع النساء، والمال... ضحك كلوديو، لكن بدا عليه التأثير الشديد.

- هل الجميع مستأؤون مني بشدة؟

- بالطبع لا! أنا أتولّى كل شيء، يا ألفريدا. لا داعي لأن تفكري في الأمر ثانية. لدينا تأمينٌ لمثل هذه الحالات، كما تعلمين، ولا يعدو الأمر

كونه مجرد إزعاج بسيط، ولا أهمية فعلية له بالنظر إلى الصورة الكبرى للأشياء.

لوح بيده، وأصدر صوتاً ينم عن الاستهانة، ثم قال بالإيطالية:
- إنه لا شيء.

قدّم إليها مزيداً من التطمينات، ثم قال إن عليه الرحيل، إذ كان يتعيّن عليه العودة إلى المطار. عندما انحنى لتقبيل ألفريدا على وجتها، أمسكت به لتحتضنه.

قلت:

- سأرافقك إلى الخارج.

قالت ألفريدا:

- تشاو، كلوديو.

بدت كما لو أنها تنشج. تشاو، تشاو.

وقفنا أنا وكلوديو في الردهة بجوار جوالٍ كبيرٍ من قماش الأشرعة، امتلأ نصفه بالملاءات الملطخة بالدماء.

قلت:

- دعنا نتمشّى قليلاً.

أحاط كتفي بذراعه للحظة، وسألني:

- كيف حالك، حقاً؟

قلت:

- أوه، لا تسأل، وإلا سأبكي. لكن شكراً لك. كيف حالك أنت؟

لننزل إلى الطابق الرئيسي.

- حسنًا، بالنظر إلى الظروف... أنا آسف جدًا، يا يولاندي، لكنني معتل بشدة بسبب هذا الأمر.

قلت:

- أجل... ستكون بخير، على الأرجح. أعني، ليس من أجل الجولة، لكن...

قال كلوديو:

- لا، لا أعتقد ذلك. يا له من أمرٍ مؤسفٍ. أعني بالنسبة إليها، وإلى الجميع.

- نعم.

- على أي حال، يا يولاندي، لا داعي لأن تزعجي نفسك بهذا. كما تعلمين، لقد مررنا أنا وألفريدا بالعديد من المحن، وهذا أمرٌ متوقعٌ. إنه لا شيء يذكر.

قلتُ بالإيطالية:

- أجل، حسنًا.

- آه، هل تودين التحدث بالإيطالية؟

- لا. أعني، أجل، لكن...

قال:

- لا، لا. أتفهم هذا.

تمشينا الهويني أمام أبواب تعلوها أرقام، وفي مدخل أحد الأبواب، وقفت امرأة عجوز بملابس النوم وهي تحكم قبضتها حول ساعة كبيرة مستديرة، بينما حشرت حقيبة يد خضراء تحت إحدى ذراعيها، سألتنا:

– ما الساعة الآن؟

قال كلوديو:

– معذرة؟

أظهرت لنا ساعتها، وقالت:

– ما الساعة الآن؟

قال كلوديو:

– إنها الرابعة والنصف تقريبًا.

قالت:

– ماذا؟ ماذا؟

قلت:

– إنها الرابعة والنصف.

قالت:

– هل هي الرابعة والنصف؟ إنها الرابعة والنصف!

– أجل.

أشارت إلى كلوديو، وسألته:

– هل هذا زوجك؟

قلت:

– لا.

– والدك؟

– لا.

– هل هو شقيقك؟

قلت:

- لا، إنه صديقي.

قدّم كلوديو نفسه، ومدّ يده لمصافحتها، لكنها كانت تقبض على الساعة بإحكام بكلتا يديها، فلم تتمكن من ذلك.

قالت:

- يستحسن ألا تفكرا في سرقة حقيتي.

تراجعت مبتعدة عنّا، في ظلال غرفتها.

قال كلوديو:

- لا، لا، بالطبع لا.

أمسكتُ بذراعه، وسحبته برفقٍ، بعيداً عن المرأة.

سمعناها تصيح قائلة:

- مفتاح منزلي في هذه الحقيبة!

كانت قد عادت إلى الردهة، وهي لا تزال تمسك بالساعة. التفتنا أنا وكلوديو، وأومأنا إليها وابتسمنا، ثم واصلنا السير. قالت لها إحدى الممرضات:

- صه، يا ميلي، صه.

قلت لكلوديو:

- لن تعود إلى منزلها أبداً.

سألني:

- لا؟ لماذا؟

قلت:

- لأنه تم بيعه، لقد أخبرني ابن شقيقها. ستخرج من هنا إلى دارٍ
لرعاية المسنين.

قال كلوديو:

- لكنها تحتفظ بمفتاح منزلها.

قلت:

- إنه الشيء الوحيد في حقيبتها، ولا تتركه أبداً، لا هو ولا الساعة،
حتى في أثناء نومها.

قال كلوديو:

- يولي، سنعثر على بديلٍ يحل محل ألفريدا في تلك الحفلات
الآخيرة. ما زال هناك متسعٌ من الوقت. من فضلك قولي لها مرة أخرى ألا
تقلق بشأن أي شيء، أي شيء على الإطلاق.

توقف كلوديو عن المشي، ثم وضع يديه على كتفي، وعبرَ لي عن
أسفه، قال:

- يولاندي، إن شقيقتك إنسانة نادرة، إنها لا تشبه أي شخص آخر
عرفته من قبل، يجب أن تبقّيها على قيد الحياة، عليك أن تحاولي كل
شيء، كل شيء.

- أنا... أجل، سأفعل... نحن...

شرع كلوديو يمسح الدموع من عينيه. ربتُ على كتفه قائلة:

- لا بأس... ستكون بخيرٍ. أعتقد حقاً أنها ستكون بخيرٍ.

ابتسمتُ بشدة.

عانقني كلوديو، وقال إن عليه أن يسرع، إذ كانت هناك سيارة بانتظاره

في الخارج، لكننا سنلتقي ثانية. رنَّ هاتفه المحمول، فقلت:
- أريفاديتشي، كلوديو، وأشكرك، شكرًا لك، جراتسي على الزهور
الجميلة.

عندما عدت إلى الغرفة، قالت ألف:
- أعرف، لا تغضبي. ولا تلقي عليَّ المواعظ، اتفقنا؟ هبة الحياة.
بدوت كما لو أنك مينوناتية عجوز، مثل ما اسمه هذا.
قلت:

- لستُ غاضبة، كما أنني مينوناتية عجوز بالفعل، وأنت أيضًا كذلك.
أنت مستاءة للغاية من كل شيء.
قالت ألف:

- هذا حقيقي، حقيقي جدًا.
- أجل، لكن من ماذا بالتحديد؟
لم تقل ألف شيئًا.

قلت:
- لقد حلمتُ بأنني سأرحل بعيدًا عن كل من أعرفهم، وأن كل
من أعرفهم وأحبهم تجمعوا معًا في عصر يوم مشمس، كي يلوحوا لي
مودعين. لم أرغب حينها في الرحيل، عندما رأيتهم جميعًا مجتمعين،
وتذكرت حبهم لي، لكن كان عليَّ الذهاب.
سألني ألف:

- هل رأيتني في ذلك الحلم؟
قلت:

- أجل، بالطبع. كنتِ هناك أنتِ أيضًا، تبسمين وتلوحين.
سألتني ألفَ عمّا إذا كنتِ قد قرأتِ رواية «عشيق الليدي تشاترلي» من
قبل، فأجبتها بالنفي.

قالت:

- هذا هو السطر الأول منها: «إن عصرنا في الأساس هو عصر مفعج،
لذا نأبى التعامل معه على نحو مأساوي».

قلت:

- حسنًا، هذا مثيرٌ للاهتمام، ماذا يحدث بعد ذلك؟

قالت:

- اقرئيها بنفسك، لا أصدق أنك لم تقرئيها. ربما يمكنكِ العودة إلى
الكلاسيكيات القديمة، بدلًا من الانكباب على الرسائل الإخبارية لمتحف
المتجولين.

قلت:

- يبدو كأننا نجري محادثة أشبه بتلك المحادثات الواردة في فيلم
«فتى الكاراتيه». هل تحاولين نقل الحكمة إليّ، أو شيء من هذا القبيل؟
ما زلتِ تلقين عليّ المحاضرات بخصوص ما أقرأه، هذا جيد.
أخبرتني ألف أن حلقها يؤلمها، وأنها لم تعد قادرة على الحديث.

قلت:

- أجل، حسنًا، بالتأكيد.

همست قائلة:

- أنت لا تصدقيني.

- نعم، أجل، بالطبع أصدقك.

حلّ علينا الصمت، نامت ألف نومًا متقطعًا، أو شيئًا ما يشبه النوم، بينما جلستُ على المقعد بجوارها. تخيلتُ نفسي أركض حتى أصطدم مباشرة بالجدران الزجاجية، وأحطمها إلى شظايا صغيرة. في اليوم السابق لوفاة والدي، حلم بأنه يتشقلب على نحو صبياني عبر جدران خرسانية، مرارًا وتكرارًا.

كانت مخطوطتي بحوزتي، ولا تزال في حقيبة سيفوي البلاستيكية. أخرجتها من الحقيبة، وكتبت على الغلاف «حياة كاملة من الاستياء»، ثم شطبت ذلك وكتبت «التفاني في الحزن»، (وهو ما يعد، وفقًا لشاتوبريان في كتابه «عبرية المسيحية»، أنبل إنجاز للحضارة. لذا تبًا لأفراد الطائفة المينوناتية ممن يشغلون أنفسهم بشؤون الغير، والذين أخبروني بأصوات رخيمة تتظاهر بالورع، وملاحمهم تعلوها تعبيرات لا مبالية، أن انتحار والدي كان شرًا). بعد ذلك كتبت «شظايا»، ثم «من دون عنوان»، ثم «مخول بالتصرف»، بعدها شطبت ذلك كله، ورسمت ألف في فراشها.

راقبتُ ألف خلال نومها، وشاهدتُ الممرضات وهن يتجولن في الأرجاء ويتبادلن الضحك خلف مكتهن. كنت أعلم أنهن لا تظن وجود ألف هناك: محاولة انتحار فاشلة من امرأة مجنونة. كنَّ يتعاملن معها باقتضابٍ، ولم يأت أي طبيب للتحديث إلينا على الإطلاق. توجهتُ إلى المكتب، وسألتُ عمّا إذا كان بإمكانني التحدث إلى طبيب ألف النفسي، فأخبروني أنه استدعي إلى حالة طوارئ. غادرتُ الغرفة ونزلتُ

إلى الطابق السفلي، كي أجد والدتي وخالتي، وأرسل رسالة نصية إلى نورا في تورونتو. لم أتمكن من العثور عليهما في الكافتيريا، كما لم ترد نورا على رسالتي النصية. عدتُ إلى الرعاية المركزة بالأعلى، وكان طبيب ألف هناك. وقف عند مكتب الممرضات، مرتدياً عدسة مكبرة على رأسه، كأنه جواهرجي، كما كان يرتدي جوارب قصيرة تصل إلى الكاحل. كان هو الطبيب النفسي، فاتجهتُ إليه وقدمتُ نفسي، وسألته عما إذا كان قد تحدث مع ألفريدا مؤخراً.

قال:

- لقد حاولتُ ذلك، لكنها رفضتُ الحديث.

- أحياناً لا تتحدث، هذا صحيح، لكنها على استعداد للكتابة على الورق.

قال:

- ليس لديّ الوقت للقراءة في أثناء العمل.

ابتسم، فضحكت ممرضتان كما لو كانتا تقفان بجانب إفيس في فيلم «بنات! بنات! بنات!».

قلت:

- أجل، ها. لكنني أقصد...

قال:

- انظري، لست مهتمةً بتمرير دفتر ملاحظات بيننا جيئةً وذهاباً، والانتظار حتى تدوّن الأشياء، هذا سخفٌ.

قلت:

- أعرف، وأتفهم ذلك. يمكن أن يكون الأمر شاقًا، لكنني فقط...
أعني، أنت طبيب نفسي، أليس كذلك؟ لذا لا بُدَّ وأن تكون شاهدت مثل
هذا الشيء من قبل، أليس كذلك؟
قال:

- بالطبع أتفهم الموضوع، لكن ليس لديَّ الوقت لذلك فحسب.
سألته:
- حقًا؟
قال:

- انظري، إذا كانت تريد التحسن، فسوف يتعيَّن عليها محاولة
التواصل بصورة طبيعية، هذا هو كل ما أقوله.
قلت:

- أعرف، هذا... لكنها مريضة نفسية، أليس كذلك؟ أعني، أليس من
المفترض أن تتصف بغرابة الأطوار بعض الشيء؟ أقصد، أليست... ألا
يمثل هذا تحديًا بالنسبة إليك؟ أعني، في مجال العلاج النفسي، ألا ترحب
بهذه الفرصة لتطبيق جميع ما درسته بالفعل على...
قال:

- عذرًا، من أنت، مرة أخرى؟
- أخبرتك أنني شقيقتها، اسمي يولاندي. أعتقد حقًا أن الصمت هو
طريقتها لعزل نفسها عن العالم الواقعي، هل تفهم ما أقصده؟ لا يمكنك
أن تأخذ الأمر على محمل شخصي، إنها طريقتها...
قال:

- أعرف ما تقصدينه بالطبع. لست متأكدًا من أنني أتفق معك في الرأي، لكنني أفهمك بالطبع، وأقول لك إنني ليس لديّ الوقت للعبة سخيفة...
قلت:

- لعبة سخيفة؟ معذرة، لكن هل أطلقتَ عليها للتو مسمًى لعبة
سخيفة؟

بدأ يسير مبتعدًا عني. قلت:

- انتظر! انتظر، انتظر، انتظر. لعبة سخيفة؟

وقف الطبيب النفسي، والتفت لينظر نحوي.

قلت:

- هل ترفض مساعدتها بعد زيارة واحدة فقط؟ يا لك من طبيبٍ نفسي محترم. هل صرفت النظر عن حالتها بوصفها خارجة عن السيطرة، أمامها مباشرة؟ إن شقيقتي ضعيفة ومعذبة. وهي مريضتك! إنها تتوسل للحصول على المساعدة، لكنها تريد التمسك بمظهرٍ واحدٍ بسيطٍ من مظاهر التحكم الذاتي في حياتها. من المؤكد أن حتى طالب علم نفس في سنته الأولى سيتفهم أهمية هذا الموقف. أأست... أليس لديك حتى أي فضول مهني؟
هل أنت على قيد الحياة، أم ماذا، بحق الجحيم؟

قالت إحدى ممرضاته من خلف تحصيناتها:

- سأضطر إلى أن أطلب منك خفض صوتك.

صوبتُ رشاأً نصف آلي نحو رأسي. باعد الطبيب النفسي ما بين ساقيه، وعقد ذراعيه وهو يحدق إليّ، فيما استرسلتُ في الحديث بعنفٍ. ابتسم للممرضة وهزَّ كتفيه، وبدا مستمتعًا، كما لو أنني موجهة عملاقة

يتطلع حقاً إلى ركوبها في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، بعد تناول إبريق من المارجريتا مع رفاقه.

قلت:

- هل أنت عدائي للغاية، وناقد الصبر، ومغرور، لدرجة أنك لن تسمح لها حتى بالتواصل معك بكلمات مكتوبة على قصاصة ورق؟ لم لا يمكنك القيام بعملك فحسب؟ لا أريد الجدل، لكن هل تخبرني حقاً أنك لن تستمع إليها؟

قال الطبيب النفسي:

- اسمعي، أنت لست أول فرد من أفراد أسر أحد المرضى يفرغ في غضبه بدافع من الشعور بالإحباط. اتفقنا؟ هل انتهيت؟ أنا آسف.

سار مبتعداً عبر الردهة، ثم ولج غرفة.

صحتُ وراءه قائلة:

- لأنك إذا لم تساعدنا، فمن سيفعل؟

اعتذرتُ للممرضات لكوني تسببتُ في فضيحة، قلت:

- أنا في غاية الغضب، أنا يائسة جداً، أنا مرعوبة للغاية، أنا غاضبة جداً، لا أعرف ماذا أفعل.

كررتُ تلك العبارات، فأومأت الممرضات، وقالت إحداهن:

- هذا مفهومٌ. إن شقيقتك ترفض التعاون، و...

قاطعتها قائلة:

- لا، أرجوك. من فضلك لا تضعي اللوم على شقيقتي، لا يمكنني تحمل سماع ذلك الآن، إنها ليست شريرة.

كنتُ أهمس، إذ حاولتُ ألا أرفع صوتي. واصلتُ قائلة:

- لا أستطيع تحمل ذلك الآن فحسب.

قالت الممرضة:

- لم أقل إنها شريرة، بل قلت إنها ليست...

أحطتُ رأسي بيدي، كما لو أنني أجرب زوجًا جديدًا من سماعات الرأس. لقد فقدت عقلي. شكرتهم لشيء أو لآخر، وتركتُ العناية المركزة.

هبطتُ الدرج لست طوابق، لكن هاتفي الجوال رنَّ في الطابق الثاني، فأجبتَه. قلت:

- مرحبًا.

قال صوتٌ على الطرف الآخر:

- مرحبًا، يا يولاندي. أنا جوانا.

(كانت شخصًا ما من الأوركسترا)، تابعتُ حديثها:

- أردتُ فقط أن أخبرك كم نحن آسفون للغاية بشأن ألفريدا، أتساءل عمدًا إذا كان هناك أي شيء يمكننا القيام به؟ أرغب في إرسال شيء ما، لكنني لا أعرف ماذا. الزهور؟

تخيل طبيبًا نفسيًا يجلس مع إنسان محطم قائلاً: أنا هنا من أجلك، وأنا ملتزمٌ برعايتك، وأريد أن أجعلك تشعر بتحسن، وأرغب في إعادة الفرحة إليك. لا أعرف كيف سأفعل ذلك، لكنني سأكتشف الطريقة، بعد ذلك سأبذل مائة في المائة من قدراتي، وتدريب، وتعاطفي، وفضولي، في سبيل صحتك، ورفاهك، وسعادتك. أنا هنا من أجلك، وسأعمل بجدّ

لمساعدتك، أعدك بذلك. وإذا فشلتُ، فسيكون هذا فشلي أنا، وليس فشلك أنت؛ أنا المتخصص، وأنا الخير. أنت تعاني ألمًا شديدًا الآن، ووظيفتي ومهمتي هي أن أعالجك من ألمك. أنا ملتزمٌ تمامًا برعايتك. (حينها سمعت جوانا تقول: يولاندي؟ يولاندي؟). أعرف أنك تعاني. أعرف أنك خائفٌ. أحبك، وأريد أن أعالجك، ولن أتوقف عن محاولة مساعدتك. أنت مريض، وأنا طبيبك. أنت مريض. تخيل طبيبًا يتصل بك في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، كي يخبرك أنه يقرأ بعض الأشياء الجديدة عن موضوع ما، وأنه متحمس للغاية بشأن الكيفية التي قد يساعدك بها ذلك. تخيل طبيبًا يتصل بك خلال اجتماع مهم، ويقول اسمع، آسف جدًا لإزعاجك، لكنني كنت أفكر بجدية في مشاكلك، وأرغب في تجربة شيء جديد تمامًا، أحتاج إلى رؤيتك على الفور! أنا ملتزم تمامًا برعايتك! أعتقد أن هذا قد يساعدك، ولن أتخلي عنك.

قالت جوانا:

- يولاندي؟ هل أنت بخير؟

قلت:

- معذرة. مرحبًا، أنا آسفة، آسفة.

- هل أنت...؟

- أجل، زهور. جيد، شكرًا لك.

اتصلتُ بوالدتي على هاتفها المحمول، لكنها لم تُجِب. رأيتُ مساعد ممرض كان فيما سبق المغني الرئيسي في إحدى فرق موسيقى البانك المحلية، وقف يكدس الصواني، ويصفر بجوار ملصقٍ يدرج أعراض متلازمة البكتريا آكلة اللحم.

خرجتُ في ضوء الشمس، وسرتُ عائدة طوال الطريق، بمحاذاة النهر، حتى شقة والدتي. حسناً، حاولتُ السير طوال الطريق بمحاذاة النهر، لكن أوقفني مجموعة من الشباب الذين يكدسون أكياس الرمل حول مبنى سكني. قالوا إن النهر يفيض مرة أخرى، وكان الأمر بمثابة احتفال بالنسبة إليهم: يوم إجازة من المدرسة.

لم تكن والدتي وخالتي تينا في الشقة، لكن كانت هناك رسالة تقول إنهما ذهبتا إلى إيست فيليدج لزيارة سنيورا بيرتلوتشي، التي كان اسمها الحقيقي أجاتا واركتين، لكن كان الجميع دوّمًا، باستثناء ألف، يشيرون إليها باسم السيدة إرنست واركتين. حتى إعلانات الجنازة في إيست فيليدج حذفت الاسم الأول للمرأة، للتأكد من أنها ستُعرف دوّمًا وإلى الأبد (وحتى آخر الدهر) بوصفها امرأة زوجها فقط. كانتا قد أخذتا شاحنة خالتي. بعد ذلك، تذكرتُ أنني تركت السيارة في ساحة الانتظار تحت الأرض، لذا سرتُ عائدة، ليس بمحاذاة النهر هذه المرة، بل عبر شوارع المدينة المتربة، متوجهة إلى المستشفى.

صعدتُ إلى الطابق السادس للاطمئنان على ألف مرة أخرى، لكن نيك كان هناك، وكان كلُّ منهما يحدق إلى عيني الآخر بعمقٍ، بينما كانت الستارة نصف مغلقة. تظاهرتُ جميع الممرضات بعدم ملاحظتي، أو انشغلن بالاتصال برقم ٩١١ لإخراجي من هناك، لذا غادرتُ مرة أخرى، ونزلتُ هذه المرة حتى ساحة الانتظار تحت الأرض، كي أجلب السيارة وأعود بها إلى شقة والدتي. كان جزءٌ مني يأمل أن تكون المرأة التي صرختُ فيها قد كتبتُ في الغبار على زجاج سيارتي الخلفي أنها سامحتني، لكنها لم تفعل.

لم تكن والدتي وخالتي قد عادتا من زيارة سنيورا بيرتلوتشي بعد. بحثتُ عن أشياء في جوجل، على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بوالدتي. كنت أحاول معرفة المزيد عن هذه الأدوية، سيكونال ونيمبوتال. مررتُ إلى الأسفل عبر قائمة عناوين الموضوعات التي عرضها جوجل بخصوص مساعدة الناس على الموت. انتابني القلق من أن تأخذني الشرطة للاستجواب، وتتبع تاريخ بحثي على هذا الكمبيوتر. واصلتُ البحث، وتوقفتُ للحظة عندما قرأت: «هل يمكن مساعدة شخص على الموت من خلال السحر؟». ثم شعرتُ بالرضا عن نفسي، وبالفخر، عندما لم أقرر عليه. كانت ألف ستهنّني هي الأخرى: «لنكن عقلايين، يا يولاندي!». رنَّ الهاتف. كانت والدتي، وكانت في المستشفى. سألتها عن حال ألف، فأخبرتني أنهم يجرون لها بعض فحوصات الدم. لماذا؟ لم تكن متأكدة. لكن كان هناك شيء آخر، إذ تعرّضت خالتي للإغماء.

سألته:

- في المستشفى؟

- حسنًا، لا، فقدت الوعي في إيست فيليدج أولاً، عند السيدة إرنست واركتين، لكنها استفاقت بسرعة، وجعلتها تستلقي فترة من الوقت، وتتناول بعض الطعام، وبدأت على ما يرام بعدها. لكن الآن...

كررتُ السؤال:

- هل أنتما في المستشفى؟

- أجل، توجَّهنا إلى هنا مباشرة لرؤية ألف، لكن في الطريق، عند ناصية ديكون، فقدت تينا الوعي في الشاحنة مرة أخرى.
- ماذا؟ هذا غريبٌ للغاية.

- أعرف هذا. لذا توجَّهتُ على الفور إلى قسم الطوارئ هنا، وقد استقبلوها الآن، كما وضعوا جبيرة على ذراعها، إذ كسرتة عندما فقدت الوعي.

- خالتي تينا؟

- أجل، إنها تعاني من ألمٍ من نوعٍ ما في صدرها، إنها في قسم أمراض القلب، في الطابق الخامس.

- حقًا؟

- أجل، لذا...

قلت:

- حسنًا.

أنهيتُ المكالمة، ثم عاودتُ الاتصال على الفور واعتذرتُ.

- قصدتُ أن أقول حسنًا، سأتي على الفور.

ضحكت والدتي، وضحكتُ أنا بعض الشيء أيضًا. كنت أعرف أنها تحبس دموعها. أخبرتها ثانية أنني سأتي على الفور، ثم همستُ هي شيئًا لم أتبيّنه، هل قالت وما هو الفرق؟ دخلت والدتي الطوارئ وخرجت منها ألف مرة بسبب مشاكل القلب والتنفس لديها، لكن كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها تينا قسم الطوارئ، على حد علمي.

في طريق العودة إلى المستشفى، فكرتُ في انفجاري بجنون في ساحة انتظار السيارات.

- إن ماضيَّ هو السبب.

قلتها بصوتٍ مرتفعٍ في السيارة، من دون توجيه الحديث إلى أحد بالتحديد. كنت قد توصّلت إلى ذلك، كما لو أنني سيجموند فرويد. رجال من الطائفة المينوناتية في الكنيسة، بياقات ضيقة تبرز منها أعناقهم، يتهمونني بأفعالٍ منافية للعقل، ويحكمون عليّ بالخلود في جحيمٍ ما تحت الأرض، في حين لم أقترف شيئًا. كنتُ طفلة بريئة، وألف طفلة بريئة، والدي طفل بريء. وابنة خالتي طفلة بريئة. لا يمكنك السير أمام الكنائس بتحدٍّ، ملوحًا بذراعيك في الهواء، وأنت تخيف الناس بالتهديدات والانتهاكات، لمجرد أن أسرتك تعرّضت للذبح في روسيا، وأُجبرت أنت على الركض والاختباء وسط كومة روث حينما كنت صغيرًا. إن ما تفعله على المنبر سيعد سلوكًا مجنونًا في الشارع. لا يمكنك أن تبث الرعب في الناس، وتجعلهم يشعرون بالوضاعة والبؤس، ثم تسميهم أشرارًا حينما يدمرون أنفسهم. لن تمشي في شارع أبدًا، وتشعر بالخفة تعريك، لن تحلق أبدًا.

تأتي النبوة القلبية من ألم التذكُّر. كان ذلك شيئاً قرأته في مكانٍ ما، ربما في الرسالة الإخبارية لمتحف المتجولين، التي كان كلُّ نعي فيها ينتهي بعبارة: «سراك في نهاية الطريق!». إذن هل ذكَّرت ألفريدا خالتي بانتحار ابنتها هي؟ بالعذاب السابق لذلك، والعجز والرعب اللذين أحسَّت بهما وهي تحاول منع ذلك من الحدوث؟ أم هل تأتي النبوة القلبية من انسداد الشرايين، والدهون المحيطة بالخصر، وعادة تدخين علبتين من السجائر يومياً، ومن الدهون غير المشبعة، وليس من ذكريات الألم، والرعب، والحزن الذي لا يُحتمل؟ لأن أحدهما قد يكون سبباً في حدوث الآخر. يجب أن تتضافر جهود أطباء القلب والأطباء النفسيين، كي ينشئوا مستشفيات جديدة. سأقدم عريضة، كما فعل والدي من أجل المكتبة، وكما فعلت ألف من أجل الاعتراف بستيبي راي فون بوصفه أفضلَ عازف جيتار في العالم. أنا متأكدة تماماً من أن القارات ستلتحم معاً مرة أخرى، قبل أن تتضافر جهود أطباء الأمراض القلبية والنفسية.

وُضعت بدلة خالتي الرياضية وحذاؤها الرياضي الصغير الأبيض داخل حقيبة بلاستيكية كُتِب عليها: «ملك مستشفى سانت أوديل». كانت هي ووالدتي تتبادلان المزاح بلغة البلاوتديتش، وتحفظ كلُّ منهما بخوفها لنفسها كالعادة. عندما ظهرتُ، قالتا:

– آه، جيد، أنتِ هنا. نحن نتجادل بخصوص معنى كلمة.

عندما سألتُ عمّاً تكون تلك الكلمة، شرعنا في الضحك مرة أخرى. كانت هناك أشياء مكتوبة بالفعل على جبيرة تينا المصنوعة من الجبس: أرقام هواتف، وآية من الكتاب المقدس. أتت الممرضة وأجرت

بعض الفحوص لخالتي، تطلّبت إبرًا وأنايب. سألتُ عمّا إذا كانت قد تعرّضت لأزمة قلبية، فأجابت الممرضة بالنفي، قائلة إنه قصورٌ من نوع ما في الشرايين التاجية. عرضت علينا رسمًا تخطيطيًا لشرايين خالتي، وبدأ أن هناك انسدادًا شديدًا في اثنين منهما. قالت خالتي إنها بحاجة شديدة إلى قهوة من ستاربكس في الطابق السفلي، فقالت الممرضة:

- حسنًا، ربما بعد قليل. ليس الآن.

أخبرتُ خالتي ووالدتي أنني سأذهب لرؤية ألف، ثم أعود إليهما ومعي قهوة من ستاربكس للجميع. أثبتنا على خطتي بجذلٍ، بدرجة أشد من اللازم، كما لو أنني اكتشفتُ للتوّ كيفية اقتحام الباستيل. توجهتُ إلى الطابق السادس كي أبلغ ألف الأخبار، وبأن خالتنا تينا تعاني مشاكل بالشرايين التاجية في الطابق الواقع أسفل منها. اتسعت عينا ألف عن آخرهما، ونقرتُ على حلقها.

قلت:

- ألا تستطيعين الحديث؟

غلبني الإحساس بالانزعاج، وأثارني الشعور بالغضب الذي لم يكن في محله، ولم أنجح في إخفاء ذلك جيدًا. هزّت رأسها. سألتها أين نيك، فهزّت رأسها مرة أخرى.

خرجتُ لأسأل الممرضة لم لا تستطيع الحديث، فقالت:

- لقد حدثت بعض المضاعفات، لكننا نأمل أن تستعيد صوتها غدًا،

أو بعد غدٍ.

قلت:

- هل لهذا علاقة بماء الجافيل؟

أشاحت الممرضة بنظرها، نحو حافظة أوراقها، إذ لم تكن تريدني أن أقول ماء الجافيل. قالت:

- لسنا متأكدين.

قلت:

- لكن ماذا يمكن أن يكون سوى ذلك؟ خيارًا من جانبها؟

قالت:

- سيتعين عليكِ التحدث إلى الطبيب.

قلت:

- يسعدني ذلك، لكن أعتقد أنه استصدر ضدي أمر تقييد.

رفضت الممرضة النظر إليّ. كنّا أسرة فاسدة ومختلة.

عدتُ إلى غرفة ألف، ووقفتُ عند قدم فراشها. شعرتُ للحظة كما لو أنني جلادها الذي جاء ليقدم إليها وجبة أخيرة وسيجارة.

- لقد بات العالم مظلمًا بعض الشيء، أليس كذلك؟

رمشتُ بعينيها. قلت:

- هل تتفقين في الرأي؟

رمشتُ مرة أخرى.

جلستُ هناك لبعض الوقت، أتأمل مخطوطتي. قرأتُ لنفسني صفحة، لكنها لم تسعدني، ثم وضعتها مقلوبة فوق بطن ألف المسطحة. تلى ذلك صفحة أخرى، ثم أخرى. واصلتُ القراءة، ووضع الصفحات برفق فوق جسد شقيقتي، بينما استلقت هي بهدوءٍ شديدٍ، وهي تتنفس بالكاد، كي

لا يسقطوا. أخيرًا، أخبرتها أنني سأعود إلى الطابق الخامس للاطمئنان على تينا، ولأجلب لهما القهوة من ستاربكس. أو مأت برأسها، وأدارت عينها في محجريهما بعض الشيء لأنني ذكرت ستاربكس. قلت إن هذا فقط هو المتاح هنا، وجمعتُ صفحاتي من على بطنها. ابتسمتُ ألف ولمستُ يدي، وظلّت ممسكة بها لبضع ثوانٍ. أدركتُ أنني نسيت الكريم المرطب. كنت أعلم أنها تريدني أن أخبر خالتنا أنها تحبها، وأنها تأمل أن تصير بخير. قلت لألف إنني سأخبر خالتنا بهذه الأشياء، فأومأت برأسها. أردتُ أن أقول: «تخيّلني لو فقدت والدتنا شقيقتها، سيكون ذلك مروّعًا، أليس كذلك؟». لكن الأمر لم يكن خطيرًا إلى هذا الحد، إذ كان قصورًا في الشرايين فحسب. كما لم تتبقّ لديّ أي طاقة، بعد كل ما وجّهته من انتقاداتٍ لأطباء علم النفس، والقلب، ومبشري الطائفة المينوناتية. في طريقي إلى ستاربكس، تلقيتُ مكالمة من فينبار بينما أنا في الردهة. سألني:

– ما الذي تحدثين عنه، بحق الجحيم؟ هل تريدين قتل شقيقتك؟ أنا محام، بحق السماء، لا تخبريني بمثل هذه الأشياء.
قلت:

– لا، لا أريد ذلك، لكنني أتساءل عمّا إذا كان ينبغي لي هذا.
قال:

– يولاندي، أنت مجهدة ومرهقة، لا يمكنكِ قتل شقيقتك، ولا يمكنكِ فعل أي شيء من أجلها، سوى ما تفعليه الآن.
أخبرته أنني لا أفعل لها أي شيء الآن، فقال إنني موجودة بجانبها، وهذا هو ما يهم. ثم سألني عمّا إذا كان هناك شيء يمكنه القيام به من

أجلي. طلبتُ منه أن يمر بشقتي في توروبنتو، ليرى ما إذا كانت هناك أي آثار حياة بادية من نورا وويل، وربما يمكنه الطرق على الباب، ليسألهما عما إذا كان بخير، ويعرف لماذا لا ترد نورا على هاتفها، على الرغم من أنني كنت أعرف السبب بالفعل. كان هذا لأنها سممت ويل، وسحبت جثته داخل خزانة، وشرعت تمارس الجنس من دون حماية في جميع أرجاء المنزل، مع صديقها الراقص السويدي البالغ من العمر خمسة عشر عامًا، ولم يكن لديها الوقت ولا الرغبة في التحدث إلى والدتها العجوز الحزينة المستنكرة، في خضم كل ذلك. قال:

- اعتبري أنني فعلت ذلك.

كما وعد بالاتصال في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم.

لدهشتي، قابلتُ أسرة أعرفها من إيست فيليدج في غرفة الانتظار بجناح أمراض القلب، حيث كانوا يشاهدون التلفزيون. سألوني عما أفعله هناك، فأخبرتهم أن خالتي مريضة هنا، قالوا:

- أتقصدين تينا لوين؟ لكن ألا تعيش في فانكوفر؟

قلت:

- أجل، لقد جاءت للزيارة، إنها هنا لأجل القصور، القصور التاجي.

لم يضحكوا.

دردشنا في بعض المواضيع الخفيفة، وأخبروني أن شقيق المرأة سيجري جراحة في القلب لاستبدال صمام. كانت عملية بسيطة، وسيتمكن من العودة إلى ممارسة عاداته في الجري لثلاثة أميال في غضون أسبوع من خروجه من المستشفى.

كانت لديهم ثقة كبيرة بالأطباء، كما أنهم يؤمنون على الأرجح أيضًا برقصات المطر، واسترضاء الآلهة بالأضاحي البشرية. كان جراح شقيقهم هو الأفضل في المدينة، ويكونون له أشدَّ تقديرٍ. أخبروني أن ابنهم الأكبر، وهو رجل في مثل عمري، قد حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة أوكسفورد، قلت:

- مدهش، رائع.

كنت أتذكر ابنهم ذاك، جيرهارد، الذي ضايقني بلا هوادة عندما بللت سروالي في الصف الأول الابتدائي، وأطلق علينا أنا وجولي لقب «شاذتان» لأننا كنّا نمسك بأيدي بعضنا في وقت الفسحة، كما رسم الصليب المعقوف على بنطاله الجينز ودفاتره. قالت والدته:

- وها هو في لندن الآن، محلل سياسي. إنه يتلقَّى أجرًا مقابل التفكير في الأساس، تخيلي هذا! يبدو أنه في كل مرة يلقي فيها محاضرة، يتلقَّى عرضًا بمنحة دراسية في جامعة أخرى في اليوم التالي مباشرة.

ضحكتُ وهي تتابع قائلة:

- يبدو الأمر مغريًا، لكن بالطبع عليه التفكير في زوجته وأطفاله. إذ إن لديها مسارًا مهنيًا حافلًا هي الأخرى، كأمينة لمتحف تيت مودرن، وسفيرة في رواندا. كما أن الأطفال في مدارس جيدة - ويحتكون بأفرادٍ ينتمون إلى الأسرة المالكة - لهذا لن يرغبوا في الرحيل.

كان كل ما تمكنتُ من قوله هو:

- آه...

- أتدري، لقد شاهد شقيقتك ألفريدا تعزف مع أوركسترا لندن الفيلهارمونية، وقال إنه أروع شيء سمعه على الإطلاق. من حسن الحظ

أن الكنيسة سمحت أخيراً بدخول الآلات الموسيقية إلى مجتمعنا. لطالما كنّا ندعم عزفها على البيانو، بالمناسبة. كنّا نلتقي أنا ووالدتك بالمصادفة في مكتب البريد أحياناً، وتبادل الضحك بخصوص البيانو المخفي، وقد أخبرتها دوماً أن تواصل ذلك، وتستمر في دفع تكاليف تلك الدروس، لأن ألف لديها موهبة حقيقية. سيستحسن الرب ذلك، حتى لو لم يفعل كبار رجال الطائفة. أعتقد أنني ساهمتُ في شهرتها، بطريقة ما! أظن أن جير هارد كان معجباً بها، أليس كذلك يا عزيزي؟

كانت توجه الحديث إلى زوجها.

قال:

- هممم... ماذا؟

أدارت عينها في محجريهما، وسألتنني:

- وما الذي تفعلينه أنتِ؟

قلت:

- أوه، لا أعرف حقاً، لا أفعل الكثير، أتعلّم كيف أخسر بطيب خاطر. حينها، دخلت والدتي الغرفة، وهي بادية الإنهاك لأقصى حدّ يمكن أن يكون عليه الإنسان، ويظل على قيد الحياة. رحبتُ بأولئك الناس بلطفٍ وتحفظ، وتحدثوا بلغة البلاوتديتش لبعض الوقت. أبدوا أسفهم بشأن تينا، فقالت والدتي:

- شكراً، ستكون بخير.

ثم ألقُت بتعبير بلغة البلاوتديتش، أو مأت له الأسرة القادمة من إيست فيليدج بإعجابٍ، قبل أن تواصل الحديث:

- لا يعتقدون أنها بحاجة إلى عملية جراحية، ربما مجرد نوع محدد من أدوية القلب.

بعد ذلك، دخل نيك الغرفة، إذ كان قد سمع للتو عن تينا. كان يرتدي قميصًا أزرق اللون من مزيج من القطن والبوليستر، وتحت ذراعيه بقعٌ ضخمة من العرق. تَلَطَّخت ذقنه ببقعٍ من صلصة الطماطم، أو الدم، وكان نصف ياقته مقلوبًا إلى الأعلى، كما لو أنه طفلٌ أصرَّ على الاستعداد للمدرسة بمفرده.

عانق كلاً منّا، وقال:

- يا إلهي! كيف حالها؟

أعادت والدتي الشرح، فقال:

- رباه، أنا آسف حقًا.

قالت والدتي:

- لا تزال ألف في وحدة العناية المركزة.

قال نيك:

- أجل، كنتُ هناك للتو.

قالت أسرة إيست فيليدج:

- مهلاً، ألفريدا في وحدة العناية المركزة؟ ماذا حدث لها؟

قالت والدتي:

- لقد قطعت معصميهما، وتناولت السم.

حدّثنا أنا ونيك إلى والدتي، التي واصلت قائمة:

- لقد انغلق حلقها، لكنها لم تمت، ليس هذه المرة. ستكون بخير

أيضاً، على الأرجح. سينجو الجميع في نهاية المطاف. وما الذي أتى بكم هنا، هذا المساء؟

سمحنا أنا ونيك باستمرار هذا العرض الكارثي لدقيقة أو اثنتين، قبل أن نضع حدًا له.

- هيّا، يا أمي، لنأخذكِ إلى المنزل، أنتِ بحاجة إلى الراحة.
ما إن خرجت الكلمات من فمي، حتى علمتُ أنها ستقاوم، كانت في حالة من الثورة، وعلى استعدادٍ للقتال، والقضاء على أي جذوة أملٍ أو لطفٍ، قالت:

- أنا لستُ متعبة، لكن ربما كنتِ أنتِ بحاجة إلى الراحة.
كانت إما نزقة، وإما تقدّم تحديًا رائعًا وقديرًا.
قال نيك إنه سيذهب ليلقي التحية على تينا، وبعد ذلك سيجلس مع ألف لمزيدٍ من الوقت، وربما يقرأ لها، أو يعزف لها على الجيتار بهدوءٍ، ثم قال:

- هل هناك أي أخبار من الطبيب؟
قالت والدتي:
- لا أعرف، كنت سأتصل به، لكنني لا أعتقد أن هاتفه المحمول يتلقى إشارة في نادي جولف كواري أوكس.
قلت:

- إن حلقها ليس على ما يرام.
قال نيك:

- أجل، أعرف هذا. ما الذي يعنيه ذلك، في اعتقادك؟

قلت:

- لا أدري تحديدًا، لكن ربما كانت هناك عدوى الآن، تجعل الحديث مؤلماً بالنسبة إليها.

لَوَحْنَا بأيدينا ونحن نحاول التفكير في كل الاحتمالات. قالت والدتي:

- علينا الاتصال بأبناء تينا.

قلت لها:

- أجل، سنذهب لتناول العشاء أولاً، ثم نعود إلى المنزل ونتصل بهم. إن حالتها مستقرة، أليس كذلك؟ أليس هذا ما قالت الممرضات؟ قالت والدتي:

- بلى، سيقونها الليلة فقط تحت الملاحظة.

قال نيك إنه سيتصل بي لاحقًا إذا جدَّت أي أخبار بخصوص ألف. جذبْتُ كم والدتي كطفلة في الرابعة من العمر، وقلت:

- هيّا، دعينا نخرج من هنا.

قالت:

- أؤيد هذا الرأي.

لَوَحْتُ مودعة تلك الأسرة الناجحة، وطلبتُ منهم إبلاغ تحياتي لابنهم. نادوا خلف والدتي، متمنين الخير لتينا وألف.

لم تسمع حقًا ما قالوه، فأجابتهم قائلة:

- أراكم لاحقًا!

كانت نورا قد أرسلت إليّ رسالة نصية من تورونتو: «طَرَقَ رجلٌ يرتدي بدلة الباب، وسألني عمّا إذا كنتُ بخيرٍ، وقال إنه صديق لك. هل أنتِ من شهود يهوه الآن؟ كيف حال ألف؟».

سلكنّا شارع كرويدون، متجهين إلى شقة والدتي، سألتني:

- كيف حالك؟

قلت:

- بخير. أنا بخير.

أردتُ إخبارها أنني أشعر أنني أموت من شدة الغضب، وأني أشعر بالذنب حيال كل شيء، وأني كنت أغني عندما أستيظ كل صباح إبان طفولتي، وأني لم أكن أطيع الانتظار حتى أندفع من الفراش، خارجة من المنزل، إلى المملكة السحرية التي كانت عالمي، وأن الغبار الظاهر تحت أشعة الشمس كان يمنحني بهجة حقيقية، وأن دراجتي ذات اللون الذهبي اللامع بمقعدها النحيف الذي له مسند ظهر مرتفع، كانت تخطف أنفاسي نظرًا إلى بهائنها، وإلى كونها ملكي أنا، وأنه لم تكن هناك في العالم روحٌ أكثر تحررًا مني أنا عندما كنت في التاسعة من عمري، وأني أستيظ الآن كل صباح لأذكر نفسي بأن السيطرة مجرد وهم، وأخذ أنفاسًا عميقة في محاولة لدرء نوبات الهلع، وآمل ألا تكون يدي قد نجحتا في خنقي خلال نومي. أرسلت إليّ نورا رسالة نصية: «لدينا الآن نملٌ من فصيلة النمل النجار». أجبته برسالة نصية: «هذا جيد، دعيهم يعملون في إصلاح الباب المكسور».

ربت والدتي على ساقي قائلة:

- لا ترسلي رسائل نصية بينما أنت تقودين، يا عزيزتي.
ظلمتُ صامتة. قالت شيئاً ما أشبه بعبارة «هذا أيضاً سيمر»، فأحسستُ
بالرغبة في الانحراف بالسيارة ناحية المرور القادم من الاتجاه المعاكس،
سألتها:

- ماذا ستقولين بعد ذلك؟ ما لا يقتلك يجعلك أقوى؟

ضحكتُ قائلة:

- حسناً، أعرف أنك تعارضين الأفكار المبتذلة أيديولوجياً، لكن هذا
التعبير مناسبٌ، أليس كذلك؟
قلت:

- نعم. سيكون كل شيء على ما يرام في النهاية، وإذا لم يكن على ما
يرام، فهي ليست النهاية إذن.
سألتنِي:

- هل هذه واحدة من تلك الأفكار المبتذلة؟
- أجل، إنها واحدة منها، لكن لا أعتقد أنني قلتها بشكلٍ صحيح. وما
الذي تعنيه بأنني أعارضها أيديولوجياً؟ إن الالتزام بأصالة التفكير ليس
أيديولوجية.

قالت:

- حسناً، لكن الإيمان بالأصالة يعتبر أيديولوجية، أليس كذلك؟
- أعتقد هذا. هل تعلمين أن الناس يصيرون أسعد عندما يتوقفون عن
محاولاتهم كي يصبحوا سعداء؟ هذه دراسة أُجريت بالفعل.
قالت والدتي:

- حسنًا، كان بوسعي أن أخبرك بذلك بنفسي.
أخذ هاتفني يصدر أزيزًا: رسائل من رجال يرغبون في الطلاق، وأطفال يريدون مني التفاوضي عن ممارسة القصر للجنس، وقتل الحشرات من على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر.

سألتنني والدتي:

- إذن ما الذي سيحدث لروندا فتاة الروديو هذه المرة؟ هل ما زالت...
كم كان عمرها؟ أربعة عشر عامًا؟
- لا، هذا كتابي التالي، كتابي الحقيقي.
- أوه، صحيح! بالطبع. ذكريني عمًا يدور مرة أخرى؟
قلت:

- أوه، لا أدري. لا يتعين عليك بذل الجهد لإظهار اهتمام زائف؛ أنت مرهقة.

قالت:

- لا، يا يولي، أريد أن أعرف بالفعل، على الأقل سيساعدني ذلك على صرف الأفكار عن ذهني لدقيقة أو دقيقتين.
- إنها عن مدير مرفأ.

قالت والدتي:

- ماذا؟ عن مدير ماذا؟ ظننتُ أنها عن الشقيقات.
- أجل، عن هذا أيضًا، لكنها في البداية عن مدير مرفأ. إنه الرجل، أو المرأة على ما أعتقد - لكنه رجلٌ في حكايتي - الذي يرشد السفن الكبيرة للخروج من الميناء، ثم ينزل على سلم صغير من الحبال عندما تخرج

السفينة بأمانٍ إلى عرض البحر، ويستقل قاربًا صغيرًا مربوطًا بجوار السفينة كي يعود أدراجه. لكن في حكايتي هذه، يصبح الطقس سيئًا بدرجة تمنعه من الهبوط إلى القارب الصغير، كما يمنعه قبطان السفينة من ذلك، لأن السلم ضعيفٌ للغاية، والأمر برمته تحفُّه المخاطر. كانوا قد أخطأوا تقدير العاصفة، واعتقدوا أنها لا تزال على بُعد يومين، لذا يتعيَّن على مدير المرفأ مرافقة السفينة حتى روتردام، التي هي أول ميناء سيتوقفون فيه.

قالت والدتي:

- أوه، هذا مثيرٌ.

قلت:

- حسنًا، إنه ليس مثيرًا. أردتُ فقط تأليف كتاب لا ينتهي بمسابقة روديو، أتفهمين؟

- أوه، لكنه مثير للغاية.

- حسنًا، ليس هذه المرة يا أمي، لقد بدأتُ بكل الإثارة مقدمًا.

- إذن ما الذي يحدث ما أن يغادر الميناء؟

- يفوته اجتماع حاسم خطط له لذلك المساء، وتضطرب كل الأمور.

لكن ألا يمكنه الاتصال بمن كان يفترض أن يقابله، ويحدد موعدًا

آخر؟

- حسنًا، لست متأكدة، لكن أجل، صحيح، هذه مشكلة مصداقية

أواجهها، لأنه من المفترض أن يكون قادرًا على هذا، لكن حينها لن تكون ثمة أزمة، ولا وجود للكتاب.

قالت والدتي:

- صحيح. ربما نسي هاتفه المحمول؟
- حسناً، لا، لأنه سيكون هناك طاقمٌ كاملٌ على متن السفينة،
وتكنولوجيا اتصالات وما إلى ذلك، يمكنه استغلالها.

قالت والدتي:

- حسناً، ربما يتصل بالشخص الذي يفترض أن يلتقيه، لكن ذلك
الشخص لا يتلقّى الرسالة في الوقت المناسب؟ يفوت كلُّ منهما الحديث
مع الآخر بطريقة ما، أنفهمين؟

- بلى، هذا منطقي أكثر على ما أظن. لكن تعجبني فحسب فكرة عدم
قدرة هذا الرجل على النزول من السفينة، وكونه غير مستعد على الإطلاق
لرحلة إلى روتردام.

قالت والدتي:

- صحيح، هممم. هل يلي هذا الجزء الخاص بالشقيقات؟ هل
يلتقيهن على السفينة؟
قلت:

- لا، إن الجزء المتعلّق بالشقيقات يدور في خياله، بينما هو جالسٌ
على سطح السفينة يحدّق إلى البحر.

- أوه! حسناً... ذكريات عن الشقيقات.

- نوعاً ما، أجل. تراوده أفكار فحسب... هل سمعت ذلك الصوت؟

- ماذا؟

- تلك القعقة. انتظري.

أوقفتُ السيارة في ساحة انتظار متجرٍ لبيع الأيس كريم اسمه

«ماربل سلاب»، وأطفأت المحرك. ترجّلتُ من السيارة ودرتُ حولها بترددٍ، كما لو أنني أطلع أحدث تركيبات داميان هيرست الفنية. ركبْتُ السيارة ثانية، وحاولتُ تشغيلها من جديد. لم يحدث شيء، لم يدور المحرك، وقالت والدتي:

- هذا غريب.

قلت:

- لا تقلقي.

فكرتُ في أناطول فرانس وهو يخبر حبيبته بغضبٍ أنه سيعضُّ قبضتيه حتى تدمي. حاولتُ مرة ثانية، وثالثة، ولم يحدث شيء.

قلت:

- السيارة معطّلة.

هزّت والدتي رأسها وابتسمت، ثم شرعتُ في الضحك. نظرتُ إليها، ثم تناولتُ يدها ووضعتُ في كفّها المفتاح عديم الفائدة. ابتسمت، واستمرتُ هي في الضحك لفترة من الوقت.

ارتجّ جسدها من الضحك، وقالت:

- يا إلهي، هذا مضحك حقًا.

اقترحتُ النزول من السيارة، والمشي حتى «كريستينا»، المطعم اليوناني المجاور لـ«فريش». قلت:

- هذه فكرة جيدة، خاصة فيما يتعلق بالتمشية.

في المطعم، أجرينا محادثة متفائلة على نحوٍ مثيرٍ للدهشة، حول الرجال، والجنس، والشعور بالذنب، والأطفال. هل هناك شيء سوى

ذلك؟ شربنا زجاجة كاملة من النبيذ الأحمر، كما تحدثنا أيضًا عن نيك،
سألت والدتي:

– هل تعتقدين أنه بخير؟

قالت:

– حسنًا، هذا يعتمد على ما تعنيه بكلمة «خير». إنه متماسك.

قلت:

– أعتقد هذا، لكنني لا أعرف كيف فحسب.

قالت والدتي:

– كيف؟ كيف حالكِ أنتِ؟

كررت القول:

– أعتقد هذا. كيف حالكِ أنتِ؟

ضحكنا على أنفسنا، ثم توقفنا. النَّفس، والطاقة، والعواطف، وضبط
النَّفس، كانت كلها الآن أشياء أؤمن من أن نبُدّها. رنَّ هاتفني المحمول،
فأجابت والدتي، ورددتُ أسئلة من دون إجابات.

– كيف يمكننا مساعدتك؟

(ربما كانت ثملة بعض الشيء). كان جيسون، الميكانيكي الذي
تتعامل معه في «ريفري سيتي أوتو». قال إنه سيسحب السيارة إلى المرآب،
لاكتشاف علّتها.

سرنا عائدتين إلى شقة والدتي، يدًا بيد. علمتني كيفية ضبط خطواتنا
بالتزامن، بطريقة عسكرية. قالت:

– كما لو أنها وثبات صغيرة، أرايت؟

أرنتني الطريقة، ثم قالت:

- بعد ذلك، عندما لا تعود خطواتنا متزامنة، افعلي ذلك ثانية.
جعلتني أجرب. عندما عدنا إلى شقتها، تحدثت مع بعض الأشخاص
عبر الهاتف بخصوص ألف وتينا. (أجل، إنهما في نفس المستشفى. نفس
المستشفى، نعم)، في حين بحثت أنا عن النيمبوتال على الإنترنت. إذا
قام المرء بمحو تاريخ بحثه على الإنترنت، فهل يعني ذلك أن الشرطة لن
تتمكن من رؤيته؟

عاود جيسون الاتصال بي على هاتفي المحمول، وقال إن ناقل الحركة
تألف تمامًا، ولا جدوى من إنقاذ السيارة، إذ إنها لا تستحق. اقترح السماح
لمنظمة تهتم بالمراهقين «المعرضين للخطر» بأخذ السيارة، لاستخدامها
كفأر تجارب في فصل بإحدى المدارس التي تحاول مساعدتهم على
اختيار مهنة أخرى، خلاف كونهم مجرمين صغار. سيدفعون خمسين
دولارًا مقابل السيارة، ويسحبونها بعيدًا. طلبتُ منه الانتظار للحظة،
وسألتُ والدتي عما إذا كانت على استعداد لتوديع سيارتها إلى الأبد.
كانت على الهاتف، وأومات برأسها وهي تهز كتفها بمعنى أجل، لا يهم.
قلت لجيسون:

- حسنًا، دعهم يحتفظون بالمال.

طلب مني الحضور كي آخذ الأشياء التي بالسيارة، قبل أن يتصل
بمنظمة المراهقين.

جلستُ على الشرفة مع جهاز الكمبيوتر المحمول، وقرأتُ إن
بينتوباريتال هو نيمبوتال، وإن الأسماء التجارية هي سيدال-فيت،

وسيدالفورت، وباريثال. تُستخدم لقتل الحيوانات، ويتعيّن على المرء الذهاب إلى المكسيك لشرائها، لكن ليس من البلدات الحدودية مثل تيخوانا، لأن الشرطة باتت تتشكك في «سياح الموت» أولئك، كما يُطلق عليهم. عليك التوجّه إلى أعماق المكسيك، في الداخل، إلى الأماكن البعيدة. بعد ذلك، اذهب إلى أقرب متجرٍ للحيوانات الأليفة، وادخل واطلبه. ظننتُ أنه من المضحك أن بعض الأشخاص الذين كتبوا عن تجاربهم لشراء الدواء كانوا يحذرون القراء كي يتجنّبوا الشوارع الخلفية الخطرة. تساءلتُ عن أسوأ ما يمكن حدوثه، هل سيتعرض المرء للقتل؟ يبلغ ثمن جرعة من النيمبوتال نحو ثلاثين دولارًا، وستحتاج إلى زجاجتين سعة كل منهما مائة مليلتر، لضمان السرعة والموت بكل تأكيد. كما يجب تناول بعض الحبوب المضادة للغثيان مسبقًا، حبوب «الدوار الحركة»، كي لا تتقيأ عند تناول النيمبوتال، إذ إنها مضادة للقيء. يجب تناول قرص واحد كل ساعة، لمدة اثنتي عشرة ساعة، قبل تناول النيمبوتال. تُباع من دون وصفة طبية، ولها أسماء تجارية مثل كومبازين، أو درامامين. بعد تناول النيمبوتال، ستموت في غضون نصف ساعة، ما لم تكن ضخّم الجثة، إذ قد يستغرق الأمر في هذه الحالة من أربعين دقيقة إلى ساعة. لن يكون الأمر مؤلّمًا، بل ستنام بسرعة، ولن يكون هناك وقتٌ لإلقاء الخطب، أو لإنهاء مشروبك.

لم تكن المشكلة، كما قرأتُ على الإنترنت، هي الحصول على الدواء، بل في العودة به عبر الحدود. لذا فكرتُ أن عليّ نقل ألف إلى المكسيك، بدلًا من جلب الدواء إلى ألف. كما أن مجرد فتح الزجاجاة لألف سيجعلني مدانة بالقتل غير العمد. قال بعض الكتّاب المجهولين إن

حتى تقديم الاقتراح للشخص الذي يرغب في الموت -حسناً، ما رأيك أن نجلب تلك الزجاجة الآن؟- قد يجعلك شريكاً في جريمة القتل غير العمد.

أغلقْتُ الكمبيوتر، وأقفلْتُ عيني. سمعتُ صافرات سيارات الشرطة على جسر أوزبورن، لكنني تخيلْتُ شاطئاً، وكوخاً مسقوفاً بالقش، وسعف النخيل يتماوج بلطفٍ في النسيم الكاريبي، وشقيقتي تنال أمنيتهَا أخيراً، بينما نيك، ووالدتي، (ووالدي أيضاً، على الرغم من كونه ميتاً، لأن هذا خيالي أنا، وبوسعي أن أجعل فيه أمواتاً إذا شئتُ)، وأنا، وولداي، جميعاً نعانقها، ونلمسها، ونبتسم، ونقبِّلها، ونودِّعها قائلين: «ألفي، لقد أحدثتِ فرقاً مذهلاً في حياتنا، وملائتنا بالبهجة، وحافظتِ على أسرارنا، وجعلتِنا نضحك بشدة. سنفتقدكِ للغاية، الوداع، تشاو!». سنقول ذلك معاً، كما يجب، بينما تطفو ألف في سلامٍ على سحابة من الحب الأبدي.

اتصلتُ بنيك، لكنني فقدتُ شجاعتي تماماً عندما رد. كنتُ أخطط لسؤاله عمّا إذا كان مهتماً بالقيام برحلة إلى المكسيك، حيث نقتل زوجته. بدلاً من ذلك، سألتُه عمّا إذا كان بإمكاننا أنا ووالدتي استعارة سيارته لبضعة أيام، لأن سيارة والدتي تعطلت تماماً. قال إن بوسعها الاحتفاظ بها طالما كانت بحاجة إلى الذهاب إلى المستشفى وما إلى ذلك، لأنه يفضل ركوب دراجته. سألتُه عمّا إذا كان لا يزال بالمستشفى، فردَّ بالإيجاب. قلت:

- وما الأخبار؟

قال:

- كما هي. لقد تناولتُ بعض العشاء، وتحسَّن حلقها. أما تينا، فنائمة في عنبرها. كل شيء هادئ على الجبهة الغربية.
سألني عمّا إذا كنتُ بخيرٍ، فاختنقتُ فجأةً، قال:

- يولي؟

قلت:

- أنا بخيرٍ، أسفة لذلك.

ثم أخبرني أنه ينتوي الذهاب إلى إسبانيا في نهاية المطاف، على الرغم من أنني لم أكن أعلم أنه يخطط لزيارة إسبانيا من الأساس. قال إنه لم يكن يدري ما إذا كان عليه الإلغاء أم لا، لكنه الآن سيذهب من دون شك - غداً.

- غداً؟ هذا قريبٌ للغاية.

قال:

- أعلم ذلك. قالت ألف إن عليّ الذهاب. قالت إنني يجب أن أذهب. فقط من أجل... أنت تعلمين.

- أجل، لا، يتعيّن عليك هذا...

- كما لا يمكنني استرداد قيمة التذكرة الآن. سأذهب برفقة والدي.
كما تعلمين، ظلّت هذه الفكرة تراوده لسنواتٍ، للذهاب إلى...

- كم ستمكث؟

- عشرة أيام.

- حسناً، رائع...

- أعرف أن التوقيت غريبٌ، لكن هذا حلمه. كما أنها لن تعود إلى المنزل قبل ذلك. كان الطبيب واضحًا بشأن تلك النقطة.

- حسنًا...

- لكنك تتوین البقاء في المدينة لهذه الفترة على الأقل، أليس كذلك يا يولي؟ أعني، كي تكوني هنا...

- بلى، سأكون موجودة. لا، بالقطع عليك الذهاب. الرب يعلم أنك بحاجة إلى الراحة.

- وأنت أيضًا كذلك. الجميع بحاجة إلى الراحة، لكن...

- لا، فلتذهب! بالقطع! بكل تأكيد.

- لكن يبدو لي أنه من العبث أن أتجول في برشلونة لالتقاط صور لمنشآت جاودي، بينما لا تزال ألف في المستشفى.

- أعرف هذا، لكن كل شيء غريبٌ الآن. وإذا لم تأخذ استراحة قريبًا، فسوف تنهار يا صديقي.

قال:

- حسنًا، أعتقد ذلك.

قلت:

- أعني أن الأمر ليس متعلقًا بك فقط، بل بنا جميعًا. يبدو هذا أشبه بالطريقة التي يُقال لنا بها إن علينا ارتداء قناع الأكسجين أولاً على متن الطائرة، ثم نساعد أطفالنا على ارتدائه.

قال:

- أعتقد هذا.

- عليك الذهاب لنفس السبب الذي أجبرنا من أجله أُمي على الذهاب في تلك الرحلة البحرية. يجب أن نتبادل أخذ الراحة بشكلٍ دوري، وإلا سيتهي بنا المطاف جميعاً في جناح الأمراض النفسية، في الفراش مع ألف.

قال نيك:

- أود ذلك. هل رأيتِ الصحيفة اليوم؟ كان هناك شيءٌ ما في قسم الفنون، بشأن تخلي ألف عن القيام بالجولة نظراً لشعورها بالإرهاق، كما ذكروا أن أسرتها طلبت احترام خصوصيتها.

قلت:

- هل فعلنا؟ هل هناك من يتحدث معهم؟

قال نيك:

- الصحافة؟ لا، ليس على حد علمي. كلوديو هو الوحيد الذي يتعامل معهم. هو من أخبرهم أنها تعاني من الإرهاق، في بيانه الصحفي.

- كان عليه إخبارهم بشيء ما. نيك، يجب أن تذهب بالفعل. حقاً، يتعيّن عليك الذهاب.

- لكن ذلك الرجل، دانيسلوف، أو أيّ ما كان اسمه، عازف الأوبوا السلوفاكي ذاك الذي يعيش في وينيبيج... لقد ذهب إلى المستشفى بالأمس لزيارتها.

قلت:

- أوه، إذن سيعرف الجميع الآن. هل تحدّث إليها؟

قال نيك:

- لا يهم حقًا، أعني تظل الحقيقة هي الحقيقة، لكنني فقط... كنت أتمنى حمايتها.

قلت:

- لقد كنت بالفعل، لقد كنت تحميها، لطالما قمت على حمايتها. أخذ يبكي الآن. بكى كما يبكي الرجال، وهو يحاول كتم كل شيء داخله.

قلت وأنا أحاول ألا أبكي أنا الأخرى:

- لا بأس. علينا أن نتناوب في الانهيار، وإلا سنفقد كل شيء. لا بأس.

ضغطتُ على عيني بقبضتي.

قال:

- يمكن أن آخذ راحة في أي مكان. لا أكرث بشأن إسبانيا. يمكنني الذهاب إلى موتانا الآن، أو أي مكانٍ آخر. أتمنى أحيانًا لو عدت لأصبح في الرابعة من عمري مرة أخرى، في بريستول، أسير في الشارع الرئيسي مع «الضتي».

كانت هذه طريقة نطق نيك لكلمة «والدتي». عندما قال ذلك، أحسستُ بالضياح أنا أيضًا. أخيرًا، أنهينا المكالمة فحسب من دون أن نقول وداعًا.



اقترح جيسون أن آتي إلى المرآب في ذلك المساء، قبل أن يغلق في التاسعة مساءً. لوحتُ مودعة والدتي التي كانت لا تزال على الهاتف، فألقتُ لي بقبلة. مشيتُ حتى المرآب الواقع على مبعدة ثلاثة مربعات سكنية، ووجدتُ رجلًا يحدق إلى سيارة والدتي. كل ما استطعت رؤيته هو ظهره المنحني، وبعض الشعر البني الخفيف. قلتُ «مرحبًا»، فوقف. كان يرتدي قميصًا مطبوعًا على مقدمته صورة نسخة قديمة من رواية جاك كيرواك، «الخبايا». ثم أدركتُ أنه جيسون الذي عرفته خلال السنة الدراسية الأولى في جامعة مانيتوبا، الرجل الذي شاركني محاضرات الأدب الكندي، والذي كان يستعير ما أدونّه من ملاحظات خلال المحاضرات طوال الوقت، ويرتدي سروالاً أصفر اللون من القطيفة المضلعة، ويعطيني الماريجوانا كأجرٍ مقابل الملاحظات. أطلقنا عليه اسم جيسون الحزين، لأن صديقته انفصلت عنه، ولم يستطع التركيز على أي شيء.

قال:

- ظننتُ أنها قد تكون أنت، عندما ذكرتُ على الهاتف أن اسمك يولاندي، إذ لا توجد هنا كثيرات بذلك الاسم.

بعد ذلك، صار كل ما أستطيع التفكير فيه هو ذاتي الأصغر سنًا، الشخص الذي كنت عليه قبل أن أصبح كل هذه الذوات الأخرى: امرأة في الأربعينيات من عمرها على وشك الطلاق، تركت زوجها بطريقة خرقاء، حتى لو كان ذلك لأسباب ظننتها وجيهة في ذلك الوقت، وعشيقة تفتقر إلى التمييز بدرجة غريبة، وابنة بالغة تزعم والدتها المسنة بشأن استخدام الأفكار المبتذلة، وشقيقة لا تستطيع قول الأشياء المناسبة لإنقاذ حياة، ولذا كانت على وشك التحول لتصبح قاتلة، وكاتبة تزعم كذبًا أنها تعرف عن سفن الشحن البحري، و«سائحة موت». وقفتُ في مرآب جيسون الحزين وبكيت، حتى أتى متحرجًا إلى حيث كنتُ أقف، وأحاطني بذراعيه الملطخين بالشحم بحذرٍ شديدٍ، وقال:

- لا بأس، لا تبكي. إنها مجرد سيارة.

كان جيسون بصدد الحصول على الطلاق من زوجته التي لم تعد تراه في ضوء رومانسي، وأصبح حاليًا يواعد امرأة تعمل مهرجًا في مهرجان «كالجاري ستامبيد» السنوي، لجذب الثيران بعيدًا عن رعاة البقر الذين سقطوا. أخبرته بأن لي صلة بالروديو أيضًا، بطريقة ما، وبأنني أوشكت على الحصول على الطلاق، وأعيش في تورونتو، وأنني أتيت لزيارة أسرتي، إلا أن الأمور لا تسير على ما يرام في الوقت الحالي، لكن كما تعلم، هناك غد، وغد آخر و... اقترح أن نشترى عبوة من ست علب من البيرة، ونذهب بالسيارة إلى مجرى الفيضان لتبادل آخر أخبارنا، ولمراقبة ارتفاع النهر، والشفق القطبي الشمالي الذي ذكرت قناة سي بي سي الإخبارية وقوعه الليلة عند أطراف البلدة. حسنًا، أقرّ بأنه سيقع في أماكن أخرى أيضًا، لكن علينا الابتعاد عن أضواء المدينة كي نتمكن من رؤيتها.

أصبحنا أنا وجيسون في غضون دقيقة شيئاً لم نتوقعه بالمرّة في محاضرات الأدب الكندي، منذ مائة عام مضت. كم بتنا كباراً في السن. غمرت كلمة «لا» حواسي وغرائزي كلها، لكنني قلت:

- أجل، يبدو ذلك جيداً.

سألته ونحن في سيارته عمّا إذا كان لا يزال يدخن الماريجوانا، فقال:

- لا، ليس بدرجة كبيرة. حسناً، مؤخراً فقط بسبب مشاكل العلاقة مع زوجتي، لكن خلاف ذلك، لا أدخن حقاً.

انطلقنا في ظلام جنوب شرق مانيتوبا.

توقفنا بالسيارة عند مجرى الفيضان، تحت النجوم، وشربنا البيرة، وتحدثنا عن الماضي. قال:

- ألا يقتلك كل ذلك نوعاً ما؟

وافقته القول. حاولنا رؤية الشفق القطبي الشمالي، لكننا فشلنا في ذلك. تراجعنا إلى الورااء في مقعد الراكب، ورفعنا ساقينا على لوحة القيادة، وأغمضنا عيني. عقلت سيارته برائحة الفانيليا، وتدلّى مليون معطر للجو من مرآة رؤيته الخلفية. أبدى لي الاعتذار بسبب شعر الكلاب الذي يملأ السيارة. بدت السماء مظلمة للغاية، ولم نكن نستمتع إلى أي موسيقى. جلس ويداه على فخذه، وألقى نظرة عبر زجاج السيارة الأمامي. فتح النافذة، ثم سأل عمّا إذا كان الجو بارداً جداً. سألته عمّا إذا كان قد ذهب من قبل إلى أي مدينة ساحلية مثل روتردام، فقال:

- أجل، في الواقع. كانت أوقاتاً طيبة، أوقاتاً طيبة.

اعتذرت لكوني غريبة على هذا النحو، فقال لي إنه لا بأس، وإنه يتذكرني هكذا. قبلني برقة شديدة على وجتي. أبقيت عيني مغمضتين،

وابتسمتُ. أمسكتُ بيده ووضعتها على ساقي، فسألني عن صديقي، أو زوجي، أو ما شابه. مسد ساقي، وقلت:

- مثلك تمامًا، إن هذا لا يعني أي شيء.

توقف عن لمسي وتقبيلي. فتحتُ عيني واعتذرتُ مرة أخرى لكوني قلتُ شيئاً غيبياً، غير مناسبٍ. أخبرته أنه من اللطيف تبادل الحديث. لم يقل شيئاً، لكنه أوماً برأسه، ثم شرعتُ أقبله، فلم يمنعني. سألته عما إذا كان يتذكر قدومه إلى شقتي القذرة في قرية أوزبورن، وبحوزته حقيبة مليئة بالسكاكين، قال:

- أوه، هل كنت أنتوي تقطيعك؟

قلت:

- لا، بل كنت تطهو!

قال:

- أوه، نعم، لقد تذكرت.

تصرفنا على نحو أخرق ومباشر. جلسْتُ على حجره، ثم تحسست بحثاً عن الرافعة الموجودة بجانب المقعد، وجذبتها للأعلى بحيث سقط إلى الوراء سريعاً، وصار في وضع أفقي الآن، وأضاء القمر جانب وجهه. تخيلت أننا صغارٌ في السن، وسعداء، وتملؤنا الرغبة. قلت:

- آسفة، معذرة.

بعد ذلك، سألني عن السبب الذي دفعني إلى سؤاله عن روتردام. أخبرته أنني أحاول تأليف كتابٍ يعلق في نهايته شخصٌ ما في عرض البحر والعجز يغمره، بينما يقف شخصٌ آخر على الشاطئ، يغمره الألم والغضب. قال لي إن ذلك يبدو جيداً حقاً، ومثيراً للاهتمام، فشكرته. في طريق العودة إلى المدينة، قال:

- لا أقصد الإساءة، لكن ألا يستطيع أن يوضح لها أنه عالق في ذلك القارب؟ في عصرنا هذا مع وجود التكنولوجيا وما شابه؟ رسالة نصية، أو شيء ما؟

قلت:

- أعرف هذا. لكنه لا يستطيع ذلك لسبب ما.

قال جيسون:

- حسنًا، لكن ما السبب؟

أخبرته أنني أعاني من مشاكل بنوية، فقال:

- أعتقد أن بنيتك رائعة، وتؤدي الغرض جيدًا.

قلت:

- ها ها، شكرًا. وأنت أيضًا.

(يا إلهي!).

قال:

- أعتقد أن أهم شيء هو أنها يجب أن تكون مثيرة للغاية.

سألته:

- ما الذي يجب أن يكون مثيرًا؟

قال:

- الحكاية. يجب أن تتحرك سريعًا للغاية، كما لو أنك تضغطين على دواسة البنزين لأقصى حد، حتى لا تصبح مملة. علاوة على هذا، فإن الكتابة صعبة، أليس كذلك؟ عليك الدخول، وإنجاز المهمة، ثم الخروج. مثلما كنت أفعل حينما كنت أعمل لدى رينيه في تنظيف خزانات الصرف الصحي.

فكرتُ في هذا، وأدركت أنها أفضل نصيحة للكتابة تلقيتها منذ سنوات، بل طوال حياتي. بعد أن أوصلني، سألني عمّا إذا كان من الممكن أن نلتقي مرة أخرى في أثناء وجودي في المدينة، لتتناول القهوة أو شيئاً ما، أو نشاهد فيلمًا. قلت له إنني لست متأكدة كم من الوقت سأبقى هناك، لكنني لم أخبره عن ألف. قال:

- رائع. لنبقَ على اتصالٍ.

تبادلنا القبلات، ثم دخلتُ الردهة، ولوّحتُ مودعة إياه من خلال النافذة الداكنة وأنا أبتسم. همستُ بكلمة من مقطعٍ واحدٍ لتوبيخ نفسي: كفى.

صعدتُ السلم، درجتين في كل مرة، حتى شقة والدتي، وأنا أكرر تعويذتي - كفى، كفى، كفى - مع كل وقعٍ غاضبٍ لقدمي، بينما أحاول تذكر ما أخبرني به صديقي في تورونتو مؤخرًا: في غضون عشر سنوات، سيصبح الخزي هو أحدث صرعة، سواء الحديث عنه، أو تحليله، أو التخلص منه. تجادلنا بعض الشيء حينها، لأنني أخبرته أنه من السخف الاعتقاد بأننا يمكننا التخلص من الخزي من خلال الحديث فحسب، وأن الشعور بالخزي ضروري لأنه يمنعنا من تكرار نفس الأفعال المخزية، وأنه يحفزنا على تقديم الاعتذار وطلب المغفرة والتعاطف مع بني جنسنا من البشر، والشعور بألم كراهية الذات التي تدفع البعض منّا إلى تأليف الكتب كمحاولة فاشلة للتكفير، كما أخبرت صديقي أن الخزي يساعد على إفساد العلاقات، والعلاقات الفاسدة هي روح الحياة في الكتب

والأفلام والمسرح، لذلك دعنا نتخلص من الخزي بكل تأكيد، إلا أننا سنودع حينها الفنون أيضاً. لكن الآن، وبينما كنت أصعد هذه الدرجات الخرسانية، وأقرب يدي وأصابعي من أنفي للتحقق مما إذا كانت نفوح مني رائحة الجنس أو زيت المحركات، كنت أتوق إلى حياة بلا خزي.

وجدتُ والدتي تلعب سكرابل على الإنترنت مع امرأة من رومانيا، اسمها الرمزي في اللعبة «قاتلة الرجال». للعبة توقيتٌ محددٌ، وكان عليها التحرك بسرعة، لكنها قالت عندما تجاوزتها:

- يولي، سوف يذهب نيك إلى إسبانيا غداً.

أومأت برأسٍي، وأخبرتها أنني أعلم ذلك.

توجهتُ إلى غرفتي، وبحثت في جوجل عن شراء النيمبوتال في إسبانيا، لكنني وجدت فقط إشارات إلى الفياجرا القابلة للحقن. بعد ذلك، بحثت عن القتل الرحيم لمرضى الأمراض العقلية، واكتشفتُ أنه قانوني في سويسرا، لكنه لم يُطبق كثيراً. من القانوني مساعدة أي شخص على الانتحار في سويسرا إذا لم يكن هناك أي دافع شخصي وراء ذلك. كما لا يتحتم أن تكون مواطناً سويسرياً كي تتمتع بالحماية بموجب القانون. آها! فهمتُ الآن لماذا توصلتُ إليّ ألف لاصطحابها إلى هناك.

وازنْتُ خياراتي، ووجدتها ثقيلة؛ إما أن أصطحب ألف إلى المكسيك، لشراء النيمبوتال من متجرٍ للحيوانات الأليفة في شارع جانبي مترب ببلدة هادئة لا تجذب السياح، ثم أتأكد من أنها ستفتح الزجاجاة بنفسها، وألا أشجعها بأي شكلٍ، على الرغم من أن تعريف كلمة التشجيع قد يكون غير

واضح في مثل هذه الظروف، وأجعل نيك ووالدتي يوافقان على هذه الخطة. وإما أصطحب ألف إلى زيورخ وأفعل كل ذلك بشكلٍ قانوني، على الرغم من أن الأمر قد لا يفلح إذا قرر الأطباء أن ألمها ليس عظيمًا بالقدر الكافي لتبرير قتل الرحمة، وأجعل نيك ووالدتي يوافقان على هذه الخطة. فجأة، شعرتُ بالأمل. لكنني لم أكن متأكدة ما إذا كان عليّ التحوط من جميع النواحي، بإخبار ألف أنني أفكر في اصطحابها إلى سويسرا أو المكسيك، مع تشجيعها أيضًا على البقاء على قيد الحياة. إذا أخبرتها عن خطة النيمبوتال، سيصير لديها شيء واحدٌ فحسب في ذهنها، وحتى لو كانت داخلها مجرد ذرات صغيرة من الأمل، ومن الرغبة في الحياة، فسوف تختفي على الفور في ضوء هذا الاحتمال الجديد. كما أنه لم يكن هناك ما يمنعها من الذهاب بمفردها إلى سويسرا أو المكسيك عند خروجها من المستشفى، لكن ذلك سيناقض هدفها في عدم الوجود بمفردها خلال لحظات حياتها الأخيرة. وإذا لم يكن نيك يوافقها في ذلك الأمر، فسوف يلاحظ اختفاءها، واختفاء المال من الحساب، وسيحاول منعها. ما الذي ستفعله؟

سمعتُ الأبواق تعلن نهاية لعبة والدتي مع «قاتلة الرجال»، وصوت الكمبيوتر المحمول خاصتها وهو يُغلق، ثم أتت لتقف في مدخل الباب، وقالت:

- كيف حالك، يا عزيزتي؟ ماذا كنتِ تفعلين؟

أمارس الجنس من دون حماية مع الميكانيكي، وأبحث عن وسائل لقتل ابنتك. قلت:

- لا أفعل الكثير، جلبتُ الأشياء من السيارة، وأقوم ببعض العمل.

حدثتني والدتي عن المناجم الكندية في هندوراس، وكيف أن الأمر برمته مهزلة، بعد أن اختار غضبها حيال العالم هذه النقطة بالتحديد كي ينصب عليها الليلة. غداً سيكون شيئاً آخر: بستانيون مسلمون من أوشاوا محتجزون في جواناتنامو من دون محاكمة ويدوون في الحبس الانفرادي، أو أي موقف فظيع على نحو عشوائي، أو فظيع بصورة لا يستطيع معها الإنسان العادي منعه من الحدوث. قالت:

- إن المناجم تدمر تلك القرى، وتقضي على تلك المجتمعات، وتجرد الأرض من كل ثرواتها. ويتغاضى عن ذلك رئيس الوزراء، هاربر، بينما يطير أصحاب المناجم الأثرياء إلى هناك من وقت إلى آخر فحسب، ضاحكين في طائرات الهليكوبتر خاصتهم.

قلت:

- أعرف هذا. إنه شيء لا يصدق، شيء فظيع.

قالت:

- إنه كذلك بالفعل! تُنفق أموال ضرائبنا على التدمير الممنهج والمرخص به لشعب هندوراس، ولا أحد...

قلت:

- أدري، إنه حقاً... إنه أمرٌ مريعٌ جداً.

شعرتُ بارتعاش في جفني الأيمن، استلقيتُ على فراشي، وأغمضتُ عيني. راجعتُ أعراض الاكتئاب التي قرأتها على لافتة معلقة على مؤخرة حافلة بالمدينة، كجزءٍ من حملة ما لتثقيف الجمهور بشأن الأمراض العقلية. فكرتُ: الشعور بالغربة عن الواقع. أجل.

- آسفة، يا عزيزتي. أعرف أنك متعبة.

- أنتِ أيضاً متعبة، أليس كذلك؟

- أعتقد هذا.

التقطتُ الكتاب المُلقى بجواري على الفراش، وقلبتُ صفحاته.
قلتُ:

- اسمعي هذا. هل سمعتِ عن ذلك الرجل البرتغالي المدعو فرناندو
بيسوا؟

- هل هو لاعب في فريق «تورونتو بلو جايز»؟

- لا، إنه شاعرٌ، وهذا الكتاب من تأليفه، لكنه مات؛ لقد انتحر.
قالت:

- يا إلهي، من عساه لم ينتحر بعد؟

- لكن اسمعي هذا: «في الحميمة البادية مع اقتراب المساء، وبينما
أقف في انتظار النجوم كي تظهر من نافذة هذه الغرفة بالطابق الرابع، التي
تطل على اللا محدود، تتحرك أحلامي على الإيقاع الذي تتطلبه رحلات
طويلة إلى بلاد لم تُكتشف بعد، أو إلى بلاد هي بكل بساطة افتراضية، أو
مستحيلة».

قالت والدتي:

- أجل، هذه هي خلاصة القول، أليس كذلك؟

غيرتُ موضوع الحديث، وقالت لي إن ابتسامة ألف تشبه ابتسامة
والدي.

- الأمر مدهشٌ للغاية. أحياناً ما أنسى، ثم يفاجئني بشدة.

قلت:

- أعرف هذا، فلديها ابتسامة رائعة.

قالت والدتي:

- يولي.

أجبتها قائلة:

- أجل؟

أحطتها بذراعي. شرعتُ تبكي وترتجف فجأة. ندَّ عنها عويلٌ ونواحٍ لم أسمع منها مثله على الإطلاق من قبل. احتضنتها بأشد ما لديَّ من قوة، وقبَّلتُ شعرها الأبيض الناعم.

همستُ والدتي:

- إنها إنسان.

ظللنا متعانقتين في مدخل الباب فترة طويلة. وافقتها الرأي، وقلتُ «أجل». أخيراً تمكَّنتُ والدتي من النقاط أنفاسها والتحدث. لم تتحمل رؤية ألف في جناح الأمراض النفسية، قالت:

- ذلك السجن، إنهم لا يفعلون شيئاً، لا يتحدثون إليها إذا لم تأخذ أقراص الدواء، ينتظرون، ويستمرون في مضايقتها، ويزعجونها، وينتظرون، ثم يواصلون إزعاجها.

بدأت تبكي ثانية، بهدوءٍ هذه المرة. كررت القول:

- إنها إنسان. أوه يا ألفريدا، يا ألفريدي.

اتجهنا إلى الأريكة وجلسنا. أمسكتُ يدها، وواجهتُ صعوبة في التفكير في كلمات مواساة. نهضتُ وقلت لها إنني سأعد لنا كوبين من

الشاي. عندما انتهيت من إعدادة، أحضرت كوبين من شاي الكاموميل إلى غرفة المعيشة. كانت والدتي مستلقية على الأريكة، وعلى صدرها رواية من روايات الجريمة، همستُ لها:

- أمي، عليك أن تنامي الآن. يجب أن نذهب إلى المستشفى مرة أخرى في وقتٍ مبكرٍ غداً. ألن يطلقوا سراح خالتي تينا؟
فتحت والدتي عينيها، وقالت:

- التعبير المستخدم هو السماح لها بالخروج. أجل، ستخرج.
قلت:

- أفضل أن يُطلق سراحني عن أن يُسمح لي بالخروج.
قالت:

- هذا صحيحٌ. فهو يبدو ألطف.

توجهتُ إلى الفراش، واستلقيتُ هناك مستيقظة، ومستغرقة في التفكير. أجبتُ رسالة نورا بخصوص المحامي: «إنه صديقٌ لي، اسمه فينبار. كان يطمئن عليكما فحسب. لا أنتمي إلى شهود يهوه». بعدها أجبتُ رسالة زوجي السابق: «أجل، يمكنني توقيعها غداً في وقتٍ ما، حينما لا أكون في المستشفى. راعِ توقيتك، يا رجل». ثم أرسلتُ رسالة نصية أخرى إلى نورا: «وحافظي على الطاولات نظيفة من الفتات». أرسلتُ إلى ويل قائلة: «إذا أراد السويدي قضاء الليلة، فلا بأس، فالقلب يريد ما يريده». أجابني برسالة نصية: «هل أنتِ ثملة؟». بعد فترة من الوقت، سمعتُ رذاذ الماء يندفع من الدش في جميع أرجاء الحمام، فحدثتُ نفسي قائلة: «ستارة حمام. ستارة حمام. اشترى واحدة». ثم استغرقتُ في النوم.

في تلك الليلة، حلمتُ أنني في قرية صغيرة اسمها «جَلَد»، وبطريقة ما، كنت مسؤولة عن كتابة الموسيقى التصويرية للبلدة. استدعيتُ إلى منزل زوجين كبيرين في السن يقطنان في جَلَد، فأجلساني إلى بيانو هاينتزمان القديم خاصتهما، وقالوا: «حسنًا، فلتبدئي». قلتُ لهما «لا، لا ينبغي لي القيام بهذا، بل يجب أن تكون شقيقتي». ربتا على ظهري وابتسما. أحضرا لي إبريقًا من الماء المثلج، وكوبًا. أحاطت بالات القش بالبلدة، وكان من المفترض أن تشكّل جدارًا أو حاجزًا من نوع ما. كان من المفترض أن تحافظ على سلامة سكان جَلَد. عندما قلتُ إنها مجرد بالات من القش، قال لي الزوجان العجوزان اللطيفان اللذان كانا يجرجران أقدامها في أرجاء المنزل بعزم ألا أفلق بشأن ذلك، وأن أركز على النوتة الموسيقية فحسب. سألتهما أين نكون، وفي أي بلدٍ، فأشارا إلى البيانو لتذكيري بمهمتي؛ لم يكن هناك وقتٌ للدردشة الخفيفة.

في وقتٍ مبكرٍ من الصباح، اتصل بي نيك وسألني عما إذا كان بوسعي توصيله إلى المطار، وبعدها أخذ سيارته إلى والدتي كي تستخدمها. قال إنه كان سيستقل الحافلة في الظروف العادية، لكنه تأخر، وما زال غير متأكد حتى ما إذا كان عليه الذهاب، وإذا لم أذهب لاصطحابه، فمن المحتمل أن يعود إلى فراشه فحسب، مع كيس من الماريجوانا، وبيكي حتى يذهب في النوم.

ذهبتُ لاصطحابه، فأخبرني أن الباب الكائن جهة السائق لا يعمل كما ينبغي له، ويجب أن يظل مغلقًا على الدوام. للجلوس في مقعد السائق، كان يتعين على المرء الانزلاق من جانب الراكب، وفوق ذراع

نقل السرعات وما إلى ذلك. أخبرْتُ نيك أنني سوف أصلحه، لأنني لا أعتقد أن والدتي ستتمكن من القيام بتلك المناورات كل مرة. في الطريق إلى المطار، فرك وجهه وسأل نفسه بصوتٍ مرتفعٍ عما يفعله. رفع ساقه على لوحة العدادات، ووضع مرفقه على ركبته، ورأسه على يده، ثم أغمض عينيه.

قلت:

- ستقضي وقتاً ممتعاً، وسيكون من الجيد أن ترى والدك. هل ستقابله في مونتريال؟

قال:

- لن أستمع، لكنها ستكون استراحة. لا، سألتقيه في مدريد. أتمنى لو أنني كنت ذاهباً برفقة ألف.

قلت:

- بالضبط. أنت بحاجة إلى استراحة. سوف تتفقد بريدك الإلكتروني، أليس كذلك؟

- في كل لحظة، بحيث إذا حدث أي تغيير...

- أجل، سأبلغك، لا تقلق. ماذا قالت الممرضة بالأمس؟

- لم تقل الكثير. فقط إن ألف ستبقى هناك لفترة من الوقت.

ظللنا نحملق في صمتٍ، بينما أنا أقود السيارة.

قلت:

- هل نتحدث معك عن سويسرا على الإطلاق؟

قال:

- ماذا تعنين؟ لا، لا أعتقد ذلك، لماذا؟

- أقصد هل قالت فحسب إنها تود الذهاب، أو أي شيء من ذلك

القبيل؟

قال:

- لا، مطلقاً. إنها تريد الذهاب إلى باريس.

سألته:

- أتعني أنها ترغب العيش معك هناك؟

قال:

- يمكنني العثور على عملٍ هناك، كما أن كلينا يتحدث الفرنسية.

قلت:

- سيكون هذا رائعاً. هل تتحدث عن ذلك؟ عن رغبتها في الذهاب

هناك حينما تتحسن؟

قال نيك:

- في كثيرٍ من الأحيان. أعني، لا أعرف متى سيحدث ذلك، لكننا

نحب التفكير في الأمر. عليها فقط أن تجتاز هذه المرحلة، يجب أن

تحصل على الأدوية الصحيحة، وقد يستغرق الأمر شهوراً لتحديد الجرعة

ومزيج الأدوية الملائمين.

قلت:

- أو سنوات. هذا بافتراض أن لديها استعداداً لتناول الدواء من

الأساس.

قال:

- وعادة ما لا يكون لديها استعداد.

وافقته قائلة:

- وعادة ما لا يكون لديها استعداد.

أخرج كتابًا من حقيبته، وكتب شيئًا على إحدى الصفحات.

- ماذا تقرأ؟

قال:

- رواية «الخاسر»، لتوماس برنارد.

قلت:

- نيك، هذا ليس مضحكًا حتى.

- أعرف، لكنني أقرأه، وقد سألتني. أوه، هل يمكنك أن تعطيها هذه؟

فتح حقيبة ظهره، وناولني رزمة من الأوراق، ثم واصل الحديث:

- إنها رسائل بريد إلكتروني من الناس إلى ألف. من معجبين

وأصدقاء. أرسلهم كلوديو. التفت نيك لينظر من النافذة. اقتربنا من

المطار، وتبعنا لافتات عليها طائرات صغيرة. مررنا بمناطق صناعية،

ونوادٍ للرجال من دون نوافذ، وحفر ضخمة في الطريق.

قلت:

- ألا يُصلح أحدًا هذه المدينة أبدًا؟

لم ينبس نيك بكلمة. وصلنا إلى المطار، وشكر أحدنا الآخر مرة ثانية

على الجهود المبذولة لمساعدة ألف. تعانقنا وقلنا وداعًا، مع السلامة،

وإلى اللقاء. كان بحوزته حقيبة ظهر فقط، وبدت نصف فارغة. تساءلتُ

عمّا إذا كان قد اهتم بحزم أي أغراض على الإطلاق، بخلاف رواية برنارد،

وكتّابه الصينيين المفضلين. ناديتُ خلفه قائلة:

- كم يومًا ستمكث، مرة أخرى؟
كان يمر عبر أبواب دوارة، محاولاً شق طريقه بحقيقته، ورفع كلتا يديه كما لو كان رهن الاعتقال. عشرة.

عدتُ إلى منزل والدتي، أوقفتُ السيارة في موقف انتظار للزوار،
وركضتُ صاعدة الدرج إلى شقتها. سألتها:
- هل أنت جاهزة للذهاب؟
قالت:

- هل رحل نيك؟
- أجل. سيعود بعد عشرة أيام. باب السائق مكسور، لكنني سأحاول إصلاحه عصر اليوم.
ثم تذكرتُ أوراق الطلاق التي وافقتُ على توقيعها عصر اليوم،
وتساءلتُ عمّا إذا كان من الممكن تأجيل التوقيع ليومٍ إضافي آخر، بعد ستة عشر عامًا من الزواج.

عندما وصلنا إلى المستشفى، لم نتمكن من العثور على ألف، قالت
الممرضة في مكتب وحدة العناية المركزة أنها نُقلت إلى جناح الأمراض
النفسية رقم ٢، في مبنى بالفيري، الذي يقع على مبعدة عدة مبانٍ عبر حرم
المستشفى، أو أيًا ما كان الاسم الذي يُطلق على أراضي المستشفى. نزلنا
إلى الطابق الخامس كي نتفقد خالتي تينا، فوجدناها نائمة، لكن تم توصيلها
بآلات أكثر من ذي قبل. بدت شاحبة، وفمها فاغر، ربما من الدهشة. قالت
الممرضة إن الوضع لا يبدو على ما يرام كما كان بالأمس. كانت هناك

رسائل صغيرة مكتوبة على جبيرتها، بدت كما لو أنها ملحوظات سجلتها لنفسها. إلغاء نادي الكتاب. إلغاء التاي تشي. إلغاء موعد مصففة الشعر. لن نعود إلى المنزل اليوم إذن.

تساءلتُ الممرضة عما إذا كان أبناء تينا قادمين في طريقهم من فانكوفر، فقالت والدتي:

- أجل، إن ابنة شقيقتي قادمة، وكذلك زوج تينا، لكن ما الذي يحدث؟

قالت إن تينا ستحتاج إلى إجراء جراحة عاجلة، في غضون يوم أو يومين، لتفادي حدوث أزمة قلبية شديدة. كانوا يعدونها لإجراء جراحة قلب مفتوح، ويحقنونها بسائل من نوع ما، ويهدئونها، ريثما يحاولون العثور على جراح متاح لإجراء العملية، لكن الممرضة بدت مرتاحة حيال الأمر برمته. قالت لوالدتي:

- يحدث هذا في بعض الأحيان. إن شقيقتك قوية، وبخلاف ذلك تتمتع بصحة جيدة. لذا ستكون العملية روتينية للغاية. ستمكن على الأرجح من قيادة شاحنتها للعودة إلى فانكوفر بعد بضعة أسابيع.

تركنا خالتي نائمة في الوقت الحالي، وذهبنا للبحث عن ألف. ركبنا المصعد إلى البدروم، وسرنا عبر نفق آخر بالمستشفى، شاعرين بالارتباك والغضب. كانت والدتي منهكة، لكنها حاولت إخباري المزيد عن مناجم هندوراس. كانت كل خطوة تقتلها، لكن لم يكن هناك مكان للراحة، بل كان مجرد نفق فارغ أملس، مثل الأمعاء الغليظة لشخص جائع. سرّت أمام والدتي، وأنا مذعورة بعض الشيء، وأبحث عن الباب الذي سيقودنا

إلى جناح الأمراض النفسية رقم ٢. ناديتها، فتردد صدى صوتي. أمي مي مي مي. وقفتُ ساكنة في منتصف النفق. بدت ضئيلة، بارتفاع بوصة واحدة، ووضعتُ يديها على وركيها. امتدت الكشافات بطول سقف النفق، وألقت وهجًا برتقاليًا على كل شيء. هرولتُ عائدة إليها، وسألتها عن حالها. أو مأتُ برأسها وابتسمتُ، وأخذتُ أنفاسًا عميقة.

لهثتُ قائلة:

- لم أخبركِ عن كميات المياه التي يستخدمونها.

كانت تتحدث عن شركات التعدين.

قلت:

- بصراحة، لا أعرف أين الباب.

أو مأتُ مرة أخرى وهي تبتسم، مثل قائد ميداني مصاب بجروح مميتة، يوجه لرجاله رسائل صامتة وشجاعة للاستمرار من دونه، إذ كانت هناك حربٌ يجب أن تُخاض. مثل الكلمات المدونة على قبر ييتس عند سفح جبل بينبولين، في مقاطعة سليجو: «بعين باردة، ارمق الحياة والموت. مُر، أيُّها الفارس». كل ما بوسعنا هو أخذ خطوات صغيرة بطيئة، نحو شيء قد يكون أماننا، مثل باب.

ظللنا نتوقف، ثم نعود لمواصلة السير، وننتظر في كل مرة حتى تلتقط والدتي أنفاسها. سرعان ما توقفتُ عن الحديث، لأنها دومًا ما كانت تستجيب بحماس وبسالة زائدين عن الحد بعض الشيء، وحتى تلك الأنفاس المندفعة من الهواء، مثل وابل من الذخيرة، كانت ترهقها. أخيرًا، رأينا بابًا كُتب عليه «خروج»، فدفعته كي أفتحه، وهربنا من النفق إلى

بئر سلم. تعيّن علينا صعود بضعة طوابق، من البدروم حتى أقرب مصعد يأخذنا إلى الطابق الرابع، إلى جناح الأمراض النفسية رقم ٢، وإلى ألف. عندما انفتحت أبواب المصعد في الطابق الرابع، كان راديك هناك! كان كمانه معلقًا على ظهره كأنبوب أكسجين تحت الماء. سألته عمّا يفعله هنا، فقال إنه جاء لرؤية ألفريدا، قال:

- كان عليّ أن أخبرها كم يعني لي عزفها على البيانو.
قلت:

- أوه. كان بوسعي إبلاغها بذلك، لكن شكرًا لك.
نظر إلى والدتي، مدّ إليها يده قائلاً:
- أنا راديك.

قالت والدتي إنها سعيدة بلقائه، ثم تركتنا هناك أمام المصاعد. قال:
- ذكرت الشائعات أن شقيقتك في قسم الأمراض النفسية، إن الانتحار أمرٌ خطيرٌ.
قلت:

- من أخبرك بذلك؟
قال:

- أردتُ أن أقابلها فحسب، لكنهم قالوا لي إن ساعات الزيارة انتهت.
سألني عن حالي، ووضع يده على كتفي.
قلت:

- ظننتُ لوهلة أنك هنا كي تبحث عني، أعتقد أنني نسيت أنك مضيت قدمًا في حياتك.

قال:

- ألم تكوني أنت من مضى قدماً؟

سأله:

- هل تتوي أن تعزف لها ألحاناً رومانسية على كمانك؟

ابتسمت، آملة أن تمحو الابتسامة الخبث والغيرة الكامنين في السؤال.

- أردت أن أتمنى لها الخير فقط، وأشكرها.

قلت:

- أعرف. أتفهم هذا. سأبلغها بذلك.

سألني:

- لكن كيف حالك أنت؟

- أنا بخير.

قال:

- هل أنت بخير حقاً؟ لا بُدَّ وأن ذلك ليس حقيقياً إذن.

- يجب علي أن أذهب. أنا آسفة حقاً... أنت تعرف، لكل شيء.

لكل هذا. لما قلته.

قال:

- سيأتي وقتك.

كنت قد بدأت أسير مبتعدة، فقلت:

- ما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟

قال:

- أعني وقت سعادتك.

- أوه، حسنًا، بدا الأمر أشبه بالتهديد. لكن شكرًا، يا راديك. أنا آسفة.
- أنا أيضًا آسفٌ.

استدرتُ وسرتُ عائدةً إلى حيث كان يقف، وصافحتُ يده.
- أنا متأكدة أن النص الذي تكتبه للأوبرا سيكون رائعًا.
- وكذلك كتابك الذي تكتبينه عن القارب. أم... الروديو؟
- قارب.

- آه، أجل، قارب.
ابتسمنا، وودّع أحدهنا الآخر.

جلستُ والدتي خارج غرفة ألف، على مقعدٍ بالقرب من مكتب
المرضات، وهي تستجمع شجاعته كي تكون مرحة وسفيرة للأمل،
وتلتقط أنفاسها. دخلتُ وجلستُ بجوار ألف على فراشها، وقلت:
- مرحبًا، أنا هنا.

لم يكن هناك شيء في هذه الغرفة سوى فراشين مفردين، أحدهما
شاغرٌ، ومكتبين صغيرين لهما كرسيان صغيران. كانت هناك نافذة صغيرة
مرتفعة ذات قضبان، ويسوع يحتضر على صليبٍ صغيرٍ فوق الباب. بدت
ألف ساكنة في فراشها، ضئيلة الحجم هي الأخرى، وصامتة، ووجهها إلى
الجدار. وضعتُ يدي على وركها النحيل مثل عاشق في الليل. غمغمتُ
قائلة «مرحبًا»، لكنها لم تلتفت لتنظر إليَّ. قالت:

- هل هذا أنتِ، أيتها الدوارة؟

أخبرتها أن نيك سافر إلى إسبانيا صباح اليوم، على الرغم من أنها

كانت تعرف ذلك بالفعل، وأن والدتنا تجلس بالخارج لالتقاط أنفاسها، وأن حالة خالتنا تينا ساءت بعض الشيء، وهي الآن بحاجة إلى عملية جراحية. سألتها كيف تشعر، فلم تُجِب، قلتُ:

- لديّ لك بعض رسائل المعجبين.

وضعتُ كومة الأوراق على مكتبها الخالي. لم تحر جوابًا.
قلت:

- أَلَف، هل يعلم نيك أنك تريدين الذهاب إلى سويسرا؟
استدارت حينها ببطء كي تنظر إليّ، وهزّت رأسها.
همستُ قائلة:

- لن يسمح لي بهذا، لن يصطحبني، لا تخبريه.

- حسنًا، لكنني... لا أعرف ماذا أفعل.

سألتني:

- أَلن تصطحبيني؟ يولي، أرجوك.

بدت جادة، وعيناها كالرصاص. هزّت رأسي.

- لا، لست متأكدة من ذلك. ماذا عن والدتنا؟ هل أخبرتها؟

هزّت أَلَف رأسها ثانية، وأمسكت ذراعي.

قالت:

- يولاندي، اسمعيني، اسمعي بعناية، اتفقنا؟ لا يمكن أن يعرف كلُّ

من نيك ووالدتنا الأمر. لن يسمح لي بالذهاب. ما زال نيك يؤمن بأن دواءً

من نوع ما سيشفيني، بينما تؤمن والدتنا بـ... لا أعرف ما الذي تؤمن به

تحديدًا، قد يكون الرب، أو الاحتمالات، لا أدري، لكنها لن تستسلم أبدًا.

أتوسل إليك، يا يولي، أنت الوحيدة التي تفهم، أليس كذلك؟

سألته:

- أتعنين أننا سنذهب إلى زيورخ خلصة؟ نحن الاثنان فقط؟ لن ينجح هذا أبدًا.

- لم لا؟

- لأن الأطباء هناك يجب أن يقرروا أنك بكامل قواك العقلية!

- أنا بكامل قواي العقلية. إذن فقد تحققت من الأمر بالفعل؟

- بحثت في جوجل.

قالت ألف:

- وهو أمرٌ منطقي، أليس كذلك؟

قلت:

- لا أعرف هذا.

لم أستطع النظر إليها. بدت عيناها واسعتين للغاية، وكانت أظافرها تؤلمني.

قالت:

- يولي، أخشى أن أموت وأنا بمفردي.

قلت:

- حسنًا، ماذا لو لم تموتي على الإطلاق؟

قالت:

- يولي، أشعر كما لو أنني أتوسَّل من أجل حياتي.

- حسنًا، لكن من الواضح أن نيك سيلحظ غيابك في غضون خمس

دقائق، وسيعثر عليك. سيكتشف الأمر بطريقة ما. ستقوده إليك الأدلة

الممثلة في الأوراق والمستندات أو ما شابه، وسيكرهني حينها، وستصاب والدتنا بنوبة قلبية، كما أنه من المحتمل حتى ألا ينجح الأمر. إنه احتمالٌ بعيدٌ للغاية، يا ألف، يشارف حد السخف. لا يمكنكِ فحسب التسلل إلى زيورخ ليلاً. إنها لا تشبه حمام السباحة الكائن في حديقة الجيران الخلفية...

- يولي، إذا كنت تحبيني...

- أنا أحبك بالفعل! رباه!

سمعتُ والدتنا تتحدث بصوتٍ هادئٍ، لكن مميتٍ، خارج باب ألف. كانت تقول للممرضة إن ألف لم ترَ طبيباً منذ أيامٍ. أخبرتِ الممرضة والدتي أن الطبيب منشغلٌ للغاية، فقالت لها والدتي ما قالته لي في الليلة السابقة، إن ألف إنسانٌ. لم تكن الممرضة جانيس، وكانت والدتي تسأل أين جانيس. قالت الممرضة التي لم تكن جانيس لوالدتي إنها تتفق معها في أن ألف إنسان، لكنها أيضاً مريضة في المستشفى، ويتوقعون منها أن تكون متعاونة. سألتها والدتي:

- لماذا؟ ما علاقة التعاون بتحسُّن حالتها؟ هل يُعد التعاون حتى أحد أعراض الصحة العقلية؟ أم مجرد شيء تحتاجون إليه من المرضى كي تتمكّنوا من التحكم في كل الأشخاص هنا من خلال الأدوية والترهيب؟ ستأكل عندما تشعر بالرغبة في تناول الطعام. مثلما هو الحال معك، ومعى أيضاً، وليس عندما يُطلب منك أن تأكل. وإذا كانت لا تريد التحدث، فماذا في ذلك؟ إن ابنتي أكثر ذكاءً من جميع طاقم العاملين في قسم الأمراض النفسية...

قلت:

- أمي! تعالي هنا.

دخلت والدتي الغرفة، وفرت الممرضة إلى موقعها.

قبّلت والدتي جبين ألف، وقالت:

- حبيبتي.

ابتسمت ألف، وقالت:

- مرحبًا. هل أنت بخير؟ صدمتُ لسماع أن خالتي تينا بحاجة إلى

عملية جراحية.

قالت والدتي:

- أوه، أنا بخير تمامًا. وستكون تينا بخير، لقد خضعتُ لنفس الجراحة

بالضبط، أتذكرين؟ بعد ذلك السفاري؟ كيف حالك أنت؟

هزّت ألف كتفيها، وتجوّلت بنظرها في أرجاء الغرفة الحقيرة بنوع

من الرهبة، كما لو كانت إحدى الكاتدرائيات العظيمة في أوروبا.

سألت والدتي:

- ذكّرني ثانية، ماذا تقول تلك القصيدة؟

قالت:

- ماذا؟ أي قصيدة؟

- تلك القصيدة التي كتبها إزرا باوند. قصيدتك المفضلة.

- أوه! «في محطة مترو»؟

قلت:

- أجل، هذه هي. ما الذي يعجبك فيها إلى هذا الحد؟

قالت والدتي:

- لا أدري. إنها قصيرة.

ضحكتُ، ثم قالت:

- لماذا تسألين؟

قلتُ:

- لا أدري. ليس هناك سببٌ. مجرد فضول. يتعين عليّ توقيع أوراق

طلاقي عصر اليوم.

قالت ألفت:

- هل كان زواجكما في فيجاس قانونيًا؟

ثم استدارت نحو والدتنا، وقالت:

- أنت تعرفين عن ميول باوند الفاشية، أليس كذلك يا أمي؟

قالت والدتي:

- إن الممرضات يريدونك أن تتناولي ولو شيئًا بسيطًا من الطعام، يا

عزيزتي. لم أكن أعرف أنه كان فاشيًا!

سألتني شقيقتي:

- كيف حال الأولاد؟

نظرت إليّ والدتي.

قلت:

- بخير، على ما أعتقد. سوف يحتل ويل مكتبًا سياسيًا ما في تورونتو

اليوم، احتجاجًا على قانون متعلق بالجرائم، أو ما شابه. يمكنك مشاهدة

بثٍّ مباشر لذلك عبر الإنترنت. إنه يقيم مع نورا.

سألني والدتي:

- ماذا تقصدين؟

قلت:

- يمكنك مشاهدة ذلك في أثناء حدوثه، على جهاز الكمبيوتر خاصتك.

قالت والدتي:

- يا إلهي، على أي قناة؟

ابتسمت ألف ابتسامة خافتة، وقالت:

- أبلغيه تحياتي، هو ونورا. ما الذي كان يدور في المرة الأخيرة التي تفقدت فيها البث الحي الخاص باحتجازه؟

سألها والدتي:

- هل هذا يومٌ شاق بالنسبة إليك، يا عزيزتي؟

نظرنا إليها، وقلت:

- كانوا يلهون بالبالونات، بينما تمدد بعضهم داخل أكياسٍ للنوم. جاء رجال الشرطة، ثم انصرفوا مرة أخرى، لذا من يدري. قال ويل إنهم سيرحلون إذا طلبت الشرطة منهم ذلك.

سألني والدتي:

- أي قانون متعلق بالجريمة؟

قلت:

- له علاقة بالسجون، والشرطة. إنه أناركي الآن.

قالت والدتي:

- ويل أناركي؟ أوه، لا!

قلت:

- لا، لا، أنا أمزح فقط.

على الرغم من أنني لم أكن متأكدة ما إذا كان ذلك مزاحًا بالفعل أم لا،
إذ كنت قد نسيتُ علاقة والدتي ذات الأصول الروسية بالأناركيين القتلة.
استأذنتُ كي تذهب إلى الحمام، فهمستُ لألف:

- دعيني أفكر فقط، اتفقنا؟ وفكري أنت أيضًا. أعني، فكري بعمق.

قالت ألف:

- يو، لقد فكرتُ بالفعل، هذا هو كل ما كنت أفعله، ألا يبدو ذلك
جليًا؟

قلت:

- أعرف، لكن ألا يمكنكِ التفكير في الأمر لفترة أطول قليلًا؟ أو
توقفي عن التفكير، وابدئي في ملاحظة الأشياء من حولك فحسب. لا
أستطيع القيام بهذا من دون وجود نيك بكل تأكيد، كما أن هذا جنوني
للغاية. إنه ليس...

قالت ألف:

- لمَ لا؟ أنا لستُ طفلة. يمكنني الذهاب بإذنه، أو من دونه. بالطبع
أريده أن يكون موجودًا معنا هناك، لكنه لن يسمح بحدوث ذلك أبدًا.
يمكننا الذهاب الآن، في غيابه.

- مستحيل.

- وما الذي تعنيه بملاحظة الأشياء فحسب؟ من المستحيل ألا يكون

لديك أفكارٌ، حتى إذا كانت مجرد أفكارٍ سطحية، فهذا لا يعني عدم وجود شكلٍ ما من أشكال نشاط الدماغ.
قلت:

- أدري، لكن ألا تريدونه أن...

قلت والدتي:

- لم لا أجب بعض الغداء من الكافتيريا، وأحضره إلى هنا؟
لم نكن قد لاحظنا عودتها من الحمام. تابعت حديثها قائلة:
- يمكننا تناول الغداء هنا، ثلاثتنا! وسأتفقد تينا في طريقي إلى العودة.
قلت ألف:

- لن يسمحوا لك بذلك؛ من المفترض أن أذهب إلى الكافتيريا في أوقات الوجبات.

قلت والدتي:

- سأخفي الطعام، وأهرّبه إلى هنا.
قلت:

- دعيني أنا أذهب؛ أنت بالكاد تلتقطين أنفاسك بصعوبة، سينتهي بهم المطاف باستقبالك أنت أيضاً في المستشفى، كما أن لديّ حقيبة ظهرٍ لإخفاء الطعام.

دخلت ممرضة ومعها باقة ضخمة من الزهور، قالت:

- لقد وصلت هذه من أجلك الآن، أليست جميلة؟

قلت والدتي:

- أوه، إنها جميلة بالفعل! رائع!

أومأت برأسي وابتسمتُ، وانحنيت كي أشمها، قلت:

- من جونا وإيكو، هل إيكو زوجها، أو شيء من هذا القبيل؟
أومأت ألف برأسها. قالت الممرضة إنها ستحاول العثور على
مزهريّة كبيرة بما يكفي للزهور. شكرتها بشدة، إذ كنت أحاول أن أجعلها
تستحسن ولو فردًا واحدًا على الأقل من أفراد أسرتنا الأوغاد.

قالت والدتي:

- حسنًا، هذه إضافة رائعة للغرفة. ألا تعتقدين ذلك، يا ألف؟ كم هو
لطف منهما!

قلت:

- انظري إلى هذه الزهور الزرقاء! كيف يحصل المرء على زهور
زرقاء؟

قالت والدتي:

- إن الزهور الزرقاء موجودة في الطبيعة، يا عزيزتي، إنها رمزٌ لشيء
ما، على ما أعتقد، في الشعر.

قلت:

- أوه، حقًا؟

قالت والدتي:

- ربما كانت رمزًا للإلهام، أو اللامتناهي. الزهرة الزرقاء.

قالت ألف:

- هل يمكن أن تخرجوها من هنا؟ هل يمكن أن تأخذوها بعيدًا؟

اندفعتُ إلى غرفة خالتي قائلة:

- مرحباً! مفاجأة!

وضعتُ باقة الزهور الضخمة على الطاولة الجانبية المجاورة
لفراشها، فضحكتُ وقالت:

- يا إلهي! كم هي جميلة!
قلت:

- إنها من ألف.

أخبرتُها أنني أشعر بالأسف لهذه التطورات الأخيرة، وأنا سنتناول
غداءً سريعاً، أنا وألف ووالدتنا، ثم نعود أنا ووالدتي إلى جناحها هنا،
لزيارتها كما يجب. نفت وجود أي أهمية للأمر، وقالت:

- مهلاً، اهدئي. إذا كانت والدتك تستطيع القيام بذلك، فأنا أيضاً
أستطيع.

ثم ضحكتُ مرة ثانية، كانت تتحدث عن العملية الجراحية، رفعتُ
ذراعها الموضوع في الجبس، وقالت إنه يزعجها للغاية، ثم سألتني عمّا
إذا كنتُ أرغب في كتابة شيء ما عليه. كتبتُ: «أحبك، يا خالتي تينا!».
نظرتُ إليه، ثم أخبرتني بأنها تحبني أيضاً. طلبتُ مني أن أحضر لها قلمًا،
أو عصا تقليب المشروبات، أو أي شيء يمكنها أن تدخله في الجبيرة كي
تتمكن من حكّ ذراعها، إذ كان يشير جنونها. سألتها:

- ما هذه الأرقام؟

أخبرتني أنها كتبت على جبيرتها أرقام الهواتف المحمولة لكل
من شيلا وأستير. كانت شيلا وأستير ابنتيهما، بنات خالتي، أكبر سنًا مني
أنا وليني، شقيقتهم التي ماتت، وكثيرًا ما كانتا تجالساننا إبان طفولتنا،
وتمنحانا أكياسًا ضخمة من حلوة تويزلرز الحمراء لشراء سكوتنا، كي

تتمكّننا من التسلل والخروج مع صديقيهما. كنّا أنا وليني ننتظر خروجهما، ثم نخرج للتجول بمفردنا في أرجاء البلدة حتى ننتهي من أكل كل التويزلرز، وتنطلق صافرات موعد النوم من محطة الإطفاء. طلبتُ مني تينا أن أجلب لها قهوة من ستاربكس، قالت:

- لكن لا تخبري الممرضات، أدخلنها خلصة فحسب. حجمًا صغيرًا، من دون كريمة.

أجبتها قائلة:

- لقد صرتُ مهزّبة بالفعل، لا توجد مشكلة، يمكنكِ الاعتماد عليّ. توجّهتُ إلى مكتب الممرضات، وسألتُ عمّا إذا كانوا يعرفون متى ستجري عملياتها الجراحية، قالوا لي:

- في الساعة السادسة من صباح الغد، مع الدكتور كيفوركيان. أو على الأقل هذا ما بدا لي أنني سمعته. عدتُ إلى غرفة خالتي، وقلت:

- غدًا إذن!

شعرتُ أنني أبدو هستيرية.

قالت خالتي:

- أجل. سأخضع للجراحة. لقد رسموا على جسدي، وخططوا كلّ شيء. «قُص بطول الخط المتقطع». يا له من أمرٍ مضحك.

سألتها عن بناتها، وعمّا إذا كانت كلتاها قادمتين، قالت:

- لقد اتصلتُ شيلا، وسوف تصل هي وفرانك عصر اليوم.

أرسلتُ إلى شيلا رسالة بريد إلكتروني سريعاً من البلاك بيرى خاصتي، وطلبتُ منها أن ترسل إليَّ بيانات رحلتها، كي أقلهما من المطار. كان فرانك بمثابة عمي، زوج تينا المخلص، الذي يميل إلى المزاح. كان يمشي بصعوبة بسبب مرض السكري، لكنه أبدى استعداداً للقدوم إلى هنا كي يكون بجانب تينا. قبَلْتُ خالتي، واحتضنتني هي بشدة، بقوة لا تصدق بالنسبة إلى مريضة ستخضع لجراحة في القلب. نظرتُ في عيني، وقالت:

- يولاندي، أبلغني ألفريدا بمحبتي لها، قولي لها إنني أحبها، وإنني أعرف أنها تحبني أيضاً، إنها بحاجة إلى سماع ذلك. وعدتُها أنني سأفعل، واستدرتُ كي أرحل. نادَتْ خالتي من فراشها قائلة:

- هناك شيء آخر! نحن من آل لوين! وهذا يعني أننا أسود! (كان هذا هو لقب عائلة والدتي وتينا قبل زواجهما). ابتسمتُ وأومأتُ برأسي، وغمغمتُ قائلة للممرضة التي مرّت بجواري:

- إن خالتي ملكة الغابة، لذا أرجو التعامل معها بعناية. ضحكّت الممرضة، وضغطتُ على ذراعي. كانت الممرضات في قسم أمراض القلب مرحات وودودات أكثر بكثيرٍ من الممرضات في قسم الأمراض النفسية.

إذا تعيّن عليك الذهاب إلى المستشفى، حاول أن تجعل أملك كله يتركز في قلبك، بدلاً من رأسك.

«المطار، باب السيارة، شراء ستارة للحمام، الحصول على الطلاق».

حدثت نفسي بصوتٍ مرتفعٍ. وقفتُ داخل المصعد، وضغطتُ على حرف «M» حتى أضاء الزر اللعين، وبتنا في طريقنا إلى الطابق الرئيسي.

«المطار، باب السيارة، الحصول على الطلاق». كان هناك شيء آخر نسيته.

أرسلتُ رسالة نصية إلى جولي، وسألتها عمّا إذا كان بوسعها مقابلتي في «كرويدون بار آند جريل» في غضون ساعة كي نتناول التيكسلا، لأن عددًا قديمًا من مجلة «شاتلين» في غرفة انتظار قسم أمراض القلب ذكر أنه من المهم الاحتفال بالطلاق، بدلًا من الشعور بالخزي والذنب والندم، ثم مرافقتي بعد ذلك في مشاويري لأداء المهام المختلفة. أجابتنني برسالة نصية قالت فيها إنها في بار «ليجون» مع زملائها العاملين في البريد، لحضور يانصيب لتوزيع اللحوم، وإنها ثملة بالفعل، لكن يمكنني المرور لاصطحابها في أي وقتٍ.

اشتريتُ شطيرتين من سلطة البيض، وشطيرة من لحم الخنزير، وتفاحتين، وكيسًا من رقائق البطاطس المحمرة (لم يكن أيٌّ منّا يأكل رقائق البطاطس المحمرة) وزجاجة مياه ضخمة، وكوبًا صغيرًا من قهوة ستاربكس من دون كريمة. ركبْتُ المصعد عائدة إلى قسم أمراض القلب،

وفكرتُ بينما كنت أقف هناك متكئة على جداره ووجتني تلامس الفولاذ اللامع البارد، أن عليَّ محاولة العثور على بينيتو زيتينا موريلوس، وسؤاله عن رأيه في قتل شقيقتي، إذ كنت بحاجة إلى شخصٍ ما يقول لي ما يتعين عليَّ القيام به.

كان بينيتو زيتينا موريلوس هو أستاذي القديم في مادة الفلسفة. كنت أدرس في صفِّه مادة أخلاقيات علم الأحياء الطبي، في نفس الوقت الذي كنتُ أعطي فيه ملاحظاتي لجيسون الميكانيكي في صف الأدب الكندي. كان بينيتو زيتينا موريلوس خبيراً في مثل هذه الأشياء، ودوماً ما كان يظهر في لجان نقاشات قناة سي بي سي، وهو يتحدث عن القتل الرحيم، وعن كل الأشياء المتعلقة بالحق في الموت، في الأساس. كان قد درس في أوكسفورد، وذات مرة خلال محاضراته، أخذ يتحدث عن طالب مينوناتى من رودس، كان يدرس معه في أوكسفورد، ولم يستطع التعامل مع ذلك القدر من الحرية. كان ذلك في فترة الستينيات أو السبعينيات. تورَّط بشدة في تعاطي المخدرات، وانتهى الأمر بموته. كان هذا ابن عمي في الواقع، واحداً من أربعة آلاف من أبناء عمومتي، وقد أخبرتني والدتي عن المتاعب التي واجهها حينما كنت طفلة، وها هو بينيتو زيتينا موريلوس يستخدمه كمثالٍ لتوضيح مدى صعوبة الانتقال من نقيضٍ إلى نقيضٍ. كنا شبه متأكدين من أنه مات بسبب جرعة زائدة من المخدرات، لكن أحداً لم يعرف على وجه اليقين، لأن والديه كانا كسيري الفؤاد، ولم يرغباً في تشريح الجثة، أراداً فقط أن يعود جثمانه إلى موطنه حيث ينتمي، وأن يُدفن في المقبرة البسيطة التابعة لكنيستنا المينوناتية الريفية الصغيرة. صرْتُ في

أمس الحاجة الآن إلى نصيحة بينيتو زيتينا موريلوس. صادفته عدة مرات في وينبيج منذ أن درست مادته، وهو يمشي كلبه ويقرأ في نفس الوقت. وإذا لم يكن كلبه برفقته، كان يسير في مضمار المشي بمدرسة كيلفين الثانوية، وهو يدور ويدور، ودومًا ما كان يقرأ، مع وجود قلم في فمه في كثير من الأحيان. «حسنًا، المطار، باب السيارة، أوراق الطلاق، بينيتو زيتينا موريلوس، ستارة حمام!».

وصلتُ إلى طابق خالتي، وناولتها القهوة، ثم قُبِّلَتها ثانية، وضربنا كفينا ببعض، وأطلقنا بعض النكات بشأن تقلبات الحياة، وكيف يمكن أن يكون كل ذلك مضحكًا من زاوية معينة، أو من أي زاوية حتى. ذكرتُ المثلث المتساوي الساقين: ماذا لو أن كل زاوية من زواياه أثارت ضحكه؟ بعدها، توجهتُ إلى جناح الأمراض النفسية رقم ٢.

تناولنا غداءنا السري في غرفة ألف. جلستُ والدتي بهدوءٍ، بينما ذرعتُ أنا الغرفة وأنا أتناول الطعام. تناولت ألف نحو ثلاث قضمات صغيرة من شطيرتها، وظلَّت تصوِّب نحوي نظراتها وهي تمضغ، وقد قطبت جبينها، وبدأ شعرها مهوشًا. جاء كاهن من كنيسة والديّ المينوناتية القديمة في إيست فيليدج لزيارة ألف، في غيابنا أنا والدتي. تمكَّن بطريقة ما من إقناع مكتب الممرضات بالسماح له بالدخول. كان قد سمع، على الأرجح من الأسرة الناجحة التي كانت بغرفة الانتظار، أن ألف في المستشفى. قال لها:

- إذا وهبت حياتك للرب، فلن تعاني من أي ألم، وسترغبين في الحياة. إن رفض هذا يعد ذنبًا فاضحًا. هل يمكننا أن نصلي معًا، من أجل روحك؟

قلت:

- يا إلهي! اللعنة!

قالت والدتي:

- إن ألف غاضبة.

ثم نظرتُ نحو شقيقتي مباشرة، وواصلت الحديث:

- ألسْتُ غاضبة؟

جلستُ والدتي مباشرة في مسار عمود من ضوء الشمس الذي اخترق النافذة ذات القضبان، وأحاطتها هالة من الذهب الذي يشع حرارة. أرادت أن تظهر ألف غضبها، وأن تستخدم مهاراتها اللغوية المذهلة لتمزيق ذلك الوغد الصغير إربًا، حتى بعد أن غادر الآن.

سألتُ ألف:

- ماذا فعلتِ؟ أتمنى أن تكوني قد قلتِ له أن يذهب إلى الجحيم.

كان عليكِ الصراخ، متهمة إياه بمحاولة اغتصابك.

قالت والدتي:

- يولي.

قلت:

- أتحدث جدًّا.

قالت ألف:

- لقد أَلْقَيْتُ قَصِيدَةَ.

قلت:

- ماذا؟ قصيدة؟ كان يجب أن تخنقيه بسر والكَ الداخلي!

قالت:

- قصيدة لفيليب لاركن. وليس لديَّ سراويل داخلية. لقد أخذوها

مني.

سألتها والدتي:

- هل يمكنكِ إلقاؤها علينا الآن؟

فتأوّهت ألف، وهزّت رأسها.

قلت:

- هيّا، يا ألف، أريد سماعها. هل كان يعرف أنها قصيدة للاركن؟

سألتنى والدتي:

- هل جننتِ؟

- هيّا، يا ألف. فلتلقي القصيدة فحسب.

قالت ألف:

- لأي غرض وُجدت الأيام؟

قلت:

- ماذا تقصدين؟

- الأيام هي حيث نقيم.

قلت:

- ماذا؟

قالت والدتي:

- يولي، صه، هذه هي القصيدة. دعيها تنتهي من إلقائها.

- تأتي وتوقظنا

المرة تلو الأخرى

هي حيث ينبغي لنا التمتع بالسعادة

أين يمكننا العيش، إلا في الأيام؟

قلت:

- هذا رائع، يا ألف. يعجبني ذلك.

قالت والدتي:

- يولي، بحق السماء، هناك مقطع آخر. اسمعي. واصلي، يا ألف.

- آه، إن جواب هذا السؤال

يأتي بالقسيس والطبيب

بردائهما الطويل

مهرولين عبر الحقول

قلت:

- هممم، حسنًا، ماذا قال بعد ذلك؟

قالت ألف:

- لا شيء.

قالت والدتي:

- أخبر بها لم لم يقل شيئًا.

بدت كما كانت في الماضي، وغطت فمها بيدها.

قالت ألف:

- لأنني كنت قد خلعتُ كل ملابسِي بنهاية القصيدة.

قالت والدتي:

- لقد رحل مسرعًا.

قلت:

- هذا جنوني للغاية! يا إلهي، تبًا، هذا رائع!

قالت:

- حاولتُ أن أكون مثلك. لم أكن أملك أي شيء آخر.

قلت:

- دعكِ من هذا، الأمر كله نابعٌ منك أنت. أنتِ غير معقولة! اللعنة،

أنتِ مذهلة!

قالت والدتي:

- يولي، يا إلهي، كفالكِ سبَابًا. أرى الآن من أين تعلم ويل ونورا ذلك.

قلت:

- التعري بمصاحبة قصيدة لفيليب لاركن! اللعنة، هذا مذهل!

في النهاية، قالت لي والدتي إن عليَّ الذهاب للقيام بما يتوجب عليَّ

الانتهاء منه -أوه، أجل، طلاقِي!- بينما ستبقى هي لبعض الوقت، ثم

تستقل سيارة أجرة للعودة إلى المنزل. في طريقي إلى الخروج، تحدثتُ

مع ممرضة ألف، قلت:

- من فضلك لا تسمحِي لأي شخصٍ بالدخول لزيارة ألف، سوى

أفراد الأسرة، كما لن تسمحوا لها بالخروج في أي وقتٍ قريبٍ، أليس

كذلك؟

قالت:

- لا، بالطبع. ستبقى هنا لفترة من الوقت، إذا أخذنا في الاعتبار كل ما حدث. وبالمناسبة، كان ذلك الرجل حالة شاذة؛ قال إنه كاهنها، وتجاوزنا ودخل مباشرة، أنا آسفة.

فكرتُ قائلة لنفسي: «يا إلهي، لقد اعتذرتُ الممرضة بالفعل». قلتُ لها:

- لا توجد مشكلة، لقد تعاملت ألف مع الأمر. لكن أرجوكِ لا تسمح لها بالخروج.

قالت الممرضة:

- لن نفعل، لا تقلقي. اتفقنا؟

بدت عيناها غائرتين، ومليئتين بالشفقة. كان بوسعي الاستمرار في التحديق إليهما طوال اليوم، لما بقي من عمري. قلتُ:

- أوه، شكرًا لك. لأنه لا يوجد أحدٌ في منزلها؛ زوجها في إسبانيا، ولا أحد هناك.

أصبحت هذه عبارة متكررة في أسرتي. صرنا أشبه بكورس إغريقي. كم مرة سأتوسل إلى المستشفيات كي لا يسمحوا لأفراد أسرتي بالرحيل؟ توسلنا أنا وألف مرارًا وتكرارًا إلى المستشفى في إيست فيليدج كي لا يسمحوا لوالدنا بالرحيل، لكنهم تركوه يرحل على أي حال، حتى رحل إلى الأبد، في حين انصبَّ اهتمام الأطباء على تكديس أكبر عددٍ ممكن من المواعيد في اليوم بقدر المستطاع، كي يتمكنوا من تحمُّل تكاليف إجازتهم

القادمة لركوب الدراجات في جبال البرانس. طمأنني الممرضة وقالت إن نيكولاس تحدّث معها بالفعل، وإنها تعرف أنه ذهب إلى إسبانيا، ووعدت بأن ألفريدا لن تذهب إلى أي مكان قريبًا. قاومتُ كي أُمْنَع نفسي من أن أحيطها بذراعي، وأخبرها أنني أحبها.

في طريق خروجي من المستشفى، تفقّدتُ الرسائل على هاتفي. كان دان غاضبًا من نورا، إذ إنها تمكّنت من اختراق بريده الإلكتروني بطريقة ما على ما يبدو، وأرسلت رسالة جماعية إلى جميع معارفه تعلن فيها أن له ميولًا مثلية، وأنه شعورٌ رائعٌ أن يتمكن أخيرًا من إعلان الحقيقة، وأنه يأمل أن يتفهّم الجميع الأمر، وألا يدعوا شيئًا يتغير بينهم. بطريقة ما، لمّح طليقي في رسالته إليّ أنني مسؤولة عن كون ابنتنا ثملت بعض الشيء برفقة أصدقائها، واتخذتُ «قرارًا سيئًا».

كتب قائلاً: «كان هؤلاء جميع معارفي، بما في ذلك العمل أيضًا، الجميع، وهي تضحك بشأن ذلك فحسب، وترفض الاعتذار. البنت لأمها».

أرسلتُ إليه رسالة نصية قائلة: «لكن هل أنت مثليّ بالفعل؟». أجابني برسالة نصيّة أخرى: «هل أنتِ في الثالثة عشرة من عمرك حقًا؟».

أجبتُه: «علاوة على هذا، أي عمل ذلك الذي تعنيه؟». ردّ قائلاً: «لا علاقة للأمر بمسابقات الروديو، لذا ربما يكون خارج نطاق استيعابك».

أرسلتُ إليه رسالة نصيّة قلتُ فيها: «ربما كانت غاضبة منك،

لوجودك في بورنيو باستمرارٍ. كيف حال الأمواج؟». ثم أغلقتُ هاتفني
المحمول بسرعة.

كتبتُ على جوجل: «هل يمكن أن تتسبب كتابة رواية في موتك؟»،
فلم أعر على شيء مفيد. أسرعْتُ إلى مكتب محاميّ الشبيه بالهيبز
- كانت لديه أذن مثقوبة، ولحية صغيرة، ويعيش في ولزلي، نفس الحي
الذي تعيش فيه جولي - وفشلتُ في الخروج من السيارة من جانب
السائق، فأطلقتُ سبَابًا وانزلتُ خارجة من الجانب الآخر، ثم هرعتُ
إلى المكتب قائلة إن لديّ أربع دقائق لتوقيع الأوراق، وأنه لا يوجد شيء
في العالم سيسعدني أكثر من كتابة اسمي الغبي على ثلاث نسخ من هذه
الوثيقة تحديدًا. أخرجتُ بطاقة ائتماني، وقلتُ:

- لندفع التكاليف الآن، ونجعل هذا الاتفاق رسميًا، أعتقد أن هذا هو

ثمن الحرية!

ضحكتُ سكرتيرة المحامي، لكن كان بوسعي أن أدرك أنها تشفق
عليّ؛ كنت أفقد عقلي. هرعتُ عائدة إلى السيارة، وفشلتُ في فتح باب
السائق مرة أخرى. طرقتُ على النافذة، وأطلقتُ سبَابًا خافتًا في مهب
الريح التي أخذت تتحوّل إلى شيء آخر، يختلف عن النسيم اللطيف.
ربما كانت أشبه برياح الميسترال الشمالية الباردة، التي يمكن أن تدفعك
إلى الجنون، بحيث يمكن تبرئتك في فرنسا إذا قتلت شخصًا ما في أثناء
هبوبها. درتُ بسرعة حول السيارة، وانزلتُ عبر جانب الراكب، ثم
أسرعتُ إلى جيسون الميكانيكي، صديقي منذ الليلة الماضية. دخلتُ
المرآب مباشرة بالسيارة، وأوقفتها، ثم نسيت مرة أخرى أمر ذلك الباب
الذي لا يفتح أبدًا، وغصت في مقعدي وقد انهزمت.

خرج جيسون من تحت غطاء محرك سيارة رياضية متعددة الأغراض،
وفتح لي باب الراكب قائلاً:

- تعالي هنا.

انزلقتُ خارجة برأسي أولاً كالمولود، فعانقني، وأخبرته بشأن
باب السائق، وأن عليّ أن أكون في المطار في غضون اثنتي عشرة دقيقة
لاصطحاب شيلا، ابنة خالتي، وعمي فرانك، اللذين جاءا ليكونا برفقة
خالتي، أي والدتها، وزوجته، التي اضطرت إلى إجراء جراحة مفاجئة
في القلب، وأنني حصلت على الطلاق رسمياً للتوّ. ربت جيسون على
ظهري، وقال لي إن الطلاق يُعد أحد أكبر ضغوطات الحياة -إلى جانب
وفاة أحد أفراد الأسرة- لأنه يشبه الموت، ولا مانع لديه إذا بكيت. أعارني
سيارة بديلة لاصطحاب أقاربي، وقال إنه سيصلح الباب لاحقاً عصر ذلك
اليوم، من دون مقابل، ولا داعي للقلق.

كنتُ قد نسيت أمر جولي. أسرعْتُ إلى بار «ليجون» في شارع
نوتردام. تعالت موسيقى بشعة من راديو السيارة المستعارة، لكنني لم
أستطع اكتشاف كيفية إطفائها. كانت جالسة على الرصيف في انتظارني،
وهي مخمورة وتحمل مجموعة من شرائح اللحم المجمدة. ركبْتُ
السيارة، فأخبرتها أنني حصلتُ على الطلاق، قالت:

- أعرف ذلك.

- لا، لكنني وقَّعت الأوراق الآن، وبات الأمر محسوماً.

قالت:

- مبارك.

ثم حاولت إطفاء الراديو.

- كيف يبدو ذلك الشعور؟

سألتها:

- كوني مطلقة رسمياً؟

قالت:

- مطلقة رسمياً، هاتان كلمتان فظيعتان، لا ينبغي لهما حتى أن تكونا كلمتين.

- حلمتُ بالأمس أنني سمعتُ رجلاً يخبرني أن الكلب المنقوش على الصخر، مثل نقوش ما قبل التاريخ، يعني الحب الأبدي.

قالت:

- لقد سمعتُ ذلك أنا أيضاً. كيف حال ألف؟

قلت:

- كما هي.

قالت جولي:

- هل ما زلت تفكرين في قتلها؟

- هذا ليس قتلاً، بل مساعدة.

قالت جولي:

- أعرف ذلك، لكن هل ستفعلين؟

قلت:

- لا تخبري أحداً، لم تذكر ألف الأمر لنيك ولا لوالدتي. إنها تريدني

فقط أن أصطحبها إلى سويسرا، نحن الاثنان.

قالت جولي:

- يا إلهي، هل ستفعلين؟ ما هذا، ما خطب عينيك؟
أخبرتها أن عليّ تعقب أستاذي السابق في الفلسفة، بينيتو زيتينا
موريلوس.

قالت:

- يبدو هذا كأنه من إحدى روايات بولانيو. هل لديك عنوان بريده
الإلكتروني، أو رقم هاتفه؟
تناولت يدي، وأمسكتها. هزئت رأسي، وأخبرتها أن عليّ التوجه إلى
مدرسة كيلفين الثانوية، وربما أجده في مضمار المشي هناك. قالت:
- عليك البيات في منزلي الليلة، ودعيني أعد لك شريحة من اللحم.
لديّ نبيذ. أعتقد أنك حقاً بحاجة إلى البروتين.

قلت:

- لا أستطيع، عليّ توصيل والدتي وابنة خالتي وعمي إلى المستشفى
في السادسة صباحاً، هذا موعد جراحة خالتي، وجميعهم سيقمون في
شقة والدتي.

قالت:

- حسناً، مساء غد إذن. لا أعتقد أن عليك المضي قدماً في موضوع
سويسرا ذاك.

قلت:

- لا أدري.

قالت:

- ليس من الضروري أن يكون شيء ما صحيحًا، لمجرد كونه قانونيًا.
قلت:

- أجل، أجل، لكن جوهر الحجة التي في صالح ذلك الموضوع هي
زيادة الاستقلالية الفردية، وتقليل المعاناة البشرية، ألا يبدو ذلك صحيحًا؟
قالت:

- هل أنت محمومة؟

أمسكتُ بشريحة لحم محمد إلى جبهتي.

توجهنا إلى المطار، وبقيت جولي في السيارة أمام المطار وغفت
وبين ذراعيها كومة من اللحم، بينما ذهبْتُ كي أجلب ابنة خالتي وعمي.
تعانقنا في المطار عناقًا جماعيًا، لكن لم يبق في جعبتنا شيئًا سوى
الدعاء. لقد مررنا بكل هذا من قبل. كنّا نحب بعضنا، ونقاتل من أجل
بعضنا، عندما ينهار العالم، نُدفن تحت الأنقاض معًا، وعندما يتم إخراجنا
من تحت الأنقاض وإنقاذنا، نحتفل جميعًا معًا. لم يكن هناك الكثير مما
يمكن قوله عن ألف وتينا. كنّا سنتوجه إلى المستشفى مباشرة. تحدثنا
جميعًا في نفس الوقت في السيارة. تحدثت شيلا عن الجبال والتطعيمات،
لأنها كانت متسلقة جبال وممرضة صحة عامة، وتحدث عمي فرانك عن
الفجوة التي بحجم عملة معدنية من فئة دولارين كنديين في ساقه، وعن
حجرات الضغط العالي، لأنه كان مصابًا بمرض السكري، بينما تحدثتُ
جولي عن كيف فازت باللحم الذي بحوزتها، وتحدثتُ أنا عن راليات
السيارات في المغرب. كانت لديّ خطة للانضمام إلى رالي مخصص
للنساء فقط. كنّا سنقود السيارات من دكار إلى مكان آخر، وننام في

الصحراء مع الجمال والمرشدين البدو. قد يستغرق الأمر شهرين، وستكون جولي رفيقتي، لكنني لم أكن قد أخبرتها بذلك بعد. قالت:

– ماذا؟ ننام مع المرشدين البدو؟

قلت إنها ستكون مسؤولة عن الملاحاة، بينما أتولى أنا القيادة. سنأخذ دورة في الميكانيكا عند جيسون قبل ذهابنا، وسيكون الراعي الرسمي لنا هو هيئة البريد الكندي، كانت هذه هي خطتي. قال عمي إنه بالنظر إلى الطريقة التي أقود بها الآن، فلديّ على الأرجح فرصة ممتازة في الفوز بالسباق، وإنه لن يستغرق مني شهرين.

أوصلتهما إلى المستشفى، وأخبرتهما أن والدتي في جناح الأمراض النفسية مع ألف، وأن تينا تنتظرهما في قسم أمراض القلب. كنت سأتصل بوالدتي على هاتفها المحمول في غضون ساعتين، ثم أعود لأصطحب الجميع مرة أخرى كي نذهب إلى مكانٍ ما لتناول العشاء.

قال عمي فرانك: «حسنًا إذن»، وسار يعرج في طريقه لرؤية زوجته، بينما فعلتُ شيلا مثلما فعلتُ والدتها، وعانقتني بشدة وهي تخبرني أننا سنجتاز كلَّ هذا، وأنا سنقاتل حتى نتجاوزه. لديّ ست وخمسون من أبناء وبنات الخوالة من الدرجة الأولى، معظمهم من الذكور، ناهيك عن جميع الأزواج والزوجات والأطفال المختلفين، لكن شيلا هي أقوى الجميع. يمكنها أن تقطع ذراعك بكل سهولة إذا علق في فخ في البرية، وكانت هذه هي وسيلتك الوحيدة للخلاص. سقطتُ من على جبل ذات مرة، وظلّت ملقاة هناك طوال يوم وليلة بأكملهما، وقد تهشمت ساقها اليسرى، حتى تمكّنت مروحية الإنقاذ من العثور على طريقة لإسقاط السلم في الشق الصغير الذي سقطتُ داخله. أخبرتُ الطيار أنها قاومت فقدان

الوعي عن طريق ترتيب الأسماء الأولى لكل أبناء وبنات خؤولتها أبجدياً، ومراجعة كل واحدٍ منهم في ذهنها، ووصفه لجمهورٍ خيالي. قالت لي إنها أدرجتني تحت حرف الدال، نسبة لاسم «دوارة». تُعد أسرة شيلا وأسرتي جزءاً من فريق بنات الخؤولة الفقراء. لدينا أبناء خؤولة أثرياء، فاحشو الثراء، لأنهم أبناء الأبناء (أخواننا، الذين توفوا جميعاً)، الذين ورثوا التجارة العائلية المربحة عن جدنا، والد كل من تينا ووالدتي. هكذا كانت تسير الأمور في عالم الطائفة المينوناتية. يرث الأبناء الثروة، ثم يورثونها لأبنائهم، ولأبناء أبنائهم، بينما لا تنال الفتيات أي شيء على الإطلاق. لم نكن نحن بنات الخؤولة الفقراء نكتثر لذلك على الإطلاق، إلا عندما نكون في حاجة لتلقي إعانات من الحكومة، أو نعاني من الإفلاس، أو نتضور جوعاً، أو غير قادرات على شراء ملابس رائعة لأطفالنا، أو دفع مصاريف دراستهم الجامعية، أو شراء منزل رابع ضخم على جزيرة خاصة بها مهبط لطائرات الهليكوبتر. لكن مهما يكن، قد لا نمتلك نحن سليلات الأسرة من الإناث ما يكفي من الثروة، وقد لا يكون لدينا نوافذ محكمة في منازلنا التي هي عرضة للتيارات الهوائية، لكننا على الأقل نمتلك طاقة من الغضب، وسنبني بها إمبراطوريات، أيها السادة.

رافقتني جولي إلى مضمار المشي في مدرسة كيلفين الثانوية، لكننا لم نرَ بينيتو زيتينا موريلوس هناك، بل مجرد بعض الطلاب الجالسِين على المضمار وهم يدخنون الماريجوانا ويتظاهرون باللامبالاة. سألتُ جولي:

- متى يتعيّن عليك الذهاب لاصطحاب أطفالك؟

قالت:

- لستُ مضطرة إلى ذلك؛ إنهما مع مايك اليوم، لذا سمحت لنفسي

بالاستمتاع بأبسط الملذات في بار «ليجون» اليوم.

قلت لها:

- دعينا نذهب إلى تل القمامة.

كان تل القمامة مكبًّا للنفايات، حتى زرعوه بالعشب، وصار الآن مكانًا يمكنك قضاء الوقت عنده صيفًا، والتزحلق عليه شتاءً، على الرغم من وجود لافتات عملاقة مكتوب عليها «ممنوع التزحلق!». أُطلق على المكان اسمًا جميلًا، لم يستطع أحد تذكره، وتعرّضت اللافتة للتلف بعد أن كُتب فوقها. أطلق الجميع على المكان اسم تل القمامة، بما فيهم المحافظ الذي لم يكن محافظًا أكثر من كونه بائعًا في مزاد، يبيع المدينة بالتجزئة لمن يدفع أعلى سعر. إنه ليس بالغالترفاع، ولا يُعد تلاً بالفعل، لكنه يمثل أعلى نقطة في وينيبيج، واعتقدتُ أن عليّ الاقتراب من الرب بقدر الإمكان، على الرغم من أنني لم أكن متأكدة من السبب وراء ذلك، إما كي أصلي له طلبًا للرحمة، وإما لكي أعلن ثورتي عليه، أو كي أقدم له الشكر. هذه النصيحة الأخيرة قدّمتها إليّ خالتي تينا عندما توفي والدي. قالت لي إنه حتى لو لم يكن المرء يؤمن بصدق بوجود الرب، فمن الجيد أن يغلق عينيه ويفكر في قائمة ذهنية بكل الأشياء التي يشعر بالامتنان لها. تربّعنا أنا وجولي على قمة التل، فوق العشب البني الشائك، وتبادلنا الذكريات حول جلسة تصوير أجرتها هنا منذ أربعمئة عام، حينما كنّا طالبتين مظفرتين في المدرسة الثانوية.

سألتني:

- هل تشعرين بالتعب؟

قلت لها:

- أنا منشغلة بترتيب قائمة في ذهني.

- قائمة بماذا؟

- بالأشياء التي أشعر بالامتنان لها.

- هل أنا على القائمة؟

قلت:

- بالتأكيد أنتِ على القائمة!

أغمضتُ عينيها، وشرعت تضع قائمتها الخاصة.

سألتنني:

- هل يمكن أن يكون شيئاً بسيطاً، مثل اكتشاف أن الخبز الذي لديك

ليس متعفنًا، بالتالي سيكون لديك خبزٌ للأولاد على الإفطار؟

كانت عيناى لا تزالان مغمضتين. قلت:

- أجل. أنا أشكر الرب الآن على البيرة.

قالت:

- أوه، هذه فكرة جيدة، وأيضًا أصابع الإبهام التي تمكنا من التقاط

الأشياء.

سألتها:

- هل ما زلتِ مخمورة؟

قالت:

- لا.

- إذن، لقد بحثُ في جوجل، وسوف يكلفني الأمر...

- ما الذي بحثِ عنه في جوجل؟

- العيادة السويسرية، في زيورخ.

- أوه! حسنًا.

- لقد بحثُ في جوجل، وسيتكلف الأمر خمسة آلاف ومائتين وثلاثة

وستين دولارًا وستة عشر سنًا للعلاج، علاوة على تسعة آلاف ومائتين

وعشرة دولارات أخرى وثلاثة وخمسين سنًا للتكاليف ذات الصلة.

قالت:

- ما هي التكاليف ذات الصلة؟

- التكاليف الطبية، والمصاريف الرسمية، والجنائز.

- لكنك لن تقيمي الجنائز هناك، أليس كذلك؟

- بلى، هذا صحيح، سأعيد جثتها.

سألتني:

- لكن بعد حرقها؟

- أجل، بالتأكيد. لذا هناك تكلفة لذلك أيضًا، على ما أعتقد.

سألتني:

- كم يتكلف ذلك؟

- ليست لدي أدنى فكرة.

قالت:

- ما زلت أعتقد أنه يجب ألا تقدمي على هذا، أعتقد أن ذلك

للأشخاص الذين يحضرون على أي حال.

قلت:

- لا، إنه للأشخاص الذين يعانون من أمراض عقلية أيضًا. يُطلق على الأمر «السأم من الحياة»، ولهم نفس الحقوق التي لأي شخص آخر يرغب في الموت، وفقًا للقانون السويسري. يمكنك القول بأنها تحتضر، كما أنها سئمت الحياة، بكل تأكيد.

تأملنا المدينة، والسماء، وتأملت إحدانا الأخرى. ابتسمت جولي، ونطقت باسمي، فنطقت أنا باسمها. قالت:

- لا أدري.

قلت:

- لا أريدها أن تموت، لكنها تتوصل إليّ. إنها تتوصل إليّ حرفيًا، ماذا أفعل؟

هزت جولي رأسها، وقالت إنها لا تعرف، ثم اقترحت أن أنتظر قليلًا، لمعرفة ما إذا كان العلاج أو الدواء سينجح معها هذه المرة، عليّ الانتظار فحسب. وافقتها قائلة:

- يمكنني ذلك، لكنني أخشى أن يتركوها تخرج، وستكون هذه هي نهاية الأمر، وسترحل.

قالت جولي:

- لكن موضوع زيورخ هذا برمته يبدو غير مرجح.

قلت:

- أعرف، لكنه ليس مستحيلًا، بل هو ممكن، وبوسعي القيام بذلك من أجلها. يجب أن أفعل ذلك من أجلها.

قالت جولي:

- حسنًا، ليس بالضرورة، انتظري قليلاً فحسب، وانظري ما سيحدث.
- واحد وعشرون بالمائة من المرضى في العيادة السويسرية ليسوا من المرضى الميؤوس من شفائهم، لكنهم سئموا الحياة.

قالت:

- هل تعتقدين أنك ستتمكنين من العيش بضميرٍ مستريحٍ إذا أقدمت على ذلك؟

قلتُ:

- أو إذا لم أقدم على ذلك؟

قالت:

- في كلتا الحالتين.

تعيّن عليّ العودة إلى المستشفى لاصطحاب باقي أفراد الأسرة والبحث عن مكانٍ للأكل، لأننا في النهاية كنّا بحاجةٍ إلى تناول الطعام. مرة أخرى، بدا الأكل في مثل هذا الوقت محرّجاً للغاية ومثيراً للسخرية. كما كانت جولي ذاهبة للقاء معالجها الذي يتبع مدرسة يونج في التحليل النفسي. قلت:

- لا تخبريه بشأن هذه المحادثة.

قالت جولي:

- لا تقلقي، كل شيء سري.

قلت:

- لا، حقاً، يمكنهم إبلاغ الشرطة ببعض الأشياء، إذا اعتقدوا أن ثمة احتمالاً لوقوع جريمة أو ما شابه.

عانقتني ووعدتني ألا تخبر أحداً بشأن محادثتنا، بما في ذلك معالجها.
قالت:

- إنكِ ترتجفين، أشعر بقلبك ينتفض داخل قفصكِ الصدري.
سمعنا أصواتاً آتية من بعيدٍ، كانت هناك امرأة تقول: «حسنًا، أتعرف؟
حقًا؟ تبًا لك!». ثم رجل يقول: «حسنًا، أتعرفين؟ حقًا؟ تبًا لك!». بعدها
قالت المرأة: «هل تعلم كم أنفقتُ من المال؟»، فردد الرجل: «هل تعلمين
كم أنفقتُ من المال؟». قالت جولي:
- مدهش، سيرغب المرء حقًا في وجود ذلك الرجل بفريقه خلال
النقاشات، يا لها من ردودٍ رائعة، يا رجل.
حينها مرَّ صحن فريسي طائرٌ فوق رأسينا، وتفادى جولي بمقدار
شعرة.

قالت:

- يا إلهي، هل تدركين أن كلمة «رجل» كانت ستصبح الكلمة
الأخيرة التي أنطقها في هذا العالم؟ هل تعطيني أنك ستخبرين الناس أنها
كانت كلمة مختلفة، لأجل خاطري؟
قلت:

- سأفعل، يمكنك الاعتماد عليّ. ما الكلمة التي تريدينها؟

قالت:

- أوه، لا أدري. شيئًا ما مثل «بسرعة»، أو ما شابه.
- أتقصدين كما هو الحال في «ها أنت تراني، والآن لم تعد تراني»؟
قالت:
- أجل.

قلت:

- حسنًا، سأخبر طفليك ووالديك والجميع أن الكلمة الأخيرة التي تفوهت بها هي «بسرعة».

- شكرًا لك.

تناولنا العشاء في مقهى صغيرٍ بشارع بروفينشييه، بالقرب من المستشفى، ثم عدنا جميعًا إلى شقة والدتي، ولعبنا ببطاقات اللعب، لعبة «داتش بليتز» المصرَّح بها لأفراد الطائفة المينوناتية، وأخذنا نصرخ قائلين «بليتز» كلما فُزنا. أطلق كلٌّ من والدتي وعمي فرانك كلمات السباب بلغة البلاوتديتش، وصاح الجميع وصرخوا، وتطايرت أوراق اللعب. اضطرت والدتي إلى التوقف كي تلتقط أنفاسها، وتستخدم بخاخة النيتروجلسرين، واضطر عمي إلى أخذ حقنة أنسولين. بعد ذلك، وجدتُ ما يكفي من الملاءات والبطانيات النظيفة لتجهيز فراشين لشيلا ولعمي، في حين سأنام أنا على مرتبة هوائية. تمنيتُ للجميع ليلة سعيدة، على أن نتجمع مرة أخرى في الخامسة صباحًا. قبل أن تنام، جلسنا أنا وشيلا على فراشها، وتحدثنا عن شقيقتينا، ليني وألف، وحزنهما المبهم، وعن والدتي، لوتي وتينا، وتفاؤلهما الدائم. سألتها:

- ما الذي يمسك ساقك ببعضها الآن؟

قالت:

- المسامير والبراغي وأجزاء من الخردة المعدنية وأسلاك الربط.

أظهرتُ لي الندوب الممتدة صعودًا وهبوطًا، بطول ساقها التي

تهشمت. أخرجتُ علبة من الشوكولاتة، وتناولتُ كلَّ واحدةٍ منَّا قطعتين. قلتُ لها:

- أنا على يقينٍ من أن والدتك ستكون بخيرٍ؛ إنها تتمتع بالصلافة بدرجة لا تصدق.
قالت شيلا:

- هذا صحيحٌ. إنها إيجي بوب السيدات العجائز بالطائفة المينوناتية. تناولتُ كلَّ منَّا قطعتين إضافيتين من الشوكولاتة، ثمَّ أسرعْتُ عائدةً إلى المستشفى لرؤية ألف.

ركبتُ دراجة والدي القديمة، التي كانت تحتفظ بها والدتي في وحدة التخزين الخاصة بها في البدروم، وأسرعْتُ عبر المسار الذي يمر بجوار النهر الصاخب. لم أهتم حتى بتثبيتها بقفلٍ عند المستشفى، بل ألقيتها فحسب على العشب المجاور للباب الأمامي بجناح بالافيري، كما لو كنتُ طفلة من جديدٍ، وتأخرتُ على موعد بداية برنامج «عالم ديزني الرائع». قالت الممرضة عند المكتب إن الوقت تأخر، لكنني أخبرتها أن لديَّ أخبارًا مهمة للغاية لا تحتمل الانتظار. بدا من الواضح أنها لا تصدقني، لكنها قالت لي أن أدخل على أي حالٍ، إذ لم يكن هناك طاقم عمل إضافي ليدعمها في الجدل، وكانت مستغرقة في الفصول الأخيرة من رواية «شفرة دافنشي».

كانت ألف نائمة على جنبها، ووجهها إلى الحائط. رفعتُ البطانية، وتسليتُ إلى جوارها. واجهني ظهرها، لكن يدها كانت مستلقية على كتفها، كما لو أنها تعانق نفسها وهي تغفو، فلمستُ يدها. ضغطتُ عليها

برفقٍ، وأمسكتُها. فكرتُ كم هو من الغريب أن تتمكّن هذه القطعة الرخوة النحيلة من العضلات على إنتاج مثل هذه الموسيقى القوية. ضبطتُ أنفاسي لتتزامن مع أنفاسها ببطءٍ وثباتٍ. أغمضتُ عيني، ونمتُ معها فترة من الوقت، أعتقد أنها كانت ساعة أو ساعتين، أو ربما كانت عشرين دقيقة فحسب.

كثيرًا ما كانت أَلَف تتحدث وتمشي في أثناء نومها حينما كانت طفلة، واضطر والداي إلى نصب أفخاخٍ بجوار الأبواب كي لا تغادر المنزل. دندنتُ أغنية عن البط الذي يسبح في البحر، كانت أغنية قصيرة، علّمتها هي لي عندما كنت طفلة: أغنية عن الشجاعة، وعن كونك غريب الأطوار. لم تستيقظ، أو لا أظن أنها استيقظت. لم أرغب في الرحيل، لكنني كنت أعرف أنه يتعيّن عليّ ذلك. عندما خرجتُ، طلبتُ مني الممرضة احترام ساعات الزيارة في المستقبل، فقلتُ لها إنني سأفعل، سأحترم كل شيء في المستقبل. كانت دراجة والدي لا تزال موجودة، رطبة وسط العشب الندي. رفعتها، وبدت أخف مما كانت. تفحصتها للتأكد من أنها نفس الدراجة، دراجة حمراء باهتة ذات ثلاث سرعات، فوجدتها نفس الدراجة بالفعل. كيف يمكن أن تكون هناك دراجتان؟ لم يكن موكبًا. قفزتُ فوقها وركبتها وسط عتمة ما تبقى من ليلٍ.

كان الجميع نيامًا في شقة والدتي، ينتظرون الغد خلال أحلامهم. استلقيتُ فوق مرتبة هوائية على أرضية غرفة المعيشة. كانت هناك مكتبة زرقاء صغيرة بجواري، وعلى إحدى الأرفف مجموعة إلزامية من كتب

«روندا» خاصتي (جميعها مدونٌ بها إهداء مع محبتي وامتناني). بدت الكتب صلبة، وتشبه كتب الأدب الكندي على نحوٍ غريب، بكعوبها المميزة. انحسر بجانبها عددٌ كبيرٌ من روايات الجريمة التي بدا عليها أنها مقروءة ومحبوبة بدرجة أكبر. كان بعض تلك الروايات الأكبر حجمًا مقطوعًا إلى جزئين، أو حتى إلى ثلاثة أجزاء، مربوطة معًا بشريطٍ مطاطي، لأن والدتي لم تكن ترغب في حمل كتب ضخمة معها في كل مكان، ولم تكن تذهب إلى أي مكانٍ من دون كتابٍ، أو جزءٍ من كتابٍ في حقيبتها البنية الكبيرة. إلى جانب روايات الجريمة تلك، كانت هناك بعض الكتب من تأليف أشخاص آخرين تعرفهم، سواء أبناء وبنات أصدقائها، أو أشخاص من كنيستها، وكتب من الكلاسيكيات القديمة، وديوان شعر من تأليف كولريدج، صديق ألف القديم. تناولته من على الرف، وقرأتُ بعض القصائد، بما في ذلك هذه القصيدة:

في خيالي (أراك جيدًا)

بعد المشاغل البعيدة، والهموم المنزلية،

تسلَّل حول فراش شقيقة عزيزة

بخطى صامتة، وتراقب محياها الباهت،

تهدي كل وخزة ألم بحنانٍ واهتمامٍ

وبأرق نبرات المحبة التي هي بمثابة دواء.

أنا أيضًا، كانت لي شقيقة، شقيقة واحدة

أحبَّتني بشدة، وشغفتُ أنا بها!

أسررتُ لها بكلِّ أحزاني الضئيلة

(كمريض بين ذراعي ممرضته)
ومن قلبي، فاضت تلك العلات الخفية
التي تنكمش خجلاً حتى من عين الصداقة.
أوه! لقد استيقظتُ عند منتصف الليل، وبكيتُ
لأنها لم تعد مستيقظة!

لقد عثرتُ على قصيدة كولرديج الخاصة بألف، تلك التي استمدتُ
منها توقعيها: «ك.أ. ض.»، كل أحزاني الضئيلة. استلقيتُ على المرتبة
الهوائية، وغفوتُ، لكن ليس تمامًا، لم يكن نومًا عميقًا. وفي منطقة ما
بين النوم والحلم الصافي والوعي التام، عنَّ لي خاطرٌ، طرأت عليَّ فكرة.
سأدعو ألف إلى الإقامة معي في تورونتو لبعض الوقت، عندما تخرج من
المستشفى. سأكون هناك كي أصطحبها معي لزيارتي. يمكننا المشي،
وتبادل الحديث، والراحة، ولن يكون هناك أي ضغط، كما سأكون في
المنزل، أعمل نوعًا ما، حتى لا تكون بمفردها. وستكون نورا هناك أيضًا.
بعد ذلك، يمكننا أن نبحث موضوع زيورخ هذا باستفاضة، وإذا كانت
لا تزال تريد الذهاب، فسيكون من السهل جدًا السفر من تورونتو بدلاً
من وينيبج. لن يتعين عليَّ أي شخصٍ آخر أن يعرف، حتى ينتهي الأمر،
وبعدها سأفكر في كيفية التعامل مع كل ذلك.

في الصباح، زحفنا جميعًا من أسرَّتنا، وتجمّعنا مثل الطيور الصغيرة
على طاولة غرفة الطعام، نطعن طعامنا بأدوات المائدة، ونقافز طلبًا للمربي
والملاح والقشدة، ويحثُّ بعضنا بعضًا بحماسٍ مصطنع. تكدّسنا داخل
السيارة - كان جيسون قد تركها في موقف سيارات الزوار، والمفاتيح

أسفل الدواسة، بعد أن أصبح باب السائق يفتح الآن - وانطلقنا إلى ما صار بمثابة نادينا الجديد: مستشفى سانت أوديل. كان الوقت لا يزال مبكرًا لزيارة ألف، لكننا اجتمعنا جميعًا حول فراش خالتي، وعانقناها وقبلناها، وأخبرناها أن هذه الجراحة ستكون سريعة، ويسيرة، وأمرها هين. قالت: - أجل، أجل، أعرف كل ذلك، يا إلهي، تكفي هذه الأحاديث الحماسية الكثيرة، فلنبداً العمل!

دلّكتُ شيلًا ذراعِي وساقِي تينا بلطفٍ، وأمسكتُ والدتي بيدها، ووعدتها عمي فرانك بأنه سيحضر لها قهوة من ستاربكس لتكون في انتظارها بعد الجراحة، فقالت لنا:

- اذهبوا وارتاحوا في مكانٍ ما، بحق السماء.

بدأ تأثير المخدر يظهر، فبدت عينا تينا خاليتين من التعبير، وتباطأ حديثُها، كما بدا على ملامحها تعبيرٌ غامضٌ. دفعوها إلى غرفة العمليات، ووقفنا معًا تحت ضوء فلورسنت، ونحن نصلي، أو ربما لم نكن نصلي، من دون أن نتحرك في اتجاه أو آخر.

في وقتٍ ما، عندما كانت تينا لا تزال تخضع للجراحة، وهم يأخذون الأوردة من ساقها ليضعوها في قلبها، وكانت الأخبار الواردة لنا من طبييها هي أن كل شيء يسير على ما يرام، ذهبنا أنا ووالدتي وابنة خالتي شيلًا وعمي فرانك إلى جناح الأمراض النفسية، كي نقول لألف صباح الخير. تمكّنّا من العثور على كرسي متحرك لعمي، لم يرغب في استخدامه، لكننا صممنا، فحاول القيام ببعض الحركات البهلوانية في الردهة. مررنا أمام مكتب التمريض في جناح الأمراض النفسية، مثل خط الدفاع الأخير

لجيشٍ مثيرٍ للشفقة، فقالت إحداهن:

- أوه، ممم، كم عددكم؟

فقالت والدتي:

- هناك واحدٌ من كل منّا.

قالت الممرضة:

- لكن لا يمكنكم جميعاً الدخول في نفس الوقت.

استمرّت والدتي في السير، وهي تقول:

- نعرف ذلك.

اصطففنا جميعاً خلف قائدنا الميداني، وسرنا (واندفعنا على عجلات) إلى الأمام، دوماً إلى الأمام.

كانت ألف جالسة على فراشها، منشغلة بالكتابة. أُلقيتُ نظرة على دفتر ملاحظاتها، فرأيتُ كلمة «ألم» مكتوبة خمسين مرة على الأقل، التقطتُ الدفتر قائلة:

- قائمة تسوق؟

ثم قلبته حتى لا يلمحه الآخرون، وتبادلنا رسائل صامتة بنظراتنا. الرب وحده يعلم ما تحدثنا جميعاً عنه بعد ذلك. حكّت لنا شيلاً عن أم شابة تعالجها من مرض السل، وقالت:

- كانت صغيرة جداً عندما أنجبت أطفالها، لدرجة أنها هي الأخرى أصيبت بالجذري المائي عندما أصيبوا به. كانت صغيرة للغاية، حتى إنها في اليوم الذي تزوجت فيه أخيراً بوالد أطفالها، فقدت أيضاً ضرراً يبلغ من العمر اثني عشر عاماً.

التقطت ألف دفتر ملاحظاتها، ونزعتُ منه صفحة خالية كتبتُ عليها رسالة قصيرة، ثم طوتها وأعطتها لعمنا كي يعطيها لتينا بعد الجراحة. أحاطها بذراعه، وقال:

- بوركتِ، يا فتاة.

قالت له:

- آسفة لأنك مضطّرٌّ إلى زيارتي هنا.

قال:

- لا، نحن لا نعتذر عن كوننا مرضى، وعن كوننا بشرًا، وعن كوننا مرهقين.

(من الواضح أن عمي فرانك لم يكن امرأة قَطُّ). قالت ألف إنها لا تزال تشعر بالأسف، على الرغم من ذلك. كانت ألف ملحدة في العادة، لكن لم يبدُ في هذه الأيام أنها تمنع استغلال الناس لاسم الرب من أجل نشر المواساة. تحدثنا أنا ووالدتي وشيلا بصوتٍ أعلى حول أشياء بسيطة لا تذكر، حتى تعتقد ألف وعمي أنهما يتبادلان محادثة خاصة حول الحزن، والاستسلام، والقوة.

تحدثنا لبعض الوقت عن تدريب موسم الربيع لفريق «البلو جايز»، واللاعبين الأساسيين والاحتياطيين، ثم شبَّكنا أيدينا جميعًا، وبدأ عمي جلسة للصلاة. أخذت والدتي تغني «دو» بهدوءٍ مرة أخرى: «أنت، أنت، أنت دومًا في أفكارِي. أنت، أنت، أنت تلحقين بي الكثير من الألم. أنت، أنت، أنت لا تعلمين كم أحبك». غنَّتها والدتي وعمي بلغة البلاوتديتش، إذ كانا يحفظان الكلمات عن ظهر قلب. كما كنَّا أنا وشيلا وألف نعرف

بالتأكيد المقطع المتكرر من كلمة «دو»، الذي غنينا به بعم. بعد ذلك غنينا ترنيمة: «الذي تتدفق منه كل البركات». يحب أفراد الطائفة المينوناتية الغناء في مثل هذه المواقف المليئة بالتوتر، إنه أحد الخيارات المتاحة، إذا لم يكن مسموحًا لك بالصراخ، أو بإطلاق العنان لجنونك من خلال إفراغ مخزن مدفع رشاش وسط ساحة مزدحمة. بدأت أبكي، ولم أستطع التوقف مهما حاولت جاهدة. عندما غادر الآخرون غرفة ألف ليعودوا للاطمئنان على تينا، تباطأت، وهمست لشقيقتي:

– حان وقت القتال الآن.

قالت:

– يولاندي، لقد ظللتُ أقاتل طوال ثلاثين عامًا.

سألتها:

– هل ستركييني إذن كي أقاتل وحدي؟

لم تجبني.

أمسكتُ يدها، وقلت:

– ألف، لديّ خطة.



انتهت جراحة خالتي، وكذلك حياتها. في البداية، سار كلُّ شيء على ما يرام، بصورة جيدة للغاية. وحتى بعد الجراحة، كان كلُّ شيء يبدو جيداً. خرج الطبيب لمقابلتنا جميعاً، ونزع قناعه وابتسم، ثم صافحنا قائلاً إنه سعيدٌ بالطريقة التي سارت بها الأمور في غرفة العمليات. لكن بعد ذلك، بدأت أعضاؤها تفشل، واحدٌ تلو الآخر، وعلى الرغم من أن الأطباء والممرضات حاولوا إنقاذها، فإنهم فشلوا أيضاً، وفي النهاية فقدنا تينا.

جلسنا على مقاعد في غرفة الانتظار، وقد أسندنا رؤوسنا بين أيدينا، في صفٍّ، محدقين إلى الأرض. كنّا قد ظننا أننا حققنا نصراً ساحقاً. بكينا بهدوءٍ، وتهاมนา. تعرّض فريقنا لضربة أخرى غير متوقعة، ولم يستطع عمي فرانك الحديث على الإطلاق. نسينا أمر حقنة الإنسولين الخاصة به، وأخبرتنا شيلا أن تينا كانت تتصل به مؤخراً في أثناء وجودها في وينيبج لتذكيره. فقدتُ والدتي آخر شقيقاتها، والأقرب إلى قلبها. نهضتُ وغادرتُ الغرفة، فخرجتُ خلفها إلى الردهة، ورأيتهما تسند جبهتهما إلى الحائط الخرساني.

أعطت الممرضات في قسم أمراض القلب كيسًا لشيلا، كُتب عليه «ملك مستشفى سانت أوديل»، كان يحوي شبشب خالتي تينا، وكتاب السودوكو، ورواية كاثي راكس، والنظارة، وفرشاة الأسنان، والكريم المرطب، والبدلة الرياضية الأرجوانية المزغبة، وقميصًا قصيرًا ضيقًا أسود اللون، وحذاء رياضيًا أبيض برقبة مرتفعة.

عقدنا اجتماعًا عائليًا هناك على الفور. ستصطحب شيلا والدها في سيارة أجرة إلى شقة والدتي لإجراء بعض المكالمات الهاتفية، ولترتيب كيفية إعادة جثمان تينا إلى فانكوفر. بينما سأذهب أنا لإبلاغ ألف بما حدث، ثم أذهب لشراء مزيدٍ من البقالة، خاصة القهوة. حددت والدتي نوعًا قويًا للغاية من القهوة، من متجر «بلاك بيرل»، بدلًا من قهوة ستاربكس تلك. ستأخذ والدتي سيارة نيك وتتوجه إلى دار الجنازات في شارع مين كي تتحدث إلى صديقها هيرمان، الذي ينتمي أيضًا إلى الطائفة المينوناتية، لترى ما يمكنه تقديمه بخصوص حرق الجثة، وجلب جرة للرماد.

جلستُ على مقعدٍ بجوار نهر اسينيوين، وأرسلتُ رسالة بريد إلكتروني إلى نيك من البلاك بيرلي خاصتي. أخبرته أنه في غضون خمسة أو ستة أيام، سندهب أنا ووالدتي إلى فانكوفر لحضور جنازة تينا، وسألته عمّا إذا كان بوسعه اتخاذ ترتيبات للعودة من إسبانيا في وقتٍ أقرب، كي لا تكون ألف بمفردها. اتصلتُ بأبنائي وأخبرتُهما بما حدث، فظلاً صامتين على الهاتف، من دون تصديق. كان بإمكانني سماع موسيقاهما تعزف من دون انقطاع في الخلفية. انتظرتُ حتى يتمكنّا من الحديث، ثم ودعنا بعضنا. تحوّلت السماء فجأة وصارت بلونٍ أرجواني داكن، مع ومضاتٍ من الضوء، واشتدت الرياح وأحدثت أمواجًا على صفحة النهر. كانت عاصفة براري

تقليدية، غاضبة من الجفاف الذي اضطرت إلى تحمله. ركض الجميع من حولي للاحتماء من البرد المتساقط. زحفتُ تحت المقعد، واستلقيتُ هناك من دون حراكٍ، واستمعتُ إلى كرات الجليد الضخمة وهي تضرب الخشب فوقي. رأيتُ علكة وكتابات، حتى هنا على المقعد من أسفل. كانت هناك الأحرف الأولى من بعض الأسماء، وقلوب، وكلمات سباب. فكرتُ في خالتي ووالدي وهما تنزلقان بدراجتيهما من دون أن تُصابا بأذى، أسفل تلك الشاحنة العملاقة، قبل أن تخرجا من الجانب الآخر ضاحكتين وقد تقطعت أنفاسهما. لا بُدَّ وأنه كان إحساسًا رائعًا.

ها أنا أتعلم شيئًا جديدًا الآن. يجب أن نخوض غمار الأمور الشاقة بسرعة وبحماسٍ، ثم ننسحب، ينطبق الأمر ذاته على التفكير، والكتابة، والحياة. إن ما قاله جيسون بخصوص تنظيف خزانات الصرف الصحي صحيحٌ بالفعل. أتت خالتي إلى وينيبج لتكون إلى جانب والدي وتساعدنا، إلا أنها ماتت بعد ذلك. جلستُ والدي في شرفتها تحت ضوء القمر، تكتب تأبينًا لشقيقتها. امتدت المدينة في العتمة الخافتة، وقد هدأت بعد العاصفة الشديدة من الرعد والبرد، ولا تزال رطبة ودافئة كامرأة بلغت تمام الرضا في الحب. كثيرًا ما كان يُطلب من والدي كتابة كلمات التأبين، لأنها كانت تتمتع بأسلوبٍ مرحٍ هزلي، بارع فيما يتعلق بالتفاصيل، ومؤثر للغاية. أعددتُ طعامًا: قدرًا كبيرًا من المكرونة. ثم ذهبنا أنا وشيلا للتمشية بعد العشاء، وجلسنا معًا على الرصيف أمام بناية والدي السكنية، بينما تحدثت هي عبر الهاتف مع شقيقتها التي كانت في فانكوفر، في انتظار استلام رماد والدتها. قالت شيلا على الهاتف:

- ما الذي يمكنني قوله؟ ما الذي يمكنني قوله؟

أخيراً، عدنا إلى الداخل، واستمعت والدتي إلى شيلا وهي تتحدث عن تينا لفترة طويلة، ثم توجهت شيلا إلى غرفة نومها عند منتصف الليل. طرقتُ بابها، وقدمتُ لها مزيداً من الشوكولاتة، تناولتها مني، فعانقتها قائلة:

- تصبحين على خير، «شلوب شاين».

مثلما كانت تفعل والدتها، عانقتني وبكى، ثم أحضرتُ لها مزيداً من المناديل الورقية من الغرفة الأخرى. وجدتُ والدتي جالسة في غرفتها، واقترحتُ عليها الذهاب إلى النوم، قالت:

- لا، أنا بحاجة إلى كتابة بعض الأشياء، لا مانع لديّ من البقاء بمفردي بعض الوقت.

سألتها:

- هل كل هذا زائد عن الحد بعض الشيء؟

ابتسمتُ قائلة:

- بعض الشيء.

تركتها بمفردها كي تكتب التأبين.

عدتُ إلى الداخل، ووجدتُ عمي فرانك جالساً بمفرده على الأريكة في غرفة المعيشة وسط الظلام. لم يسبق وأن رأيتُ عمي فرانك يبكي من قبل. أخبرني أن تينا كانت أكبر منه سنّاً، لكن روحها كانت أكثر شباباً بكثيرٍ.

سألته:

- هل هذا صحيح؟ هل تزوجت امرأة أكبر سنّاً؟

قال:

- حسنًا، كنت مضطّرًا إلى ذلك.

قبل أن أطلب منه توضيح ما يعنيه بذلك، قال لي:

- لقد رحلت تينا بسرعة، كما كانت تفعل كل شيء بسرعة.

واتفقنا أننا نريد الرحيل بنفس الطريقة أيضًا. واصل عمي فرانك

الحديث قائلاً:

- أسوأ شيء هو الاحتضار لفترة طويلة من الوقت، لقد رقد جدك،

والد تينا ولوتي، في الفراش لمدة تسع سنوات. قبلها، كان أكثر من عرفتُ

من الرجال امتلاء بالطاقة والحيوية، كان رجلًا يعتمد على نفسه في كل

شيء، ثم أصيب بتلك السكتة الدماغية. رقد في الفراش فترة طويلة،

لدرجة أن ذراعه التصقت بجذعه، التحم جلده ببعضه، إذ لم يكن هناك بُدٌّ

من ذلك، وظل على هذا النحو.

- حقًا؟

قال:

- حقًا! لحسن الحظ أن والدتك وضعتُ حدًا لحياته عندما فعلتُ.

حسنًا، لم تضع حدًا لحياته بالمعنى الحرفي، لكنها قررت ذات يوم أن

تدعه يموت فحسب.

- ماذا؟

- كنّا جميعًا نتناوب الدور لشفط السوائل منه، أعني من رئتيه،

والدتك، وتينا، وجميع الأبناء والأزواج المختلفين. كانت النهاية وشيكة،

وهو يحتضر أخيرًا. أخذتُ رثاه تمتلئان، وكنّا جميعًا نتناوب الدور لشفط

السوائل منهما، أتعرفين ما يعنيه هذا؟

- حسنًا، ليس بالفعل، لكن يمكنني تخيل ذلك.
- تسع سنوات في الفراش. لكن قبل ذلك، أوه، كم كان ذلك الرجل
مفعمًا بالطاقة، وكم كان يمتلئ بالحياة! «يوما»!
(كان ذلك تعبير بلغة البلاوتديتش، معناه التقريبي: «تَبًّا».)
واصل قائلاً:

- كان دور والدتك لتكون معه. لم يكن هناك سواهما، وقد تأخر
الوقت. قال: «هيلينا، هيلينا»، كان هذا اسم زوجته الراحلة، جدتك، «أنا
قادمٌ، أنا قادمٌ».

- مهلاً، ماذا؟ هل اعتقد أنه رأى جدتي؟
- أجل. لم يعتقد ذلك، بل رآها بالفعل! لذلك اتخذت والدتك
قرارًا تنفيذيًا، هذه هي طبيعتها، أليس كذلك؟ إن فتيات آل لوين يتصفن
بالشجاعة الفائقة؛ لم تشفط السوائل منه. كانت ممرضة مُدَرَّبة حينها،
وكان بإمكانها القيام بذلك بالطبع، لكنها اختارت ألا تفعل. امتلأت
رئته بالسوائل، فأمسكت بيده وقالت الأشياء التي نقولها في مثل تلك
الأوقات، ثم تركته يرحل. كان هذا أفضل شيء يمكنها القيام به من أجله.
إنه أمرٌ شاق، يا يولي، (قال شيئاً بلغة البلاوتديتش، وهو يطالع السقف،
ربما حلمًا أو ذكرى)، لكنها نفَّذته على الرغم من ذلك.

كان عمي ضخم الجثة، جلس على أريكة والدتي المزينة بالزهور،
وبكى من أجل تينا الضئيلة ذات قلب الأسد، فتاته الشجاعة، بينما جلستُ
أنا إلى جواره ويدي على ساقه.

كنّا أنا ووالدتي على متن طائرة. تحدثتُ مع ألف قبل رحيلنا، ولم تتحدث هي على الإطلاق. قلت لها إن كل شيء سيكون على ما يرام حقًا، وإنني بحاجة إليها، وإنني أفهمها، وأحبها، وسأفتقدها، وإنني سأعود من أجلها، وإن وجودنا في تورونتو معًا لبعض الوقت سيكون رائعًا، وإن نورا تتطلع إلى ذلك هي الأخرى، وإنني أفهم أن مجرد عدم رغبتها في العيش لا يعني بالضرورة أنها تريد الموت، لكن التخلي عن الحياة يسير على هذا النحو فحسب، وإنها تريد الموت كما عاشت، بأناقة وكرامة، وإنني أحتاج منها إلى أن تصبر، وتقاتل فترة أطول قليلًا، وتتمسك بالحياة، وأن تعرف أنها محبوبة، وأنني أريد مساعدتها، وسأساعدتها بالفعل، وأنني بحاجة إلى القيام ببعض الأشياء فحسب، وأنه يتعيّن علينا أنا ووالدتنا الذهاب إلى جنازة خالّتنا تينا في فانكوفر، وأنني سأعود، وأنها ستبقى معي في تورونتو بعض الوقت، وسيكون ذلك بمثابة استراحة تامة، وأن نيك عاد إلى وينبيج الآن، وأنه سيراها كل يوم، وأنه يتعين عليّ الرحيل، وأنه يجب أن أعرف أنها ستكون على ما يرام في أثناء غيابي، وأنني أنحني أمام معاناتها وكلّي شعور بالشفقة، وأنها تستطيع التحكم في حياتها، وأنني أفهم أن الألم أحيانًا ما يكون نفسانيًا وليس جسديًا فحسب، وأن أكثر شيء تريده هو وضع حدّ لكل ذلك والنوم إلى الأبد، وأن الحياة انتهت بالنسبة إليها، لكنها كانت لا تزال مستمرة بالنسبة إليّ، وأن أحد جوانب تلك الحياة هو محاولة إنقاذها، وأن فكرة إنقاذها ليست شيئًا نتفق عليه، وأنني على استعدادٍ للقيام بكل ما تريدني أن أفعله، لكن فقط في حال ما إذا لم يكن هناك أي باب آخر يمكننا البحث عنه أو طرّقه أو تحطيمه، لأنه إذا وُجد، فأنا على استعدادٍ لتكسير كل عظامي وأنا أضرب ذلك الباب اللعين بجسدي مرارًا وتكرارًا،

المرة تلو الأخرى. سألتها:

- ألن تأكلي شيئاً؟ ألن تتحدثي؟

رفعت ذراعيها كرضيعٍ استيقظ من غفوته ويريد أن يحمله أحدهم،
فارتفعت بينهما وانفجرت في البكاء.

في طريقي إلى الخروج من جناح الأمراض النفسية، توقفتُ عند
مكتب التمريض، وضعتُ يديَّ على الطاولة وراحتيَّ نحو الأعلى، كما
لو أنني على استعدادٍ لشبتيهما بالمسامير إلى الفورمايكا، ثم توسلتُ قائلة:
- أرجوكم، لا تدعاها تذهب.

كانت هناك ممرضتان ترتديان زيّاً بلونٍ أزرق سماوي، وشعر كلٍّ
منهما مرفوعٌ في ذيل حصان. استدارتا من أمام شاشات الكمبيوتر، ونظرتا
نحوي، كررتُ قائلة:

- أرجوكم، لا تدعاها تذهب.

قالت الممرضة الجالسة بالقرب مني:

- معذرة، ندع من تذهب؟

قلت:

- شقيقتي، ألفريدا فون ريزين.

قالت الممرضة:

- لمَ سندعها تذهب؟ هل هي على وشك الخروج من المستشفى؟

قلت:

- لا، إنها ليست على وشك الخروج، أنا أطلب منك رجاء ألا

تصدقها إذا قالت لك إنها على ما يرام، لأنها ستكون مقنعة للغاية، وستفكرين أنت قائلة «حسنًا، لنخل هذا الفراش، وندع هذه المريضة تذهب»، لكنني أطلب منك ألا تفعلني، رجاء.

قالت الممرضة:

- معذرة، من تكونين؟

- أنا شقيقتها!

قالت الممرضة:

- أوه، صحيح، لقد ذكرت ذلك.

ألقت نظرة على ملفاتها، بينما لم تبعد الممرضة الأخرى نظرها عن شاشة جهاز الكمبيوتر. واصلت الممرضة الحديث قائلة:

- لماذا سندعها تذهب؟ هل أخبرك طبييها أنها ستغادر المستشفى؟

قبضتُ على الطاولة مثلما كان ذلك الرجل في فيلم «الخلاص» يقبض على حافة الجرف، قلت:

- لا. لا، لا، لم يفعل. أنا أحاول الاطمئنان فحسب، أشعر بالقلق من أن تسمحو لها بالرحيل، لأنها ستطلب الخروج، وستبدو طبيعية جدًا، وعاقلة للغاية.

قالت الممرضة:

- أعتقد أن هذا أمرٌ يقرره الطبيب.

قلت:

- حسنًا، لكنها ترغب في الموت، وإذا سمحتم لها بالرحيل، أخشى أنها ستقتل نفسها، حتى لو أخبرتكم بطريقة مقنعة للغاية أنها لن تقتل نفسها.

شعرتُ بخفقان قلبي. كنت أغمغم ونظري موجه نحو الأسفل، وانسالت مني الكلمات على صدر قميصي. لم يستطع أحدٌ سماعي بالفعل، وبذلوا جهدًا لمحاولة فهم ما أقوله.

قالت الممرضة:

- آسفة، أستمحك عذرًا؟ أعتقد أن الطبيب هو الذي سيقرر ما إذا كانت حالتها تسمح بخروجها.

حينها أتت جانيس من الركن عند غرفة الاستحمام، والتقت نظراتنا، فقلت:

- أوه، جانيس، جانيس! كل ما أطلبه هو ألا يُسمح لألف بالرحيل في أثناء غيابي، سأعود لأخذها معي إلى تورونتو لبضعة أسابيع، أو لبضعة أشهر، وكل ما أطلبه هو...

شرعتُ أسعل، ولم أستطع الحديث. كانت جانيس تحمل جيتارًا. وضعت على الطاولة، وأتت إلى حيث كنت أقف، وضعت يدها على إحدى يدي، ونظرت في عيني مباشرة.

قالت:

- لا تقلقي، بالنظر إلى حالتها، وإلى ما مرّت به، فمن المستحيل أن نسمح لها بالعودة إلى المنزل في أي وقتٍ قريبٍ، وبالتأكيد ليس من دون وجود خطة. لا نعرف بعد ماذا ستكون تلك الخطة، سواء إقامة طويلة الأجل في مكانٍ مؤهلٍ لذلك، أو زيارات مستمرة لقسم الأمراض النفسية من دون إقامة، لكننا نعد أننا لن نسمح لها بالعودة إلى المنزل حتى يصبح لدينا خطة بديلة لرعايتها.

قلت:

- حسنًا، حسنًا.

لمستُ الجيتار، بسطحه الذهبي الأملس.

قالت:

- يولي، أعتقد أنها فكرة رائعة أن تذهب ألف إلى تورونتو لبعض الوقت.

شكرتها، ثم تركتُ يدي، ولم يشبه الأمر تمامًا السقوط من حافة جرفٍ مرتفعٍ.

نمتُ واستيقظتُ محلقة في السماء الزرقاء، عبر غيوم بيضاء ناعمة، بينما رأس والدتي على كتفي، وحقيبتني مفتوحة وقد انسكبت محتوياتها على حجري. تحسَّستُ جبهتي، التي نديتها طبقة رقيقة من العرق. شرع كلُّ شيء يسيل من جسدي الآن: الدم، والعرق، والدموع. كما هو الحال مع البضائع المباعة في التصفيات، وجب التخلص من كل شيء، وحتى الأشياء التافهة التي امتلأت بها حقيبتني تفجرت خارجة منها، كما لو أنه لا يمكن لي، ولا لشيء أملكه أن نحوي داخلنا شيئاً آخر. استيقظتُ والدتي، وظلَّت محدقة أمامها لفترة من الوقت، ثم قالت «هاه»، والتفتتُ لتنظر إليَّ للحظة، كما لو أنها تحاول أن تتذكر أين هي، ومن أكون. فكرتُ لنفسِي قائلة: «أوه، فلتبقي على هذا النحو، لا تتذكري، ابقِي على هذا النحو»، لكنها استفاقت من ذلك التشوش الذي غمرها عقب استيقاظها من غفوتها، وقالت:

- مرحى، يا يولي. في بعض الأحيان، علينا التحلي بالشجاعة فحسب.

ذات مرة، عندما كانت والدتي عاملة اجتماعية لدى جمعية مساعدة الأطفال، تعيّن عليها أن تأخذ رضيعاً من والدته مدمنة المخدرات البالغة من العمر ستة عشر عاماً. هاجمت الفتاة والدتي في مكتبها، وكسرت نظاراتها، حتى تركت جرحاً غائراً على جسر أنفها، ولا تزال الندبة الخشنة تلتمع باللون الأبيض على بشرتها المسمرة صيفاً. مسدت الندبة الصغيرة، فأبعدت والدتي يدي عن أنفها، وأمسكتها في يدها.

قلت:

- أوافقك الرأي، يا أمي، لكن شجاعة إلى أي مدى تقريباً؟

قالت والدتي:

- حسناً، على الأقل في مثل شجاعة ألكسندر سولجيتسين.

- إذن، يا أمي...

- أجل، يا يولاندي؟

ابتسمت، وقربت رأسها من رأسي كي تسمعني وأنا أتحدث.

- أعتقد أنه سيكون من الرائع حقاً أن تأتي ألف للإقامة معي في

تورونتو فترة من الوقت، بعد أن تخرج من المستشفى.

قالت والدتي:

- أوه! حسناً!

- سأكون في المنزل طوال الوقت، كما ستكون نورا موجودة معظم

الوقت. سيكون الأمر بمثابة تغيير للمنظر بالنسبة إليها، من دون ضغوط.

الأمر يستحق المحاولة، أليس كذلك؟ يمكنني استئجار بيانو من أجلها إذا أرادت العزف، وبوسعنا حتى الحصول على قارب، أو شيء من ذلك القبيل.

قالت والدتي:

- قارب؟

- لأنني أعيش بجوار البحيرة، يمكننا أن نجلب زورقاً صغيراً للخروج إلى البحيرة إذا شئنا.

بقينا صامتتين بعض الوقت، نفكر، ونستمع إلى فتاتين مراهقتين في الصف الواقع خلفنا تبادلان الحديث عن المدرسة وعن فريقهما للكرة الطائرة، والأولاد، والطفح الجلدي، ثم سمعنا صوتاً آخر لامرأة أكبر، بدت مخمورة وهي تقول:

- استمعا إليّ، سأمنحكما مائتي دولار، لكل فتاة منكما، إذا تمكنتما من إنهاء هذا الجدل من دون قول كلمة «يعني» مرة أخرى على الإطلاق. توقفتُ الفتاتان عن الحديث، فقالت المرأة:

- اتفقنا؟

قالت الفتاتان:

- يعني، كل واحدة منّا؟

فتبادل جميع من سمع حديثهما الابتسام. بعد ذلك، بدأ رجلٌ في الممر يشتكي من أن أحد الأطفال عضَّه في مؤخرته عندما وقف ليتناول شيئاً من الخزانة العلوية. كان ذلك صحيحاً، إذ رأيتُ بنفسِي طفلة في الثالثة من العمر تذرع الممر جيئةً وذهاباً وقد غلبها الضجر، وجدت نفسها

فجأة في مواجهة مؤخرة الرجل، ففتحت فمها إلى آخره وعَضَّتْه، وصرخ الرجل من دون أن يدري ما أصابه. وقفت الطفلة هناك عاقدة ذراعيها على صدرها، بينما اعتذرت والدتها بشدة ولكنها بريطانية راقية، وأمرت طفلتها بالاعتذار. أبدت الطفلة تصميمها، قائلة ولكنها جميلة هي الأخرى:

- لن أفعل.

فقالت المرأة:

- ستفعلين.

أجابت الطفلة:

- لن أفعل.

- ستفعلين.

- لن أفعل.

أخيراً، قال الرجل الذي عَضَّتْه الطفلة:

- لا توجد مشكلة كبيرة في الأمر، بل كانت مفاجأة كبيرة فحسب،
لننته من الموضوع.

لكن الأم صممت على رأيها بلا هوادة، وأصرّت على أن تقدّم طفلتها
الاعتذار.

- ستفعلين، ستفعلين بكل تأكيد.

إلى أن صاح الأشخاص الجالسون في مجموعة المقاعد من 14A
حتى 26C قائلين:

- لن تفعل!

قالت والدتي:

- يبدو ذلك رائئاً، يا يولي، ما رأي ألف في الموضوع؟

قلت:

- إنها ترغب في ذلك، سأجهز غرفة نورا من أجلها. لا تمنع نورا على الإطلاق النوم على فرشاة على الأرض في غرفة المعيشة. سأكون موجودة في المنزل على أي حال، كي أحاول الانتهاء من هذا الكتاب. سنذهب للتمشية، ونأكل، وننام، وسنفعل كل ما تريد ألف القيام به، الأمر يستحق المحاولة، أليس كذلك؟

قالت والدتي:

- تعجبنى فكرة الزورق، وماذا عن نيكولاس؟ هل تحدثت معه بخصوص ذلك؟

قلت:

- ليس بعد، لكنني متأكدة أنه سيوافق. أعني، سيفتقدها بكل تأكيد، لكن ذلك لن يكون إلى الأبد.

قالت والدتي:

- لكن هل أنت واثقة بأنك قادرة على ذلك؟ لا نعرف ما ستقدم عليه ألفي، على الإطلاق.

قلت:

- أعرف هذا، لكن ما الفرق الذي يشكّله ذلك؟ في كلتا الحالتين، سواء كانت هنا، أو معي في تورونتو، سنشعر بالقلق على أي حال. لذا ربما يكون التغيير هو أفضل شيء؟ لقد ألغيت الجولة الآن، لهذا لم تعد بحاجة إلى التفكير فيها، ولا في أي شيء.

بدت والدتي متشككة وهي تقول:

- حسنًا، يمكن أن يكون هذا أمرًا جيدًا، أليس كذلك؟

بعد الجنازة، جلسنا جميعًا في غرفة الطعام الكبيرة بالكنيسة، نتناول شطائر لحم الخنزير والجبن، ونحكي ذكرياتنا عن تينا. انحنى عمي فرانك في جلسته، مقربًا وجهه بشدة من أي شخص يتحدث، وقد بدا عليه التركيز وهو يومئ برأسه ولا يريد أن تفوته كلمة. إذا تمكّن من استيعاب كل جملة تُنطق عن زوجته الحبيبة المتقلبة، وتخزين كل كلمة وكل مقطع في مكانٍ ما بأعماق جسده، فربما يتمكن حينها من الاحتفاظ بها فترة أطول قليلًا. أحببتُ طريقة تركيزه وهو يستمع، كما لو أن حياته تتوقف على ذلك.

أقيمت الجنازة في كنيسة تابعة للطائفة المينوناتية، لذا وقف الفريق المعتاد من المستهجنين (فهم لا يأخذون استراحة أبدًا، ولا حتى في الجنازات) وقد تجمّعوا في أحد الأركان، وأخذوا يلقون بنظراتهم نحونا بين حين وآخر. لكننا كنّا نألف طاقتهم السلبية، وحاولنا ألا ندع نظراتهم تلتقي بنظراتنا أبدًا. عندما دخلنا الكنيسة قبل بدء قداس الجنازة، تنهدت والدتي عندما رأت ظهور مائة رجلٍ يرتدون بدلات سوداء، كانوا جالسين بالفعل في الجانب المخصص لهم، وهمستُ قائلة:

- يا إلهي.

كنت أفهم ما تعنيه، همستُ في أذنها:

- لا تشبكي معهم.

ضغطتُ على يدي بينما نحن نتوجه إلى مقدمة الجانب المخصص

للنساء مع أسرتنا. إن العنف أبدي. يغيّر شكله، ويتسرب داخلاً كال مياه. ما الذي يفترض أن يفعله الشخص المسالم بالعنف الأبدي، إذا لم يكن بوسعه قصف العدو به مباشرة مرة أخرى؟ أنشدنا الترانيم بأصواتٍ متناغمة. جلس عمي فرانك في المقدمة على الجانب المخصص للرجال، وحينما كنّا ننشد «يا له من صديق في يسوع»، استدار ورفع إبهاميه لي ولوالدتي، فأجبناه بالمثل.

بعد الجنازة، في غرفة الطعام، سمعتُ مقتطفات من محادثة تجريها والدتي مع هانز، ابن خالي.

- لقد أتت إلى وينيبج كي تساعدني، ثم ماتت!

في وقتٍ سابقٍ قبل الجنازة، ذهبنا أنا وبعض أبناء خوولتي إلى قبر ليني. نُقِشت على شاهد قبرها عبارة تقول: «آمنة بين ذراعي يسوع». سيُدفن رماد خالتي في مكانٍ أسفل التل بعض الشيء، إلى شمال قبر ليني نوعاً ما. بدت المقبرة صغيرة وخضراء وعتيقة، وذكَرتني بالمقبرة الكائنة في إيست فيليدج حيث دُفن أجدادي، هيلينا وكورنيليوس، وخلفهما في صفٍّ منتظم القبور الصغيرة لستة من أطفالهما. من بين الأطفال الستة عشر الذين أنجبتهم هيلينا، لم يصل سوى عشرة فقط إلى سن البلوغ. تساءلتُ عن طبيعة حزن هيلينا، وعمّا إذا كانت، عند نهاية اليوم، عقب الانتهاء من كل أعمالها المنزلية، وعندما تخف أعباؤها بحلول المساء، تتاح لها دقيقة أو دقيقتين للبقاء أو التفكير. تساءلتُ عمّا إذا كانت تعرف من أو ما الذي تبكيه وتفكر فيه تحديداً، وعمّا إذا كان لذلك أهمية من الأساس. تساءلتُ عمّا إذا كانت جدتي قد قالت لجدي في أي وقت: «لا، يا عزيزي،

ليس الليلة؛ لدينا بالفعل أربعة عشر، أو ربما خمسة عشر، لم أعد أحصي عددهم، ومن بين هؤلاء الأربعة عشر أو الخمسة عشر يا عزيزي، دفنتُ ستة، وأنا مرهقة أكثر من العالم بأسره». والآن ها هي تينا أيضًا قد رحلت، وبقيت لوتي هي الأخيرة الصامدة، تقاتل جيوشًا خاصة بها. هكذا تسير الأمور.

بعد الجنازة، تناوب الناس الصعود إلى مسرحٍ صغيرٍ، ورواية القصص وسرد الذكريات عن تينا، وهو تقليدٌ لدى الطائفة المينوناتية يُسمَّى «فرايفيلجيس». رأيتُ أقارب لم ألتقهم منذ سنواتٍ. كانت شيلا هي المدير المبهج للحدث. اضطر زوجها جوردون إلى ارتجال بعض الكلام لتمضية الوقت، بينما كانت شيلا تحاول منع نفسها من البكاء فترة كافية لأداء مهمتها أمام الميكروفون. شكرنا جوردون جميعًا على قدومنا، وقال:

- من المؤسف ألا تستطيع تينا الوجود هنا والمشاركة، على الرغم من حبها للاحتفالات.

أدارت شيلا عينيها في محجريهما، وقد تماسكت بعض الشيء، وتناولت الميكروفون من جوردون، قالت:

- حسنًا يا رفاق، طوال حياة والدتي، لم يسبق وأن خذلها قلبها... حتى الآن.

قالت بضعة أشياء أخرى، ثم أتاحت الميكروفون للآخرين. كانت هناك طاولة بجانبها، تغطيها صور تينا في مختلف مراحل حياتها. كانت المفضلة لدي هي صورتها وهي تتدلى من نافذة سيارة والدها عندما كانت

في السابعة عشرة من العمر، تلوح مودعة، وعلى وجهها ابتسامة عريضة.
«أراكم لاحقًا، أيها المستوطنون! أنا ذاهبة إلى المدينة!».

على الأرض بجوار الميكروفون، استقرت جرة خشبية جميلة،
مثل بئرٍ صغيرٍ، تحوي رماد تينا. وقفت زوجة أحد أبناء خؤولتي الستة
والخمسین على المسرح، تتحدث عن الطريقة التي كانت تينا تنطلق بها
مسرعة في أرجاء البلدة بشاحتها التي تحمل صورة ألسنة لهب على
جانبيها، وتعرف كيف تنفادى رجال الشرطة عند كل منعطفٍ. وبينما كانت
هذه المرأة تتحدث، زحف ابنها الصغير إلى المسرح، وتوجه نحو الجرة
الخشبية. جلس جوارها، ودقَّ عليها بعض الوقت، بعد ذلك، وفيما كانت
والدته غافلة عنه - وهي مستمرة في الحديث عن تينا وكل خصالها الفاتنة،
وجراتها، وحنانها، وحماستها للحياة - تمكن الطفل الصغير بطريقة ما
من رفع غطاء الجرة. راقبناه جميعًا بأفواه فاغرة، بينما هو يقلِّب رماد تينا،
ويشره، مستمتعًا باللعب برفات جدة والده، حتى تحوَّل زيه المؤلَّف من
قميص أبيض وسروال قصير أبيض، إلى اللون الأسود بفعل الغبار، وكذلك
وجهه أيضًا. بعد ذلك، بدأ يضع الرماد في فمه بيديه الصغيرتين المتربتين،
وكان الجميع قد لاحظوه حينها، فصعد والده إلى المسرح وحمله. شرع
الكثير من الناس في الضحك (باستثناء فريق المستهجنين الدائمين، الذين
تطلعوا إليه بصرامة وذعرٍ)، فتوقفت والدته عن الحديث في الميكروفون
والتفتت، ورأت أن والد الطفل أخضع كل شيء تحت السيطرة، ونفض
الرماد عن ملابس الطفل ومسح وجهه، وأعاد الغطاء فوق جرة تينا، قبل
أن يعيد الطفل إلى الطاولة. استدارت الأم، زوجة ابن خالي، بهدوءٍ إلى
الميكروفون، وأكملت حكايتها عن تينا وشاحتها، وتعلمتُ أنا شيئًا آخر،

وهو أن مجرد وجود شخصٍ ما يأكل رماد بطل قصتك، لا يعني أن عليك التوقف عن سرد الحكاية.

وقفتُ في بهو الكنيسة، وتحدثتُ إلى نورا بصوتٍ خافتٍ على هاتفي المحمول. كانت تعتقد أنها كسرت إصبع قدمها في أثناء قيامها بحركة غريبة على جهاز المشي الخاص بوالدة صديقتها، وغمرها البؤس الشديد نظرًا لثقتها بأنها لن تتمكن من الرقص في حفلها الختامي الذي كان بعد أسبوعٍ، في حين يتعين على ويل العودة إلى نيويورك لاستلام وظيفته الصيفية، ووالدها لا يزال في بورنيو. كانت تبكي، سألتها:

- هل يمكنك الإقامة لدى زوي لبضعة أيام حتى أعود؟

قالت:

- لا، إن والدا زوي سوف يصطحبانها إلى تشرشل لرؤية الدببة القطبية، أو شيء من هذا القبيل.

سألتها:

- ماذا عن الإقامة عند أندرس؟ لقد أقام هو عندنا مرات كثيرة.

قالت:

- سيكون ذلك غريبًا، ألا يمكنك العودة إلى المنزل فحسب؟

* * *

عندما عدتُ إلى تورونتو، جلستُ في مقعدي البني الكبير ثلاث ساعات وأنا أحدقُ إلى الحائط. اتضح في النهاية أن إصبع قدم نورا لم تنكسر، بل التوت فحسب، لذا كان بوسعها المشاركة في الحفل الختامي. نقتُ قدميها في ماء دافئ. دومًا ما كانت تقف على ساقٍ واحدة، بينما الأخرى مشدودة في وضعٍ ما، ملتوٍ على نحوٍ يصعب تخيله. سألتني متى يعود دان من بورنيو، فقلتُ:

- لا أدري، يا حبيبي.

شاهدتها تذبل بعض الشيء، وكتفاها يتهدلان، وقد انطفأت عيناها، سألتني:

- هل تعتقدين أنه سيعود في موعد الحفل؟

اختفى النمل؛ كان ويل قد نظف المنزل، وتناول ثلاثتنا طعامًا صينيًا، وشاهدنا جزءًا من مباريات كأس العالم على التلفزيون قبل أن تذهب نورا إلى مكانٍ ما بصحبة أندرس، وأقوم أنا بتوصيل ويل إلى المطار. عانقته فترة طويلة، بدرجة زائدة عن الحد في رأيه على الأرجح، لكنه لم يحاول الابتعاد. تمتم قائلاً:

- هل أنت بخير؟

فقلتُ:

- أجل.

قال:

- أحبك، أنت أم جيدة.

قلتُ:

- يا إلهي، شكرًا لك!

امتلاأت عيناى بالدموع على الفور.

- أنت ابنٌ صالح!

قطعنا عناقنا، ووقفنا متباعدين ونحن نبتسم، قال:

- وأنت أخت طيبة.

تساقطت دموعي، وكانت حالتي ميؤوسًا منها. اعتذرتُ، فلَوَّحَ ويل بيده للتقليل من أهمية الأمر. تناول يدي وأمسكها بضع ثوانٍ. أضفتُ قائلة:

- وأنت أخ طيب!

قال:

- حسنًا، يا أمي، عليَّ الذهاب. سأراكِ بعد شهرٍ، أو نحو ذلك.

سأتصل بكِ الليلة.

رأيتُه يمشي متمهلاً وهو يعبر من عند ضباط الأمن، ويتبادل بضع كلماتٍ عابرة مع الرجل الواقف خلف سير نقل الحقائق، ثم يناولهم بطاقة صعود الطائرة لتفحصها، قبل أن يخلع حزامه ويضعه في سلة. أتمَّ كلَّ هذه الحركات بدقة وهدوءٍ تام، وسيطرة مطلقة، أو هذا ما بدا عليه الأمر. هل أصبح رجلاً الآن؟

كان نيك ووالدتي يقضيان معظم وقتهما مع ألف في المستشفى. كانت محادثاتنا قصيرة، مثل محطات توقف للصيانة. كنّا نتبادل آخر الأخبار. هل جميعنا على قيد الحياة؟ جميعنا على قيد الحياة. هل هناك أي تغيير؟ ليس هناك أي تغيير. كنّا جميعًا في حالة ذهولٍ إلى حدٍّ ما، وحالة من انعدام التوازن. قضيتُ ساعات أمام جهاز الكمبيوتر للبحث عن الخيار السويسري، وأنا أحاول التفكير فيما يتعيّن عليّ القيام به. لم أتحدث عن ذلك مع أي شخصٍ في تورونتو. توجهتُ إلى البنك، وسألتُ رجلًا في غرفة صغيرة عمّا إذا كان بإمكانني الحصول على قرض بعشرين ألف دولار. ظننتُ أن هذا سيكون كافيًا كي نذهب إلى هناك، ولعودتي أنا بعد دفع تكاليف «العلاج» والفندق، علاوة على تكاليف حرق الجثة وشراء جرة. وضعتُ كومة من كتب «روديو روندا» على المكتب. سألني عمّا إذا كان لديّ ضمانات، فقلت:

- لا، ليس لديّ أي شيء.

أخبرته أنني آمل في الحصول على مقدم قريبًا، لكتابي القادم عن الروديو، وأنني سأتمكّن من السداد حينها، فقال إن عليّ العودة في الأسبوع القادم كي أتحدث إلى شخصٍ آخر، وبحوزتي عقد كتابي. أخبرته أنه ليس بحوزتي بعد، لكن وكيلتي تعمل عليه، كما أخبرته أن لديّ كتابًا آخر قيد الإعداد (إلا أنني قلتُ قارب بطريق الخطأ، لديّ قارب قيد الإعداد)، لكنني لم أنته منه بعد. فقال الرجل:

- حسنًا، من دون عقد يثبت أن لديك أموالًا قادمة في الطريق -سواء من خلال الكتب أو القوارب- لا يمكنني أن أمنحك قرضًا.

كانت ألف تمتلك المال، لكنه كان في حسابٍ مشتركٍ مع نيك، وسيلحظ إذا اختفى جزءٌ كبيرٌ منه. اتصلتُ به وسألته عمّا إذا كانت ألف قد ذكرت له فكرة قدومها إلى تورونتو، فقال:

- لا، لكن إذا كانت ترغب في ذلك، فلمَ لا؟

بدا صوته أهدأ من المعتاد، ولم يطلب أي تفاصيل، بل قال فقط:

- أجل، لمَ لا؟ ما المانع؟

أخبرته عن القارب، إذ كنت مهووسة بأمر القارب، قال إن ألف لا تهتم بالقوارب على حد علمه، لكن ربما، لمَ لا؟

أرسلتُ رسالة بريد إلكتروني إلى ناشري، وأخبرته أن كتاب «روديو روندا» العاشر سيكون على مكتبه في غضون أقل من شهر. كتبتُ بجنونٍ. كان لديّ قليلٌ من المال المتبقي من منحة فنون تلقيتها من أجل كتاب مدير المرفأ، وقدرٌ ضئيلٌ للغاية متبقٍ من بيع منزلنا في وينيبيج. اتصلتُ بنيك ووالدتي كل يوم للحصول على آخر المستجدات. كان نيك يذهب إلى المستشفى مرتين يوميًا في الغالب، وقال كالعادة إنه لم يجد جديدًا. لم يكن طبيب ألف النفسي متاحًا أبدًا للحديث معه، ولم تعد والدتي تذهب كثيرًا كما كانت تفعل من قبل، لأنها لم تعد تتحمّل ذلك، ولم يكن هناك أي تغيير. أخذ طاقم العاملين يوبّخون ألف باستمرارٍ لأنها لا تتبع البرنامج، ويلقون على والدتي المحاضرات عن الحب لكن بحزم، ويهددون بكهربة دماغ شقيقتي بالعلاج بالصدمات. اتصلتُ بمكتب التمريض كي أتوسّل إليهم، ولأطمئن أنهم لن يسمحوا لها بالخروج، لكن الحقيقة كانت أنها تحتضر في تلك المستشفى. قالت لي الممرضات إنه

لن يُسمح لها بالخروج، وطلبوا مني أن أعد لنفسي بعض الشاي، وأهدأ. سألتُ عمًا إذا كان بإمكانني التحدثُ إلى ألف، وقالوا فقط إذا خرجت من غرفتها، وأنت لتجيب الهاتف بنفسها في منطقة الاستجمام. كنت أتصل بمكتب التمريض أحيانًا في وقتٍ متأخرٍ من الليل، وأسألُ عمًا إذا كانت ألفريدا موجودة. قالوا لي ذات مرة إنها موجودة، وإن عليَّ التوجه إلى الفراش. حاولتُ أن أقول للممرضة عبر الهاتف «لا تقولي لي إن عليَّ التوجه إلى الفراش»، لكنني تمكّنتُ بطريقة ما من التوقف عند كلمة «لا»، ثم اعتذرتُ.

أجريتُ ترتيباتٍ مع نيك، كي يتصل بي من هاتفه المحمول عندما يزور ألف، ووضع هاتفه بجوار أذنها، وتحدثتُ عن خطتنا، وأني ما زلت أفكر في الأمور، وفيما يتعين عليَّ القيام به، وأني سأراها قريبًا على أي حال، وأن عليَّ الانتهاء من بعض العمل، وبعد ذلك سأعود إلى وينيبج. بينما كنتُ أتحدث، كانت تتنفس، على ما أعتقد، لكنها لم تتكلم. ثم اتصلتُ ذات مرة، فتحدثتُ فجأة، وكان صوتها واضحًا وقويًا، قالت:

- متى ستأتين لاصطحابي، يا يولي؟

كنتُ أقضي معظم النهار مستلقية في الفراش، أحاول العمل على كتاب «روندا». تساءلتُ عمًا إذا كانت المكسيك خيارًا أفضل، ومكانًا أفضل للموت. سيكون من الأرخص الذهاب إلى هناك. تخيلتُ أرجوحة شبكية تتمايل برقة كالمهد، وعودة إلى الطفولة، إلى الفراغ، ثم لا شيء. بدت المكسيك وثيقة الصلة بالموت في ذهني أكثر من سويسرا. كانت مكانًا أكثر بدائية، وأكثر فوضوية وغموضًا. كانت دولة تحتفل بيوم

الموتى من خلال الاحتفال وسط المقابر. بدت سويسرا وثيقة الصلة بسكاكين الجيب الحادة، والساعات، والبقاء على الحياد. أعدت لنا نورا العصائر، وتناولنا وجبات «الباليو»، حميتها الغذائية الجديدة، التي تتضمن كثيرًا من اللحوم والمكسرات، مثلما كان يأكل إنسان الكهف. كان حفلها رقيقًا وأنيقًا ومؤثرًا. في طريق العودة إلى المنزل بعد الحفل، سكبتُ هي وأندرس العصير، وأسقطا الأشياء، وتحسَّسا بعضهما بارتباكٍ في المقعد الخلفي بالسيارة. إذا كان ويل قد «وصل إلى شاطئ الرجولة» الآن، على حد تعبير والدي، فقد كانت نورا لا تزال تركب تلك الموجه الفوضوية الرائعة من المراهقة في عرض البحر المفتوح، بينما خط الساحل يمكن رؤيته بالكاد بالعين المجردة. كان الجو حارًّا على نحوٍ مثيرٍ للدهشة داخل شقتنا، وقد أخذت أفرع الأشجار المقطوعة تنمو، وتحيطنا باللون الأخضر مرة أخرى. كنَّا نتحرك إلى الوراء عبر الزمن، نحو الظلام.

اتصلتُ بالمستشفى بلا هوادة، في جميع ساعات الليل والنهار. هل هي هناك؟ إنها هناك. هل هي موجودة؟ إنها موجودة. ألن تسمحو لها بالخروج؟ لن نسمح لها بالخروج.



اتصلتُ بألف، وأخبرتها عبر الهاتف بأنني سأمتلك ما يكفي من المال قريباً، للذهاب إلى زيورخ، وسأستخدم بطاقات الائتمان. لكن في صباح اليوم التالي، اتصلتُ بي والدتي لتخبرني أنهم سيمنحونها تصريح خروج ليوم واحد. سيسمحون لها بالعودة إلى المنزل للاحتفال بعيد ميلادها. وجدتُ تلك الفكرة غريبة في ظلّ مثل هذه الظروف، أو ربما لم تكن ألف قد ندمت بالضرورة على مولدها.

بلغتُ درجة هوسي بالتأكد من بقائها في المستشفى إلى أن أتمكن من جمع المال اللازم لاصطحابها إلى زيورخ حدّاً نسيْتُ معه تماماً عيد ميلادها. قالت والدتي إن نيك في طريقه إلى المستشفى لاصطحابها، وإنها سوف تطلب توصيل كعكة لعيد الميلاد، وستشتري بعض الشمبانيا والزهور لتأخذها إلى منزلهما، وإن كلّ شيء سيكون جيداً. قالت هذا بتأكيد، كما لو أنها عرّافة. كان ذلك قراراً اتخذته. أنهيتُ المكالمة مع والدتي، وجلستُ في راحة كرسي بلاستيكي مصبوب على شكل يد، عثرت عليه نورا في قمامة شخصٍ ما، وقلت:

- حسناً، لقد رحلتُ إذن.

عادت نورا إلى المنزل في وقتٍ لاحقٍ من الصباح، وأخبرتها أن ألف ستعود إلى منزلها للاحتفال بعيد ميلادها، فقالت نورا:

- هذا لطيفٌ، لكن سيكون من الصعب عليها العودة إلى المستشفى بعد ذلك.

وافقتها الرأي، من الصعب للغاية. اتصلتُ بليك على هاتفه المحمول، لكن لم يكن هناك ردُّ. اتصلتُ بشقة والدتي، لكن لم يرد أحدٌ. سألتني نورا عمّا إذا كنتُ أريد لعب التنس معها، لذا تجوّلنا في أرجاء الشقة بحثًا عن الكرات والمضارب، وارتدينا سروالينا القصيرين الرثين وقميصينا، وتوجهنا إلى ملعب التنس ذي الشبكة المتدلية على بُعد عدة مبانٍ في الشارع. لعبنا أشواطًا عديدة، وركضنا كثيرًا، وضيعنا كلّ الضربات تقريبًا، واعتذرنا كفتياتٍ صغارٍ ونحن نلهث طلبًا للهواء. لعبنا أربع أو خمس مباريات، وكدنا ننتهي، فجلسنا على جانب الملعب نتشارك في الأيس كريم الذي اشتريناه من شاحنة تعالى من مكبر الصوت المثبت على سطحها أغنية «إنه عالمٌ صغيرٌ». حاولتُ تذكر كلمات الأغنية. إنه عالم ماذا وعالم ماذا؟ رنّ هاتفي المحمول، وكان دان. فكرتُ: «أوه، لا، ليس الآن». أجبت، وسألني عمّا إذا كنتُ بخير، وأين كنتُ، وماذا أفعل؟ أجبتُ جميع أسئلته بدقة، وسألته:

- ألسْتُ في بورنيو؟

قال إنه هناك بالفعل، لكن نيك اتصل به في حالة من الذعر عندما لم يتمكن من الوصول إليّ، قال:

- يولي، اتصل بك ولديّ أخبارٌ سيئة.

سألته عمّا إذا كانت والدتي تعرف، فقال:

- لا، حاول نيك الاتصال بها في المنزل، وعلى هاتفها المحمول، لكنها لم ترد.

قلت:

- لقد خرجت للبحث عن كعكة.

قال دان:

- آه، حسنًا.

ثم ذكر أن نيك حاول الاتصال بي، ولم يلق جوابًا.

- أجل، بسبب التنس...

قال:

- يويو...

ناولت هاتفني لنورا قائلة:

- أمسكي هذا، من فضلك، لا أريده.

سرنا أنا ونورا عائدتين إلى شقتنا، حملتُ هي المضربين والكرات، وأمسكتُ أنا بيدها الأخرى الحرة. اعتقدتُ أنه من الغريب أن أسمع صوت مترو الأنفاق تحت الأرض هنا، ثم أدركتُ أنها أفكاري فحسب، تتصادم بعضها مع بعضٍ، وتحاول إعادة ترتيب نفسها في هيئة جديدة.

اتصلتُ بي المستشفى عدة مرات. لم أجب في البداية، لأنني كنتُ منشغلة بحجز تذكرة طيران إلى وينيبج، والاتصال بوالدتي كلَّ دقيقة من دون جدوى. أخيرًا، أجبْتُ على اتصال المستشفى، وكانت شخصًا لم أقابله من قبل، أطلقتُ على نفسها لقب المدير التنفيذي لشيء ما. سألتني

عمّا إذا كنتُ قد تلقيت الأخبار، فأجبتها بالإيجاب. قالت لي إنها آسفة للغاية، فأغلقتُ الخط. عاودتُ الاتصال، وسألتُ عمّا إذا كان بإمكانها الحديث معي، وتوضيح ما حدث، فقلتُ لها إنني أعرف ما حدث. تحدثتُ بصوتٍ هادئٍ، واحترافي للغاية، من دون توقف، ولا ثغرات في الحديث، ولا جدال. راقبتُ نورا وهي تتحرك في أرجاء الشقة، وتجهز أغراضنا من أجل الرحلة إلى وينيبيج. سألتني المرأة عمّا إذا كنت بمفردي، فأجبتُ بالنفي، قلتُ لها:

- أنا آسفة، لكن عليّ أن أذهب؛ لديّ ترتيباتٌ لأقوم بها، ولم أتمكن من الوصول إلى والدتي بعد.

قالت لي إنها تفهم ذلك، لكنها بحاجة إلى توضيح بعض الأمور، واصلتُ حديثها قائلة:

- كيف يمكنني التعبير عن هذا؟
سألتها:

- لماذا سمحتم لها بالخروج، في حين أنكم كنتم تعدون في كل يومٍ وكل ليلة أنكم لن تفعلوا؟ هل كنّا نلعب لعبة؟ ألم يكن من المفترض أن أصدقكم؟

سألتني عمّا إذا كان بوسعي الانتظار للحظة قصيرة، إذ كانت لديها مكالمة واردة من قسم الشرطة، بخصوص موقف شقيقتي. قلتُ:

- موقف؟

جلستُ على الأرض، وانتظرتُ، وانتظرتُ، وسمعتُ أغنية ليونيل ريتشي «امرأة بثلاث نساء» وهي تُعاد مرارًا وتكرارًا، حتى لم أعد أستطيع

تتبع عدد النساء، ثم أدركتُ في النهاية أنه لا يتعين عليّ الانتظار، وأنني لست مضطرة إلى القيام بأي شيء تطلبه مني تلك المديرية التنفيذية. كان هذا هو الموقف. ضغطتُ زراً لإنهاء المكالمات في هاتفي، ونهضتُ كي أتوجه إلى مساعدة نورا في حزم الأمتعة.

اتصلتُ بويل، لكنه لم يرد على هاتفه المحمول. اتصلتُ بوالده في مانهاتن، وشرحتُ ما حدث. سألتُه عما إذا كان بمقدوره الوصول إلى ويل رجاء، وشراء تذكرة له إلى وينيبج على الفور، وسأدفع له ثمنها لاحقاً. أبلغني أسفه، وأنه سيدفع ثمن التذكرة، وقال إنه سيغادر العمل الآن، ويذهب للعثور على ويل الذي كان على الأرجح في كوينز، منشغلاً بعمله في تنسيق الحداثق. لم نكن أنا وهو قد تحدثنا حقاً منذ سنوات. كان يعرف ألف بالطبع، فيما مضى. شرع يبكي على الهاتف الآن، فانتظرتُ. كرر قائلاً:

- أنا آسف. كانت متمردة في تفكيرها، وكانت لطيفة معي، كانت مهمة بكل شيء.

شكرته، وتوادعنا. اتصلتُ بجولي وأبلغتها بما حدث، وطلبت منها الذهاب إلى شقة والدتي وانتظارها هناك. ثم اتصلتُ باثنتين من صديقات والدتي، وأخبرتُهما بما حدث، وطلبت منهما التوجه إلى شقتها وانتظارها هناك. كنت لا أزال غير قادرة على الوصول إلى نيك على هاتفه المحمول. حاولتُ الاتصال بوالدتي ثانية، كانت في شقتها، وصلت قبل الأوان. سألتها:

- هل هناك كثيرٌ من الناس معك؟

قالت:

- لا، لماذا؟ أنا هنا بمفردي.

قلت:

- إنهم في الطريق.

سألتني عمّا حدث، قالت:

- أخبريني.



اجتمعنا جميعاً في وقتٍ متأخِرٍ من المساء، في غرفة المعيشة بمنزل نيك وألف. كنّا أنا ونورا لا نزال نرتدي الملابس التي ارتديناها خلال لعب التنس. سألتُ نورا:

- هل لدينا ملابس أخرى؟

قالت:

- أجل، لدينا فساتين للجنازة، وملابس داخلية.

وصل ويل في سيارة أجرة من المطار، وكان في الحمام الآن. ظلّ هناك فترة طويلة من الوقت، يبكي بمفرده، كما يفَضِّل الشبان والسيدات العجائز أن يفعلوا.

أخبرنا نيك أنه كان قد اصطحب ألف من المستشفى، وعادا إلى المنزل، ثم طلبتُ منه الذهاب إلى المكتبة من أجلها، قال:

- دعينا نتناول الغداء أولاً.

فأبدت موافقتها. قال إن الغداء كان رائعاً، وبدا طبيعياً. كان من اللطيف أن يجلس قبالتها على الطاولة فحسب، كالأيام الخوالي. ثم ذهب إلى المكتبة ليجلب الكتب التي طلبتها. كان الأمر سيستغرق عشرين دقيقة

فحسب؛ إذ إن المكتبة قريبة من المنزل، وعندما عاد، وجد المنزل خاليًا.
سأله ويل:

- ما الكتب التي كانت تريدها؟

كان قد خرج من الحمام الآن. قال نيك:

- كتبًا من ماضيها، تلك التي كانت تتذكر أنها غيّرت حياتها بطريقة
ما، أو منحتها... جعلتها تشعر أنها على قيد الحياة، لا أدري...
تلاشى صوته، فقال ويل:

- كتبًا مثل ماذا؟

قال نيك:

- مثل د. هـ. لورانس، شيلي، ووردزورث... لا أدري، إنهم هناك.
لَوَّحَ بيده باتجاه كومة مائلة من الكتب بجوار طاولة الكمبيوتر. نظرنا
إليها للحظة وجيزة، ثم أشحنا بأعيننا عنها. لقد فشلت، ولم نستطع النظر
إليها. جلسنا في غرفة المعيشة الهادئة ذات اللون الأصفر، وابني وابنتي
على كلا جانبي جدتهما، قريبان منها مثل الحرس. شبَّكا ذراعيهما
بذراعيها، كما لو أنهما يرغبان في منعها من الطفو إلى الأعلى والاختفاء
مثل اللون الهيليوم.

ظَلَّتْ والدتي تكرر عبارة واحدة كثيرًا. قالت: «هذا صحيح»، عندما
قال ويل إن عليها الجلوس، قالت: «هذا صحيح»، عندما عانقتها نورا
قائلة إن ألف ارتاحت من الألم، قالت: «هذا صحيح»، عندما شكرها
نيك على ولادة ألف، حبيبته الوحيدة، قالت: «هذا صحيح»، عندما أجبنا
جميعًا بنفسٍ واحدٍ قائلين «تنفَّسي»، بعد أن سألت: «ماذا الآن؟».

كان منزلاً جميلاً. أُلقيتُ نظرة على كتب ألف الخاصة بالبيانو، وهي مكدسة بعناية فوق البيانو. نظرتُ إلى القطع الزجاجية التي جمعتها عبر السنوات، مرتبة بعناية فوق إحدى المكتبات. فكرتُ لنفسي قائلة: «حسنًا، يا ألف، أنتِ بارعة للغاية، جعلته يتركك بمفردك بحجة جلب الكتب، والذهاب إلى المكتبة. بالطبع سيفعل ذلك؛ إن الكتب هي ما ينقذنا، والكتب هي ما لا ينقذنا. المكتبة، بالطبع. ألفي، أنت غير معقولة!». كدتُ أضحك حينها. ما الذي قالته عن المكتبات والحضارة؟ قالت:

- لأنكِ تقطعين وعدًا، تعدين بإعادة الكتاب، تتعهدين بالعودة. أي مؤسسة أخرى تتعامل بحسن النوايا على هذا النحو، يا يو؟
رنَّ جرس الباب، لم يتحرك أي منّا. رنَّ مرة أخرى، مرتين، قال نيك:
- أوه.

قلت:

- مهلاً، سأذهب أنا.

وجدتُ رجلًا من مخبز «تول جراس»، معه كعكة عيد الميلاد التي طلبتها والدتي من أجل حفل عيد ميلاد ألف. شكرته، وجلبتها إلى غرفة المعيشة، وأريتها لباقي الجماعة. كانت كعكة بيضاء رقيقة، رطبة وخفيفة في نفس الوقت. كانت هناك رسالة مكتوبة لألف بالكريمة: أمنية قلبية بالسعادة. تناول كل فرد منّا قطعة، قطع نيك الشرائح بعناية، وقدمها إلينا على أطباق ألف الخزفية البيضاء البسيطة. تناولنا الكعك، وراقبنا شمس المساء وهي تتألق وتتكسر على الأطباق الزجاجية الزرقاء.

عند نهاية المساء، لم يتبق أي كعك أو ضوء شمس، فرحلنا. رافقنا نيك جميعًا إلى الخارج، ووقف على الدرج الأمامي بسريره الكاكي، وقميصه القديم. كانت ملابس مخصصة لعطلة نهاية الأسبوع، للاسترخاء والراحة. سألت والدتي عمًا إذا كان سيصبح بخير، ففتح لها ذراعيه، وحنى رأسه بشدة ليريحها على كتفها. سأله ويل عمًا إذا كان يريد أن يبقى لقضاء الليلة، فقال نيك:

- لا، لا.

رفض ذلك، لكنه شكره. كان والداه وشقيقه وأصدقائه من أماكن أخرى سيصلون جميعهم خلال اليومين المقبلين، سيبقى الليلة بمفرده. في وقتٍ لاحقٍ بشقة والدتي، فتحتُ الطرد الذي أعطاني إياه نيك عند رحيلي. كان به نسخة من قصة كتبها ألف. لم تكن لدي فكرة أنها تُولف كتابًا. أسمته «إيطاليا في أغسطس». أُلقيت نظرة خاطفة على صفحة عشوائية، وقرأت فقرة قصيرة عبّرت فيها البطلة عن شغفها الشديد بإيطاليا، وأنها ترغب في الذهاب إلى هناك لأنه المكان الذي ذهبت إليه «شقيقاتها الخياليات». ثم عددتُ بعضًا من هؤلاء الشقيقات الخياليات، والكتب التي ظهرن فيها، وكيف قامت كلُّ منهن بحمايتها بطريقة ما، وأنقذتها من لحظات الحياة الصعبة، ومن كل الهراء، ومن عذاب الحياة. آه، إذن كانت لدى ألف شقيقات أخريات! شعرتُ بالغيرة للحظة، إذ إنهن قدّمن إليها العون، في حين لم أفعل أنا ذلك. لقد أحببت تلك الكتب، وأحببتها الكتب بالمقابل. انقضى شعوري بالغيرة، وانتابني إحساسٌ غريبٌ حينها، كما لو أنه من الممكن تخفيف حزني بعض الشيء، وتوزيعه بيننا معشر النساء،

معشر الشقيقات، على الرغم من أن واحدة منّا فقط كانت حقيقية. قلبتُ صفحات المخطوطة حتى النهاية، وقرأتُ الفقرة الأخيرة.

«على الرغم من أنه ليس من المؤلف توديع القارئ في نهاية الكتاب، فإنني أشعر أنه لا يمكنني إنهاء هذه الحكاية من دون توديعكم. لقد اتضح أن هذا كتابٌ للوداع. لا يسعني إلا افتراض أنني كنت بحاجة إلى سرد كلمات الوداع تلك بإسهابٍ، وتحليل الأسباب الكامنة خلفها، وفهمها على نحوٍ أفضل. وبما أنكم كنتم رفاقي في هذه الرحلة، بل جمهوري، والسبب الأساسي لهذه الكتابة، فهذا أنا أجد نفسي مكشوفة فجأة، عند التفكير في أن سبلنا ستفترق. وحيث إنكم تتمتعون بالأفضلية نظرًا إلى كونكم تعرفون عن حياتي أكثر بكثير مما يمكنني أنا معرفته عن حياتكم على الإطلاق، فلا يمكنني إلا أن أكتب بأسلوبٍ يغلب عليه التعميم، حينما أتمنى لكم جميعًا حظًا سعيدًا في كل شيء بالمستقبل. ومن أعماق قلبي، أقول لكم أوف فيدرسين، أديو. وإذا كانت هناك دموعٌ في عيني وأنا أسطر هذه الكلمات، فهي من أجلكم. أريفاديتشي».

نام ويل على الأريكة في غرفة المعيشة، ونمنا أنا ونورا ووالدتي معًا تلك الليلة على فراش والدتي الضخم. أزاحت كل الأشياء التي كانت عليه، روايات الجريمة، والملابس، والنظارات، والأجندة، والكمبيوتر المحمول خاصتها على السجادة، لكننا لم نل قسطًا وافرًا من النوم. ظللنا نتحدث إلى وقتٍ متأخرٍ من الليل، وحتى وقت مبكر من صباح اليوم التالي، عن ألف وأسلوبها الفريد، وعن الماضي، وعن أي شيء، باستثناء المستقبل، الذي كان بمثابة منطقة قتالٍ مميتٍ. كنّا في شهر يونيو، وأشرقت الشمس مبكرًا. طوال الأسابيع الستة الماضية، ظللتُ أسافر جيئةً وذهابًا، مرارًا

وتكرارًا، من الغرب إلى الشرق، ومن الشرق إلى الغرب.

قالت نورا:

- هذه أغرب سهرة مع الأصدقاء حضرتها على الإطلاق.

قالت والدتي:

- هذا صحيح.

شاهدنا بعض مباريات كأس العالم لكرة القدم على التلفزيون، التي بدا أنها بطولة لا نهاية لها، تمتد لشهورٍ. بكينا مع الخاسرين، وتطلعنا إليهم لتوجيهنا إلى كيفية التعامل، وابتعدنا عن الفائزين الذين لم يثيروا اهتمامنا على الإطلاق. ثم اقترحت نورا أن نتبادل القمصان كما فعل اللاعبون بعد المباراة، فأنتهى الأمر بوالدتي وهي ترتدي قميصًا صغيرًا متعرقًا (لا يزال من لعبة التنس) مكتوبًا عليه «الغابة النرويجية، تأليف هاروكي موراكامي»، وارتدت نورا قميصي القديم الذي تفوح منه رائحة العرق، المكتوب عليه «إنلاند للخرسانة»، بينما ارتديتُ أنا قميص نوم والدتي الناعم البالي عتيق الطراز، الذي كان هدية من والدي. تخيلته وهو يختاره لها في متجر «هادسونز باي»، عند تقاطع شارعي بورتاج وميموريال. كان من تقاليد والدي شراء قميص نوم لوالدتي في عيد الميلاد، ومصباح أيضًا في معظم الأحيان. الأشياء التي تحتاج إليها للاستعداد لليل. يمكن اعتبار أحدهما يساعد على النوم، والآخر يساعد على اليقظة، تمامًا مثل أقراص الدواء. أحيانًا كنّا نساعده أنا وألف في اختيار قمصان النوم. في بعض الأحيان، كانت رقيقة ومحتشمة من قماش الفلانيل، وفي أحيانٍ أخرى كانت قصيرة وشفافة. لم أكن قد قضيتُ كثيرًا من الوقت في التساؤل عن

حالة والدي المزاجية وهو ينتقي قمصان النوم هذه. ربما يكون التأثير الذي مارسناه أنا وألف على هذه العملية قد تغير على مر السنين، حينما صرنا نحن أنفسنا نساء.

استلقيتُ في الفراش وأنا أعد في ذهني عدد المرات التي استخدمتُ فيها ألف كلمة وداعًا في تلك الفقرة القصيرة. أربع مرات، بالإضافة إلى ثلاث مرات أخرى بلغاتٍ مختلفة. وداعًا سبع مرات. حسنًا، يا ألف، حسنًا. في ضوء الصباح الباكر، رأيتُ نورا ووالدتي نائمتين أخيرًا، على جنبيهما وجهًا لوجه، وكل واحدة ممسكة بيد الأخرى، وأيديهم الأربعة متشابكة مثل شلة من الصوف، أو كرة من الشعاب المتزاوجة، بحيث يصير ما بداخلهم محميًا تمامًا.

في إحدى الأمسيات، حين كنتُ طفلة، وألف مراهقة، وجميعنا معًا كأسرة في بلدتنا المينوناتية الصغيرة نستعد لتناول العشاء، توجهت ألف إلى الطاولة في غرفة الطعام، وشخرت من أنفها قائلة:

- مرحى، عفوًا، لكن من المهرج الذي أعدَّ هذه المائدة؟

كان المسؤول هو والدنا، الذي دفعته والدتنا الغاضبة إلى العمل، بعد أن ذكَّرتَه قبلها مباشرة بأي عام نحيا فيه، وكيف أتى هذا العام بخاتمة رائدة لحقوق المرأة، وأنواع أخرى من الناس. نادرًا ما كان والدنا يغضب من أي شخصٍ سوى نفسه، لكنه شعر ببعض الضيق هذه المرة، قائلًا إنه حاول أن يكون رجلًا عصريًا، من خلال إعداد المائدة، ولم يلق سوى سخرية دنيئة، فلم يكثرث بالأمر إذن؟ على أي حال، ما

يهم في الأمر هو أنني تذكرتُ الطريقة التي قالت بها ألف « من المهرج الذي أعد هذه المائدة؟ ». كانت هذه الكلمات بالتحديد هي ما طرأ على بالي عندما شاهدتُ وجهها المهشم، بعد أن أصرتُ والدتي على رؤية الجثة قبل حرقها. كان ما هُشَمَ وجهها قطارًا، تمامًا مثل ذلك الذي قتل والدنا. لم تنتظره فترة طويلة على ما يبدو، إذ كان توقيتها جيدًا. أين يذهب العنف، إن لم يكن يعود مباشرة إلى دمانا وعظامنا؟ ساعدنا أنا ونيك والدتي على المشي عبر الممر في دار الجنازات الخالية، ووقفنا على جانبها وقد شبَّكنا أذرعنا بأذرع بعضنا بإحكام، كما لو أننا على وشك أداء رقصة شعبية روسية. كان مدير الجنازة قد اقترح على والدتي أنه إذا أرادت رؤية جثمان شقيقتي، فربما ينبغي لها الاكتفاء برؤية يدها فقط. يمكنه أن يغطيها تمامًا داخل الصندوق الخشبي، باستثناء يد واحدة نحيفة شاحبة ظاهرة. خالفته والدتي الرأي، قالت:

— سأرى وجه ابنتي.

لذا ها هي، وقد بدت الفجوة المخيطة في رأسها مثل كرة بيسبول مصنوعة منزليًا، وكانت تلك هي اللحظة التي فكرتُ فيها: «من المهرج الذي خاط وجه شقيقتي؟». بعد ذلك، بعد نحو دقيقة من التحديق إليها، على أمل أن يطرف لها جفنٌ أو تفتح عينيها، أو تضحك على هذا المشهد السخيف، غيرتُ رأبي وغمرتني موجة قوية من الامتنان حيال مدير الجنازة الذي حاول جاهدًا استعادة جمال شقيقتي، كي تلقي والدتها نظرة أخيرة عليها.

تركت لي ألف مبلغ التأمين على حياتها، كما تركت لي أيضًا، على غرار فيرجينيا وولف، مبلغًا شهريًا قدره ألفا دولارًا، للعامين القادمين، كي أتمكن من البقاء في المنزل، في غرفة تخصني وحدي، وأفترغ للكتابة. كتبت في الرسالة القصيرة التي تركتها خصيصًا لي: «فلتبدي العمل إذن، أيتها الدوارة». آل كلُّ شيء آخر إلى نيك، باستثناء الصناديق الائتمانية التي أنشأتها لولديّ، والمال الذي تركته لوالدتنا كي تتمكن من السفر بشكلٍ مريح، وشراء سماعات أذن طبية قوية لنفسها، وشراء سيارة جديدة أنيقة. سأستخدم مبلغ التأمين على الحياة لشراء منزلٍ متداعٍ في تورونتو بحاجة إلى إصلاحات، وأعتقد أن ألف سوف تسعد بقراري. هل كانت تحاول اختبار مدى جديتي؟ هل كانت تتوي الحضور إلى تورونتو على الإطلاق؟ هل انتويتُ أنا اصطحابها إلى زيورخ على الإطلاق؟

ستنتقل والدتي إلى تورونتو، للإقامة معي أنا ونورا.

سألني عبر الهاتف:

- هل يمكنني ذلك؟

قلت:

- أرجو أن تفعلي.

لم يكن هناك أي جدال، ولا نقاش. فقد آن الأوان كي نجمع حشودنا معًا، إذ إننا فقدنا نصف رجالنا، وأخذت الإمدادات تتضاءل، والشتاء قادم على الأبواب. سنعيش نحن السيدات الثلاث في هذا المنزل القديم المتداعي الذي اشترите بفضل ألف.



استلقيتُ على مرتبة هوائية في منزلٍ فارغٍ في منتصف الليل، أستمع إلى نيلسون وهو يخبرني عن أطفاله الموجودين هنا، والموجودين في جامايكا، والإزعاج الذي تسببه له أمهات الأطفال، وهو السبب وراء كونه مضطراً إلى العمل طوال الليل أيضاً، علاوة على العمل في أثناء النهار. وقف نيلسون على الدرجة العلوية من السلم وهو يحاول جاهداً الوصول إلى السقف بفرشاته. أنا لستُ على علاقة بنيلسون، بل وظفته للطلاء. أتردد ما بين النوم واليقظة، بينما أحاول تذكر كيف سارت محادثة دارت بيني وبين ألف منذ سنوات، كانت تقريباً كما يلي:

- مرحى، ما هذا الذي في أذنك؟

- أذني؟ لا شيء.

- أجل، هناك شيء ما في أذنك، يا يولي يشبه السائل المنوي، أو شيئاً

من هذا القبيل...

- ليس لديّ سائل منوي في أذني.

- بل هو كذلك! أنا متأكدة تماماً. أجل، لديك مني في أذنك!

- إنه شامبو.

- إنه ليس شامبو، تعالي هنا.

- توقفي عن هذا!
- حقًا، تعالي هنا، ودعيني أتفحصه.
- لا.
- ما هذا إذن؟ تذوقيه.
- إنه شامبو، لقد استحمتُ للتو.
- كيف يمكنك التأكد من ذلك؟ تذوقيه.
- ألفريدا، لستُ بحاجة إلى تذوق أيًا ما كان بأذني، وهو شامبو، للتأكد من أنه ليس سائلًا منويًا، لأنني لم أضع نفسي في أي موقف...
- ها! يا إلهي، يا لك من كاذبة! اهدئي، يعجبني أن لديك مني في أذنك.

أستمع إلى نيلسون وهو يحكي لي عن حياته، بينما يطلي الجدران الرثة بطبقة من الأبيض الناصع. يبدو منزلي الجديد متداعيًا، لكن هيكله متين، تبعًا لوكيلتي العقارية. أخشى أنها تعني ذلك بالمعنى الحرفي. عثرتُ على كتابٍ في خزانة المطبخ بالأمس، تركه المالك السابق المخيف، عنوانه «القتلة المتسلسلون، من الألف إلى الياء». لم تكن وكيلتي العقارية ترغب في أن تريني هذا المنزل على الإطلاق، إذ إنه أثار اشمئزازها وجعلها تشعر أنها متسخة، لكنني أخبرتها أن الوقت ينفد، وأن والدتي قادمة في الطريق. يقع المنزل بالقرب من بحيرة ملوثة، محشورًا بين دار جنازات، ومستشفى للأمراض العقلية، ومجزر. قالت والدتي عندما وصفته لها عبر الهاتف:

- هناك شيء لكل فرد منّا.

كانت جدرانه متصدعة، أو مفقودة، أو متداعية، والأبواب محطمة، وجميع السلالم مكسورة، والطوب يتحلل إلى مسحوق أحمر يطفو حول المنزل مثل الرماد البركاني، ويدخل في عينيك وفمك. كما كان السقف بحاجة إلى استبداله، والأساس مليء بالثقوب، بينما اكتسحت الأعشاب الضارة الحديقة، وكان هناك ظربان يعيش تحت أرضية الشرفة. في وقت متأخر ذات ليلة، صادفتُ عاهرة (منذ أن بدأ ويل عامه الدراسي الثاني في الجامعة، صار يقول إن علينا تسميتهن العاملات في تجارة الجنس) وعميلها وقد اجتمعا واستغلا سياجي الخلفي لإتمام الصفقة. قلتُ «يا إلهي»، كما كان والدي سيقول إذا حدث وأن التقى بإحدى سيدات الليل. على طرف أنف العاهرة، كانت هناك ندبة حمراء بحجم عملة معدنية من فئة عشر سنتات، كما لو أنها قررت في البداية مغادرة المنزل في صورة مهرج، ثم غيّرت رأيها وعادت لتصبح عاهرة. في كل صباح، ألتقط الواقي الذكري والسرنجات المستعملة بعضا طويلة، وأضعهم في دلو أزرق بالقرب من البوابة الخلفية، التي تنفتح في عكس الاتجاه المفترض، وتصطدم بوجهي عدة مرات يوميا. عندما يمتلئ الدلو، سوف... لست متأكدة. الحديقة المزعومة التي تحيط بالمنزل ليست سوى تراب وقاذورات، كما أن الأرض مشبعة بالرصاص السام من المصانع المحيطة. لديّ أربعة أسابيع لترميم هذا المنزل المتداعي، قبل وصول والدتي بشاحتها العملاقة التابعة لشركة «يونيتد آلايد» للنقل. ستقيم نورا في الطابق العلوي، في غرفة العلية مع السناجب، وسأقيم أنا في الطابق الثاني مع الفئران، بينما ستبقى والدتي في الطابق الرئيسي بالقرب من الظربان.

ستتمكّن جميعاً من الخروج من أبوابنا الخلفية المكسورة، في طوابق مختلفة، ثم نشرع في الغناء، كما يفعلون في أوبرا «لا بوهيم». هذا هو المكان الذي جئناه للشفاء، إذا جاز التعبير. هناك مصنعٌ مهجورٌ لقطع غيار السيارات، مبني من الطوب الأسمتي، على الجانب الآخر من الممر الكائن خلف المنزل. يحجب المصنع معظم السماء من جهة الغرب، إلا إذا صعدنا إلى سطح الطابق الثالث، حيث يمكننا حينها رؤية الطريق إلى وينيبج بالكامل تقريباً.

هناك خندقٌ مملوءٌ بالوحل يحيط بالمصنع المبني من الطوب الأسمتي، يرمي الناس فيه القمامة، وأسرة الأطفال، ومضارب التنس المكسورة، وأجهزة الكمبيوتر، والملابس الداخلية القذرة، والمنبهات. وفي وقتٍ متأخرٍ من الليل، يقف رجلان غامضان صامتان يرتديان أحذية برقبة طويلة وسط الوحل، ويقومان بتفريغهما من الخندق، حتى يجري الوحل البني السام عبر الممر جنوباً باتجاه شارع أديليد، ثم إلى شارع كينج، وأخيراً إلى بحيرة أونتااريو، حيث ينضم إلى باقي الأوحال. استأجرتُ شخصاً لبناء غرفة نومٍ بالجزء الخلفي من المنزل، غرفة كبيرة ومشرفة ودافئة، ستمتّع ذات يومٍ بإطلالة جميلة على حديقة مليئة بالورود، تعلوها سماء زرقاء، وآمالٌ وأحلامٌ محلقة، من أجل والدتي.

دعاني أحد الرجال الذين استأجرتهم لإصلاح المنزل في موعدٍ غرامي، نوعاً ما، كي أرافقه إلى مجموعة الدعم التي يحضر اجتماعاتها للبالغين من أبناء مدمني الكحوليات. عندما أخبرته أن والديّ ليسا من مدمني الكحوليات، قال إن ذلك لا يهم، وإن لكلّ منّا مشاكله الخاصة. كان هناك رجلٌ آخر منهم، عمل في السابق أستاذاً للفلسفة في بوخارست،

أخذ يتبول من فوق الدرج الأمامي للمنزل، وشجع جميع الرجال الآخرين على القيام بذلك أيضاً. كان يزعم أن رائحة البول البشري سوف تبعد الطربان. بعد النهارات الرطبة التي تنقضي في التفاوض على الأسعار المختلفة، والدفع نقدًا على الدوام للرجال الذين يقومون بأعمالٍ متعددة داخل المنزل وخارجه وعلى سطحه، أستلقي ليلاً على هذه المرتبة الهوائية داخل منزلنا الخالي، وأستمع إلى نيلسون وهو يقص عليَّ حكاياته عن أطفاله ونسائه وعمله، باللكنة العذبة للغة مسقط رأسه، جامايكا.

تورّمت عيني اليمنى نظرًا لكوننا في شهر أغسطس، انتفخت، وصارت حوافها داكنة. لديَّ حساسية من فصل الخريف، ومن الأيام القصيرة، والليالي الطويلة، والموت. تجادلتُ مع صديقة اليوم، استدرجتني للخروج من منزلي بحجة أنني بحاجة إلى بعض الهواء النقي، وإلى تغيير المناظر، وأن عليَّ المضي قدماً، بخطى صغيرة. كان ذلك خطأً.

جلسنا في مقهى اسمه «سيفينج جريس» في شارع دانداس، وطلبنا البيض. قالت لي:

– لقد شعرتُ بالقلق الشديد حيالك، لا بُدَّ وأن كل ما مررت به كان فظيعةً للغاية. في رأيي، فإن «موت الشخص بيده» دومًا ما يُعد خطيئة، دومًا، بسبب الألم الذي يتسبَّب فيه للناجين.

سألتهَا:

– وماذا عن كل الناس الذين يعانون بسبب الأوغاد الذين على قيد الحياة؟ هل يُعد بقاء الأوغاد على قيد الحياة خطيئة؟

قالت:

- حسنًا، لكننا هنا على هذه الأرض، حتى لو لم نختر ذلك، وقد ورثنا واجباتٍ عديدة حيال الناس الذين قاموا على تنشئتنا، والأشخاص الذين يحبوننا. أعني، كل شخص لديه آلامه الشخصية، بكل تأكيد، لكن من المفارقات أن موت المرء بيده، على الرغم من كونه فعلًا ينطوي على تدمير الذات، فإنه يبدو لي بمثابة غرورٍ مطلقٍ. إنه سلوكٌ أناني بدرجة لا تُصدق.

قلت:

- هل يمكنكِ رجاء التوقف عن قول «موت المرء بيده»؟

قالت:

- حسنًا، ماذا أقول إذن؟

- الانتحار! عندما يُقتل شخص، هل تصفين الأمر بأنه مات بيد آخر؟ نحن لسنا في رواية كونت دي مونت كريستو اللعينة!

قالت:

- ظننتُ أنه تعبيرٌ أكثر حساسيةً فحسب.

واصلتُ قائلة:

- وأنا ناني؟ كيف يمكن أن يكون ذلك أنانيًا؟ ما لم تكوني قد رأيت العذاب بنفسك مباشرة، لا يمكنكِ حقًا إصدار الأحكام.

قالت:

- حسنًا، لكن إذا كانت شقيقتك قد فكرت في كيفية تأثير ذلك عليكِ عندما...

قلت بصوتٍ مرتفع:

- تأثير ذلك علي؟! معذرة.

أخذ الناس ينظرون إليّ، واصلتُ قائلة:

- اسمعي، أعتقد أنك لا تفهمين، لا أريد أن أكون متغطسة، لكن

كيف يمكنك حقاً فهم ما يعنيه انتحار شخص آخر؟

طلبتُ صديقتي من النادلة مزيداً من القهوة. قلت:

- في الواقع، لقد شرعتُ الآن أقيس شخصية المرء ونزاهته من خلال

قدرته على قتل نفسه.

قالت:

- ما الذي تقصدينه؟ انظري، لا أعتقد...

قلت:

- جيرمي أيرونز، على سبيل المثال، أراهن أنه سيكون قادراً على

ذلك. فلاديمير بوتين؟ مستحيل.

ذكرتُ أسماء بعض الأشخاص الذين نعرفهم، وقلتُ نعم أو لا بعد

كل اسم، ثم ذكرتُ اسم صديقتي، وتوقفتُ. حدثتُ إليها بعيني المتورمة،

فقال لي:

- يجب علينا ألا نتحدث عن الانتحار بعد الآن، إذ يمكن أن يؤدي

هذا إلى تمزيق أواصر صداقتنا.

قلت:

- بل ستتحدث عنه إلى الأبد، وإذا كنتِ لا تريدين أن تحطم طائرتك،

عليك أن تراجعني في ذهنك كل الطرق التي يمكن أن تؤدي إلى تحطمها.

قالت:

- قد تكون لديك مشاكل متعلقة بالغضب الدفين.

فأجبتها قائلة:

- أوه، يا لك من قارئة للأفكار، أعتقدين ذلك حقاً؟

حاولتُ الاعتذار لتخفيف حدة التوتر، لم أعرف ماذا أقول. اقتبستُ مقولة جوته، كما كانت والدتي تفعل، من سيرته الذاتية، «من حياتي: الشعر والحقيقة».

- «إن الانتحار حدث ذو طبيعة بشرية، ومهما قيل أو تم بشأنه، فهو يستحق التعاطف من كل إنسان، ويجب إعادة النقاش بشأنه في كل عصر»...

لكن بينما كنت أنطق تلك الكلمات، انشغلتُ صديقتي بتفقد هاتفها المحمول وهي تتعمد عدم الإنصات إليّ. كنتُ قد أثرتُ استياءها، ولم أُلَمّها على ذلك. أردتُ إعادة الحديث إلى مساره الصحيح. قرأتُ في مكانٍ ما إن الحيوانات موضوعٌ محايدٌ ممتازٌ. سألتُها عمّا إذا كان لديها حيوانات أليفة، فأجابتنني بأنني أعرف أنها لا تمتلك أيّ حيوانٍ أليف. حكيتُ لها عن ليفتي، قلتُ لصديقتي:

- كانت كلبة من فصيلة بوردر كولي، وكما تعلمين، عندما كان ولداي صغيرين، اعتاد جميع أصدقائهما القدوم للعب في الحديقة الخلفية، وكنتُ أتفقدهم بين حين وآخر. ذات مرة، نظرتُ إليهم عبر النافذة، فوجدتهم جميعاً متكديسين في أحد أركان الحديقة، لكن الأمر بدا كما لو أنهم غافلون عن ذلك، واستمروا في اللعب فحسب. أتدرين

لماذا؟ لأن ليفتي كانت من فصيلة بوردر كولي، وكلاب بوردر كولي هي كلاب رعي. كان الرعي من طبيعتها، لذا أصبح ولداي وأصداؤهما جميعاً في نهاية المطاف محشورين في ركنٍ من الحديقة، وقامت ليفتي بما كان يفترض أن تفعله. لم يكن لديها أي سيطرة على الأمر، كان الرعي محتملاً عليها، هل فهمتِ إذن سبب غضبي الشديد؟

بعد ذلك، ثملتُ من شرب التيكيل. يوجد مسدسان متقاطعان على الزجاجة، موجهان نحو السماء، نحو الرب. اتصلتُ بصديقتي، وهمستُ باعتذارٍ آخر لجهاز تسجيل المكالمات خاصتها. كنتُ على وشك إخبارها بأنني أعتقد أنها تمتلك ما يلزم لقتل نفسها، لكنني توقفت في منتصف الجملة، وبدلتها قائلة إنني أعتقد أنها تمتلك ما يلزم من أجل التحمل. اتصلتُ بجولي، لكن ابنها أخبرني أنها ذهبت لمشاهدة فيلم مع جادسون، وأن جدته ترعاه هو وشقيقته. قلت:

- أخبرها أنني أحبها، وأحبك أنت أيضاً، وشقيقتك، وكذلك جدتك. أحبكم جميعاً.



والدتي هنا الآن، في تورونتو، ويعيش ثلاثتنا في المنزل، والدتي، وابنتي، وأنا. كانت المرة الأولى التي رأيت فيها والدتي المنزل قبل بضعة أسابيع، في وقت متأخر من الليل، وسط عاصفة كهربائية. أخذ المطر يهطل أفقيًا بغزارة، على شكل كرات صغيرة، كما بدا الليل أرجوانيًا داكنًا والبرق يلتمع خلاله مثل سكاكين تطعن الأرض. كنت قد أوقفت السيارة في الممر. جلست نورا في المقعد الخلفي مع اثنتين من صديقاتها من المدرسة. نزلت والدتي من السيارة، وحاولت فتح مظلتها، لكن الريح أخذ يضربها، لذا كافحت معها بعض الوقت، بينما حدق إليها بقيتنا من خلال نوافذ السيارة كما لو كانت ممثلة صامته تؤدي عرضًا من نوع ما، حتى استسلمت في النهاية، وليذهب كل شيء إلى الجحيم. ألقت بالمظلة في الهواء، وتركت الريح تتلقفها. راقبنا المظلة وهي ترتفع بسرعة، مثل مكوك الفضاء تشالنجر، ثم تسقط إلى الأسفل مباشرة. قبل ثوان فقط من ارتطامها بالأرض، اتجهت نحو رأس والدتي مباشرة، لكنها تفادتنا، فاصطدمت الشمسية بالسيارة. شرعنا جميعًا نترجل من السيارة، وقد غرقنا بالفعل من مجرد ثانية واحدة تحت المطر، ثم تمكّنت والدتي من الإمساك

بالمظلة، وتوجهتُ بها نحو الخندق المجاور للممر، ذلك الخندق السام
المثير للاشمئزاز المليء بالقمامة المحيط بمصنع قطع غيار السيارات
المبني بالطوب الأسمنتي، وألقت المظلة هناك، قالت:

- يا له من هراء!

كما لو كانت تعني أننا حمقى لاعتقادنا أننا نستطيع الهروب من غضب
الاضطرابات الجوية. وقفنا نضحك وسط العاصفة، وراقبنا المظلة عديمة
الفائدة وهي تغوص في الوحل. في وقتٍ لاحقٍ، لكن ليس الليلة، سأقترح
على والدتي أن نضع قمامتنا في الحاوية الزرقاء بدلاً من المصرف الكائن
في الخلف. ستقول: «أوه، صحيح، نسيْتُ أنك تؤمنين بإعادة التدوير.
أتعلمين أن كلَّ تلك الأشياء تؤول إلى نفس المكان في النهاية؟ إعادة
التدوير ما هي إلا مؤامرة حكومية تهدف إلى جعلنا نعتقد أننا نساهم في
إنقاذ الأرض، حتى يتمكنوا من عقد صفقات فاسدة مع شركات التعدين
كي يجنوا مزيداً من الأرباح». أخيراً، وصلنا إلى المنزل، ووجدنا نيلسون
هناك على السلم المرتفع وهو يضع اللمسات الأخيرة على أسقف والدتي،
وقد تعالت نغمات موسيقى الراب، وعبق الجو برائحة الماريجوانا.

تفحَّصْتُ والدتي كلَّ شبرٍ من المنزل بتمهل وبعناية، وهي تبسم
ابتسامة عريضة، ونقاط المطر تقطر من طرف أنفها. تنهدتُ، ومرَّرت يديها
على الدرازين وعلى الجدران، وأومأت برأسها تجاه شيء ما، وأشارت
بصمَّتٍ إلى شيء آخر، وهي تتذكر تفاصيل من طفولتها. تراجعتُ إلى
الوراء ووقفت تحملق، كما لو كانت في متحف اللوفر، وخلصتُ إلى أن
البيت يتمتع بطابعٍ مميزٍ، وسحرٍ غريبٍ، وأجواء دافئة، وأنها تخيلنا نعيش
هنا في سعادة. قالت لي «برافو!»، ثم تعانقنا جميعاً، وضربنا أكفنا بأكف

بعض، أنا ونورا، وصديقاتها من المدرسة، وحتى نيلسون الذي نزل من على سلّمه ليرافقنا في الجولة عبر المنزل.

كنت قد وضعت أربع زجاجات من البيرة في الثلاجة، وشربنا أنا ووالدتي ونيلسون نخب مستقبلنا، أو نخب غرابة اللحظة الحالية، أو نخب مرورها فحسب، أو نخب الذكريات الخاصة، أو ببساطة نخب فكرة المأوى بصفة عامة. انقطع هطول المطر لبضع دقائق، وخرجنا جميعاً إلى الشرفة القديمة التي تصدر صريراً، والتي تتدلّى منها أنوار عيد الميلاد المكسورة بالطابق الثاني، كي تتأمل السماء. أخبرنا نيلسون بعض الألغاز عن الأعاصير وأعين الأعاصير، فضحكت الفتيات كثيراً، ووجدنه مثيراً. أدارت والدتي ظهرها إلينا، وأمسكتُ بسور الشرفة في هدوءٍ وهي تتطلع نحو الغرب، ثم التفتت فجأة، وألقت قصيدتها المفضّلة لووردزورث. كنت قد سمعتها من قبل، لكنها مزّقت نياط قلبي هذه المرة.

إنها لأمسية جميلة، وهادئة، وطيقة

والوقت المقدس هادئ كراهبة

خطف التبتل أنفاسها، والشمس العريضة

تغوص في سكونها

ورقة السماء تخيم فوق البحر

أنصتي! إن الكائن العظيم مستيقظ،

وبحر كته السرمدية يُحدث

صوتاً كالرعد، إلى الأبد

أيتها الطفلة العزيزة! أيتها الفتاة العزيزة التي تسير بصحبتني هنا

إذا بدوتِ كأن لم يمسك الفكر الجليل
فإن هذا لا يجعل طبيعتك أقل قدسية
أنت ترقدين في حضن إبراهيم طوال العام
وتتعبدين في ضريح الهيكل الداخلي
ويكون الرب معك من دون أن ندري
قال نيسلون:

- مهلاً، هل سمعتن ذلك؟

نظر نحو الفتيات، وواصل قائلاً:

- هل سمعتن ما ألقته الجدة؟ يا إلهي!

صفقت الفتيات، وسألنها عمّا إذا كانت أغنية أم ماذا. رفعتُ زجاجتي
واقترحتُ نخباً جديداً، قلتُ:

- في نخب ثمالة الحياة!

في إشارة إلى قصيدة أخرى كانت والدتي تلقيها أحياناً، لكنها كانت
إشارة أيضاً إلى العبارة المستوحاة من ألفريد لورد تينسون، والمسطورة
تحت صورة والدتي في الكتاب السنوي القديم لمدرستها الثانوية: «لوتي
تجرع كأس الحياة حتى الثمالة!». غمزتُ لي والدتي بعينها.

قالت نورا:

- في نخب ماذا؟

كانت الفتيات بحاجة إلى التبول، فاقترحتُ عليهن التبول في كوب
وسكبه تحت الدرج الأمامي لإبعاد الظربان، مثلما أوصى طاقم العمال.
قالت نورا لصديقاتها:

- لا تقلقن بشأن والدتي، إنها من الهيبيز، عندما كانت طفلة، لم يكن لديها ما تلعب به سوى الريح. لا حاجة بكن للتبول في كوب؛ لدينا حمام. تجاذب نيلسون ووالدتي أطراف الحديث لبعض الوقت عن الشعر، وقوة البحار، والفيضانات الجارفة، والتيارات الخفية، وقوتهم غير المرئية. ابتعدت الفتيات في النهاية واختفين في ظلمة الليل. نزلتُ إلى الطابق السفلي، وألقيتُ نظرة أخرى على الجزء الخاص بوالدتي من المنزل. كانت قد أصرتْ على إزالة جميع القضبان من على النوافذ. أبدى طاقم العمال ترددهم إزاء ذلك، إذ أحسُّوا بالقلق بشأن سلامتها في الطابق السفلي. قالت:

- لن أعيش في سجن؛ ستُزال القضبان.

عدتُ إلى غرفة معيشتها. تناولتُ قلم رصاصٍ من حقيبة ظهري، وصعدتُ سلم نيلسون حتى قمته، وكتبتُ على جزءٍ من السقف سيقوم بطلائه قريباً، ربما حتى في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة: «ك. أ. ض.» نزلتُ من السلم، ثم ناديتُ والدتي قائلة إن علينا أن ننال قسطاً من النوم. ستصل الشاحنة التي تحمل متعلقات والدتي من وينيبيج صباح الغد، وسنشرف أنا وهي على النقل، ونوجّه العمال إلى أين يضعون الأشياء وفي أي غرفة، وكيف يركّبون بعض قطع الأثاث. بعدها، سنبقى هنا ونعيش في هذا المكان.

ارتدت والدتي رقعة على إحدى عينيها. جلستُ في غرفة مليئة بكبار السن الذين يرددون جميعاً رقعة على إحدى أعينهم. جئتُ لاصطحابها.

رَحَّبَ بي رجلٌ في مؤتمر القراصنة. كانت العين اليسرى هي المغطاة برقعة لدى الجميع. كنّا في غرفة في مركز سانت جوزيف الصحي في تورونتو. وجدتُ والدتي مستغرقة في الحديث مع زوجين يرتديان سترآ واقية متطابقة، فلوّحت لي للقدوم كي تعرّفنا إلى بعض. أوضحت لي أن الطبيب المختص بالمياه البيضاء يجري جميع العمليات في العين اليسرى في أسبوعٍ، ثم يجربها في العين اليمنى خلال الأسبوع التالي. أعطوها ست زجاجات صغيرة من قطرات العين، مع تعليمات استخدامها.

على مدار الأسبوعين المقبلين، ستناب وأنا ونورا وضع القطرات بعينيهما. تخلّلت أيامنا جلسات وضع القطرة هذه. بين قطرة وأخرى، علينا الانتظار بضع دقائق حتى تتشرب عين والدتي القطرة. عزفنا ثنائيات صاخبة على البيانو لتمضية الوقت خلال فترات الانتظار، وكان عزفنا سريعاً للغاية. أحياناً كنّا نعزف ترانيم والدتي المفضلة، مثل «أبناء الأب السماوي»، لكن بسرعة فائقة، مما دفعها إلى الضحك. تستطيع نورا عزف أغنية «في مكانٍ ما فوق قوس قزح» في أقل من عشر ثوانٍ، كما تستطيع عزف مقطوعة ساراباندي هاندل بسرعة أكبر حتى.

سنة أنواع مختلفة من قطرات العين، نقطتان، أو أربع، أو ست نقاط من كل زجاجة، ثلاث دقائق بين قطرة وأخرى، أربع مرات يومياً! نأتي إلى والدتي بالزجاجات الصغيرة، فتخلع نظاراتها بانصياحٍ، وتميل برأسها إلى الوراء، وتدفع شعرها الأبيض الناعم بعيداً عن عينيهما. عندما تنتهي، تجلس أمام الكمبيوتر وتلعب سكرابل بينما تنسال على وجهها الدموع الطبيعية والصناعية.

أقول لها:

- هدوء لا يُقهر.

تكرر قائلة:

- هدوء لا يُقهر.

أقول:

- سوف تنتصرين.

تجيني قائلة:

- سوف تنتصرين.

قبل يومين، عادت والدتي إلى المنزل بعد التمشية في الحي، ومعها أخبار جعلتها في حالة مزاجية مبتهجة.
قالت:

- لقد اكتشفتُ شيئاً ما. ذهبتُ إلى دار الجنازات الكائن عند الناصية، واكتشفتُ أنه يمكن حرق جثتي مقابل ألف وأربعمائة دولار، يشمل هذا السعر كل شيء، كما أن لديهم خدمة من الباب إلى الباب؛ سيأخذون جسدي ويعيدونه في جرة.

أرتني حذاءها الجديد، كان زوجاً عالي الجودة من الجلد الأسود، اشتريته من متجرٍ عصري في كوين ويست. ليست والدتي من ذلك النوع الذي يتبع أحدث الصيحات، كما أنها ليست خبيرة في الموضة، بل هي امرأة مينوناتية قصيرة بدينة من البراري، في السادسة والسبعين من العمر، عاشت معظم حياتها في واحدة من أكثر المدن الصغيرة محافظة

في البلاد، تعرضت لصدمات الحياة مرارًا وتكرارًا، وانتقلت فجأة إلى القلب العصري لأكبر مدينة في البلاد، لتبدأ، كما يقولون، فصلًا جديدًا من حياتها. لا تعرف أي شخص في تورونتو، لكنها تحب فريق «تورونتو بلو جايز»، الأمر الذي يربطها بالغرباء من جميع الأنواع. إنها التجسيد المطلق للصمود، والروح الرياضية الطيبة.

بدأت في إعداد قائمة سلبية بالمταجر والمقاهي في كوين ويست، هنا في «منطقة الفن والأزياء»، الذين يعاملونها بدرجة احترام ومودة مهنية أقل من تلك التي يعاملون بها عملاءهم الأصغر سنًا والأكثر أناقة. لا تلاحظ والدتي ذلك حتى، إذ إنها مرحة وفضولية وسعيدة، وغافلة عن التعالي. وهي صاخبة بعض الشيء، بسبب ثقل سمعها البسيط، كما تضحك كثيرًا، ولديها تساؤلات عن كل شيء، ولا تتحرج من السؤال. لا يوجد في ذهنها أي سبب يمنعها من الاحتفال كل ليلة في الأسبوع بصحبة مجموعة من طلاب السينما الذين يتمتعون بالجمال، ممن يقضون وقتهم في حانة «ذا كوميونستس دوتر». إنها تمثل نقیض ما يود جموع الذين يرتادون منطقة كوين ويست أن يكونوا عليه. فهي تشعر بالراحة وهي ترتدي سروالها القطني القصير الواسع ذا اللون الوردي، والقميص الذي فازت به في بطولة سكرابل في رود آيلاند. وهي تريد مشاركة الحديث مع بائعي التجزئة النحاف الشاحبين هؤلاء، وترغب في معرفة حكاياتهم، ومن أين جاءت البضائع، وكيف يتم انتقاؤها، وكيف يرتدي المرء هذا، أو يغسل ذاك. تحاول معرفة المزيد عن سكنها الجديد، والتعرف على عالمها، مما يجعل معاملتهم الباردة لها أكثر إيلاّمًا. بعد ذلك، أقرّر مقاطعتهم إلى الأبد، وكذلك تفعل نورا، على الرغم من أن ذلك يؤلمها بعض الشيء،

لأنها شابة رائعة وعصرية للغاية، وتود زيارة هذه المتاجر بين حين وآخر.
لكن مهما يكن، سوف نسدد لكم ضربة، أيها المتكبرون.

باتت والدتي على صداقة بالفعل مع عامل التنظيف الجاف في شارع
كينج، الذي يعرفني فقط بصفتي ابنة لوتي، وتتبادل الحديث كل صباح
مع كليف، الرجل الذي يلوح لها من الجهة المقابلة من الطريق. حتى إنها
عرضت أن تمنحه هو أو أبنائه أريكتي. جاء إلى بابنا هذا الصباح ثلاثة
رجال ضخام البنية، أحدهم مصابٌ بجرحٍ جديدٍ على أنفه، وقالوا لي إن
لوتي أخبرتهم أن لديَّ أريكة لهم، قلت لهم:

- لا، ليس لديّ، إنه سوء تفاهم.

قلت لها بعد ذلك:

- هل يمكنك الامتناع عن توزيع أغراضي؟

مرَّ أمام منزلنا رجلٌ يرتدي قميصًا، وربطة عنق، وسترة، وجوارب،
وحذاء، وقبعة، لكنه كان من دون سروالٍ، ومن دون ملابس داخلية حتى.
شاهدته والدتي، فهرعت إلى غرفة نومها لتجلب زوجًا من سراويلها
الرياضية كي تمنحه إياه. شكرها، ثم لفَّه حول عنقه كوشاحٍ منفوشٍ،
فقالت له:

- حسنًا، هذا أيضًا سيفي بالغرض.

عندما سألتها عمَّا إذا كانت ستفتقد ذلك السروال المريح، قالت لي
إنها ستكف عن توزيع أشياءي، لكنها ستفعل ما يحلو لها بأشائها.
كما انضمَّت أيضًا إلى كنيسة مينوناتية في شارع دانفورت، وقد طلبوا
منها أن تصبح أحد شيوخ الكنيسة. سألتها:

- هل هذا منصبٌ رسمي؟ أأست كذلك بالفعل؟ أنت كبيرة في السن.

أوضحت لي أنه لا يوجد سوى ثلاثة شيوخ في الكنيسة، وأنه يشرفها للغاية كونهم طلبوا منها ذلك. في بلدتنا الصغيرة في إيست فيليدج، لم يكن ليطلب أبداً من امرأة أن تصبح من شيوخ الكنيسة. لم يكن ليطلب من المرأة أي شيء (أو لم تكن ستؤمر بأي شيء) سوى إغلاق فمها، ومباعدة ما بين ساقها. ستفكر في الأمر بعض الوقت. تتنقل في أرجاء المدينة بالمواصلات العامة، لزيارة أشخاص غربيي الأطوار قعيدي منازلهم، تابعين لكنيستها، تغني معهم الترانيم، وتساعدهم على إعداد وجبات الطعام، وتضحكهم، وتحاول أن تكون مفيدة. أتى أشخاص من رعية الكنيسة، وزرعوا بعض الأشياء في حديقتنا الأمامية البشعة: زهوراً، وشجيرات، ونباتات معمرة، وبعض الصخور للزينة. كما نشر ألكسندر، جارنا، رقائق الخشب في جميع أنحاء الحديقة أيضاً، لذا صار منزلنا نوعاً جميلاً من أنواع المشاريع المجتمعية.

لا نتحدث عن سويسرا، وما إذا كان ينبغي لي اصطحاب شقيقتي إلى سويسرا لمساعدتها على الموت. أنا على يقين من أن ألف لم تذكر أمر سويسرا لوالدتي قط، ولا تواتيني الجرأة لسؤالها عن ذلك. في المساء، بعد الانتهاء من أعمالها الخيرية، تصب والدتي لنفسها كأساً كبيراً من النبيذ الأحمر، وتشاهد فريقها المحبوب، «تورونتو بلو جايز»، وهو يتعرض للهزيمة الساحقة مرة أخرى. نسمعها أنا ونورا من الطابقين الثاني والثالث وهي تصرخ في تلفزيونها في الطابق الرئيسي: «فلتجعله يعود إلى

المنزل! زاحمه، يا رجل!». لا يطفرف لنا جفنٌ، إذ إننا اعتدنا ذلك. لطالما كانت من مشجعي فريق «بلو جايز»، وتعرف كل الإحصاءات والحكايات الخاصة بجميع اللاعبين: «حسنًا، هذا الرجل أصيب بتمزق في عضلات الكتف، وذلك الآخر يرمي بصورة سيئة للغاية، أما هذا فقد كانت نتيجة اختباره إيجابية لشيء ما أو لآخر. وذلك اللاعب البديل الذي اشتروه؟ حسنًا، إنه على قائمة المصابين لإصابته بشدٍّ في عضلات الفخذ! إنهم يجلبونهم من رابطة هواة الرياضة!».

خرجت والدتي فيما يشبه الموعد الغرامي، قبل بضعة أسابيع. قالت لزميلها العجوز، كما أطلقت عليه (أعتقد أنه يصغرها بعشر سنوات)، أنها تودُّ تناول كأسٍ من النبيذ في مكان ما -اكتسبت عادة شرب النبيذ هذه سريعًا في تورونتو، وصارت تشتري مؤخرًا نوعًا من نبيذ ميرلو على زجاجته ملصق مكتوب عليه «تجرباً!»- ثم حضور مباراة لفريق «بلو جايز» بعدها. دعني لمرافقتهم، وقضيتُ الوقت بأكمله في الحديث مع الرجل الذي لم يكن مهتمًا بالبيسبول بدرجة كبيرة، لكنني اكتشفت أنه يدخن سيجارتين من الماريجوانا يوميًا بسبب التهاب المفاصل الشديد الذي يعاني منه. قلتُ لها:

- أنتِ تواعدين مدمن ماريجوانا.

في تلك الأثناء، راقبتُ والدتي المباراة كما لو أنها كشفٌ للاعبين، وقد انحنيت للأمام بعينين حادتين، تسجل في برنامجها الخاص بالمباراة كل شيء، من الضربات المسجلة والضائعة، والنقاط، والأخطاء المُرتكبة. عندما حاول الرجل الحديث إليها، لسؤالها عمّا إذا كانت ترغب في تناول

الهوت دوج أو ما شابه، صرختُ قائلة:

- هيا، أيها الحكم، استيقظ! ما هذا الذي تفعله، يا سنايدر؟ لقد خرج لاعبان، وجميع القواعد محملة باللاعبين!

بعد انتهاء المباراة، وبعد أن أوصلنا رفيقها إلى مكانٍ ما في الطرف الشرقي من المدينة، سألتها عن طبيعة عمله، فقالت إنها لا تعرف حقاً، لكنه اشترى لنفسه هاتفًا جديدًا للتو، لذا لن يعود مضطراً إلى الاتصال بها من هاتفٍ عمومي بعد الآن. قالت:

- إنه يذهب إلى جامعة تورونتو.

قلت:

- رائع، لماذا؟

أجابني:

- كي يستحم.

نزلتُ في وقتٍ متأخرٍ من الليلة الماضية كي أُلقي عليها التحية، ولم تكن موجودة هناك. وجدتُ رسالة على الطاولة، كتبتُ فيها: «يولي، ذهبتُ إلى محاضرة عن إريتريا. هناك حساء فاصوليا خضراء، وكرنب مطهو في الثلاجة». اتصلتُ بها على هاتفها المحمول، وعندما ردّت أخيراً، سمعتُ أصواتاً صاخبة وصيحاتٍ في الخلفية. سألتها:

- أين أنتِ؟ لقد تعدّدت الساعة الحادية عشرة.

قالت:

- انتظري لحظة. يا رفاق، أين أنا؟

سمعتُ رجلاً يرد عليها، وأخبرتني أنها في مقهى «ذا موتورساكيل»
عند تقاطع شارع كوين مع شارع ما آخر، تتناول برجر وتشاهد المباراة.
كانت هناك أشواط إضافية. سألتها:

- هل أنتِ بمفردك؟

قالت:

- لا، لا، هناك حشدٌ كبيرٌ من الناس هنا.

ثم تعالى مزيدٌ من الصياح والضحكات، حتى لم يعد بوسعي سماعها
على الإطلاق.

جلستُ على أريكتي، التي حاولت والدتي أن تعطيها للجيران،
وبدأت الدموع تلسع عيني. تكون في أسوأ حالاتك حينما لا يعود
بمقدورك الاعتماد حتى على دموعك كي لا تؤلمك. ذهبتُ إلى البيت
المجاور لزيارة الجارة الأخرى، اسمها إيمي، وهي أم جديدة، أراها كل
يوم تقريباً، وهي تصطحب طفلها وتخرج للتمشية. قبل شهر، عثرتُ
على زرزور ساقط على الرصيف، وأخذته معها إلى المنزل لرعايته حتى
يتعافى. بنْتُ له بيتاً صغيراً في غرفة نومها الخلفية، به غصن شجرة،
وطبقٌ مملوءٌ بالمياه. كما وضعت ديدان أرض حية في طبق مليء
بالتربة، وأطعمته طعام أطفال وصلصة تفاح، على طرف عصا خشبية
صغيرة، وشغلت له أغاني طيور الزرزور حتى يتمكن من الغناء بلغته.
بعد قرابة ثلاثة أسابيع من العناية به، قررت أن الطائر يمكنه العيش بمفرده
الآن، وأن عليه مغادرة العش الذي صنعه له، ففتحت باب غرفة نومها

الخلفية، وقفز الزرزور على كتفها، ثم سارا عبر ممر الطابق العلوي، وهبطا الدرج، وعبرا ممر الطابق السفلي تجاه الباب الخلفي المفتوح. ثم رأى الطائر فرصته فجأة، ممثلة في مستطيل الضوء القادم عبر الباب المفتوح، فانطلق طائراً. ناولتني إيمي هاتفها المحمول وقالت:

- هل تريدان رؤية الطائر وهو يطير مبتعداً؟ لقد صورته زوجي.

كان الطائر عبارة عن بقعة ضبابية صغيرة داكنة تحلق في الجو باتجاه الضوء، ثم اختفى. تحرك بسرعة فائقة للغاية. عندما شاهدتُ هذا الفيديو القصير، تحطمتُ شيءٌ ما داخلي. كان رحيل ذلك الزرزور مفاجئاً للغاية، من دون رجعة. شرعتُ في البكاء، على الرغم من أنني حاولت الامتناع عن ذلك، وشعرتُ كما لو أنني تعرضت للغاز المسيل للدموع.

أطالع الآن صندوقاً مليئاً بالبطاقات التي أرسلتها ألف على مرّ السنوات. لم تنسَ أي مناسبة، وكتبتهم جميعاً بأقلام التحديد الملونة المميزة لها. فكرتُ: «انظري لكل علامات التعجب هذه». كل هذه المناسبات - أعياد الميلاد، والكريسماس، والتخرج - التي ختمتها بنهايات لافتة للنظر. ثم نعيد الكرة. نعيد الترتيب، ونبدأ من جديد، المرة تلو الأخرى. نجتمع في الملعب ونحيط بعضنا بأذرع بعض، وتتصادم خوذاتنا، ونعيد صياغة استراتيجيتنا، ثم نلعب جولة أخرى. عندما كنت طفلة، قلت لألف (أم هل قلت لنفسي؟) إنني سأحافظ على قلبها آمناً. سأبقيه محفوظاً إلى الأبد في كيسٍ من الحرير مثلما فعلت ماري شيلي بقلب زوجها الشاعر الغارق، أو في حقييتي الرياضية، أو في الدرج العلوي

من خزانة ملابسي، أو مدسوسًا داخل تلك الفجوة في الشجرة العتيقة في حديقة باركمان في بلدتنا البعيدة، حيث كنت أخفي سجائري. أفتش الآن في أرجاء المنزل عن أقلام التحديد الملونة تلك. إذا تمكنت من العثور على القلم الوردي والقلم الأخضر، فسأكون بخيرٍ حتى الصباح. أبحث، ثم أتخلى عن البحث.

إن الحياة مع والدتي تشبه العيش مع ويني ذا بوه، فهي تخوض مغامرات عديدة، وتورط نفسها في المشاكل وتخرج منها بسذاجة، وكل هذه المغامرات تصحبها بضع عبارات من الفلسفة اللطيفة. دومًا ما يكون هناك مزيدٌ مما يمكنك تعلمه في كل مرة تعلق فيها رأسك داخل جرة العسل، إذا كنت تشبه والدتي.

أمضت الليلة الماضية بأكملها خارج المنزل، ثم أنت هذا الصباح عند الباب الأمامي - كانت قد نسيت مفاتيحها - وشعرها مهوش، وقميص نومها مدسوس في سروالها. قالت:

- أوه، جيد، أنت مستيقظة! لقد نسيتُ مفاتيحي.

كانت قد عادت للتو من عيادة النوم حيث أمضت ليلتها تحلم، والأقطاب الكهربائية موصلة برأسها. غضبتُ منها العاملة الفنية المسؤولة لأنها كانت تقرأ كتابها. أخبرتُ والدتي أنها موجودة هناك لتنام، لا كي تقرأ، فقالت لها والدتي إنها لا تستطيع النوم من دون أن تقرأ أولاً. طلبتُ العاملة الفنية من والدتي أن تسلمها الكتاب - كان رواية لريموند تشاندلر - فضحكت والدتي وقالت:

- لا بُدَّ وأنت تمازحيني، أسلمك كتابي؟ مستحيل.

بعد ذلك عاملتها العاملة الفنية بخشونة نوعاً ما، وانتزعت الأقطاب الكهربائية المستديرة اللزجة من رأسها في الصباح من دون أن تودّع والدتي عند رحيلها. ثور ثائرة والدتي عندما لا يقول الناس «مرحباً» و«وداعاً». تقول إن ذلك من التقاليد الراسخة، وإن امتناع الناس عن الترحيب والوداع ينذر بانهيـار الحضارة.

قالت والدتي:

- على ما يبدو، توقف قلبي عن الخفقان تسعين مرة خلال نومي.
قلت لها:

- أنت تعانين من انقطاع النفس في أثناء النوم.
قالت:

- يبدو ذلك جلياً.

نظرت إلى نفسها في المرأة، وضحكت لانعكاسها.

أرتني الجهاز الذي ستضطر إلى النوم به الآن، وهو قناع بلاستيكي ضخم به خرطوم، سثبته على وجهها، ثم تستنشق الرطوبة المنبعثة من جهاز مثبت بالقناع. علينا تجهيز أباريق من المياه المقطرة كي نبقي الجهاز ممتلئاً. وضعت القناع على وجهها، ثم سارت نحوي بتناقل مثل دارث فيدر، وقالت بصوت مكتوم:

- إذا اقتحم شخص ما غرفتي وأنا أرتدي هذا الشيء، فلن يبقى طويلاً.

ثم أخذت نفساً عميقاً من خلف البلاستيك، فامتلاً بالبخار المتكثف. انتزعته عن وجهها، وقالت:

- من المؤسف أنني لم أعد أرتدي رقعة العين، كنت سأصبح قوة لا تُقهر بسهولة، أليس كذلك؟

فتحت جهاز الكمبيوتر المحمول خاصتها، كي تلعب مباراة سكرابل سريعة على الإنترنت. كان آخر شخص لعبت معه رجلاً من فرنسا، عرض عليها أن يريها صوراً لعضوه الذكري، فكتبت له قائلة: «لا، شكرًا، هل لديك صورٌ لباريس؟».

أدركتُ شيئاً للتو. لستُ أنا من نجوتُ، ومضيتُ قدمًا وواصلتُ الطريق، وأنقذتُ والدتي بإحضارها إلى تورونتو، بل والدتي هي من فعلت... وقد اصطحبتني معها.

لذا قلت:

- هل راودتكِ أي أحلام في عيادة النوم؟

قالت:

- يا إلهي! لقد حلمتُ بالفعل. نعمتُ بلحظة تجلي.

قلت:

- حقًا؟

- حسنًا، أتعلمين كم أكره الطهي بشدة؟

- بلى.

- حسنًا، كنت أتساءل عن ذلك، وعما يتعين عليّ القيام به حيال هذا الأمر. لذا راودني هذا الحلم خلال الليلة الماضية، وطراً عليّ الحل، الأطعمة المجمدة! كان هناك مجرد صوتٍ أخبرني بذلك. هكذا اكتشفتُ

من خلال حلمي أن عليَّ التوجه إلى قسم الثلاجات، وشراء الكثير من الأطعمة المجمدة، سواء البيتزا أو كرات اللحم أو المعجنات أو أصابع الدجاج أو ما شابه، كي أملك برادي، وستكون هذه هي نهاية الأمر. لن أضطر إلى القلق بشأن الطهي، لكن سيظل لديّ طعام لأتناوله. طرأت عليّ الفكرة كما لو كانت لوحة إعلانات: الطعام المجمد!

قلت:

- يبدو ذلك جيداً للغاية.

كانت والدتي تحلم بالنجاة، وتراودها أحلامٌ متعلقة بالخلاص، تخبرها كيف تبقى على قيد الحياة. لن أخبرها أن الأطعمة المجمدة مليئة بالكبريتات، فمن عساه يكثرث لذلك، طالما أنها مقتنعة تماماً بالعلاج.

راودني حلمٌ خاص بي. لم يكن متعلقاً بموضوع سويسرا. كنّا أنا وألفريدا في مطبخها الأصفر، بجوار النافذة الضخمة، نتبادل الحديث والضحك على لا شيء. ضللنا طريقنا فحسب على نحو لطيف وسط متاهة من الكلمات التي لا تعني الكثير، نقصّ الحكايات وندفع بعضنا إلى الضحك. كنّا هناك، لكن بعدها في الحلم، أردتُ إخبار ألف بشيء أكثر إلحاحاً، شيء متعلق بعملتي، وبخوفي من إنهاء كتابي، ومن الاستقبال الذي سيلقاه. ثم حلت لحظة صمت في ثرثرتنا، وشرعت ألف تتشاءب، وفكرتُ أن عليّ إخبارها بهذا الأمر الملح الآن، لكنها رفعت يدها لتمنعي، فأبقيت فمي مغلقاً. تناولتُ يدي ونظرت إليّ بتمعن، وقربت وجهها من وجهي كي أفهم حقاً ما كانت على وشك قوله، وأنها تعنيه بالفعل. شكّلت رموشها

إطارًا داكنًا، وبدت جادة تمامًا. فكرتُ: «حمدًا للرب، ستقول شيئًا يشعرني بأنني أفضل، وأشجع»، لكنها قالت: «يويو، لقد صرت بمفردك الآن». وكان شعوري في الحلم هو نفس الشعور الذي راودني عندما شاهدت فيديو طائر جارتني: المفاجأة الشديدة، عندما يضع شيء في ثانية، إلى الأبد. بدت شقيقتي بقعة ضبابية داكنة، تتجه نحو مستطيل من الضوء. لكن الآن، وعقب الاستماع إلى حلم نجاة والدتي، أعتقد أن هذا قد يكون حلم نجاتي الشخصي، وليس كابوسًا. إنها بداية علاجي أنا، لأنه كي ننجو من شيء ما، علينا أولاً أن نعرف ماهية الشيء الذي نحاول النجاة منه.

في أيام الجمعة، نعقد اجتماعات عائلية. في بعض الأحيان، لا تحضر نورا هذه الاجتماعات العائلية لأن لديها أشياء أفضل تفعلها. لديها أندرس، كما أن هناك الحفلات، وهي لا تزال شابة، لذا نعطيها محضر الاجتماعات. لم أعد أقيم علاقات عشوائية مع الرجال، إذ بت أخرج من ذلك، ولم تعد ألف موجودة لتذكيري بأنني لست ساقطة، وأن ذلك الشيء ليس له وجود. «حسنًا، يا يولي. ألم أعلمك أي شيء على الإطلاق؟ أرجو أن تتوقفي عن مساواة الأخلاق بالمفاهيم الأبوية الأنانية التي عفا عليها الزمن، فيما يتعلق بالنشاط الجنسي للمرأة».

اتصل فينبار ليسأل عمًا إذا كنتُ قد قتلتُ شقيقتي، وكنتُ بحاجة إلى مستشار قانوني، فأجبتُه بالنفي، قائلة إنها وفرت عليّ مشقة ذلك. اعتذر، إذ لم يكن يعلم أن الوضع يمثل هذه الدرجة من الخطورة، وقال إنه آسف. شكرته، فقال:

- لكن كان لدينا شيء ما، أليس كذلك؟

أعجبتني الطريقة التي عبر بها عن الأمر، ربما كانت مجرد هلاوس، لكنها كانت شيئاً ما. قلت بلى، وشكرته مرة أخرى، ثم ودعنا بعضنا إلى الأبد، وتصرفنا كالبالغين. أعيش مع والدتي وابنتي. نقف على شرفاتنا المختلفة، في جميع الطوابق الثلاثة، ونصيح ونحن نتحدث إلى بعضنا، مثل النساء المدخنات في مسرحية «بالكونفيل». ليس لديّ وقتٌ لإقامة علاقات عشوائية. لديّ حيوانات الراكون، والأحلام، ومسدسات الماء، والحزن، والخنادق السامة، والشعور بالذنب، والواقى الذكري المستخدم الذي يتعين عليّ التقاطه من الممر.

قالت والدتي إنه لا يمكنني ربط الحزن مثل الواقى الذكري المستخدم، وإلقاؤه في القمامة. سألتها عمّا تعرفه عن الواقى الذكري، فأخبرتني بأنها عملت لفترة طويلة عاملة اجتماعية، وهو ما تقوله دوماً بعد أن تفاجئنا بمعلوماتٍ لم نكن نعتقد أنها تعرفها. سرتُ بالأمس في حديقة ترينيتي بيلوودز، ووجدتُ والدتي مستلقية على أحد المقاعد وهي مستغرقة في النوم. جلستُ بجوارها بعض الوقت، وقرأتُ الصحيفة. بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة، وكزتها برفق، وقلتُ:

- حان وقت العودة إلى المنزل، يا أمي.

أخبرتني بأنها تحب النوم في الهواء الطلق، فقلت:

- هل هذا صحيح، أم أنك خرجت للتمشية وغلبك الإرهاق فجأة؟

أعطتني شقيقتي سلم طوارئ ذات مرة، كان من ذلك النوع من السلالم الذي تعلقه بحافة نافذة الطابق العلوي، ثم تنزل من عليه في حال

وقوع حريق بمنزلك. خزنته في البدروم لسنوات طويلة، لكنني بدأت أفهم الآن الحكمة من إبقائه في الطابق الثاني.

اتصلت بالمستشفى في وينبيج، وسألتُ عما إذا كان بإمكانني رجاء التحدث إلى المريضة ألفريدا فون ريزين، فأخبروني بأنها ليست مريضة هناك. قلتُ للمستشفى:

- حسناً، هذا غريبٌ، لأنها كانت بالقطع مريضة لديكم، وآخر ما سمعته هو أنها لن تغادر المستشفى في أي وقتٍ قريبٍ.

أجابوني بأنه ليس لديهم أي معلومات بخصوص ذلك، فأخبرتهم بأنني سئمت كلَّ تكلفتهم في الحديث، فأبدوا أسفهم لذلك وأنهوا المكالمة.

بعد ذلك، أوشك عيد الميلاد على الحلول، كان نيك سينضم إلينا. اتصل هاتفياً من وينبيج، وقد طرأت عليه فكرة لشاهد القبر: «وأرقد، كما رقدتُ بوداعة في طفولتي، لا أزعج أحداً، ولا يزعجني شيء في مرقدتي، والعشب من تحتي، وفوقي القبة السماوية».

قلت:

- ما هذا؟

قال:

- ألا تعرفين؟

قلت:

- لا أعرف كل القصائد.
- إنها من تأليف جون كليير.
- هل كانت ألف تحبه؟
- كانت تحبه كثيرًا. عنوان القصيدة «أنا!»، كتبها وهو في مصحة عقلية.

قلت:

- مستحيل.
- معذرة؟

قلت:

- دعنا لا نربط كل شيء بالجنون.
- أتعنين فيما يتعلق بشاهد القبر؟
- فيما يتعلق بكل شيء.
- حسنًا، هل لديك اقتراحات؟

عندما عدتُ إلى تورونتو عقب وفاة ألف، أردتُ أخذ بعض رمادها معي كي أحتفظ به هنا، لكن نيك لم يحب فكرة تقسيمها، لذا دُفن الرماد كله تحت شجرة ضخمة في مقبرة إيلمود في وينيبج. اقترحت والدتي أن تُدفن مع والدنا في إيست فيليديج، فقال عامل المقبرة إن هذا ممكنٌ، وإن هناك متسعٌ لثلاثة، إذا كانت جرارًا لا تواييت (ملمّحًا إلى أن والدتي سينتهي بها المطاف هناك هي الأخرى)، لكن نيك قال إن هذا محالٌ، وإن ألف عبّرت صراحة عن رغبتها في ألا تُدفن في إيست فيليديج. سيكون

ذلك بمثابة إعادة جثمان لويس رثيل إلى الحكومة الكندية على سبيل
التذكار. سألتُ نيك:

- ماذا عن حديقتك الخلفية؟ ففي النهاية، كانت تحب البقاء في
المنزل.

قال:

- هذا مضحك للغاية. هناك مشاكل قانونية متعلقة بالدفن في
الحديقة، فهي ليست قطعة.
قلت له:

- هذا صحيح.

أخبرني بأنني فعلتُ كلَّ ما بوسعي، وأن اللوم لا يقع على أحد. لم
أكن متأكدة من ذلك. تساءلتُ عن زيورخ. كانت ستموت بسلام، وهي
ليست بمفردها، كان ذلك هو كل ما تريده. لقد فشلتُ. لم نتحدث عن
ذلك. أخبرته بأنه هو أيضًا قام بكل ما يمكن عمله.
قلت:

- هي التي حصلت على تصريح الخروج. أنت تعرف طريقتهما، كان
بوسعها إقناعهم بالسماح لها بالخروج من المستشفى.
قال:

- لكن كان عليّ بذل جهدٍ أكبر كي أجعلهم يبقونها في المستشفى.
- لم يكن بوسعك بذل جهدٍ أكبر من ذلك.
- إذن لن نستخدم قصيدة جون كليز؟
- ربما. لكن لا تعجبنى دلالاتها المتعلقة بمستشفى الأمراض

العقلية. علاوة على ذلك، إذا كنّا سنستخدم أحياناً شعرية، فيجب أن تكون لامرأة شاعرة.

- لكن معظم الشاعرات العظيمات حقاً قتلن أنفسهن، ولهذا دلالاته أيضاً.

- أعرف، وهذا هو ما نحاول تفاديه هنا، أليس كذلك؟ وصمها حتى بعد الموت.

- أجل، صحيح. إذن هل ستترك الشاهد فارغاً فحسب؟

- ربما، أجل. مجرد اسمها والتواريخ.

- ربما.

- إذن، فإن الفكرة الأصلية للقصيدة لا تزال سارية، رغم ذلك، بطريقة ما... دعني أرقد. دعني أرقد فحسب.

- تحت العشب، وقبة السماء.

سألني عبر الهاتف:

- هل تحلمين بها على الإطلاق؟

- أجل. هل تحلم بها أنت؟

- أجل، بشكلٍ غير مباشر، كما لو أننا في فصل الصيف، لكنه أبرد صيف على الإطلاق، أبرد من أي شتاء مررنا به. ما هي طبيعة أحلامك أنت؟

- حسناً، حلمتُ الليلة الماضية أنني في قرية لصيد الأسماك، إحدى الموانئ الثانوية في نيوفاوندلاند أو ما شابه. واضطرتُّ إلى الذهاب

إلى محل البقالة لشراء بعض اللحم، وعندما وصلتُ إلى هناك، وجدتُ الأرض ترابية، وكانت هناك حملان مستلقية في كل مكانٍ. لم تكن صغيرة وبيضاء كما في الكتاب المقدس، بل بدت رمادية داكنة، وكانت كبيرة بحجم الكلب السلوقي، إلا أنها كانت حملانًا. كان بعضها ميتًا، والبعض الآخر على قيد الحياة بالكاد. كان هناك رجلٌ بحوزته سكين يحاول ذبحهم، لكنه لم يعرف حقًا كيف يفعل ذلك. أخذ يقطع حافرًا، أو ذيلًا، أو ربما خطأً. لم يعرف ماذا يفعل. وقفتُ هناك أتأمل الحملان فحسب، ثم قال إنه سئم الأمر. بعدها قطع جزءًا واحدًا إضافيًا، وقال لا، بل إن السكين هي التي سئمت الأمر، كما لو كانت شيئًا على قيد الحياة تقريبًا، أو كما لو أنها لم تعد حادة فحسب، ولا يمكنها القطع كما يجب، لم أكن متأكدة.

قال نيك:

- ماذا يعني ذلك؟

قلت:

- لا أدري، يا كارل يونج.

لكنني كنتُ أعرف، كان متعلقًا بزيورخ.

قال نيك:

- أتعرفين؟ لديّ فكرة. لمَ لا نضع سطرًا موسيقيًا على شاهد قبرها،

من دون أي كلماتٍ على الإطلاق؟

تحدّثنا أنا ونيك عبر الهاتف فترة طويلة، بخصوص السطر الموسيقي الذي سننقشه على الشاهد، وطوال الوقت كنتُ أرغب في ذكر موضوع سويسرا، لكنني لم أعرف كيف أفعل ذلك. لأنني إذا أخبرته بأن ألف طلبت مني اصطحابها إلى سويسرا، سيكون ذلك بمثابة إخباره أنها لم

تثق به للقيام بذلك، أو أنه لم يفهمها، ولم أكن أريده أن يشعر بمثل تلك الأحاسيس، إذ إنه بات رجلاً وحيداً بالفعل. علاوة على ذلك، ما الهدف من ذكر موضوع سويسرا؟ كان عليّ أن أكتشف بنفسي ما إذا كنتُ الحمل، أم الجزار، أم السكين فحسب.

عندما كانت أُلّفي في الثانية عشرة من عمرها، تم اختيارها أخيراً لتلعب دور مريم في عرض كنيسةنا بمناسبة ميلاد المسيح. كانت فخورة، ومتوترة للغاية. ظلّت تضغط للحصول على دور مريم طوال سنوات: «هيا، لقد خلّق هذا الدور خصيصاً من أجلي!». لستُ متأكدة ما إذا كانت معلمتنا بمدرسة الأحد قد اقتنعت بذلك أخيراً -عذراء في العشرينيات من عمرها لا تتحدث كثيراً- أم أنها سئمت من تعرضها للمضايقات من أُلّف، لكنها منحتها الدور، وقالت:

- لا أريد مفاجآت غريبة فحسب، رجاء.

كانت أُلّف تدرك مسؤولياتها جيداً، وأن عليها أن تكون رزينة وحنونة وهادئة، على الرغم من أنها حملت على نحوٍ غير تقليدي من قِبَل قوة غير مرئية، وعليها الآن تربية المسيح، وكل هذا بالأجر الذي يجنيه نجارٌ. كنتُ في السادسة من العمر، وكان من المفترض أن أكون راعي غنم، منفية في أحد الصفوف الخلفية حيث سيقف جميع الأطفال الصغار بمناشف الأطباق على رؤوسهم أو أجنحة ملائكة مثبتة على ظهورهم. أخبرتُ والدتي بأنني أرفض أن أكون راعي غنم، وأني سأكون شقيقة مريم، وخالة الرضيع. أخبرتني والدتي بأن الطفل يسوع لم يكن لديه خالة في مغارة الميلاد، وأن ذلك شيء بلا معنى، فقلتُ:

- لكنني شقيقتها.

قالت والدتي:

- أعرف هذا، لكن في الحياة الواقعية فحسب.

توقفتُ عن الحديث للحظة، ثم واصلتُ الجدل قائلة:

- لكن هل كان هناك «رجال حكماء» وجمال عند مولد يسوع، من

دون وجود أي أقارب؟ هل هذا منطقي؟

قالت والدتي:

- أعلم هذا، لكن الكتاب المقدس يقول...

قلت لها:

- هذه المرة فقط، ألفي تحتاج إليّ. لديها طفلٌ جديدٌ، وأنا شقيقتها،

لذا سوف أذهب.

لم تكلف والدتي نفسها عناء الجدل معي. رتبتُ زبي الخاص بدوري كشقيقة وخالة، وكان عبارة عن ملاءة منقوشة بالزهور، وسرْتُ إلى التدريبات مع ألف التي استشعرتُ بعض الحرج بسببي، لكنها اعتادت ذلك منذ وقتٍ طويلٍ، وتنهدتُ بضجرٍ مرة واحدة فقط. اتصلتُ بمديرة العرض بوالدتي عدة مراتٍ للشكوى. أخبرتُ والدتي بأنها لا تستطيع إقناعي بالابتعاد عن جانب ألف، وأنني حشرتُ نفسي بينها وبين يوسف النجار، ورفضتُ التحرك، وأن الصبي الذي يلعب دور يوسف منزعجٌ للغاية بسبب ذلك. قالت إن يسوع ليس لديه خالة لحوحة، وأن هذا ليس مذكورًا في الكتاب المقدس، فقالت والدتي لمديرة العرض إنها لا تمتلك أي نصائح لتمنحها إياها. تمكّنتُ من لعب دور شقيقة شقيقي، وحاول

الجميع جاهدين تجاهلي، لكنني كنت على دراية بوجودي، والأهم من ذلك أن ألف أيضًا كانت على دراية بذلك، وقد لعبت دورَ مريم الرزينة على نحوٍ رائعٍ، إذ جلستُ بوداعةٍ وقداسةٍ، بينما هرعتُ أنا هنا وهناك للتأكد من أن الرضيع يتنفس، وأن المهد آمنٌ، والقش مرتبٌ، وأن يوسف لا يطلق السباب بصوتٍ مرتفعٍ، وكل الأشياء التي ستفعلها الخالة الطيبة عندما تنجب شقيقتها طفلًا.

كان علينا إحضار شجرة لعيد الميلاد. توجهنا أنا ونورا إلى ساحة انتظار سيارات «نوفربلز» على الجهة المقابلة للطريق من مكتبة «رانيميد» في شارع بلور ويست، واشترينا أكبر وأجمل شجرة في ساحة الانتظار. كانت الشجرة محاطة بأشرطة بلاستيكية مما جعلها نحيفة وسهلة الحمل، لكن الرجل الذي باعها لنا قال إنها ستنتفش حينما نزيل الأربطة. ربطها على سقف سيارتنا، وأطلق عليها لقب «إفرست الأشجار». عُدنا بالشجرة إلى المنزل، وسحبناها إلى الداخل من خلال باب والدتي الخلفي، فشغلتُ غرفة المعيشة بأكملها. عندما خلعنا الأشرطة المحيطة بها، ظَلَّت تزداد حجمًا أكثر وأكثر. تطايرت أوراقها الإبرية في كل مكانٍ، وكانت ضخمة للغاية، لكننا أحبينها. جلستُ والدتي في كرسيها المريح تحيك لي كنزة سوداء بفتحة رقبة عريضة، بينما حاولنا أنا ونورا رفع الشجرة في مكانها. شغَّلتُ نورا ألبوم كانييه ويست الجديد على جهاز الكمبيوتر المحمول خاصتها. سألتها والدتي عن اسم الألبوم، فقالت نورا: «خيالي الجميل المظلم الملتوي». غنَّت بعض كلمات الأغنية مع كانييه، فقالت والدتي:

- أنتِ لستِ وحشًا، يا عزيزتي.

قالت نورا:

- أعرف هذا، يا جدتي، شكرًا لك.

جلست والدتي في مقعدها المريح وهي منشغلة بالحياكة، وتومئ برأسها مع نغمات موسيقى كانييه.

أخذنا نحاول إيقاف الشجرة على منصّتها من دون أن تنقلب جانبًا. وقفّت نورا بتوازنٍ على ذراع الأريكة مرتدية قفازات جلدية، وهي تمسك بقمة الشجرة. أحاطت عنقها بخيوطٍ من أضواء زينة عيد الميلاد، جاهزة للتعليق، بينما استلقيتُ أنا على الأرض أحاول تثبيت تلك البراغي المعدنية في جذع الشجرة. جلست والدتي في مقعدها وظلّت تقول:

- إلى اليسار. إلى اليمين. الآن إلى اليسار. لا، إلى اليمين.

كان كانييه ويست يغني عمّا يحتاج إليه بشدة. لم نتمكن من ضبط وضع الشجرة، ثم ظننا أننا نجحنا.

قلت:

- اتركيها، يا نورا.

وتركتُها أنا أيضًا. بدأت الشجرة تسقط ناحية اليسار، وأمسكتها نورا قبل أن ترتطم بالبيانو. ضحكت والدتي، كان هناك دقيقتان على جبينها وذقنها، إذ كانت تخبز الفطائر في وقتٍ سابقٍ. استلقيتُ على الأرض مرة أخرى وأطلقتُ السباب، وأمسكتُ نورا قمة الشجرة بيديها المكسوة بالقفازات. قالت والدتي:

- إذا أرادت الشجرة أن تتكئ، فعلينا السماح لها بذلك.

قلت:

- ماذا؟ ندعها تتكئ على البيانو فحسب، ونتركها هكذا؟

قالت نورا:

- لا. هل رأيت من قبل أناسًا يدعون أشجارهم تتكئ على شيء؟ لم يحدث وأن رأيت ذلك.

ظللنا نحاول، ثم فكرنا أنه ربما يتعيّن علينا إحضار جبل وربط الشجرة بقضيب الستارة. يمكننا إخفاء الجبل، وجعله يبدو مناسبًا لعيد الميلاد بصورة أفضل.

قالت نورا:

- آه، جبل عيد الميلاد، تقليد عائلي جديد لآل ريزين.

قالت والدتي:

- إنها شجرة ضخمة حقًا، أليس كذلك؟

قلت:

- لنحاول مرة أخيرة.

عملنا بجِدٍّ كي نجعلها تنتصب قائمة بذاتها، من دون جبلٍ. قلتُ لنورا:

- تراجعِي الآن.

ابتعدنا عن الشجرة بتمهل، وظلّت هناك واقفة بمفردها. يا للسعادة. نجحنا في القيام بشيء طبيعي. كان السقف مرتفعًا للغاية، إلا أن قمة الشجرة لامسته. تنفّسنا الصعداء. تأمّلناها لفترة، ثم قلت:

- حسنًا، أعتقد أن كل شيء على ما يرام.

قالت والدتي:

- لتتناول بعض النبيذ.

فتحّت زجاجة، وذهبنا إلى طاولة غرفة الطعام، حيث جلسنا وشربنا نخب نجاحنا. رفعنا كؤوسنا عاليًا، وحتى نورا تناولت بعض النبيذ. قلنا بعض الأشياء عن عيد الميلاد، وعن أنفسنا، مثل «في نخبنا». تهدّلت أكتافنا، وشعرنا بالفخر. غطتنا إبر الصنوبر، وعبقت الغرفة برائحة طيبة للغاية. نظرت والدتي إلى الشجرة. كنّا أنا ونورا نوليها ظهرنا، ونحتسي النبيذ. ثم صرخت والدتي، فالتفتنا أنا ونورا بحركة بطيئة، وتعالى صوت كانييه مرة أخرى. راقبنا الشجرة وهي تقع ببطءٍ في البداية، كما لو أصابتها أزمة قلبية في مكانٍ عامٍّ ولم تكن ترغب في حدوث ذلك، لكنه وقع بالفعل. ثم تزايدت سرعتها، وبينما هي تسقط في اتجاه الباب، أطاحت بأشياء في طريقها: لوحة لولدين يلعبان وسط برك المياه، وجهاز التلفزيون، والكتب الموجودة على سطح البيانو، وتمثال لفتاة خجولة ترتدي فستانًا، وكوب قهوة فارغ تقريبًا، ونبات ضخّم. أنمت الشجرة سقوطها، واستلقت ساكنة على الأرض.

قالت والدتي:

- يا إلهي.

قالت نورا:

- لنعد أفراد المجموعة.

شربنا نخب أنفسنا مرة أخرى، وضحكنا بشدة، ولم تستطع والدتي التوقف عن الضحك. بعد ذلك عدنا أنا ونورا لمساعدة رفيقتنا التي

سقطت، وجعلناها تقف أخيراً في غرفة المعيشة من دون حبلٍ.

أتى كلوديو للزيارة. وقف على الشرفة الأمامية وقد تساقط الثلج على كتفيه وقبعته، محتضناً هداياه المغلفة بصورة مثالية. ظننتُ أنني سأرى ألف خلفه، تنفض حذاءها ذا الرقبة الطويلة، وعيناها الخضراوان الكبيرتان تلتمعان. سحب من معطفه زجاجة من النبيذ الإيطالي. جلسنا في غرفة معيشة والدتي، بجوار البيانو. تعزف والدتي عليه الترانيم، وتكدّست فوقه الكثير من كتب البيانو القديمة الخاصة بألف في سنواتها الأولى.

وضع كلوديو الهدايا تحت الشجرة، وناول والدتي كيساً، قال:

- هذه رسائل تعزية من بعض زملاء ألف، ومن المعجبين. يا إلهي،
يا لها من شجرة ضخمة.

قالت نورا وهي تعد المائدة:

- قد ترغب في البقاء بعيداً عنها.

تذوقنا نبيذ كلوديو الإيطالي، وشربنا نخب عيد الميلاد، ونخب مولد
مخلص صغير (نحن في انتظاره)، ونخب العائلة، ونخب ألفريدا.

قالت والدتي:

- حسناً، دعونا نجلس.

سألنا كلوديو عن أحوالنا، فأخبرنا أننا بخير. سألناه عن حاله هو،
فقال إنه لا يزال في حالة من الصدمة. كان يعتقد حقاً أن الموسيقى ستنقذ
حياتها. قالت والدتي:

- حسناً، ربما أنقذتها بالفعل طالما كانت على قيد الحياة.

أخبرنا أن رجلاً يُدعى ياب زلدنشوس حلَّ محل ألفريدا في الجولة.

قال كلوديو:

- إنه لا يقارن بألفريدا فون ريزين، لكن أعتقد أنه أبلى جيداً، بالنظر إلى المهلة القصيرة المتاحة. لاحظ النقاد بعض التقلبات الإيقاعية في عزفه، ونوعاً من عدم الانتظام، لكن لا بأس في ذلك؛ كان ياب يعزف وهو متأثرٌ بإرهاقه من السفر. سررتُ بنعي ألفريدا في صحيفة «الجارديان»، أعجبني لأنه يدور حول ما يميز عزفها، ولونه ودفؤه، وليس فقط المعتاد بخصوص دقتها وانضباطها. كان نعي صحيفة «بيلد» جيداً جداً هو الآخر، وجميلاً، وكذلك صحيفة «لو موند». أزعجني أن بقية الصحف ضخّمت من شأن مشاكلها الصحية، إذ لا يجب أن يكون النعي مثل عنوان أي قصة أخرى مثيرة من العناوين الرئيسية. هل رأيتموهم؟

أصدرت والدتي صوتاً ينم عن الاستهزاء، وقالت:

- لا، لم أقرأهم. اعتدتُ قراءة مثل تلك الأشياء في الماضي، لكنني لم أعد أفعل.

قلت:

- لقد قرأتهم، وأنت على حقّ.

ساد صمتٌ ثقيلٌ في الغرفة. حدقنا إلى الشجرة بعض الوقت، ثم قال

كلوديو:

- يجب أن أخبركم أنه من بين الهدايا تسجيل فيديو لآخر تدريب

لألفريدا.

أخبرنا أن ألفريدا قدّمت أفضل أداء في حياتها ذلك اليوم، وأنها تفوقت على نفسها، كما لو لم يكن هناك أي حاجز مادي بينها وبين

البيانو، بحيث يمكنها التعبير عن مشاعرها كما تشاء. وعقب انتهائها، وقفت الأوركسترا وصفقت لها لمدة خمس دقائق. دفنت ألفريدا وجهها بين كفيها وبكت، ثم بكى نصف الموسيقيين أيضاً، كما أخذ كلوديو يبكي الآن هو الآخر وهو يحكي لنا ذلك. شكرناه على إخبارنا بالحكاية، وعلى الفيديو، ووعدناه بأننا سنشاهده. عانقناه جميعاً عند الباب الأمامي، حيث أمسك بالدرابزين، رافضاً الرحيل.

قال:

- أنا آسف. كل تلك السنوات ...

أحضرنا له مناديل ورقية، فتوقف عن البكاء، ثم شرع يبكي ثانية. أخيراً، ترك الدرابزين، وودعنا بعضنا. راودني شعورٌ بأننا لن نراه مرة أخرى أبداً. تذكرتُ حكاية اكتشافه لألف، وهي جالسة بالخارج في الممر الخلفي وراء قاعة الحفل الموسيقي، مرتدية فستانها الأسود الطويل وسترة الجيش، بينما كانت تدخن وتسحق سيجارتها في الأسفلت وهي في السابعة عشرة من عمرها.

قالت نورا:

- دعونا لا نتناول بهجة مصطنعة في عيد الميلاد هذا.

كما لو كانت البهجة طبقاً ما. قلت:

- سنتناول القليل منها.

تذكرتُ ألف وهي تضرب رأسها بجدار الحمام ذلك اليوم في عيد الميلاد حينما كنا صغاراً، قالت:

- لا أستطيع القيام بذلك.

وصل نيك في وقت متأخرٍ من ليلة الخميس. بدا ناحلاً. احتفلنا بعيد الميلاد مبكراً، كي يتمكن ويل وصديقه الجديدة زوي من قضاء بعض الوقت مع أسرتهما في منتجع بالمكسيك، وحتى يتمكن نيك من قضاء الوقت مع أسرته في مونتريال. اعتادت زوي التنقل في كل مكان مع الأكورديون خاصتها. عزفت لنا بعض الأغاني الحزينة، لكنها كانت مثيرة للضحك في ذات الوقت. الأكورديون هو أفضل آلة للمناسبات الحزينة، لأنه حزينٌ وجميلٌ وبطيءٌ، ومضحكٌ في الوقت نفسه. كان لديها وشمٌ جديدٌ، ذكّرني بالوشم الذي أحاول محوه. كنتُ قد نسيتُه، إذ صار الآن مجرد لطخة مزرقّة على كتفي، مثل كدمة خفيفة. خلال العشاء، تحدثنا عن الأسرار. أخبرتُ الجميع كيف حفظتُ ألف أسراري؛ كانت تشبه القبو. نظر إليّ الجميع حينها، كأنهم يقولون «أوه، حقاً؟ أسرار مثل ماذا؟».

في أثناء تناول الحلوى، قصّت والدتي علينا حكاية، وقالت إن لديها سرّاً هي الأخرى، يجدر بها أن نخبرنا إياه. شعرنا جميعاً بالاهتمام، خاصة أنا. سألتها:

- هل ستخبريني من يكون والدي الحقيقي؟

قالت:

- أجل، صحيحٌ. لا، الأمر يتعلّق بكتاب. عندما كانت شقيقتي تينا في التاسعة عشرة من عمرها، كانت تقرأ رواية «لمن تفرع الأجراس». النقطة ذات يومٍ كي ألقي نظرة، فقالت: «لا، لا يمكنك قراءة هذا الكتاب، إنه ليس لك»، لذا وضعته جانباً.

سألتها نورا:

- كم كان عمرك؟

قالت والدتي:

- في الخامسة عشرة، مثلك. لذا في أحد الأيام، غضبتُ من تينا بشدة لسببٍ سخيفٍ، لا أدري لماذا. لم تكن موجودة في المنزل ذلك اليوم، ورأيتُ كتابها مُلقًى على فراشها، فأخذته، وقرأتُ الكتاب اللعين كله دفعة واحدة.

قال ويل:

- يا إلهي، لقد أثبت لها موقفك بالفعل.

قالت والدتي:

- لم أخبرها قط، لكن لكم أشعروني ذلك بالرضا، كما أشعروني بالخيب!

سألها نيك:

- ماذا كان رأيك في الكتاب، إذن؟

قالت والدتي:

- أوه، لقد أحببته! لكنني اعتقدت أن الجنس كان محض حماقة. ألقىتُ نظرة خاطفة على نورا، التي رسمتُ على وجهها تعبيرًا مضحكًا، وقلت:

- حسنًا، لقد كنتُ في الخامسة عشرة فحسب.

ابتسمنا، وتناولنا الحلوى.

سألتها:

- هل تتمنين لو أنكِ أخبرتها بذلك؟

قالت والدتي:

- ها! أتساءل عن هذا.

غادر ويل وزوي في وقتٍ مبكرٍ من صباح ذلك اليوم متوجهين إلى مكسيكو سيتي، وتوجه نيك إلى مونتريال. تواصلت نورا من خلال سكايب مع أندرس، الذي عاد إلى ستوكهولم لقضاء فترة العطلة. كنتُ أقرأ في غرفة معيشة والدتي، كتابًا قدّمه إليّ ويل في عيد الميلاد، عنوانه «دفاتر السجن». وضعت على الأرض، ونهضتُ لإجراء مكالمة مع جولي في وينيبج. أصدرتُ والدتي أصواتًا غريبة. استلقت على الأريكة بالقرب من الشجرة، وبدأتُ تنفّسها مختلفًا. كانت أنفاسها ضحلة، وأخذت تزفر من فمها مثل رياضي بعد التمرين؛ كانت تحتضر. اتصلتُ بسيارة إسعافٍ، وتوجهنا إلى المستشفى. في النهاية، أنقذوا حياتها مرة أخرى، بالضرب على صدرها وحقنها بالنيتروجلسرين ومواد كيميائية أخرى قوية، اندفعت في أوردتها المتمردة وخفت عن قلبها المرهق.

قالت للمسعفين:

- يا إلهي! هذه الكيماويات تكفي لحفظ معلبات والدتك!
جعلها أحدهم تكرر قولها مرتين، كي يتمكن من إخبار أصدقائه.

بدا ذلك مألوفاً لي، النقلات في غرفة الطوارئ، لكن حالتها كانت متعلقة بالقلب، ولم تكن حالة عقلية، لذا لم يكن هناك أي توبيخ من طاقم العاملين، ولا ممرضة نفسية تشعر بالتفوق الأخلاقي تسألها: «لَمْ لا تحسنين السلوك؟». حضرت نورا إلى المستشفى، وجلسنا على جانبي والدتي. استلقْتُ خلف ستارة بنية، موصولة بالآلات والمحاليل، وقد راحت في النوم. عندما استيقظت، قالت:

– حسناً، هذا ترحيبٌ رائعٌ بعشية عيد الميلاد!

أخبرتنا بأنها حلمت بأميليا إيرهارت.

سألتها نورا:

– الطيارة؟ ماذا عنها؟ هل حللت لغز اختفائها في حلمكِ؟ سنصير مشهورين حينها.

قالت والدتي إن رجلاً أخبرها في حلمها أن أميليا إيرهارت هي الشخص المفقود المفضل لديه. بكت لبضع ثوانٍ فقط، وهمست أنها آسفة لوجودها هنا في عيد الميلاد، تماماً مثلما اعتذرت ألف لعمي فرانك لوجودها في قسم الأمراض النفسية. أمسكتنا يديها، وقلنا لها إن هذا لا يهم، ولا أحد يكثر لذلك. أخبرتها نورا أننا سنحتفل مع الأوكرانيين بدلاً من ذلك، في وقتٍ ما في يناير.

جاءت إيمي، جارتنا، ومعها سلة من الطعام، والنبذ، ومناديل من القماش، وأطباق خزفية جميلة، وأدوات مائدة فضية. تناولنا عشاء ليلة الميلاد في قسم الطوارئ، وكل شيء مرصوص فوق بطن والدتي. كانت بمثابة طاولتنا، لطالما كانت طاولتنا. أزالنا نورا قناع الأكسجين الخاص

بوالدتي بعناية للحظة، كي تتمكن من تناول رشفة من مشروبها. سمحت الممرضة برشفة واحدة، بمناسبة عيد الميلاد، لكن والدتي تناولت رشفتين كبيرتين. تناولنا الشمبانيا في الأكواب البلاستيكية المخصصة للعينات، وشربنا مرة أخرى نخب فكرة شاردة عن أنفسنا، ونخب الممرضة المتساهلة التي جاءت وابتسمت لنا، ونخب ألف، ووالدي، وخالتي تينا، وابنة خالتي ليني. أنشدنا «أتساءل وأنا أتجول»، أغنية عيد الميلاد المفضلة لدى والدتي. بقينا أنا ونورا حتى وقت متأخر، إلى أن استغرقت والدتي في النوم، ثم عدنا إلى المنزل. وقفتُ في شرفة الطابق الثاني وسط ظلمة الليل، وراقبتُ الثلوج تتساقط داخل الخندق.

ذهبتُ لزيارة والدتي في المستشفى في اليوم التالي. كانت قد كَوَّنت صداقاتٍ بالفعل، وشرعت تروي حكاياتٍ مسلية من وراء ستارها البنية، ليسمعها رفاقها من المرضى، وعلى ما يبدو فقد قام بابا نويل بجولته أيضًا. دومًا ما تحتضر والدتي على الأقل مرة واحدة في كل عام. لقد عملتُ في كثير من غرف الطوارئ مثل فنانٍ فكاهي في جولة فنية، ما بين بويرتو فالارتا، والقاهرة، ووينيبيج، وتوسان، وتورونتو.

قالت:

- أزيلِي كلَّ الأشياء من على ذلك المقعد، واجلسي جوارِي.
وضعتُ روايتها البوليسية على صدرها بعناية مقلوبة للأسفل،
ومفتوحة كي لا تفقد مكانها، قالت:
- هناك شيءٌ أريد إخبارك به.
أمسكتُ بيدي، كانت يدها دافئة، وقبضتها قوية، مثل تينا.

قلتُ:

- أعرف بالفعل أنك تحبيني، وأنني أجلب لك الكثير من السعادة.

قالت:

- لا، أود أن أخبرك شيئاً آخر.

كان يوم عيد الميلاد. اتصلتُ بجولي، وقلتُ:

- عيد ميلاد سعيد.

قالت:

- عيد ميلاد سعيد لك أيضاً.

كانت هذه هي المرة الأولى في حياتنا التي نصبح فيها بمفردنا في يوم عيد الميلاد. قلنا «حقاً؟ هل هذا حقيقي؟»، وقد كان حقيقياً بالفعل؛ كان طفلاً مع طليقها، والدهما، بينما ويل مع أسرة صديقه في المكسيك، ونورا عند دان، الذي عاد أخيراً من بورنيو، وكانت والدتي في المستشفى. سألتني:

- هل نتناول الشراب معاً على الهاتف؟

قلت:

- كي نعاني من آثاره الضارة؟

كنتُ أقتبس مقولة معلمتنا القديمة في مدرسة الأحد، السيدة سكال. كانت تصلي، خاصة من أجلي أنا وجولي، كي نشوب إلى رشدنا ونتوقف عن العبث مع الأولاد الفرنسيين وسط الشجيرات. لم نستطع التوقف عن ذلك، كان الأمر ممتعاً للغاية، لم نستطع التوقف! أخبرتنا معلمتنا القديمة

في مدرسة الأحد أنها تحبنا، لكن الرب يحبنا أكثر، فقلنا لها أن تبذل جهداً أكبر. أخبرتنا أن النساء الخاطئات يزينن أجسادهن، وليس أرواحهن، فسألتهما جولي:

- هل علينا أن نسير عرايا إذن؟

عندما غادرتُ الغرفة كي تجلب مناديل ورقية، هربنا أنا وجولي من سلم الطوارئ المخصص للحرائق. كانت آخر درجة على السلم لا تزال بارتفاع طابقين عن الأرض، واضطررنا إلى القفز باقي المسافة إلى الأسفل. أحببنا الطريقة التي شعرنا بها بالألم أسفل أقدامنا بعد ذلك. جلست كلُّ منَّا في غرفة معيشتها، ونحن نشرب السكوتش، ونتحدث، وتسمع إحدانا الأخرى. قلت:

- في نخب هذا العرض الشامل بأكمله.

قالت جولي:

- أجل، في نخب هذه الأرجوحة الحمقاء التي تدور بنا.

رفعنا كأسينا، وقرعناهما بهاتفينا، وقلْتُ:

- أنت أقوى شخص أعرفه.

لم أخبرها أنني أعتقد أنها تمتلك ما يلزم لقتل نفسها. كنت أحاول إعادة تشكيل معتقداتي، وتغيير مقياسي للنجاح.

سألتهني:

- هل كل شيء لا يُطاق؟

قلت:

- لا. ما الذي نفعله الآن في هذه اللحظة؟

قالت:

- حسنًا، هذا صحيح.

سألته:

- ذكريني مرة أخرى، عيد ميلاد من اليوم؟

قالت:

- ذلك الفتى الشبيه بالهيبير.

قلت:

- يبدو أننا لم ندعَ إلى حفلته هذا العام.

اتفقنا على أننا لم نكن لنذهب على أي حال، وأنَّ علينا أن نتحول إلى اليهودية.

سألته:

- أذكرين ذلك الرجل الذي يقف خارج متجر «7-إلفن» في شارع

كوريدون؟

قلت:

- آلان.

(كان آلان عازف تشيلو بارعًا فيما مضى، على وشك أن يصير أعجوبة، وكان سيذهب للدراسة في مدرسة جوليارد، ثم ارتطمت رأسه بلوحة قيادة سيارته عندما اصطدم بشاحنة أسمنت على الجليد. صار يقف بمفرده الآن خارج متجر «7-إلفن» في شارع كوريدون، يطلب من الناس قطع النقد الصغيرة بتهذيبٍ شديدٍ. لا يزال وسيماً، يبدو خاوياً من الداخل إلى حدٍّ ما، لكنَّ عينيه لامعتان للغاية، بياضهما ناصعٌ، ورزقتهما زاهية، كالجزر اليونانية. يغمغم بالكلمات، ويبدو أحياناً أنه يضحك على كل شيء، كما

لو أن أحدهم أقام له حفلًا مفاجئًا للتو. لا نعرف من يتولّى العناية به).

قالت جولي:

- حلمتُ أنني أقمتُ معه علاقة، وعرضتُ أن أكون صديقه وأصطحبه معي إلى المنزل وأتولّى رعايته، لكنه لم يرغب في ذلك. كان لطيفًا للغاية، وحاول ألا يجرح مشاعري. أراني بثوره من آثار أوتار التشيلو التي لن تزول أبدًا، وسألني عمّا إذا كان يمكنه استعارة زوج من القفازات الدافئة. كان هذا هو كل ما يريده.

سألته:

- هل أحسستِ بالرفض؟

قالت:

- أجل، إلى حدّ ما. أردتُ أن أمشّط له شعره أيضًا، فقد كان متشابكًا للغاية، كما أردتُ أن أحمله.

تحدثنا أنا وجولي لساعات وساعات، طوال الليل، حتى يوم الصناديق، وسعدنا حقًا لانقضاء عيد الميلاد. صار لدينا حينها شيء نشرب نخبه بالفعل.

٣ مايو ٢٠١١

عزيزتي ألف،

أخبرتني خالتي تينا في إحدى المرات أنني سأسير في الطريق ذات يوم وأشعر بخفة مفاجئة تعتريني، كما لو أنني أستطيع مواصلة السير إلى الأبد، قوة سحرية من نوع ما، وسيعني هذا أنه قد غُفر لي. أتمنى لو أنني اصطحبتكِ إلى زيورخ، أنا آسفة. قالت خالتي تينا أنني سأطير يومًا ما، من دون أن أدرك ذلك حتى.

هل أخبرتك بشأن المستشفى ووالدتنا؟ أعتقد أنني فعلت. إنها بخير مرة أخرى الآن، لفترة من الوقت. مررتُ بلحظة محرجة في المستشفى، لم أخبر أحداً عنها. في لحظة ما في غرفة الطوارئ، قبضتُ والدتي على يدي - أنت تعرفين كيف تفعل ذلك، وكيف أن ذلك مؤلمٌ في الواقع، كما لو أنها زعيمة مافيا تتظاهر بالطف - وقالت إن لديها ما تخبرني به. ظننتُ قطعاً أنه سيكون ما تخبرنا به دوماً وهي تحتضر في الطوارئ: إنها تحبني، وأني جلبتُ لها الكثير من السعادة، وما إلى ذلك. لكن بدلاً من ذلك، همستُ لي أن عليَّ التوقف عن السكر والاتصال بالمستشفى في وينبيج. أخبرتني أنها تتبعت أنشطتي - كل تلك السنوات التي قضتها في قراءة روايات الجريمة أنت ثمارها أخيراً - وأدركتُ أنني كنتُ أذهب في وقت مبكرٍ من المساء إلى «وينو تاون»، أو أيّاً كان الاسم الذي يُطلق على منطقة محلات بيع الخمور هنا، وأشتري لنفسني كيساً من زجاجات الخمر، ثم أعود إلى المنزل وأتناول الشراب بمفردي، وأستمع إلى أغاني نيل يونج التي تذكّرني بك، حتى أدخل نفسي في نوبة من الحزن والغضب، وأنصل بعد ذلك بالمستشفى في وينبيج لسؤالهم عمّا إذا كان بوسعي التحدث إليك، ثم أظاهر بعدم التصديق عندما يخبرونني أنك لست هناك.

قبضتُ على يدي بشدة طوال الوقت، وثبتتُ عينيها على عيني كي لا أتمكن من الهرب، فأحسستُ بالخجل الشديد، والضعف، والغباء، والجنون. شرعتُ في البكاء، والإيماء برأسي قائلة إنني أعرف، وإن عليَّ التوقف، وإنني آسفة للغاية، بكيث وبكيث، لم تكن تعرف ما قلته للمستشفى بالفعل، بل كانت تعرف فقط أنني أتصل بهم بانتظام، لأنها كانت تفتح فواتير الهاتف، وترى جميع الأرقام التي من مانيتوبا - هذه هي مشكلة

العيش مع والدتك، يا ألف، وهي مشكلة لن تواجهيها أبداً- ثم ربطتُ كل التفاصيل ببعضها. سألتني عمّا إذا كنتُ أحاول مطاردة المستشفى كالأشباح، وظننتُ أن هذه طريقة مشوقة لوصف الأمر، فأخبرتها أنني لا أعرف ما أفعله، وأن الأمر لا يهم، وأنني آسفة، وسأتوقف عن ذلك. ثم على الرغم من أنها هي التي كانت تحتضر، وموصولة بكابلات وأسلاك وأشياء مختلفة، إلا أنها جذبتني في حضنها الهائل وهددتني كرضيع من وضعها الأفقي في فراشها الأبيض الصغير، وانحنيتُ فوقها نوعاً ما وأنا أبكي، بينما ظلتُ حقييتي تنزلق من فوق كتفي. أحاطتني بذراعيها، وتظاهرتُ بأنها أنتِ، ووالدنا، وليني، وحتى دان، وكل الأشخاص الذين فقدتهم عبر الطريق. ثم همستُ لي بأشياء عن الحب، وعن اللطف، والتفاؤل، والقوة، وعنك، وعن أسرتنا.

أخبرتني كيف يمكننا جميعاً أن نقاتل بقوة، لكن كيف يمكننا أيضاً الاعتراف بالهزيمة والتوقف عن القتال، وتسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية. سألتها عمّا يجب أن أفعله حينما لا تكون الأشياء بمسمياتها الحقيقية، فأخبرتني أنه في بعض الأحيان، توجد في الحياة أشياء من هذا القبيل، أشياء ليست بمسمياتها الحقيقية، وأنه بوسعنا تركها على هذا النحو. قلتُ لها لكنني كاتبة، ومن الصعب بالنسبة إليّ ترك هذه الأشياء غير محددة على ذلك النحو، فقالت إنها تفهم الأمر، وإنها هي الأخرى تحب أن تُحل الألغاز، يعلم الرب ذلك، وتحب أن تعبر الكلمات عن المشاعر. فقرتُ على روايتها البوليسية الراقدة على صدرها، تحمي قلبها، والتي بطريقة ما لم تتزحزح ولو بوصة واحدة مع كل هذا العناق. أخبرتني أن الدماغ صُمم بحيث ينسى الأشياء مع استمرارنا في الحياة، وأن الذكريات

يجب أن تتلاشى وتتحلل، وحتى بشرتنا التي تحمينا بشدة في البداية، لأن عليها حماية أعضائنا، تترهل في نهاية المطاف، لأن أعضائنا ذاتها لم تعد في أفضل حالٍ هي الأخرى، وأن الحواف الحادة تصير ثلثة، وأن ألم التخلي عن الحزن مؤلماً كالحزن نفسه، أو أكثر إيلاًماً منه حتى، فهو يعني الوداع، ويعني الذهاب إلى روتردام في حين لم تكن تتوقع ذلك، من دون أن تكون لديك أي وسيلة لإبلاغ أي شخص أنك ستغيب فترة من الوقت. حسناً، سيسعدك أن تعرفي أنني توقفتُ عن الاتصال بالمستشفى. أذكرك تلك المرة التي ظننتُ فيها أنها ستكون فكرة رائعة حقاً لو أنني ذهبتُ إلى المدرسة وقد سحبتُ فوق وجهي بعضاً من جوارب والدتنا؟ وقد همستِ أنتِ لي بهدوءٍ وأنتِ في طريقكِ إلى الخروج من المنزل: «حاولي التحلي برباطة الجأش، أيتها الدوارة». ليست لديك فكرة كم أستحضر تلك الكلمات، وكان هذا في الأساس هو ما تحاول والدتنا أن تقولهُ لي في المستشفى.

لقد تعافت، كما تفعل دومًا، وللاحتفال بهذا، ذهبنا أنا وهي ونورا في رحلة إلى نيويورك لزيارة ويل وزوي. اصطحبانا لمشاهدة عرض في متحف الفن الحديث، حيث كان الجميع عراة ويتألمون. كان عرضاً لمارينا أبراموفيتش، وكان حديث المدينة. احتشد جميع زوار المعرض في غرفة واحدة، متسائلين عن كيفية الوصول إلى الغرفة الأخرى. لم يكن هناك سوى مدخلٍ ضيقٍ علينا المرور من خلاله، لكن كان هناك شخصان عاريان يتألمان، يقفان وجهًا إلى وجه في المدخل، لذا تعيَّن علينا جميعاً تناوب الدور في الاحتكاك بهما في أثناء مرورنا. لم يتحرك أحدٌ للمرور عبر الباب. كنَّا أنا وولداي قد فقدنا أثر والدتي وهي تتجول في أرجاء

المكان وتأمل الأشياء. أخذنا نتهامس حول بعض المشاهير الذين رأيناهم في الغرفة، وعرفتهم نورا جميعاً، إذ كانوا مصممين أزياء وممثلين، لكن لم يعرفهم بقيتنا. بدأ جميع الأشخاص المحتشدين يتململون، ويهمهمون وهم يرغبون في الانتقال إلى الغرفة المجاورة، إلا أنهم أخذوا يتساءلون عن كيفية المرور عبر الباب، ثم قال ويل: «مرحى، ها هي جدتي»، فنظرنا نحو المدخل الضيق حيث يقف الرجل والمرأة العاريان في مواجهة بعضهما. لم يكن أحدٌ قد مرَّ من خلاله حتى الآن، ثم شاهدنا والدتي بسرورها الأرجواني من القطيفة المضلعة وسترتها الواقية، وهي تقف عند مدخل الباب ويدها على خصرها. قالت نورا: «يا إلهي، إنها تمرُّ». عبرت من خلال الباب جانبياً، واحتكت بطنها بقضيب الرجل. ثم توقفت في المنتصف، هناك بين الرجل والمرأة، ولم تسرع في العبور على الإطلاق، بل استمتعت بالتجربة. نظرت إلى وجه الرجل العاري، في عينيه مباشرة. بدا وجهه خالياً من التعبير، فابتسمت له وأومأت برأسها وهي تحييه بأدب، ثم استدارت بطريقة ما في تلك المساحة الضيقة كي تواجه المرأة، ونظرت في عينيها هي الأخرى وابتسمت وأومأت، ثم وجَّهت ابتسامة إلى جميع المحتشدين في الغرفة الأولى، كما لو أنها تقول حسناً، أيها الناس، دعونا نذهب، اتبعوني. عبرت من الباب، وتبعها الباقون الواحد تلو الآخر.

في آخر يومٍ لنا في مدينة نيويورك، اصطحبتنا والدتي جميعاً لتناول شريحة لحم عملاقة في مكان ما في بروكلين، بالقرب من المكان الذي يسكن فيه ويل وزوي. كان الوقت متأخراً، وقد حلَّ الظلام عندما غادرنا مطعم اللحوم. سرنا نغني في الشوارع، وحاولنا تذكر كل الأشياء التي ستفعلها الأم لطفلها الباكي في أغنية «الطائر المحاكي». تذكرناهم جميعاً في

النهاية. شبَّكنا أنا ونورا ووالدتي أذرعنا ببعض، وغنَّت نورا أغنية لفريق «ذا ويبيز»، اسمها «شخص محبوب». حمل ويل زوي على ظهره، وسار مسرعاً على الرصيف، بينما ضحكْتُ هي وتقافزت حتى فقدت فردة شبشبها، لذا اضطررنا إلى العودة وتتبع خطواتنا في الظلام، وأعتقد أن هذا هو معنى الحياة. أحياناً، تخترق صافرات القطار صمت اليوم. تلك النعمات المتناثرة التي تذكرني بضربك الحزين على لوحة المفاتيح حينما كنت أخطئ في واجبي خلال تقليب الصفحات: «انتظري حتى نهاية المازورة، أيتها الحمقاء!». هناك شريط قطار بالقرب من منزلنا، يمكنني أحياناً سماع العجلات وهي تهتز فوق القضبان، وأحياناً أشعر بالأرض وهي تهتز. أجد ذلك مريحاً، كما لو أنه نوعٌ من التحية، أو الوداع الملائم. ستحبِّد والدتنا ذلك، أنت تعرفين كم تهتم بأمر التحية والوداع.

أتذكرين جارتنا السيدة شتاينجارت (التي أطلقتَ عليها لقب سنيورا جيوفانا)، وهي تقف في منتصف غرفة معيشتنا، ويدها على خصرها، وكيف حدَّقت بغضبٍ إلى والدتنا لأنها اعتبرتْها ربة منزل غير ماهرة بما يكفي، وإلى والدنا لأنها اعتبرته لا يتمتع بما يكفي من الرجولة، وإلينا نحن نظراً لكوننا لسنا أطفالاً طبيعيين كما ينبغي لنا، وكيف كنَّا جميعاً مستقلين أو جالسين غارقين في مقاعدنا وكتبنا في أيدينا، غافلين تماماً عن توبيخها، حتى سارت بغضبٍ عائدة إلى منزلها وهي تقول إننا أشخاصٌ يهتمون بالكلمات فحسب، وأنا أسرة مؤلفة من الكلمات، وسيتعين علينا أن نفتح أعيننا في يومٍ من الأيام؟ نفتحها على ماذا؟ منزل فوضوي؟ أذكر الآن كلماتها الأخيرة قبل رحيلها: «لن تغذي الكلمات القطة!». جعلتني كلماتها أتوقف للحظة، وربما أكون قد رفعت عيني عن كتابي، لكن كان ذلك بسبب الكلمات التي

صاغت بها تهديدها فحسب، وليس التهديد نفسه.

أذكرين كيف كانت والدتنا تسبح متجاوزة منطقة الأمواج المضطربة، وتطفو حتى تنجرف إلى مكانٍ لا يعلمه سوى الرب وحده، في البحر العميق المتقلب، حتى يلاحظها شخصٌ ما ويأتي لإنقاذها؟ ماذا تعني الكلمات، يا ألفت؟ كل شيء، أم لا شيء؟ لا يمكن أن تعني شيئاً ما فحسب. بالمناسبة، أخيراً تفقدتُ كتب محبوبك، د. هـ. لورانس. أذكرين عندما أعربت عن صدمتك من أنني لم أقرأ «عشيق الليدي تشاترلي»؟ يا إلهي، كم أنت متعجرفة في بعض الأحيان. حسناً، لقد قرأتها. أجل، كان الجنس رائعاً. كنت سأجد وقتاً في جدول أعمالي المزدهم بين التطريز وترتيب الزهور كي أزور ذلك الرجل في الغابة أنا أيضاً. أتساءل عمّا إذا كانت فريدا قد كتبت تلك الأجزاء للورانس، ثم تعيّن عليها إطباق فمها والتزام الصمت، في حين حظى هو بكل الشهرة، وعاش في فنادق فاخرة في فرنسا مع فتيات الهيبيز. على أي حال، أنت محقة بشأن الفقرة الأولى، أريد أن يعرضها شخصٌ ما على واجهة منزلي بأحرف ضخمة من الضوء والظلال، وسيكون من الأفضل أن تومض الأحرف بعض الشيء. كما أنها سوف تختفي تحت أشعة الشمس بالطبع، مثلما يفعل كل شيء، وسيكون ذلك مثاليّاً.

«إن عصرنا في الأساس هو عصرٌ مفاجئ، لذا نأبى التعامل معه على نحوٍ مأساوي. لقد وقعت الجائحة، وها نحن بين الانقراض، بدأنا في بناء مساكن جديدة صغيرة، وصارت لدينا آمالٌ جديدة صغيرة. إنه عملٌ شاق في الواقع، ولا يوجد الآن طريقٌ ممهدٌ نحو المستقبل، لكننا ندور، وندفع فوق العراقيل. علينا أن نعيش، مهما انطبقت السماوات».

شكراً لحفاظك على كل أسراري. أذكرين ذلك الموكب الذي قدته

في منتصف الليل عبر البرية، للوصول إلى معسكر الأولاد؟ أنت الآن الحافظ الرسمي لأسراري.

كنت تعلمين أنني لا أتمتع بالشجاعة الكافية لاصطحبك إلى زيورخ، أليس كذلك؟ كما كنت تعلمين أنك لن تأتي إلى تورونتو.

أحبك، يا ألف. عليّ الذهاب الآن. لا بُدَّ أن أقلم الشجيرات التي اجتاحت حديقتنا الخلفية. لقد نمت بكثافة لدرجة أنه صار علينا الانزلاق على بطوننا عبر هذه الغابة رافعين بنادقنا فوق رؤوسنا، كي نتمكن من الوصول إلى الممر الخلفي، وهذا ليس بالأمر السهل الذي يمكن لوالدتنا القيام به كل يوم قبل الذهاب إلى جولاتها في كوين ويست.

أريفاديتشي، ألف الجميلة!

ملحوظة: لقد قابلتُ رجلاً. نتمشَّى في أرجاء المدينة، وتبادل الحديث، ونلعب مباريات كرة الطاولة في وقتٍ متأخرٍ من الليل. كان أول شيء أخبرني به عن نفسه هو أنه علق فجأة وسط تبادل لإطلاق النار في نيوجيرسي. تعرَّض لإطلاق النار، في المكان والوقت الخطأ، وتوفي في سيارة الإسعاف، ثم عاد إلى الحياة في المستشفى، لكنه تُوفي ثانية، وفي النهاية عاد إلى الحياة لبقى، لكن كان عليه أن يظل عاريًا في الثلج لأسبوعين، حتى يصير قلبه جاهزًا للعمل مرة أخرى. يتمشى معي إلى المنزل كل ليلة أربعاء، ويقبِّلني على وجعتي مرتين قبل أن يتمنى لي ليلة سعيدة، لأنه كان يعيش في باريس. أحيانًا عندما نلعب التنس، يقفز فوق الشبكة ويركض نحوي كي يقبِّلني أيضًا. وهو يعاني طنين الأذن، مما يعني أن هناك أزيزًا في رأسه على الدوام. كما يعاني أيضًا تضخمًا في الشريان الأورطي. يسجل أحلامه على جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به

أول شيء في الصباح، مع وضع وسادة على رأسه. إنه فصل الربيع الآن، على ما أعتقد، ووالدتنا عند الموقد، تحرك صلصة ضلوع اللحم، وتقرأ رواية ريموند تشاندلر، «الوداع الطويل». اتصلت جولي، فوضعتها على مكبر الصوت كي تتمكن والدتنا أيضًا من سماعها. سألتها عن الأحوال، فأخبرتنا أن وينيبج خضراء للغاية الآن، المقاطعة بأكملها: «مانيتوبا كلها خضراء على نحوٍ لا يصدق، أتذكرين؟ وهل تذكرين الضوء، والدفع؟». قلتُ لها «أجل، يمكنني تخيل ذلك تقريبًا». قالت «تقريبًا؟». قلت «لا، يمكنني ذلك، يمكنني رؤيته». قالت «كيف أنها خضراء إلى هذا الحد؟». كان عليّ التفكير لثانية أو اثنتين، أغمضتُ عيني، قلتُ «أجل، أعرف ذلك، إنها خضرة مذهلة، أتذكرها الآن».

كنّا على متن طائرة، أنا وألف، نختار ما بين الدجاج واللحم. نسينا أن نطلب مسبقًا وجبة نباتية لألف. أخذنا نحتمي النيذ من زجاجات صغيرة، ونقرأ الأبراج من عددٍ قديمٍ من مجلة «بيبول». كانت ترتدي معطفًا مخططًا واقبيًا من المطر، أعتقد أنه كان من تصميم مارك جيكوبز، مع حذاء أسود برقبة طويلة. ارتديتُ أنا حذاء برقبة مرتفعة ماركة «كونفرس»، وبونشو جديدًا. عندما ارتديتُ البونشو كي أريه لألف، قالت «وداعًا للأذرع». خلعت كلُّ منّا المعطف والبونشو في أثناء الرحلة، ووضعناهما في الخزانة العلوية. كانت ألف ترتدي سروالًا من الجينز بلون «دم الثور» تبعًا للملصق المرفق به، وبدت حمرة داكنة للغاية. كان سروالي أنا أزرق عاديًا، وباهتًا بعض الشيء. أحسّت ألف بالإرهاق، فوضعت رأسها على كتفي، ونامت معظم الرحلة، بينما انشغلتُ أنا بالقراءة، لم أقرأ بالفعل،

لكنني حاولتُ ذلك. شعرتُ بالارتياح لوجود رأس ألف على كتفي. كانت ثقيلة، وفاحت من شعرها رائحة الجريب فروت. كان الكتاب الذي أخذت أقرأه، أو أحاول قراءته، منشورًا ذاتيًا، عن أصل سلالة عائلة روسية من منطقة أوديسا. عندما هبطت الطائرة، صرنا في زيورخ.

استيقظت ألف وابتسمت ابتسامة ناعسة، فقلت إننا وصلنا. سألتني عن الكتاب، فأخبرتني أنه مفصلٌ ومليء بأسماء تعرف هي فقط كيفية نطقها. ركبنا سيارة أجرة إلى فندقنا، ووضعنا أغراضنا في الغرفة، ثم تمشينا إلى مطعمٍ لطيفٍ حقًا على بُعد عدة بنايات سكنية، رَشَحَتِ المرأة في مكتب الاستقبال في الفندق. قبل أن ندخل المطعم، التقطنا صورًا لبعضنا ونحن نقف على جسرٍ، ثم طلبنا من رجلٍ مرَّ بنا أن يلتقط لنا صورة معًا، فالتقط ثلاثًا أو أربعًا، فقط للتأكد من أننا سنحصل على واحدة جيدة، وسألنا عمَّا إذا كنَّا هنا في عطلة، فأخبرناه بأننا شقيقتان.

قَصَّت عليَّ ألف في أثناء العشاء حكاياتٍ عن رحلاتها إلى أوروبا عندما كانت شابة معجزة، وقصصتُ عليها بعض حكاياتي. في البداية ضحكنا كثيرًا، بعضيَّة إلى حدٍّ ما، لكننا استرخينا في النهاية، وضحكنا عندما كانت الحكايات مضحكة فحسب. أكلتُ كثيرًا، وظللتُ أطلب أطباقًا جديدة. لم تأكل ألف الكثير، لكنها أَحَبَّت الخبز الدافئ الذي ظلُّوا يجلبونه لنا في سلة خشبية. أتذكر أنني اعتذرت لها لاتساخ أظافري، فقالت:

- لا توجد مشكلة، وعلاوة على ذلك، فقد كنت تعملين بجدٍّ مؤخرًا.

عندما قالت ذلك، بكيتُ قليلاً، فأتت من مكانها، وعانقتني . نظر إلينا بعض الأشخاص الذين في المطعم ونحن نتعانق، وابتسموا. طلبتُ حلوى وقهوة أخرى، حتى أخبرونا في النهاية أن المطعم سيغلق. تمشينا ببطء عائدين إلى الفندق، وقد شبكنا ذراعينا ببعض كفتاتين محافظتين، ثم استلقينا معاً على الفراش الأبيض الضخم. سألتها:

- أتذكرين عندما شاهدنا ذلك الكسوف الشمسي؟ لقد أتيتِ إلى مدرستي وأخرجتني من حصة جانر للغة الإنجليزية كي أشاهده معك. قالت:

- أجل. كان الجو بارداً للغاية.
- حسناً، كنّا في فصل الشتاء، مستلقين على الثلج وسط أحد الحقول. قالت:

- كنّا نرتدي خوذات اللحام، أليس كذلك؟
- بلى، من أين حصلتِ عليهم؟
- لا أتذكر، أعتقد من شاب كنت أعرفه في المدينة. سألتها:

- ألم يكن رائعاً؟
قالت:

- الكسوف الشمسي؟ كان رائعاً بالفعل. مسار الكسوف الكلي. قلت:

- ماذا؟ أهذا هو ما يُطلق عليه؟
- أجل، أتذكرين ما قاله والدنا؟

خففت صوتها، وواصلت قائلة:

- مرَّ مسار الكسوف الكلي على مانيتوبا في وقتٍ مبكرٍ من بعد الظهيرة.

- أوه، صحيح، تقصدين عندما قالها بتلك النبرة الجادة للغاية؟ ضحكتُ قائلة:

- كان مضحكًا للغاية.

قلت:

- يفترض ألا يقع التالي قبل ألف وخمسمائة عام، أو شيء من هذا القبيل.

قالت ألف:

- أعتقد أنه سيفوتني إذن.

- أجل، أعتقد أنه سيفوتني أيضًا.

قالت ألف:

- ربما لا، من يدري؟

كانت هناك كوة أعلى فراشنا، تمكنا من رؤية النجوم. أمسكتُ ألفي بيدي، ووضعتها على قلبها، فشعرتُ بنبضه القوي الثابت. كان لدينا موعدٌ مبكرٌ في صباح اليوم التالي، وعلّقتُ ألف إن الأمر يشبه الزواج، أو الخضوع لامتحان.

قالت:

- إنه لمن العذاب أن نضطر إلى الانتظار طوال اليوم. لننهض فحسب، ونستحم، ونذهب.

النهاية

شكر وتقدير

فيما يتعلق بكتابة «كل أحزاني الضئيلة»، أنا في غاية الامتنان لوكيلتي، سارة تشالفانت، ولمحررتي لويز دينيس. إنهما محترفتان حقًا، يا إلهي! إلى أقدم أصدقائي، كارول لوين، وجاك باسكير، اللذين يواصلان إنقاذ حياتي، واللذين سيجدا هذا «الشكر» سخيًا. (وإلى وينيبج، مدينة أحلامي). إلى أصدقائي في تورونتو، لترحيبهم بي. وإلى آل راذرفورد، لعناقهم الجماعي! إلى أبنائي (أنتم جميعًا تعرفون أنفسكم، لا يوجد غيركم، فلا تقلقوا. ها!) الذين لا يفتنون يصارحونني بأخطائي. وإلى والدتي، إلفيرا تيفز، المفعمة بالحياة! إلى إريك راذرفورد لقلمه الرصاص الحاد، وقراءاته التي لا حصر لها، وخاصة لحبه الأعمى. وأخيرًا، إلى شقيقتي الجميلة، مارجوري آن تيفز: عبقرية كوميدية، مُفتقدة بشدة.

كتبت ميريّام تيفز خمس روايات سابقة: «صيف حظي المذهل»، و«فتى حسن التربية»، و«لطف معقد» (الفائزة بجائزة الحاكم العام الأدبية للرواية لعام ٢٠٠٤)، و«آل تراوتمان الطائرون» (الفائزة بجائزة أمانة روجرز للكتاب للرواية)، و«إيرما فوث»، علاوة على عملٍ واحدٍ غير روائي، «اخفض سقف طموحك: حياة». وهي تعيش في تورونتو.

